د. يعقوب يوسف الغنيم



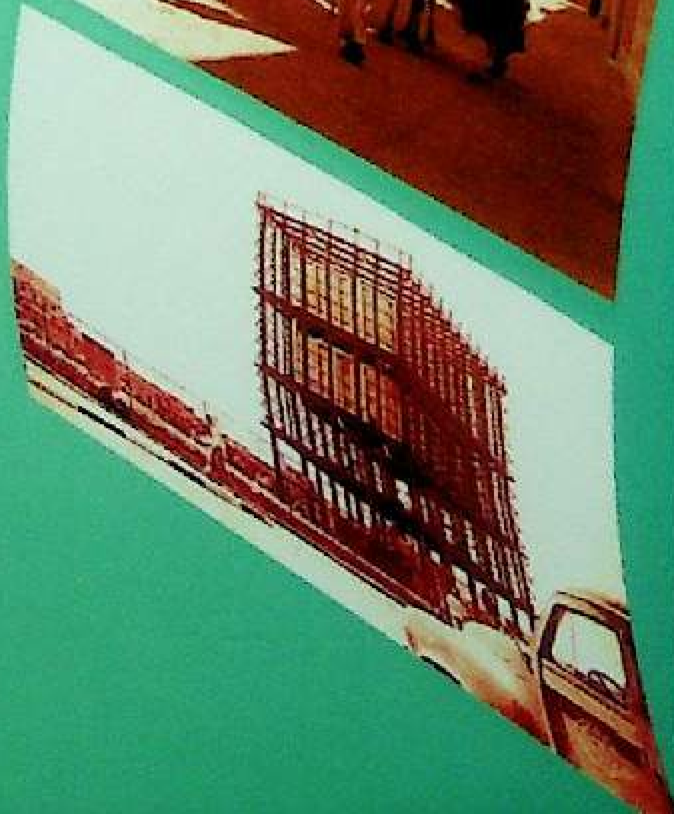


الأزمنة والأمكنة









المجلد السادس

مقـــالات

الأزمنــــة والأمكنــــة

عــام ٢٠١١

الفجر.. مجلة نادي الخريجين ١٩٥٥م(١)

هذه مجلة من المجلات التي كانت تصدر في الكويت في بضع سنوات من بداية خمسينيات القرن الماضي، وهي مجلة الفجر لسان حال نادي الخريجين كان محرروها المسؤولون عنها هم الأساتذة: خالد الخرافي، وعبدالوهاب محمد، ومرزوق خالد الغنيم. والعدد الذي أتحدث عنه صادر في يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر أبريل لسنة ١٩٥٥م، علمًا بأن صدورها كان أسبوعيًا، وهذا هو العدد الثالث عشر للسنة الأولى. ولقد أهداني المجلة ضمن عدد آخر من المجلات التي أشرت إليها فيما سبق الأستاذ عبدالرحمن الخرجي صاحب مكتبة الطلبة التي طالما استفاد طلاب العلم والمثقفون في الكويت مما كانت تعرضه من كتب ومجلات ودوريات، ولا يسعني هنا إلا أن أكرر له الشكر على كل ما قدمه لي فأفادني وأفاد القراء الذين كتبت لهم عن بعض محتويات تلك المجلات التي أهداها إليّ وإليهم.

ما إن بدأت طلائع الخريجين من أبناء الكويت تعود إلى الوطن حاملة نتائج جهودها الدراسية متخرجة في عدد من الجامعات في مصر وبريطانيا بصفتهما أول قطرين ترسل دائرة معارف الكويت أبناءها إليهما من أجل تلقي العلم؛ ما إن تم ذلك حتى صار هؤلاء الأبناء يلتقون مع بعضهم ويتحدثون في شؤون بلادهم، ويتمنون أن يقوموا بشيء يهدف إلى استنهاض البلاد والناس، وتطوير الأعمال بصورة عامة، ونشر الوعي بين المواطنين، وبالجملة فإنهم يريدون أن يعطوا الكويت

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١١/١/٥م.

خلاصة دراستهم التي أمضوا السنين من أجلها، ومن أولى من الوطن بنتائج ذلك الجهد المضني الذي بذلوه طوال السنين في التحصيل العلمي؟

كانوا يلتقون في أماكن متعددة إلى أن طرأت فكرة إنشاء نادٍ مستقل لهم، يلتقون فيه، ويحققون من خلاله ما كان يدور بينهم من نقاش، وتطلعات لصالح الوطن.

ومجلة الفجر أو جريدة الفجر، نشرة صحفية راقية كان يصدرها نادي الخريجين، وهي لسانه المعبر عنه، وكان أعضاؤه حريصين على استمرار هذه النشرة بالقوة التي بدأت بها، لأنها تمثل رسالة يقدمها خريجو الجامعات من الكويتيين لأهلهم في وطنهم، بقصد التوعية للمواطنين، وتبيان مواضع الخطأ والصواب للأجهزة الحكومية العاملة وقت صدورها، وعلى الرغم من أن النادي لم يكن يتمتع بإمكانات مادية عالية، إلا أنه أنجز مشروعًا مهمًا ومفيدًا من يطلع عليه الآن يجد فيه عملًا جادًا له أهداف نبيلة. هذا المشروع هو: الفجر، ولقد اختار نادي الخريجين هذا الاسم بعناية فائقة فهو معبر عن آمال أعضائه الذين كانوا ينتظرون لوطنهم فجرًا جديدًا مشرقًا وكان أن بزغ هذا الفجر في اليوم التاسع عشر من شهر يونيو لسنة ١٩٦١م عندما وقّع الشيخ عبدالله السالم الصباح مع البريطاني وليام لوس ممثل بريطانيا في الخليج على الرسائل المتبادلة بينهما بشأن إلغاء الاتفاق التعاقدي الذي تم بين الكويت وبريطانيا في سنة ١٨٩٩م.

كان هذا الفجر الذي جاء في وقته بعد توقف «الفجر» عن الصدور، من أهم ما كانت تتوقعه في مقالات كثيرة وتدعو إليه في كل عدد صدر من أعدادها.

اطلع الناس على أول عدد صدر من «الفجر» في اليوم الثاني من شهر فبراير لسنة ١٩٥٥م، وجاء تحت اسمها أنها: «لسان نادي الخريجين»، وقد ذكر هذا العدد منها أن هيئة التحرير تتكون من: خالد علي الخرافي، وعبدالوهاب محمد، ومرزوق

خالد الغنيم، وليس هناك من شك في أن هؤلاء الفرسان الثلاثة كانوا يعتمدون على صف آخر من أعضاء النادي يقف وراءهم يدعم جهودهم، ويعطي الفجر ما تحتاج إليه.

توقفت المجلة (الجريدة) بعد أن صدر منها سبعة عشر عددًا، واستمر احتجابها ثلاث سنوات، ثم صدر العدد الثامن عشر في اليوم العاشر من شهر مارس لسنة ١٩٥٨م، وقد برر هذا العدد سبب تعطيلها (المجلة) طوال ثلاث سنوات وهو أن قانون المطبوعات يشترط أن يكون رئيس التحرير متفرغًا لهذا العمل في الوقت الذي لا يستطيع فيه هذا النادي أن يطلب من أحد أعضائه أن يترك أعماله ويتفرغ لرئاسة التحرير. وقد وجدوا أخيرًا رجلًا من بينهم يمكن أن يطلق عليه لقب (متفرغ) لأنه غير مرتبط بعمل حكومي، وهذا هو معيار التفرغ في ذلك الوقت، فكان رئيس التحرير المنتظر هو السيد يعقوب الحميضي.

وصف الأستاذ الدكتور محمد حسن عبدالله هذه المجلة (الجريدة) في كتابه: «الحركة الأدبية والفكرية في الكويت ج١ ص٢١٥ فقال عنها: «ومجلة الفجر تعتبر أول مجلة حاولت إدخال الفن الصحفي على أسسه العصرية، بأسلوب الصحيفة اليومية، في اهتمامها بالخبر وطريقة صياغتها له، وتصدير المقال الافتتاحي، واختيار الخطوط والصور في الصفحات، ومحاولة تغطية أخبار المنطقة العربية كلها، والاهتمام بالسياسة العالمية، ولم يكن ذلك على حساب اهتماماتها المحلية، فصفحة «الرياضة»، وصفحة «المرأة» من الأركان الثابتة في كافة أعدادها تقريبًا.

وقد شهدت هذه المجلة من أحداث الفترة على المستوى المحلي والعربي والعالمي ما جعلها تتخذ موقفًا واضحًا إلى جانب التقدم والقومية والحرية، بأسلوب لا يخلو من الحدة أحيانًا».

خالد علي الخرافي من مواليد سنة ١٩٣٠م، تخرج في كلية التجارة بمصر سنة ١٩٥٢م، اشتغل بالتدريس ثم صار محاسبًا في دائرة معارف الكويت، ثم مساعدًا لمدير الشؤون الإدارية والمالية في سنة ١٩٥٧م، وانتقل إلى العمل في وزارة الخارجية وزيرًا مفوضًا في الفترة من سنة ١٩٦٢م، إلى سنة ١٩٦٣م ثم انتقل بعدها إلى وزارة التجارة وصار وكيلًا لها في اليوم الأول من شهر يوليو لسنة ١٩٦٣م حتى سنة ١٩٥٧م. وكان من ناشطي نادي الخريجين، ولذا فقد اختاره زملاؤه في اللجنة التي كانت بمثابة رئاسة تحرير الفجر.

أما عبدالوهاب محمد فقد كان من الطلاب البارزين حين كان طالبًا في القاهرة، وكان يكتب مقالات مهمة في مجلة البعثة، وهو أحد أعضاء هيئة تحرير الفجر وكان آخر منصب تولاه هو: وكيل وزارة المالية، وقد بقي فيه مدة طويلة، كان يشارك خلالها في المؤتمرات والندوات، ويستقبل الوفود الاقتصادية التي تزور الكويت ويحاورهم.

وكان مرزوق خالد الغنيم في ذلك الوقت من الشباب النشط في عدة ميادين، ولذا فإن اختياره للهيئة المشرفة على إصدار الفجر كان اختيارًا موفقًا. كان السيد مرزوق الغنيم عضوًا في المجلس البلدي سنة ١٩٦٠م و ١٩٦٤م، وتم اختياره ليكون القنصل الفخري للنمسا في الكويت في اليوم الثلاثين من شهر أغسطس لسنة ١٩٦٦م.

ويعقوب يوسف الحميضي، خريج كلية التجارة وهو اقتصادي وسياسي مرموق، وكان عضوًا في المجلس التأسيسي سنة ١٩٦٢م، وعضوًا في الفصل التشريعي الأول لمجلس الأمة سنة ١٩٦٣م، وكان عضوًا في نادي الخريجين عند نشأته، وصار رئيسًا لتحرير الفجر في صدورها الثاني كما بينا قبل قليل.

هذه الكوكبة الطيبة من أبناء الكويت الذين نشطوا في مجال العمل الاجتماعي والصحافي، كانت بدايتهم تدل على المناصب التي سوف يصلون إليها إذ كانت أعمالهم في النادي بعد تخرجهم إعلانًا عن استعدادهم لحمل المسؤولية خدمة للوطن وأهله.

اطلعني الأستاذ صالح خالد المسباح الذي اطلقت عليه لقب ذاكرة الكويت وهو كذلك حقًا على عدد من الفجر إضافة إلى ما كان عندي وهو العدد الرابع عشر، كما أطلعني على القانون الأساسي الذي أنشئ بموجبه نادي الخريجين. وهو يبين لنا تاريخ قيام النادي لأنه قد وضع على غلافه الذي ذكر أنه نادي الخريجين في الكويت المؤسس في اليوم الثالث والعشرين من شهر ديسمبر لسنة ١٩٥٢م. وهذا القانون مطبوع في مطبعة الكويت التي ذكر على الغلاف عن عنوانها أنها تقع خلف البرق، ويقصد به الموقع الذي كانت فيه شركة السلكي واللاسلكي قبل أن يتم تأميمها، وتصبح مؤسسة حكومية خالصة، وموقعها ضمن حوطة كبيرة بين المبنى القديم لبلدية الكويت والمبنى الجديد للبلدية.

يحدد القانون شروط العضوية في النادي، ويذكر أهدافه التي هي:

١ - القيام بالنشاط الاجتماعي والثقافي والرياضي الذي يؤهله له استعداد أعضائه.

٢ - تهيئة المكان والجو الملائم لاجتماع فئة ذات مستوى خاص من الثقافة.

ثم يذكر القانون مالية النادي وهيئته العامة، ثم هيئته الإدارية، وواجبات الهيئة العامة، وكيف تجتمع، وواجبات كل من الهيئة الإدارية والإداريين، وفي الجملة فإن هذا القانون يشتمل على اثنتي عشرة مادة بفروعها، وفي آخره أسماء الأعضاء المؤسسين، وهم:

- عبدالعزيز حسين. - خليفة خالد الغنيم.

- يعقوب الحمد. - مرزوق خالد الغنيم.

- عبدالرزاق خالد الزيد. - عبدالوهاب محمد عبدالوهاب.

- عبدالعزيز البحر. - يوسف إبراهيم الغانم.

- عبدالله يوسف الغانم. - خالد علي الخرافي.

إذن فقد باشر النادي عمله منذ أوائل سنة ١٩٥٤ م لأن القانون مؤرخ في الأيام الأخيرة من سنة ١٩٥٣م.

والآن بعد هذا العرض المسهب عن النادي، وقانونه ومؤسسيه، وعن «الفجر» فإننا نعود إلى استعراض العددين الذين أشرنا إليهما، وذكرنا أن أحدهما وهو (الثالث عشر) مهدى من الأخ الأستاذ عبدالرحمن الخرجي، والثاني وهو (الرابع عشر) وهو معارٌ من الأخ الأستاذ صالح المسباح.

أولًا: العدد الثالث عشر من الفجر:

صدر هذا العدد في اليوم السابع والعشرين من شهر أبريل لسنة ١٩٥٥م، وكان يوم (أربعاء) وهو اليوم الذي تصدر فيه الجريدة كل أسبوع.

تحت اسم الجريدة وبياناتها نجد مقالًا عنوانه «المدرسة والمجتمع» وقد جاء تحت عنوان عام متكرر هو: «أضواء الفجر»، وقد كتب هذا المقال الدكتور جابر عمر وهو غير كويتي ولكنه كان معروفًا في الكويت لكثرة زياراته لها ومشاركاته في بعض الأنشطة الثقافية، وعلى الصفحة نفسها وتحت عنوان: «رأينا» حديث عن النزعة الفردية وآثارها، وعلى الصفحة الثانية حديث عن قانون الموظفين الجديد ينتقد وجود بعض النواقص فيه، ويحث على مراعاة مصالح جميع الموظفين بحيث

لا يتضرر أحد منهم عند التطبيق، وفي وسط الصفحة تتحدث الجريدة عن السينمات المنتشرة في المنازل لعدم وجود شركة رسمية لعرض الأشرطة السينمائية، وقد ذكرت (الفجر) أن ما يحدث مضر بالسلوك العام لسوء الأنواع التي تعرض من هذه الأفلام وتطالب دائرة الشؤون الاجتماعية بأن تولي الأمر الأهمية التي يستحقها من حيث مراجعة كل ما يعرض قبل عرضه.

وعلى الصفحة الثالثة مقال عن مشروع المتحف الوطني الذي أقره مجلس معارف الكويت آنذاك، وفي المقال عدة ملاحظات تمنى كاتب المقال أن تلاحظها الدائرة المختصة عند البدء بإنشاء هذا المتحف، وفي وسط الصفحة إطار عن المياه العذبة في القرى.

أما الصفحة الرابعة فقد ضمت مقالًا هو الخامس من سلسلة مقالات عن النظام القانوني والقضائي في الكويت، وأما وسط الصفحة فتضمن التحذير من طغيان المادة على الأفراد بحيث تكون هي مقياس السيادة، بينما المقياس الصحيح هو الأخلاق والسلوك الحسن.

وفي الصفحة الرابعة مقال عن الحياة الاقتصادية في الكويت وهو بحث فائز بجائزة الفجر، وقد كتبته الآنسة سهام بدارو من مدرسة خديجة بنت خويلد، وفي الإطار المعتاد الذي نجده دائمًا في وسط كل صفحة نجد هنا أسئلة انتقادية مع إجاباتها التي هي من النوع نفسه.

وفي الصفحة السادسة: بريد القراء، وفيه ثلاث رسائل إحداها من مواطن ساكن في الهند يذكر أن مؤسسات أمريكية وبريطانية تعمل في الهند تريد إنشاء مصافٍ للنفط وأن هذا النفط يستورد من الكويت، فلماذا لا تقوم الكويت بهذا العمل على أرضها. وهذا هو ما تم بعد نشر هذه الرسالة بسنوات عدة. وكانت الرسالة الثانية من أهالي (النقرة) يشتكون من سوء وقلة المياه العذبة في السد الموجود هناك.

وأما الرسالة الثالثة فكانت من أحد المتضررين من قانون الوظائف الجديد الذي تحدثت عنه الجريدة فيما سبق. وفي الإطار المعتاد في وسط الصفحة عدة أخبار محلية لا فائدة من تكرار ذكرها هنا.

وكانت الصفحة السابعة مخصصة للرياضة، وقد كتبها خيري أبو الجبين. وينتهي هذا العدد «الثالث عشر» في الصفحة الثامنة بايراد نص اتفاقية جلب المياه من شط العرب، وهي كما جرت العادة من المشروعات الموؤودة التي طالما خدّرنا العراق بها دون أن ينفذها، والحمد لله أنه لم يقم بذلك لعدة أسباب يعرفها القارئ مما مر عليه من تاريخ العلاقة مع جار الشمال. إضافة إلى أن شط العرب قد أصبح الآن مالحًا لا جدوى من الحصول على مائه.

يبدو لنا أن الأعداد التي صدرت من «الفجر» كلها متشابهة، وذلك في الإخراج، والتبويب، وطريقة عرض الموضوعات، إضافة إلى ما تحتويه من النقد والتوجيه الذي تدل عليه روح متعلقة بالعروبة مدافعة عنها.

وهذا هو العدد الرابع عشر في الفجر، وهو مكون - كغيره - من ثماني صفحات، يبدأ في الصفحة الأولى بعنوان «أضواء الفجر» وعنوان فرعي هو: «الاتجاه الصحيح» وخلاصة ذلك ما ورد في آخر هذه الصفحة وهو: «هذه الغايات لن تتحقق بالطريقة التي نسير عليها الآن، بل لابد لتحقيقها من أمرين: ميثاق وطني عام تفصل فيه الغايات والأهداف والوسائل ثم منظمات شعبية تعمل متساندة متضامنة في سبيل المطالبة بدستور يكفل الحرية والأمن والضمان للمواطنين وبالحصول على هذين المطلبين نكون قد بدأنا مرحلة العمل الإيجابي المثمر للسير بهذا الوطن في طريق الحضارة والمدنية والتقدم».

وفي الإطار المعهود في وسط كل صفحة من صفحات الأعداد كلها وتحت عنوان عام هو: «رأينا» نجد عنوانًا جانبيًا هو: «هيبة الشعب» وفيه: «إن القوة المادية

وحدها ليست شيئًا في استقرار أي حكم أو سلطان إذا لم تناصرها قوة روحية تنبثق من ضمير الشعب»، وفي الصفحة الثانية تشكو «الفجر» من قانون الأندية والجمعيات، وتشكو من وضع بلدية الكويت التي تقلصت مسؤولياتها في تلك الأيام ولم يبق لها إلا أعمال النظافة.

وفي الصفحة الثالثة ما يلي:

١ - موضوع عن علاقات الكويت ببريطانيا.

٢ - انتقاد لبعض أعمال دائرة الكهرباء.

٣ - موضوع عن مؤتمر باندونغ.

وفي الصفحة الرابعة ثلاثة موضوعات على الشاكلة نفسها.

أما الصفحة الخامسة فهي صفحة بريد القراء وفيه بعض الشكاوى من أفراد منهم عدد من العمال المنتسبين لدائرة الأشغال العامة.

وفي الصفحة السادسة موضوعات رياضية من خيري أبو الجبين ثم قصة رمزية، فالأخبار المحلية، وهي تشبه أخبار العدد الثالث عشر من حيث عدم أهميتها التاريخية حاليًا. وفي الصفحة السابعة بحث عن «مشكلة المرأة الكويتية» وهو بحث فائز بجائزة «الفجر» كتبته مدرسة في مدرسة عائشة ترمز إلى اسمها بحرفي «ع.ع» وعلى الصفحة الثامنة وهي الأخيرة مقال كتبه درويش المقدادي. وفي داخل العدد مقال بعنوان: «الناس تُبنى كما تبنى المنازل» كتبه الدكتور أحمد زكي، وأظن أن هذا المقال منقول من صحيفة أخرى ولم يكتبه كاتبه خصيصًا لجريدة الفجر.. هذا مجرد ظن!!

هذه معلومات سريعة عن نادي الخريجين وعن جريدته «الفجر» واستعراض لعددين من هذه الجريدة. ولقد أغلق نادي الخريجين ضمن مذبحة الأندية التي

تمت في نهاية خمسينيات القرن الماضي. ولا يخفى أن هذا النادي قد عاد إلى الوجود بعد سنوات طويلة، ولم أجد داعيًا للكتابة عنه في وضعه الحاضر لانه موجود أمام أعيننا وأسماعنا ولم يلج باب التاريخ بعد ومن أراد أن يعرف شيئًا عنه فلن يبخل عليه المسؤولون في هذا النادي بأية معلومات يطلبها.

****

من وصايا الشعراء لأبنائهم[١]

تزخر كتب الأدب العربي، ودواوين الشعراء بعدد كبير من الوصايا التي يوصي بها الآباء أبناءهم، وقد تنوعت هذه الوصايا شعرًا ونثرًا، وكانت كل وصية منها معبرة عن صاحبها، وعن الذين وُجِّهت إليهم، وعن البيئة السائدة وقت الوصية. ولو أردنا أن نعرض أمثلة من النثر أو من الشعر لبعض ما ورد في الكتب الأدبية العربية لوجدنا ذلك من الصعوبة بمكان نظرًا لكثرة عدد الوصايا، وتنوع أغراضها. ولكننا لابد وأن نتطرق لبعض هذا الأمر فنقدم له نموذجين من النماذج البارزة في الشعر الفصيح، وفي الشعر الكويتي النبطي الذي لم يخلُ هو الآخر من مثل هذه الوصايا.

ولقد تعمدت أن اختار هنا قصيدتين، إحداهما قالها شاعرها باللغة الفصحى، والأخرى من قصائد النبط المعتادة عندنا. وتجنبت الاختيار مما ورد إلينا من الوصايا النثرية وذلك لأن وقع الوصية الشعرية في النفوس أقوى، وذلك بدليل ترديد الناس لهذا النوع من الشعر وحرصهم على حفظه.

وكان اختياري من شاعرين أحدهما قديم من مخضرمي الجاهلية والإسلام، وهو عَبْدة بن الطبيب، وهو صاحب القصيدة التي أنشدت بالفصحى، وأما الثاني فهو شاعر كويتي معاصر معروف له شعر نبطي جميل يحبه القراء ويحرصون على قراءته وحفظه، وهو الشاعر صقر النصافي وكانت له وصية شعرية لأبنائه نظمها على طريقته شعرًا نبطيًا وصاهم فيها بعدة وصايا.

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١١/١/١٢م.

الشاعر عبدة بن الطبيب من كبار شعراء العربية، له شهرته بين شعراء عصره، ولاتزال قصائده تنبض بالحياة حتى اليوم، لأنه كان شاعرًا فحلًا مجيدًا، عذب العبارة يخوض في أغراض الشعر كافة ويتفنن في صياغة قصائده حتى يجعل كل واحدة منها تحفة جميلة يحرص على سماعها محبو الشعر ورواته. واسم عبدة الأصلي: عبدة بن يزيد، وهو ينتمي إلى بني تميم، وكان – كما قلنا قبل قليل – مخضرمًا عاش الجاهلية حتى إذا جاء الإسلام: أسلم، ثم شارك في المعارك التي حدثت ضد دولة فارس بقيادة المثنى بن حارثة ثم النعمان بن مُقَرِّن، وله بيت شعر مشهور يرثي بن قيس بن عاصم المنقري التميمي ضمن قصيدة له، وهو قوله:

وما كان قيس هُلكه هلك واحدٍ

ولكنه بنيانُ قومٍ تهدما

ولقد حظي هذا البيت من الشعر بثناء وافر من العلماء ونقاد الشعر القدماء الذين اعتبروه بيتًا فريدًا من حيث معناه ومن حيث مبناه. يقول العالم اللغوي أبو عَمْرو بن العلاء: هذا البيت أرثى بيت قيل أي إنه أفضل بيت قيل في الرثاء. وأما ابن الأعرابي (محمد بن زياد) فقال: هو قائم بنفسه، ما له نظير في الجاهلية ولا الإسلام، وقال رجل لأحد الفصحاء العرب وهو خالد بن صفوان: كان عبدة بن الطبيب لا يحسن أن يهجو، فقال: لا تقل ذاك، فهو والله ما أبى من عيٍّ، ولكنه كان يترفع عن الهجاء، ويراه ضعة، كما يرى تركه مروءة وشرفًا. وخالد بن صفوان بقوله هذا يوضح لنا صورة شخصية هذا الشاعر الذي نال شهرة واسعة بشعره وبخلقه القويم حتى لقد طلب منه الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص قائد معركة القادسية التي اشترك فيها صاحبنا أن يقوم بإشعال الحماسة في نفوس المحاربين لأن القائد يعرف صدق الرجل ومقدرته.

كان عبدة بن الطبيب – إذن – شاعرًا يقر له بالتفوق في ميدان الشعر عدد كبير من العلماء ونقاد الشعر، وكان لفصاحته يقولون عنه إنه أفصح الناس لسانًا، وقد استشهد علماء النحو ببعض ما قاله، واستشهد المفسرون بأبيات له منها ما روي عن سعيد بن جبير أنه كان يقرأ «أكاد أخفيها»، وقد قالوا إن أخفيها على هذا الوجه بمعنى أظهرها واستشهدوا لهذا المعنى بقول ابن الطبيب في أبيات له يصف فيها ثورًا وحشيًا:

يخفي التُّرابَ بأظلافٍ ثمانيةٍ

في أربعٍ مسُّهنَّ الأرض تحليلُ

وكان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه معجبًا بشعره، وبخاصة ما به من جودة المعنى وحسن التقسيم، ومما كان يعجبه:

والمرءُ ساعٍ لأمرٍ ليس يدركُهُ

والعيشُ شحٌّ وإشفاقٌ وتأميلُ

وكان شعره زينة مجالس السمر، حيث تحلو المحاورة وقد ورد أن الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان سأل جلساءه يومًا: أي المناديل أفضل؟ فقال بعضهم: مناديل اليمن، كأنها أنوار الربيع، وقال آخر: مناديل مصر، فقال عبدالملك: ما صنعتم شيئًا. أفضل المناديل مناديل عبدة بن الطبيب في قوله من قصيدة له:

لما وردنا رفعنا ظِلَّ أرديةٍ

وفار باللحم للقوم المراجيلُ[1]

وردًا وأشقرَ لم ينهئهُ طابخُهُ

ما غيّر الغليُ منه فهو مأكول

ثمَّت قمنا إلى جُردٍ مُسوَّمةٍ

أعرافهنَّ لأيدينا مناديل

(١) المراجيل: القدور، جمع مرجل، الجرد: الخيل، الأعراف جمع عرف وهو الشعر في أعلى عنق الفرس.

هذا وللشاعر شعر كثير ولكنه متناثر بين الكتب لم يجمعه ديوان في السابق ولكن أحدهم جمع ما قدر على جمعه منه فطبعه تحت عنوان «شعر عبدة بن الطبيب» وأظن أن البحث سوف يأتي بعدد آخر من القصائد غير هذا الذي نجده في الكتاب المطبوع في سنة ١٩٧١ بعناية الدكتور يحيى الجبوري.

عُمِّر عبدة بن الطبيب عمرًا طويلًا، وفي آخر عمره ضَعُف، وتمكنت منه الأعراض التي تأتي الناس مع الشيخوخة، وضعف بصره، وأحس بقرب أجله، وفي حالته هذه استدعى إليه أبناءه ووجه إليهم النصيحة في قصيدة عُدّتْ من أحسن القصائد العربية التي قالها شاعر في النصح لبنيه.

وهذه القصيدة هي التي نعنيها في مقالنا هذا، وقد وردت كاملة في عدة مصادر، كما ورد عدد متناثر من أبياتها في مصادر أخرى. وقد بدأ قصيدته بقوله:

أبنيَّ إني قد كبرتُ ورابني
بصري، وفيَّ لمصلحٍ مستمتَعُ
فلئن هلكتُ لقد بنيتُ مساعيًا
تبقى لكم منها مآثرُ أربع

يقول: إن الكبر قد بدأ علي، وأثَّر في صحتي، وتأكدت من أن بصري لم يعد كما كان، ولكنيّ أستطيع أن أقدم النصح فعندي من الخبرة ما يفيد المستصلح الذي يريد أن يصلح ما يلم به من أمور دهره.

وأنا إن مت فقد تركت لكم ذكرًا طيبًا، وبنيت في حياتي أعمالًا أعتز بها، وهي تبقى لكم مآثر تفخرون بها وتذكرون أباكم عند استرجاعها، وهذه المآثر تتمثل في أربع أذكرهن لكم وهي: الذكر الحسن الذي يبقى للإنسان في حياته وبعد مماته، وأورثتكم الحسب الذي ينفعكم، وكانت لي أيام وقفت فيها مواقف مشهودة وبخاصة في حالة الحفيظة (الغضب)، ثم تركت لكم أموالًا وعطايا كثيرة تغنيكم عن مطامع النفوس.

ثم يدخل إلى النصح فيوصيهم بتقوى الله لأنه هو الذي يعطي من يشاء ويمنع الشيء عمن يشاء. ثم يوصيهم ببر الوالدين وطاعة أمرهما لأن الكبير إذا عصاه أهله ضاقت به الدنيا على اتساعها، ولم يدر ما يصنع.

ثم يقول لبنيه: دعو عنكم الضغينة، ولا تجعلوها من صفاتكم لأنها إذا فشت فيكم أفسدت حياتكم، ولا تلتفتوا إلى النمام الذي يأتيكم بصفته ناصحًا لكم، فإن وجوده بينكم سمٌّ ناقع يضركم جميعًا.

وهو يدفع عقاربه بينكم لكي يبعث بينكم الشقاق والحرب، إن في فؤاده نارًا يشعلها الحقد ولا يطفئها الماء المشوب بالعسل، ويقول لهم: لا تأمنوا لقوم لم ينشأوا في أحضان آبائهم ولم يتعودوا العادات الكريمة، وقد غطت عداوتهم على عقولهم فلا تُنتزع منهم الأحقاد، وهم يسهرون الليل في الدس والخديعة، فلا تثقوا عاجلًا بأحد حتى تتأكدوا من صدقه، فربما وضعتم حسن ظنكم في قوم هم يتمنون هلاككم.

ثم عاد إلى ذكر صفاته لأبنائه حتى يريهم أسلوبه في الحياة، ويدعوهم إلى التأسي به فيقول: إن ما قمت به طوال حياتي أمر تستطيعون أن تفخروا به، فقد اجتزت عقبات كثيرة، وجابهت أعداء أشداء، وكم وقفت من مواقف أعبر فيها عن رأيي وأجعل قومي يدركون صحته فينصاعون لما أقوله لهم.

ومع ذلك فإنني أعلم أن آخر المطاف بي هو الموضع الذي سوف أوضع فيه بعد موتي وهو: حفرة غبراء يحملني إليها النعش (شرجع)، ويضيف:

فبكى بناتي شجوهُنَّ وزوجتي
والأقربونَ إليَّ، ثم تَصَدَّعوا
وتركت في غبراء يُكرهُ وِردُها
تسفي عليَّ الريحُ حين أُوَدَّعُ

بعد ذلك: ابحثوا عن عميد لكم غيري، فالحوادث تخترم الناس، ولا يبقى عند أهلهم إلا ذكراهم. ومصير كل إنسان إلى الممات مهما سعى جاهدًا في جمع المال أو الحاجات التي يسره الحصول عليها، فإذا وافاه الأجل وهو قادم لا محاله - ذهب إلى سبيله وسكت السكوت الأبدي حتى إذا سلم عليه أصحابه وأهله لم يجب منهم أحدًا.

هذه قصيدة عبدة بن الطبيب، ويجد قارؤها قوة الشعر وإحساس الشاعر العميق بالموقف الذي هو فيه، يودع أبناءه وداعًا لا عودة بعده، وينصحهم بالمفيد من النصائح، ثم يعرض عليهم تجاربه وما مر به في حياته، مؤكدًا في الأخير أن الموت هو نهاية كل حي، وأنه غير جازع لذلك.

كم كنت أتمنى أن أقدم هذه القصيدة الرائعة كاملة هنا، ولكن المجال لا يتسع لذلك، وعلى كل فإن من أراد الرجوع إليها فهي في كتاب المفضليات للمفضل الضبي ورقمها هناك (٢٧)، وهي كذلك في كتاب «منتهى الطلب» لابن ميمون ج ٣ ص ٤٩.

هذا ما يتعلق بالشاعر الأول أما الشاعر الثاني الذي كان ينُشد شعره على النمط النبطي المعروف عندنا فهو الشاعر: صقر النصافي، واسمه الكامل: صقر بن مسلم بن زيد النصافي الشاعر الكويتي المبدع الذي اتخذ الشعر النبطي وسيلته للتعبير عن نفسه وعن مشاهداته ، وعن أفكاره، فأجاد إجادة كبيرة، وقدم ألوانًا جمة من الشعر، فقد كانت له القصيدة المفردة، وله المحاورة، وله الشعر الحماسي والغنائي، وله شعر في الحكم والوصايا، يشعر القارئ حين يقف على شعره أنه أمام شاعر له نظرة في الحياة يعبر عنها بهذا الشعر الجميل الذي يحمل صورة متكاملة عن حياة الشاعر وعن بيئته التي عاش فيها، ثم عن الظروف التي كانت تحيط به، وكذلك عن علاقاته بالناس وبخاصة منهم الشعراء الذين عاصروه فكانت بينه وبينهم محاورات كثيرة، وتبادل في القصائد ينم عن طبيعة علاقاته بهؤلاء وقد كانت تنم عن مودة سائدة، ووفاء مائل.

ولد الشاعر صقر النصافي في الكويت في سنة ١٨٧٨م تقريبًا وتوفي في سنة ١٩٤٨، واشتغل كغيره من الكويتيين في مجال الغوص، وله فيه قصائد كثيرة، وكان قد بدأ يقرض الشعر منذ بلغ العشرين من عمره، وبرز فيه منذ البداية حتى كون له علاقات طيبة مع عدد من الشعراء من معاصريه، منهم من الكويت الشاعر عبدالله الفصاب، وصارت له مساجلات شعرية ومراسلات متعددة معهم، واهتم بالمحاورة الشعرية المسماة (القلطة) فأبدع فيها وشارك الكثيرين نظم الشعر على منوالها، وعندما نستعرض ما وصل إلينا من أشعاره، نجد تلك الأشعار متنوعة الأغراض، سهلة التناول حتى لتكاد يُطلق عليها اسم السهل الممتنع، تناولت بعض قصائده ما يؤكد صلته بعدد من الشخصيات الكويتية، مثل قصيدته التي قالها في وداع الشيخ علي الخليفة الصباح الذي كان مسؤولًا عن الأمن العام في الكويت وتوفي في سنة ١٩٤٢، وكان الشيخ علي قد أصيب بمرض وتقرر أن ينتقل إلى الخارج من أجل العلاج:

الله لا يكثر عليك الشواميت
أهل الحسايد والقلوب المغلة
كم واحد يُوصف علي عود كبريت
سِرَّهْ ابراسه ميربه منك ذله
يظهر كلامه عند ربعه تخافيت
ويخاف يسمع هرجته من فطن له

وله في هذا المجال - أيضًا - قصيدة وجهها إلى الشيخ عبدالله السالم الصباح أمير الكويت الأسبق يقول فيها:

ياهل الموتر اللي منتوين إركبوني
جعل درب مشيتو به سماح نُويّه
لا وصلتم وجيتم قصرهم حولوني
طاب كيفي ولا لي بالمطاريش نيّه

ابن سالم حميد الفعل وافي الفنون

طيب الدين والدنيا بنفس سخيّه

حاكم كلّ ما يامر بدرب يمون

للمعادي ضديد وزَيْن بالرعيّه

وتلحظ في ديوانه كثرة مراسلاته ومحاوراته مع الشعراء الذين عاصروه، ولم يكتف بمراسلة الشعراء الكويتيين، بل تعداهم إلى محاورة عدد من شعراء الجزيرة العربية منهم الشاعر السعودي عبدالله بن عبدالرحمن اللويحان، الذي له مع صقر النصافي أكثر من محاورة، وكلها تدل على مدى العلاقة بين هذين الشاعرين.

ولو أردنا أن نتابع حديثنا عن هذا الشاعر المبدع فلن يتسع لنا المجال لأن الكثير من أشعاره نرى أن من حق القارئ أن يطلع عليه وأن يتمتع بما فيه من حسن عبارة ومن خيال وصدق في آن واحد، ولكننا نكتفي بما قدمناه حتى نفسح لنا موضعا للحديث عن قصيدته (الوصية) التي وعدنا بها.

القصيدة التي نعنيها هي التي وجهها صقر إلى أولاده، وهي من أبرز قصائده، بل هي من أبرز القصائد في الشعر النبطي الكويتي وبخاصة في هذا الغرض الذي صيغت من أجله.

هي وصية وصّى بها الأبناء حرصًا منه عليهم وعلى مستقبلهم، متمنيًا أن يكونوا في أحسن حال بعيدين عن المشكلات حريصين على التعاون فيما بينهم. وتتكون هذه القصيدة من واحد وثلاثين ومائة بيت، كلها في الحكم والأمثال، وفيها تحريضٌ على فعل الخير، وردعٌ عن فعل الشر، وإبعاد عن الباطل. وهي من حيث الشكل من النوع المروبع وهو الذي تتكون قصيدته من عدة فقرات كل فقرة مكونة من أربعة أشطار، ثلاثة منها على قافية واحدة والرابعة لها قافية مستقلة تتماثل مع رابع الأشطار في باقي أجزاء القصيدة.

وأولاد الشاعر الذي وجه إليهم القصيدة هم: مهلّي وعلي ومسلم، ولذا نراه يذكرهم بالاسم في بداية قصيدته التي جاء مطلعها كما يلي:

قال من وَصّى غْياله

وده إِلْهُمُ بالشكالة

خابر راعي الرزاله

بالمجالس تشْنَعْه

ثم يقول:

يا امهلي شوف اخوانك

شانهم من صوب شانك

عندما يزعل السانك

عنهم الغيظ ادفعه

وأنت يا علي افتكر

خلْ قولي لكْ ذِكِر

ربْعَة الطيب شكر

والردي لا تتبعه

يا مسلم وأنا أبوك

العرب لو صاحبوك

ما يسرك غير أخوك

كل ما يامر طَعْه

وغني عن الذكر أن المقصود بالعرب: الناس وهذا استعمال شائعٌ في اللهجة الكويتية.

وبعد أن ذكرهم بأسمائهم انطلق في قصيدته يوجه إليهم ما شاء من نصح، يطلب منهم الانتباه إلى أمور حياتهم وأن يبتعدوا عن التنازع، ويتجهوا إلى التصافي، وأن يجتهدوا في طاعة الله ورسوله، ثم يوصيهم بالجار، قائلًا إن الجار له حق عليكم، وإن وجدتموه لا يستقيم معكم فالأفضل لكم هو النزوح من جواره.

ثم ينصحهم بالاهتمام بالضيف، طالبًا منهم أن يجعلوه واحدًا منهم، وإن يعتنوا بحاجته إلى أن يصل إلى مربعه وأن يصبروا على كل ما يصدر منه فإنه إنسان عابر سوف لا يضرهم الصبر عليه. ونهاهم عن مخالطة الأحمق فإنه لا يفيدهم في شيء بل يضرهم ويجر عليهم المتاعب والشرور، وهذا النوع من الناس إن ذكر في مجلس قالوا عنه: الله يقطعَهْ.

وطلب منهم الصبر عند حلول البلاء، وقال لهم إن الصياح والعويل لا يزيل ما كتب الله عليكم. وحذرهم من تحقير الفقير، ومن الكبرياء، ونهاهم عن الثقة بالعدو فإنه وإن أبدى لهم الأمان فإن كرهه لهم يبقي معه، وأكمل ذلك بالنصح لهم بالاهتمام بالصديق، ونهاهم عن التمني الذي لا طائل وراءه، وعن الحلف بدون حاجة. ثم يصف لهم الرجال فيقول إن فيهم الرجل الحليم، والرجل الفاهم، والحريص على أداء حقوق الناس، والرجل الذي لا يتعدى على غيره بالأقوال والأفعال، ثم ينبههم إلى أنهم قد يصادفون أناسًا من أنواع سيئة فلا ينبغي أن يظهروا لهم حماقة مثل حماقتهم بل عليهم بالصبر إلى أن يدفعهم الله عنهم.

ويستمر على هذا المنوال شارحًا لهم تجاربه وآراءه في الحياة وفي الناس إلى أن يقول:

افهموا قول المجرب
ما بقا وقت إيطرِّب
باقي الدنيا تْحرِّب
ما حدٍ تصفى مَعَهْ

ليس بالإمكان الآن أن نسوق مقارنة بين قصيدتي عبده بن الطبيب وصقر النصافي الشاعرين اللذين نصحا فأجادا، وكل منهما على طريقته التي يسير عليها

في إنشاده للشعر. ولكننا عرضناهما عرضًا شبه كامل بحيث يستطيع المتأمل أن يجد مواضع التشابه بينهما ويعرف أسلوب كل من الشاعرين في تقديم النصح، ولمزيد من ذلك فإن الكتب التالية فيها ما يمكن أن يفيد شرحًا وتوضيحًا:

١ - الأغاني في التراث الشعبي الكويتي من تأليف كاتب هذا المقال.

٢ - المفضليات للمفضل الضَّبي طبع دار المعارف بمصر.

٣ - ديوان صقر النصافي.

****

ملحاق خير

كان الشاعر عَبْدَة بن الطبيب من أولئك الشعراء الذين عاشوا فترة من حياتهم في الجاهلية، وعاشوا بقية عمرهم في الإسلام فهو مخضرم. أما ما أود أن ألفت الأنظار إليه هنا فهو شاعر جاهلي محض اسمه عبد قيس بن خفاف، وليس في كتب الأدب القديمة شيء كاف من أخباره، وقد أورد له المفضل الضبي في كتابه «المفضليات» قصيدتين تدلان على أنه عندما أنشدهما كان كبير السن، وأنه قد تسربل بالحكمة، وزايله باطله، وأصبح مستقيمًا في حياته:

صحوت وزايلني باطلي

لعمرُ أبيك زيالاً طويلا

ولعبد قيس قصيدة رائعة قالها موصيًا ابنه المسمّى «جُبيل». وقد نصحه فيها عدة نصائح طالبًا منه أن يعجل إلى مجابهة العظائم لأن والده قد قرب يوم فراقه للدنيا.

أمره بتقوى الله، والوفاء بالنذر، والتحلل من الحلف إذا قاله في مجادلة ثم ندم على ما قال. وطلب منه إكرام الضيف، لأن الضيف له حق، ولأنه سوف يتحدث عن فعلك معه سواء صنعت له خيرًا أم لا. وطلب منه أن يمتنع عن قول الكلام القبيح لصديقه، فهذا لؤم ينبغي أن ينأى بنفسه عنه، وقال له: مكِّن صلتك بمن يصلك، واترك الخائن المتبدل، ولا تقعد في مكان معروف بالسوء، وإذا لم يعجبك منزل فتحول عنه، وإذا هممت بعمل الشر فلا تعجل، أما إذا هممت بعمل الخير

فلا تتأخر. ولا تترك للعدو فرصة، إذا هاجمك بقول أو عمل فردّ عليه سريعًا.

هذا قليل من كثير ساقه الأب الناصح لابنه في قصيدته التي بلغ تعداد أبياتها ثمانية عشر بيتًا.

أما القصيدة فإن من الصعوبة بمكان إيرادها كاملة هنا ولكن من أراد الاطلاع عليها فهي من الكتاب الذي ذكرناه.

وقد بدأها عبد قيس بن خفاف بقوله:

أَجُبيلُ إن أباك كاربُ يومه

فإذا دعيت إلى المكارم فاعجلِ

أوصيك إيصاءَ امرئٍ لك ناصح

طبن[1] بريب الدهرِ غير مُغفّلِ

اللهَ فاتقِهْ وَأَوفِ بنذره

وإذا حلفت مُمَاريًا[2] فتحلل

وبعد؛ فهذه قصيدة جميلة صاغها أب محب لولده ضمنها تجاربه في حياته بأن أدارها على هيئة نصائح إذا ما التزم بها الابن أفادته، وجعلته في موقع يحترمه الناس من أجله.

****

---

(١) طبنٌ: حاذق.

(٢) مُماريًا: مجادلًا.

الكويت في مجلات عربية قديمة[1]

هذه مطالعة لبعض المجلات التي صدرت قديمًا وجاء فيها شيء عن الكويت، ولما كانت الأمور الواردة في تلك المجلات ذات علاقة بسير الحياة في بلادنا في أيامها الماضية. وتعطينا ضوءًا وإن كان غير مبهر على جزء يسير من تاريخنا فإنه لا بد لنا من أن نقدمها هي أو ما قد نحصل عليه في المستقبل، وذلك من أجل بذل المحاولة لتوثيق ما يصل إلى أيدينا من ذلك.

المجلة الأولى هي مجلة تصدر في لبنان، أنشأها بديع شلبي، وهي ذات صبغة أدبية تكثر في صفحاتها القصائد والأبحاث المنوعة، وهي مصورة إلى حد ما. واسمها قريب من طبيعة ما تحوي من كتابات فقد اطلق عليها مؤسسها اسم: الورود، وهو اسم يتماشى مع الموضوعات التي تقدمها هذه المجلة.

والعدد الذي سوف أتحدث عما ورد فيه هو ما اطلق عليه: الجزء الأول، وبه دخلت سنتها الخامسة عشرة، وهو صادر في شهر سبتمبر لسنة ١٩٦١م.

أما المجلة الثانية فهي تصدر باللغة الإنجليزية، وتقوم بإصدارها وزارة الإرشاد القومي في مصر، اما اسمها فهو: المراقب العربي: The Arab Observer ولكونها تصدر من جهة حكومية معنية بالإعلام فإن من الواضح أنها قد صدرت للتعبير عن وجهة نظر هذه الجهة ونشر أخبار أعمال حكومتها. والعدد الذي سوف أتطرق إلى بعض ما جاء فيه هو العدد رقم ١٤٠ وهو صادر في اليوم الخامس

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١١/١/١٩م.

والعشرين من شهر فبراير لسنة ١٩٦٢م، نضيف إلى ذلك أنها مجلة تصدر شهريًا بعدة لغات هي الإنجليزية والفرنسية والألمانية والأسبانية، وتعنى بالنشر: وكالة الشرق الأوسط للأنباء، وقد بدأ صدورها في سنة ١٩٦٠م، وكان رئيس تحريرها الدكتور عبدالحميد البطريق.

المجلتان اللتان تحدثت عنهما آنفًا هما من الهدايا التي يتحفني بها بين وقت وآخر أخي الأستاذ عبدالرحمن الخرجي، وهما من بقايا آثار مكتبته الشهيرة: مكتبة الطلبة، ولذا فأنا ملزم بتقديم الشكر له قبل أن أبدأ بعرض ما جاء فيهما عن الكويت.

أما المصدر الثالث الذي سوف أعرض هنا شيئًا مما ورد فيه، فهو جريدة «القاهرة»، وهذه الجريدة أضحت الآن مغمورة لا يعرف بها إلا قليل من الناس، ذلك لأنها توقفت منذ زمن طويل. وكانت تصدر يوميًا وتهتم بالشؤون السياسية، وقام باصدارها لبناني اسمه أسعد مفلح داغر، مشاركًا لآخر لا أعرف هويته هو: ابراهيم الشنطي، وكان أول صدور لها في سنة ١٩٥٣م.

لم أطلع على هذه الجريدة مباشرة، ولكني اطلعت على قصاصات منها جمعتها مؤسسة إعلامية ضمن عدد كبير من القصاصات التي جمعتها وكونت منها (ملفات) كثيرة جدًا.

وكلها تحتوي على ما يتعلق بالكويت مما نشر في صحف تلك الفترة التي من ضمنها السنوات التي كانت جريدة «القاهرة» تصدر فيها.

أما المؤسسة الإعلامية التي ذكرت أنها هي السبب في وصول قصاصة مقال جريدة «القاهرة» إليّ، فهي من المنشآت المصرية الخاصة، اسمها مؤسسة المحروسة للنشر والخدمات الصحافية والمعلومات. وقد قامت هذه المؤسسة بتحضير تسعة

وعشرين ملفًا كبيرًا فيها أكثر ما قيل عن الكويت في الصحافة العربية منذ سنة ١٩٢٠م حتى سنة ١٩٩٠م، وقد قامت بذلك بناءً على تكليف من مركز البحوث والدراسات الكويتية الذي رغب عند بدء تأسيسه بجمع أكبر قدر من المعلومات المتعلقة بالكويت مما نشر في الصحف. وعلى الرغم من أن هذه الملفات لا تُغطي كل ما كتب عن بلادنا إلا أنها ضمت الكثير من ذلك مما يعد في عداد الكنوز المعرفية فيما يخص الكويت في المسائل التاريخية والسياسية والاجتماعية.

ونبدأ الآن بالحديث عن المجلة الأولى، وهي مجلة الورود اللبنانية المصدر التي أشرنا إليها في البداية.

أوردت هذه المجلة معلومات عن الكويت في صحفتين من صفحاتها هما ص٤ وص٥، والغريب أن ما كتبته هنا لم يُتوّج بعنوان كما جرت العادة بل إنها دخلت إلى الموضوع مباشرة، وقد كانت البداية بذكر أمير البلاد - آنذاك - الشيخ عبدالله السالم الصباح، مع تمهيد في بضعة سطور هي: «تسير الحياة في دُرّة الخليج العربي، سيرًا حثيثًا على ضوء المفهوم التمدّني العالمي إنّ من جهة الوعي القومي العربي، أو الخطط الكبرى التي سارت عليها الدول العريقة في المدنية».

ثم ذكرت المجلة أن كل ذلك تم: «بسهر حاكم الكويت الشيخ عبدالله السالم الصباح ولفيف من الشيوخ رؤساء الدوائر الحكومية، ومعاونيهم المختارين بحسب كفاية كل فرد في المجال الذي يُحلّق فيه من وراء اختصاصه، وهذا اللفيف يتخذ مخططًا موحدًا بعد درس طويل، وبعد تدقيق شديد، منبثقين بعد اجتماعات متواصلة، تتجلى فيها العدالة والإخلاص تَوَصّلًا إلى حياة مثالية يبذلون في سبيلها كل جهد».

بعد هاتين المقدمتين يجد كاتب المقال نفسه يباشر في الكتابة عن الدوائر التي ذكرها وعن ذلك اللفيف من الرجال الذين أشار إليهم، وقد بدأ ذلك بذكر الأمن السائد - آنذاك - فقال: «أما الأمن فهو خالي البال يبتسم في ثغر رائد من

رواده هو سمو الشيخ سعد العبدالله السالم الصباح، رئيس الشرطة والأمن العام، يعاونه بإيمانه وإخلاصه سعادة السيد عبداللطيف الثويني، وهو يقوم بعمله بتفهم وإخلاص، وتجد في حديثه المزيد من الحكمة والتمثل بأقوال الشعراء، ذلك لأن للشعر من حديثه نصيبًا وافرًا».

ثم أراد الكاتب أن يقدم نبذة عن عمل الشيخ سعد، وعن تدرجه في ذلك منذ بدأ في دراسته حتى عاد إلى وطنه، فقال: «تثقف سمو الشيخ سعد في كلية سانت هيرست وهي كلية للبوليس في إنجلترا، فقضى فيها عدة سنوات تلقى خلالها أصول الشؤون العسكرية، ولدى نهاية دروسه العالية أسندت إليه نيابة رئاسة الشرطة، وفي التشكيلات الأخيرة أصبح رئيسًا لها، وبالإضافة إلى مكانته العلمية والفنية فهو يتمتع بأخلاق عالية، واستقامة نادرة، وعدل في تصفية الأمور، أضف إلى ذلك تذوقه للأدب شعرًا ونثرًا، وهو يحسن اللغتين: العربية والإنجليزية إحسانًا تامًا، يلازم مكتبه إلى ما بعد منتصف الليل، عاملًا فيه بكل دراية وحزم، هادفًا إلى خدمة وطنه، ثم خدمة القضية العربية العليا».

وعندما انتهى الكاتب عند هذا الحد انتقل إلى الحديث عن رجل آخر من رجال دولة الكويت هو سمو الشيخ جابر الأحمد الجابر الذي كان يتولى أعمالًا مهمة في ذلك الوقت فقال عنه: «يُشرف على أموال الدولة اختصاصي بالشؤون المالية، حاذق بأمور الدولة، لا تفوته شاردة، ولا واردة. إنه سمو الشيخ جابر الأحمد الصباح الذي هو من أدق العاملين في مجاله بكل رزانة ورصانة».

وانتقل المقال من هذا الحديث إلى الخوض في موضع آخر من مواضع المسؤولية الحكومية في الكويت عند صدور هذا العدد من المجلة في شهر سبتمبر لسنة ١٩٦١م، وكان هذا الموضع هو: معارف الكويت.

ولقد قال الكاتب بهذا الخصوص ما يلي: «أما دائرة المعارف، فما زالت تنعم بسهر رئيسها، واطلاعه بنفسه على جميع برامجها، وتفقد أقسامها: قسمًا فقسمًا، مشيرًا إلى ما يجب إصلاحه، ولقد اطلع تقريبًا على المناهج التربوية والتثقيفية الجديدة لدى الأمم العريقة في هذا المضمار، فطبق ما يلائم النشء الكويتي الذي يعده إعدادًا وطنيًا وعربيًا، وأظنك قد عرفت المعني بذلك: إنه الشيخ عبدالله الجابر الصباح».

ومن هنا ينتقل المقال إلى جهة أخرى من جهات العمل الحكومي في الكويت، وهو في هذه المرة يتحدث عن بوادر النشاط الإعلامي الذي نشأ هنا عن طريق تكوين إدارة خاصة به، يتولى أمورها سمو الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح، وقد جاء في المقال، ما يلي: «إن دائرة المطبوعات والنشر، شبه مدينة قائمة بذاتها يشتغل في مطبعتها أربعمائة وعشرون عاملًا، وهي مجهزة بسبعين ماكينة حديثة الصنع، تعمل على إصدار مطبوعات الحكومة بجميع أنواعها، وبإنشاء هذه المطبعة وفرت الحكومة الملايين من الدنانير التي كانت تهدر في خارج الكويت. والفضل في ازدهار دائرة المطبوعات والنشر يعود إلى سمو الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح، رئيس هذه الدائرة، وهو ذو ثقافة عالية، وأديب كبير، على أناقة ولطف وإيناس، وشمم متواضع، ولا يقتصر نشاط الشيخ صباح على دائرة المطبوعات والنشر؛ بل يتعداها إلى أمور دقيقة في سياسة دولة الكويت، ومن ذلك أن دائرة الشؤون الاجتماعية والعمل موكول أمرها إلى سموه.

هكذا انتهى حديث مجلة «الورود» عن بعض النواحي التي لاحظها مندوبها في الكويت، ولنا عليه ملاحظات هي:

١ - النقص الواضح في أول الحديث، وذلك هو ما أشرنا إليه في البداية.

٢ - الاختصار الشديد، وعدم الإشارة إلى عدد من الدوائر الحكومية التي كانت تعمل آنذاك مثل دائرة الأشغال العامة ودائرة الصحة ودائرة الكهرباء والماء وغيرها.

٣ - يبدو أن ما نشر في المجلة كان قد أعد قديمًا إذ تمت أثناء النشر في ١٩٦١/٩/١م أمور كثيرة لم يُشر إليها الكاتب، منها استقلال الكويت وقيام التمثيل الدبلوماسي بينها والدول الأخرى، وانضمامها إلى جامعة الدول العربية ودعوى قاسم العراق المعروفة، وردود الفعل عليها، إضافة إلى عدد كبير من الأعمال التي تمت أثناء ذلك أو قبله بقليل، وكل هذا يجعل العمل الذي نشرته «الورود» ناقصًا نقصًا كبيرًا.

يأتي الحديث هنا عما ورد في المجلة الثانية وهي «المراقب العربي» التي تصدر باللغة الإنجليزية عن وزارة الإرشاد القومي بمصر، وقد ذكرت سالفًا أن العدد المعني هو الصادر في الخامس والعشرين من فبراير لسنة ١٩٦٢م ورقمه (١٤٠).

تحدثت المجلة في البداية حديثًا موجزًا جدًا عن افتتاح بيت الكويت في القاهرة بحضور الرئيس المصري الأسبق جمال عبدالناصر، وكان هذا الأمر يقتضي التوسع، ولكن لسبب ما لا ندركه جرى اختصار الخبر اختصارًا مخلًا، وذلك لأن الشيخ عبدالله الجابر الصباح وزير التربية في ذلك الوقت كان في استقبال الرئيس، وجال معه في أنحاء البيت وقد سبق أن ذكرنا عن ذلك ما يلي:

بيت الكويت في القاهرة من أشهر المعالم التي يحرص الكويتيون على زيارتها عندما تطأ أقدامهم ثرى أرض مصر. ولقد افتتح هذا البيت أولًا في شهر أكتوبر لسنة ١٩٤٥م وكان الغرض منه إيجاد سكن ملائم لطلاب الكويت هناك على أن يتيح لهم القيام بعدد من الأنشطة وقد تولى إدارة هذا البيت الأستاذ عبدالعزيز حسين واستمر في عمله هذا إلى أن صار مديرًا لمعارف الكويت وذلك في سنة ١٩٥٢م.

وصفت موسوعة تاريخ التعليم في الكويت افتتاح البيت في آخر مبنى له قائلة:

«وافتتحه الرئيس جمال عبدالناصر بنفسه ومعه زكريا محيي الدين وحسين الشافعي وعبداللطيف البغدادي وحسن إبراهيم وعبدالحكيم عامر في حفل يزيد المشاركون فيه على ١٥٠٠ شخص، وكان على رأس المستقبلين رئيس المعارف الشيخ عبدالله الجابر الصباح ومعه الشيخ سعد العبدالله السالم الصباح والأستاذ عبدالعزيز حسين، وهو أمر لم يحصل لأي بعثة دبلوماسية أو طلابية من قبل، وهذا البيت هو سفارة الكويت في القاهرة اليوم ويقوم القسم الثقافي بالسفارة على خدمة الطلاب الكويتيين».

وذكرت المجلة - أيضًا - خبرًا آخر له علاقة بدولة الكويت، وفيه بعض الأخطاء التي لا يمكن أن يقع فيها صاحب الخبر، ونحن ندرجه هنا مصححًا:

«وقد زار القاهرة في العام نفسه السيد عبدالعزيز العلي المطوع، وقال: إن الكويت تتعاون كثيرًا مع الجمهورية العربية المتحدة، وقال: إن مجلس المعارف الذي يشرف على التعليم في الكويت قد افتتح في سنة ١٩٣٦م، وأنه شخصيًا عضو في دورة المجلس البلدي التي بدأت في ذلك الوقت.

وذكر أن عدد المدرسين العاملين في الكويت قد بلغ ٢٥٥١ مدرسًا منهم ٨٦٦ من المدرسين المصريين، كما يعمل في الكويت حاليًا ١١٠ فنيين مصريين، وقال: إن بيت الكويت هو قلب المجتمع الكويتي في مصر. كما ذكر أن الكويت الآن لا تعاني من صعوبة الحصول على المياه العذبة، فقد أنشأت مصانع ضخمة لتقطير المياه وتحويلها من مياه بحرية مالحة إلى مياه حلوة المذاق، وذكر السيد عبدالعزيز المطوع أن أمير الكويت الشيخ عبدالله السالم الصباح افتتح مجلس الأمة الأول في اليوم التاسع والعشرين من شهر يناير لسنة ١٩٦٢م، وأنه قد أصدر قبل ذلك دستورًا تسير بموجبه البلاد، وتشكلت بذلك أول وزارة.

بعد هذا الحديث بدأت المجلة في استعراض عدد من الأنشطة القائمة في البلاد آنذاك، فذكرت شيئًا عن المدارس، ودور العناية بصحة الأفراد، وعن استتباب الأمن في البلاد. ثم خصصت القسط الأكبر من حديثها للشؤون النفطية، وهي ترى أن هذه المادة الثمينة هي التي أتاحت للبلاد الانطلاق في مجالات العمل من أجل الترقي، فعندما اجتمعت العقول الراغبة في ذلك مع الوفرة المالية حدث كل ما نراه من تقدم.

وأخيرًا هذا هو ما جاء في المرجع الثالث، وهو جريدة «القاهرة» التي ذكرتها فيما سبق. صدرت في اليوم العاشر من شهر يونيو لسنة ١٩٥٥م، وهي بذلك تسبق المجلتين اللتين أوردنا عنهما ما كتبناه عن الكويت، من حيث الزمن.

يبدأ ما نشرته الجريدة بعنوانات كبيرة وكثيرة تمهد بها للموضوع وهي:

سويسرا الشرق

دولة عربية فتية تحمل راية النهوض وتندفع بوثبات سريعة لنشر عزة الشرق ومجده ولم تُسَمِّ الجريدة هذه الدولة، ولكنها بينت اسمها في المقال، ولم تذكر الاسم مباشرة وإنما جاءت به بعد استهلال أخذ من كاتب المقال وقتًا طويلًا حتى انتهى به المطاف إلى ما يريد، لقد كانت مقدمة المقال طويلة لا داعي لكثير مما ورد فيها، وكان بالإمكان اختصارها، أو الدخول إلى الموضوع دون البدء بها. أما الموضوع فهو كما أشرنا هنا عن الكويت، وكان نشره في جريدة «القاهرة» خلال شهر يوليو سنة ١٩٥٥م، وليس هذا فحسب بل إن الكاتب عندما دخل إلى مجال الحديث الذي يقصده، بدأ - أيضًا - بداية فضفاضة، استطرد فيها استطرادًا لا داعي له، فقد كان حديثه عن نشأة الكويت، فذكر ما يلي: «ومنذ عشرات السنين نشأت إمارة صغيرة على الخليج العربي، أنشأها أولئك الرجال الذين ابتغوا مجد الكفاح في مصارعة الأهوال والشدائد وكانوا أقوياء لأنهم لا يخافون، وكانوا بسطاء لأنهم

لا يتكبرون ولا يتجبرون، فلما كثر عددهم وتشعبت وسائل العيش بينهم، التمسوا أن يكون من بينهم أمير، يقيم في جنبات واديهم دعائم العدل ويضاعف من روابط الأخوة والمحبة، ومايزال يبسط للضعيف من سلطانه حتى يقوى بحقه، ومايزال يأخذ القوي بسيفه حتى يضعف بباطله..

وقد اختار أهل الكويت أميرًا عليهم الأمير «صباح».

وبعد ذلك أشار الكاتب إشارة عابرة إلى تدفق النفط في البلاد، وعده أهم سبب أدّى إلى تطورها ودخولها إلى حلبة سباق الزمن نحو التقدم، ولقد كانت هذه الإشارة سببًا للدخول إلى الحديث عن أمير الكويت آنذاك وهو الشيخ عبدالله السالم الصباح. وكان حديثه عن الشيخ من الأمور المعروفة التي يتداولها الناس، ولكنه ذكر أنه ينقل عن مرجع أراه مجهولًا لأنه لم يذكر اسم مؤلف هذا المرجع ثم إن عنوانه الذي ذكره في المقال لم أجد له أي أثر، فقد قال إنه نقل عن كتاب: «أمم الكويت».

كان الشيخ عبدالله السالم الصباح يستحق الإطراء الذي قاله كاتب مقال جريدة «القاهرة» ولقد قال عنه قولًا يتعدى صفاته الشخصية الخاصة به، وطباعه التي فطره الله عليها؛ إلى الحديث عن عمله في رئاسة دولة الكويت، التي سماها الكاتب «سويسرا الشرق»، وقال عنها: «ولم تلبث الكويت هذه الإمارة الصغيرة بعد أن أغدق الله عليها خيراته أن أصبحت «سويسرا الشرق»، تملأ الدنيا باسمها، وتدعو العالم كله إلى الالتفات إليها، والتحدث عنها، وتغري الكثيرين بالانتجاع إليها، والوقوف على ما يجري فيها من تطورات وأحداث».

لقد أراد أن يمتدح الكويت، ولكنه قصر عن ذلك، حين عزا كل ما فيها من تقدم إلى انبثاق النفط من أراضيها، والواقع أنه لولا الاستعداد الإنساني الذي

يتطلع دائمًا إلى التفوق عند أهلها لما تقدمت، ونحن نرى المال عند كثير من الدول ولكنه لا يعمل لها شيئًا.

ما علينا من كل ذلك فهذه طريقة يلجأ إليها عدد من الصحفيين الذين اتخذوا هذه المهنة الشريفة سبيلًا إلى التكسب المادي، على عكس غيرهم من المخلصين لمهنتهم.

استمر الكاتب بعد هذا في حديثه المسهب الذي يمتدح فيه الكويت وأهلها وحكامها، واعتبر أن النعمة التي أسبغها الله سبحانه على هذا الوطن هي بمثابة معجزة إلهية حولت البلاد إلى ما هي عليه من تقدم ورقي، ويلحظ زوار الكويت اليوم هذا التقدم وذلك الرقي ثم يتأملون في السبب الذي أوصله إلى هذا المستوى، وبعد البحث يجدون هذا السبب ماثلًا في الإخلاص للعمل الوطني الذي يتمثل به الأمير وأعوانه، وسوف يتوقعون بموجب مشاهدتهم مستقبلًا باهرًا للكويت، وكما قال الكاتب: «وسنرى بعد قليل دولة عربية حرة مستقلة تقف جنبًا إلى جنب أخواتها الدول العربية، وتحمل راية النهوض، وتندفع إلى الإمام».

وهذا الذي توقعه الكاتب قد حدث في سنة ١٩٦١م بعد أن تنبأ به في سنة ١٩٥٥م، فاستقلت الكويت وأصبحت حرة ذات سيادة، وانضمت إلى غيرها من الدول العربية المستقلة.

وتحدثت الجريدة بعد ذلك عن إنتاج النفط في الكويت، وذكرت منابعه، ووسائل تجميعه، ونقله وتسويقه، وعادت إلى الحديث عن تأثير هذه الثروة في حياة أبناء الكويت، وفي مختلف مجالات العمل والإنشاء وتطوير كل ما يحتاج إلى تطوير في البلاد. وقد أسهب الكاتب كعادته في هذا الموضوع، ولكنه ختم مقاله بشيء من الإيجاز حين كتب عن «أهل الكويت» وبين تحت هذا العنوان الصفات الطيبة التي يتمتعون بها.

كان مقال جريدة «القاهرة» في أربع صفحات، وكان خاليًا من الصور، ولم يتحدث عن أحد من الأشخاص سوى ما كتبه عن الشيخ عبدالله السالم، وأنا على يقين من أن كاتبه لم ير الكويت، ولم يكتب ما كتبه عن ملاحظة شخصية.

هذا ما ورد في المجلات الثلاث، أوردته في إيجاز شديد حتى لا أطيل على القارئ. علمًا بأن بعض ما ورد لا يخلو من فائدة.

****

من وإلى: أحمد البشر الرومي[1]

لا أظن القارئ في حاجة هنا إلى معلومات عن السيرة الذاتية لهذا الرجل، ولا إلى عرض لإنتاجه ومعلوماته المتعددة النواحي بعد أن عرضت عنه ضمن «الأزمنة والأمكنة» كثيرًا من البيانات الشافية، وطرحت عن حياته وإنتاجه العلمي، ومكانته في عالم الأدب ما يكفي في أكثر من مقال. ولكن أحمد البشر مادة لا تنضب ونحن كلما ذكرنا عنه شيئًا أطلت علينا أشياء أخرى تدل على جهوده الكبيرة في مجالات تاريخ الكويت؛ تلك المجالات التي أمضى عمره كله وهو يجمع المعلومات عنها بالقراءة حينًا وبالمشافهة أحيانًا، حتى كوّن له ثروة من المعلومات ملأت الكتب التي صدرت له. والعجيب أنه لم يصدر في حياته إلا كتابًا واحدًا هو: «مقالات عن الكويت» يضم مقالات كتبها في مجلة البعثة ومجلة الرائد عند بداية عقد الخمسينيات من القرن الماضي. وقد أصدرته مكتبة الأمل الكويتية في سنة ١٩٦٨م. ولكن إنتاجه المطبوع الذي هو بين أيدينا الآن إنما هو إنتاج تم طبعه بعد وفاته، ومنه:

- **معجم المصطلحات البحرية الكويتية.**
- **سجل الغريب.**
- **الأمثال الكويتية المقارنة في أربعة مجلدات.**

وكان مما أولاه اهتمامه في حياته إصدار ديوان صقر الشبيب، وديوان فهد بورسلي وكانت عنايته بهما لا تنكر.

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١١/١/٢٦م.

وحتى قبل أن يتعرض أبو عبدالله لما تعرض له من مرض أقعده الفراش فترة من الزمن في ذلك البلد البعيد، فإنه كان لا ينقطع عن مراسلة أصدقائه من الكويتيين الذين يتصادف وجودهم في الخارج، ومن أصدقائه من غير الكويتيين الذين تجمعه بهم رابطة العلم والقراءة، والرغبة في اقتناء الكتب. ومما لفت نظري وأنا أتابع هذا الموضوع ما يلي:

نشرت جريدة «الرائد» في عددها الصادر في شهر أكتوبر لسنة ١٩٥٢م، قصيدة للشاعر عبدالرسول الجشي أرسلها من مدينة القطيف الواقعة في المملكة العربية السعودية. وعنوانها «تسليم» والمهم في الأمر هنا أن الشاعر أهدى القصيدة قائلًا: «مهداة إلى الصديق الأستاذ أحمد البشر». ولم أستطع معرفة مدى العلاقة بين الرجلين، ولا مدى العلاقة بين أحمد البشر الرومي وما جاء في القصيدة إلا إذا كان الشاعر يُشير فيها إلى ذكريات معينة تجمعهما. يقول الشاعر في مطلع القصيدة:

عيناكَ من جانب الشُباك تخبرني
أن العيون لها بالغمز تسليمُ
وأن فيها أمانيًا مفجعة
كم استلذ بها - من قبل - ترنيم

وفي ختامها يقول وقد استمع إلى جارات محبوبته وهن يرددن اسمها:

وقد أثرن به قلبي فأيقظه
رجع الصَّدى فإذا الدُّنيا ترانيمُ
وكان للذِّكريات السَّالفات به
فعل المدامة ترويح وتبغيم

قد يكون الشاعر عبدالرسول الجشي قد أعجب بأبياته هذه وهي حقًا جميلة، ثم بحث عن شخص يستحق أن تهدى إليه فوجد أن أحمد البشر أولى الناس بها،

وليس بالضرورة أن يكون بينهما هَمٌّ مشترك تثيره هذه الأبيات التي تثير الوجد في نفوس المحبين.

والشاعر الجشي أديب معروف له أشعار كثيرة ومقالات متنوعة في عدد من صحف الخليج ولا سيما البحرين وقصيدته هذه تدل على مستواه في عالم الشعر والأدب.

أما في الكويت فقد نشرت له مجلة «البعثة» مقالًا وقصيدة خص بها البحرين، وذلك بالإضافة إلى ما نشرته له مجلة «الرائد» وفق ما ذكرناه هنا.

كم أتمنى أن أجد شيئًا عن هذه الصداقة التي تجمع بين هذين الأديبين، وذلك لأنني لم أجد ما يدل عليها غير ما وجدته في تعليق الشاعر الجشي على قصيدته. أما أوراق أحمد البشر الخاصة فلم أجد فيها ذكرًا لهذا الصديق، إلا أنني على يقين من أن هناك أمرًا يجمعهما وهو حب القراءة، والرغبة في مزيد من العلم، وسوف تأتيني الأيام بخبر هذه العلاقة فيما بعد إن شاء الله.

وإضافة إلى هذه القصيدة فإنني وجدت ضمن الأوراق الخاصة بأحمد البشر قصيدة هي عبارة عن ستة أبيات كتبها الشاعر إبراهيم جمال الدين، ووجهها إلى صاحبنا قائلًا: «حضرة الفاضل العبقري الأخ أحمد البشر آل رومي المحترم» وكتب في آخر الأبيات: «ملحوظة: أرجو قبول هذه النثرات من وحي الإنسانية» وكان تاريخها في اليوم الثامن من عشر من شهر أكتوبر لسنة ١٩٦٤م. يقول الشاعر:

أيها «البشر» كم سمعت ثناءً
منك مِنْ مخلص إليك مجاور
مثلما قد سمعتُ عنك مزايا
طيبات نفوغ منها المآثر
فاستجابتْ مشاعري لكَ شكرًا
في قواف صبا لها كل شاعر

والفتى الحرُّ من يرى وجه بشر
فيه للخير منعشًا للضمائر
منشدًا للوئام والرُّشد في الناس
وداعٍ إلى أجل الشعائر
فاقبل النظم من أخيك ارتجالا
هكذا في الكرام توحي الخواطر

والقصيدة جميلة، شاعرها معروف بجودة شعره، وقد ألقى عددًا من القصائد في مناسبات متعددة في الكويت فكان يحظى بتقدير مستمعيه وإعجابهم، ولو أنه لم يجد في أحمد البشر الرومي ما يستحقه من ثناء لما قرأنا لهذا الشاعر أبياته الجميلة التي عرضناها هنا.

وهناك قصيدة جميلة معجبة قيلت في أبي عبدالله ولكنه – للأسف الشديد – لم يستمع إليها لأنه كان قد توفي وقت إلقائها، وهي قصيدة صاغها المرحوم الأستاذ أحمد السقاف وألقاها في حفل تأبين البشر الذي أقامته رابطة الأدباء الكويتيين، وكان ذلك في مساء يوم الأحد الرابع عشر من شهر فبراير لسنة ١٩٨٢م، وذلك بعد مرور أربعين يومًا على وفاة أحمد البشر. وكان حشدًا كبيرًا يليق به، وكنت أحد المتحدثين في هذا الحفل الذي أثار كوامن الأشجان وزادنا حزنًا على الرجل الذي فقدناه.

كانت قصيدة الأستاذ السقاف طويلة بلغت اثنين وخمسين بيتًا. وكانت جميلة في معانيها وفي أساليبها تنم عن مودة صادقة، وعلى الرغم من الإشارة التي ظهرت في بدايتها عن الخلاف في الرأي بين الرجلين، فإن الشاعر عالج هذا الموقف معالجة جديرة بالتقدير، يقول:

أحمد البشر جاء يرثيك أحمد
بفؤادٍ من الفجيعة مجهد

جاء يرثيك ليس زلفى ولكن
نسب بينه وبينك ممتد
لم يزده الخِلاف في الرأي إلا
قوةً تمسح الخِلاف وتشتدْ
ما افترقنا وإن تراخى لقاءُ
رُبَّ قرب لصاحب وهو مُبعد
كنت تبكي على العروبة مثلي
ودموعي على دموعك تَشْهَدْ

هذا المطلع الرائع له -كما ألمحنا- دلالته على نفس الشاعر وتقديره للفقيد مهما كان الخلاف بينهما، ومهما كان البعد.

ولقد استغل موقفه ذلك وقصيدته التي ألقاها يومذاك ليتحدث عن الوضع العربي المؤلم وهو الرجل الذي يسري في عروقه دم العروبة وحبها، ولطالما دافع عنها وعن بنيها في كافة المواقف الداعية إلى ذلك:

إيه شعري إني تعبت كثيرًا
مهجتي عُذِّبت وفكري تبدَّدْ
لست أدري أنحن عرب أباة
أم حديث الأيام إفكٌ مُفنَّدْ

ويستمر في القصيدة على هذا المنوال إلى أن يتجه إلى أبناء العروبة يحثهم على توحيد الصفوف ورفع راية العرب:

يا بني العرب - لا فشلتم - حرامٌ
أن تضيع الجهود في الأخذ والرَّدْ
وَحِّدوا صفكم فإنَّ الأعادي
تتحادى، والحرب بالحرب تُخمَدْ

هذه هي الروح العربية التي تمسك بها أحمد السقاف إلى أن لقي ربه. ولقد كان من المحسوس في قصيدته أنه لا ينعى أحمد البشر الرومي فحسب، بل هو ينعى نفسه التي لم تَعُد تطيق الرزايا المحيطة بأمته، ومن ذلك أننا نراه في الأبيات الثلاثة الأخيرة من هذه المرثية يقول:

أحمد البشر رحمة وسلامُ
وَدُعاءٌ على مدى الدهر سَرْمَدْ
وثواءٌ بجنة ليس فيها
غير ما تشتهي وما كان أرْغَدْ
وعزاء الجميع أنّا جميعًا
هدفٌ للفناء، والعيش ينْفَدْ

لنعد الآن إلى الرسائل التي كان أبوعبدالله يتلقاها، والواقع أنها رسائل كثيرة ولكني أنتقي منها ما يدل على باقيها. ولذا فقد اخترت ست رسائل إحداها قديمة أما الخمس الأخرى فهي مرسلة إليه في سنة ١٩٦٨م وهي السنة التي كان فيها تحت العلاج بلندن.

أولى الرسائل وهي الرسالة القديمة جاءته من الشيخ صقر بن سلطان القاسمي، وكان حاكمًا للشارقة وملحقاتها حين أرسل الرسالة في اليوم الرابع من شهر مارس لسنة ١٩٥٨م، وكان أحمد البشر الرومي قد أرسل إليه بعض المطبوعات وفق عادة جرت بينهما مما يدل على عمق الصلة بين الرجلين اللذين يجمعهما حب الأدب وقراءة ما يستجد من كتب.

تقول الرسالة

«أخي الوفي العزيز الأستاذ أحمد بشر الرومي المحترم تحية أخوية خالصة، سائلًا المولى أن تكون في أتم نعمة وأكمل صحة استلمت شاكرًا هديتكم الثمينة

التي ستظل ذكرى خالدة على الدوام وهي خيار ما يلتقط من شعر النبط وديوان النبط لخالد الفرج واستلمت مجلة الإيمان الغراء وسررت بها جدًا وأنها لنواة عمل مبارك أخذ بيد أبناء الكويت إلى الخير والسمو فتقبلوا من أخيكم خالص شكره وعظيم امتنانه وإني لأبتهل إلى الله سبحانه أن يُقَدِّرَ على الدوام بكم الاجتماع ومهما يبدو لكم من غرض يُقضى أرجو إبلاغ تحياتي العاطرة أصدقائي الأحباء ومنا كذلك».

أحمد البشر الرومي - بطبعه - يحب الناس، لا ينقطع عنهم ولاسيما من هؤلاء الأهل والأصدقاء، وعندما ذهب في رحلات العلاج، وكانت أكثر من رحلة، لم يتخلّ عن عادته فهو يستقبل الزوار، ويزور القادمين إلى لندن إذا وجد عنده القدرة على ذلك، ويكاتب كل من يرسل إليه برسالة.

وهذه بعض الرسائل التي وردت إليه من أصدقائه، ولم نتمكن من العثور على إجاباته عليها كما أشرنا من قبل:

١ - رسالة من الأستاذ حمد الرجيب وهو صديق له قديم، يلتقي به كل يوم ويشاركه في بعض الأنشطة وبخاصة نشاط الفنون الشعبية التي اهتم بها الطرفان.

كان حمد الرجيب في رسالته هذه يعبر عن اضطرابه لما سمعه عن مرض صاحبه، ثم يعبر عن ارتياحه عندما جاءته رسالة من البشر يطمئنه بها. أرسل الرجيب رسالته من القاهرة فقد كان سفيرًا للكويت هناك، وهي مؤرخة في اليوم السابع عشر من شهر سبتمبر لسنة ١٩٦٨م.

تقول الرسالة

«أخي أبا عبدالله تحية طيبة: وأرجو لك الصحة والسعادة. استلمت رسالتك.. وأنا شاكر لك لأنك طمأنتني على صحتك.. والحمد لله على السلامة.. في الواقع

تأثرنا كثيرًا لما حدث لك.. وقد كنت على صلة تامة مع الأخ محمد بن قاسم وأتلقى أخبارك المطمئنة دائمًا.. وحمدنا الله على ظهور النتيجة ونجاتكم من هذا «المرض.. لقد كُنّا في شوق إليكم.. ونرجو أن نراكم بعد إتمام العلاج في القاهرة.. بدأ الإخوان الكويتيون يغادرون القاهرة - وقد سافر أول أمس الأخ محمد بن جاسم إلى بيروت.. نرجو أن نسمع منكم الأخبار المطمئنة على صحتكم.. تحياتي مع تمنياتي لكم بالصحة والتوفيق».

أما الرسالة الثانية فكانت من الأستاذ سيف مرزوق الشملان وهي بتاريخ الثامن والعشرين من شهر سبتمبر لسنة ١٩٦٨م تحدث أبو مرزوق في رسالته إلى أحمد البشر حديثًا عائليًا إذ ذكر له عن سفره مع والدته وأثر هذا السفر النافع في تحسن صحتها، ثم أنحى باللائمة على الأطباء هنا لأنهم على حد قوله (تخبطوا) في تشخيص مرضه. ولم ينس أن يتحدث عن الكتب وهذا هو نص الرسالة:

«حضرة المكرم الأخ أحمد البشر المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، راجيًا الله تعالى لك الصحة والمسرات. عدت من سفرتي مع الوالدة والجدة إلى شيراز وأصبهان وطهران، ومن ثم البصرة منذ بضعة أيام وقد ارتاحت الوالدة كثيرًا من هذه السفرة، وذهب عنها ألم القلب.

علمت من الإخوان أن صحتك في تقدم مستمر وأن المرض الذي أصبت به بسيط العلاج لأنك بادرت العلاج فورًا.

كم أسفت لتخبط الأطباء عندنا في تشخيص مرضك. والحمد لله لم تأخذ بأقوالهم بل شددت الرحال إلى لندن للعلاج. ونعم المحل للعلاج.

أرجو الله تعالى أن تعود إلينا سالمًا معافى، وأن يذهب عنك هذا المرض بالمرة إنه سميع قريب.

زرت مكتبة المثنى في البصرة فأعطاني لك فهرست المكتبة وهو مجلد كبير وسجل حافل به المكتبة التاريخية الأدبية. وسوف أرسل إليك الفهرست في البريد لتطلع على الكتب التي تريدها.

الجو عندنا هذه الأيام جميل جدًا وهذه الصيفية باردة سلامي إلى أم عبدالله وعبدالله والعزيز لديك. ومنا الجميع يسلمون، وإن تكن لك حاجة أو غرض فعلى استعداد وأن أردت كتبًا فأخبرني حتى أرسلها إليك في البريد وفي انتظار إجابتك المنبئة عن صحتك وتقبل أعطر التحيات».

ومن الملاحظ أن أحمد البشر قد كتب على أصل الرسالة رقم صندوق البريد الخاص بالأستاذ سيف في الكويت، وكتب إلى جانب ذلك ما يلي: «كتب الجواب بتاريخ اليوم الأول من شهر أكتوبر لسنة ١٩٦٨م».

والأستاذ عبدالرزاق البصير من أعز أصدقاء أحمد البشر الرومي، وكانت لقاءاتهما لا تنقطع، يتبادلان المعلومات والكتب ويقرآن معًا ويشتركان في عدد من اللجان الثقافية التي تدعوهما الجهات المختصة إلى المشاركة فيها، ولذا فإن رسالته توحي بكل ذلك، وتعبر عن المحبة الخالصة بين هذين الصديقين. وهذه هي الرسالة:

«صديقي العزيز الأستاذ أحمد البشر المحترم

تحية طيبة وبعد،

فقد كانت رسالتك سمينة فيها وصف حي لبلاد حية، تتجد كتجدد الحياة. أما رسالتي هذه فستكون هزيلة لأنها تصدر عن بيئة فيها من المتناقضات بصورة لا تكاد تصدق.

ولو ذهبت أوضح لك هذه التناقضات. لكنت ممن ينقل التمر إلى هجر. وعلى كل فقد اطلعت الأستاذ عبدالعزيز والعدواني، على رسالتك فابتهجا بها. وقد أخبرني الأستاذ عبدالعزيز حسين أنه سيكتب لك رسالة. وأظن أن الأستاذ أحمد العدواني سيكتب لك أيضًا. وقد اتصل بي الأخ عبدالعزيز محمود وطمأنني عن صحتك، وهذا أمر سار حقًا، بل وهو الأمر المطلوب، كما أنه سألني عن المطبوعات التي قلت لك إن الوزارة أرسلتها. وقد اتصلت بالقسم الصحافي فأكدوا لي أنهم أرسلوها يوم الخميس الماضي فعسى أن تكون وصلت. وقد أخذوا مني عنوانك.

هل لك أن تخبرني عن وقت رجوعك؟ وهل تنوي التنقل في بلاد الله الحية كباريس وروما؟ وهذا ما أشير به عليك، أم أنك ستطير من لندن إلى الكويت رأسًا؟ قلت، أشير عليك بأن تتنقل في تلك البلاد لأن لنا سفارات في أكثر البلاد الأوروبية يمكنك الاستعانة بها لما تحتاج إليه ، ثم معك ولدك يسهل عليك أمر الترجمة ولو بعض الشيء. على كل فأنت بصير حكيم لست في حاجة إلى من يبصرك. وأخيرًا أرجو أن يسعدني الله برؤيتك سالمًا موفور الصحة والعافية».

وختامًا تقبل مني ومن بقية الأصدقاء التحيات والسلام

لأخيك المخلص

عبدالرزاق البصير

١٩٦٨/١٠/٩م

ذكر الأستاذ البصير أنه اطلع الأستاذ عبدالعزيز والعدواني على رسالة البشر، وهو بقصد الأستاذ عبدالعزيز حسين والأستاذ أحمد العدواني وهما - أيضًا - صديقان للطرفين.

ولقد كان أبو عبدالله سريعًا في الرد على هذه الرسالة، وقد كتب في أعلاها: «جاوبت عليه بكتاب، ورميته في صندوق البريد وذلك بتاريخ ١٠/٣ مساءً، ولقد ألقيته في الليل حتى ينقل صباح ١٠/١٠».

والأستاذ عبدالعزيز الدوسري من أصدقاء الأستاذ أحمد البشر، ولذا فإن هذا الأخير بادر بالكتابة إلى الأستاذ الدوسري يبلغه بنجاح العلاج الذي خضع له في لندن، وكانت الرسالة التي جاءت الأستاذ عبدالعزيز الدوسري ردًا على تلك المبادرة وقد كتبها في اليوم الخامس عشر من شهر أكتوبر لسنة ١٩٦٨م، وجاء فيها:

«الأخ العزيز أحمد البشر المحترم

أهديكم أجمل تحياتي راجيًا أن تكونوا في أحسن حال وأهدأ بال وأن تكون الصحة في تقدم مستمر. لقد سررت كثيرًا لنجاح علاجكم وزوال المرض وإني أدعو لك بالشفاء العاجل والناجز.

لا شك أنك تقضي الآن أيامًا جميلة بعد أن اطمأنيت على الصحة ورحت تبحث في المتاحف عن المخطوطات التي لا شك بأنها قيمة للغاية.

لقد بلغت تحياتك للأخوان وهم بدورهم يهدونك تحياتهم وتمنياتهم، أما الأخ صالح عبدالملك فلا يزال في الخارج.

وختامًا أكرر لك تحياتي راجيًا لك عودًا ميمونًا إلى الكويت وأنت تتمتع في تمام الصحة والعافية.

وأسلم لأخيك».

مر بنا أنّ الأستاذ عبدالرزاق البصير قد ذكر في رسالته أن الأستاذ عبدالعزيز حسين سوف يكتب رسالة إلى البشر ولكن رسالة أبي هاني تأخرت إلى اليوم الثامن

الوزير الدكتور محمد صلاح الدين في الكويت (٢)[١]

قبل أن ننهي هذه المرحلة من حديثنا عن الدكتور محمد صلاح الدين باشا، لابد من الإشارة إلى لمحة من نشاطه الخارجي باعتباره وزير خارجية مصر. ففي شهر نوفمبر لسنة ١٩٥١م، كان يمثل بلاده في اجتماعات الدورة السادسة للجمعية العامة للأمم المتحدة، وكان الاجتماع في باريس، وكان هو رئيس الوفد المصري إلى هذه الدورة.

ألقى في اليوم السادس عشر من شهر نوفمبر لسنة ١٩٥١م خطابًا أمام الجمعية المذكورة، وكان خطابًا يدل على مستوى الرجل، ومستوى الوطن الذي يُمثّله. فلم يتحدث عن المشكلات التي يعانيها من التصلّب البريطاني الذي خاض معه عددًا كبيرًا من المباحثات والمفاوضات دون أن يصل إلى نتيجة تذكر بسبب تعنُّت المستعمر وعدم رغبته في تقديم أي تنازل من شأنه أن يحرر هذا الوطن العربي من استعماره له. ولكن الباشا حرص على أن يكون في حديثه ممثلًا للمجتمع الدولي، ولذا فقد كان خطابه موجزًا ومركزًا ومعبرًا في الوقت نفسه عن وجهة نظر مهمة في مجال من أهم المجالات التي ينبغي أن تضطلع بها الأمم المتحدة.

تحدث الباشا في خطابه عن التسلح، فقال ضمن ما قال عن هذا الأمر: «إننا لانزال أبعد ما نكون عن الاتفاق على تنظيم التسلُّح ومراقبته وفقًا لما نص عليه الميثاق، وقد كانت النتيجة زيادة هائلة في أعباء عالم طحنته الأعباء دون أن

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٩/٢/٢٠١١م.

يلوح أي أمل في وضع حد لهذا التسابق الجنوني في التسلح الذي ينكب الاقتصاد العالمي بأشد الأضرار، والذي أصبح مصدرًا للقلق المتزايد والاضطراب المتواصل بين شعوب الأمم المتحدة وشعوب العالم قاطبة».

ثم أضاف معبرًا عن وجهة نظر بلاده نحو هذه المسألة التي تهم العالم أجمع:

«من أجل هذا ترحب الحكومة المصرية بكل اقتراح عملي أو جهد إنشائي يرمي إلى تنفيذ نصوص الميثاق في هذا الشأن وإلى تطبيق حكم المادة السادسة والعشرين من الميثاق بشأن إقامة السلم والأمن الدوليين وتوطيدهما ووضع الخطط اللازمة لتنظيم التسلح».

وعبر في نهاية خطابه عن شعوره بعدم الرضا عما توصلت إليه الأمم المتحدة حتى ذلك الوقت في مسألة الحد من التسلُّح فقال في هذا الشأن: «وإني لعلى يقين من أن أعضاء الأمم المتحدة جميعًا. ومن ورائهم مئات الملايين من البشر الذين نمثلهم هنا. يشاطرونني الشعور بخيبة الأمل لأن روح الميثاق ونصوصه لاتزال حتى الآن غير مطبقة تمامًا، ولأن قرار (الاتحاد لأجل السلم) لايزال مجرد قرار».

هكذا تكلم الباشا، وكان كل ما قال معبرًا عن مستوى عالٍ من الفهم، وإدراك المسؤولية، وعدم الإنحناء أمام المشكلات التي كان يعاني منها بصفته وزيرًا للخارجية.

ولقد كان ما تقدم هو المدخل الذي كان بداية لحديث طويل لابد لوزير خارجية مصر من طرحه وهو في ذلك الموقف الدولي، وفي وقت كانت الأمم تتكالب فيه على العرب بصفة عامة. ولذلك فقد طرح مشكلات كانت قائمة آنذاك مثل مشكلة مراكش «المغرب فيما بعد» وليبيا ووادي النيل (مصر والسودان) وفلسطين ولم ينس ذكر إيران لأنها جزء من الشرق الأوسط الذي جاء منه.

تكلم كثيرًا عن قضية فلسطين وعن معاناة أبنائها. وأضاف تعليقًا على ما رآه من رغبة بعض الدول في التسلط على المنطقة: «لقد عقد المصريون وجيرانهم في الشرق الأوسط عزمهم على أن يرفضوا في عزة وإلحاح أي وضع دون وضع الزمالة والمساواة التامة في السيادة مع جميع شعوب الأرض».

وذكر ما فعله جنود الاحتلال في مصر من تخريب وتدمير ليس في المنشآت وحدها بل وحتى في الضمائر، ومنها منع رجال خفر السواحل من أداء وظيفتهم فكانت النتيجة هي تهريب المخدرات.

ورد محمد صلاح الدين على أحد مندوبي الدول الذي طالب باحترام المعاهدات، وهو يعني معاهد سنة ١٩٣٦م، وكان رده بليغًا ودفاعه مفصلًا ومقنعًا، أطال فيه الحديث ولكنه كان من الواجب عليه أن يطيل حتى يبين للحاضرين دجل الذين يدافعون عن الاستعمار، وعن أعماله السيئة.

ولم ينس الدكتور محمد صلاح الدين الإشارة إلى خيبة أمله في الولايات المتحدة الأمريكية، فقد فوجئ حين رأى هذه الدولة التي كان يأمل في وقوفها مع الحق، وكان يطلب مساعيها الحميدة في إقناع بريطانيا بالجلاء عن مصر، هي التي جاءت تعرض عليه معاهدة الدفاع المشترك على أساس حلف إقليمي يضم كلًا من الباكستان وتركيا ومصر وفي وقت لاحق: إسرائيل.

إن الخطاب الذي ألقاه وزير خارجية مصر في سنة ١٩٥١م وهو موجود يسهل الحصول عليه فيه الدليل على تمكن هذا الرجل وقدرته على عرض قضية بلاده، وفيه الدليل على المطالبة بالاستقلال ومعارضة الأحلاف الأجنبية المشبوهة.

لم يكن الدكتور محمد صلاح الدين باشا بعيدًا بذهنه عن الكويت ولكنه كان مشغولًا بعمله الوزاري، ولذلك فإنه بعد أن انتهى من أعماله الوزارية والسياسية،

وهدأت نفسه بعد ما حدث له ولزملائه بعد قيام الثورة مباشرة كان في استطاعته أن يزورنا، ولم تكن زيارته إلا دليلًا على نزعته العروبية التي كان يعتز بها، وهي النزعة التي كان رئيسه السابق مصطفى النحاس باشا يتمثل بها، وقد حدثت من الأحداث في مصر أيام حكم حزب الوفد ما يدل على ذلك.

كانت الزيارة الأولى لصاحبنا إلى الكويت في سنة ١٩٥٥م وقد كانت بدعوة من النادي الثقافي القومي، وكان هذا النادي يحرص على دعوة عدد من السياسيين والمثقفين البارزين لكي يتحدثوا في محاضرات ينظمها بشكل دوري، يتناول فيها المحاضرون عددًا من الموضوعات التي تهم المجتمع العربي من جميع النواحي[1].

وكان هذا النادي قد بدأ عمله في أواخر سنة ١٩٥٢م حين دعا بموجب منشور وزعه على المواطنين إلى الانتساب إليه. وكان البدء في العمل نتيجة لاهتمام عدد من أبناء الكويت بالقضية العربية مما دعاهم إلى المبادرة على قدر الإمكان بما يستوجبه ذلك. ولقد كان قيام النادي بإصدار مجلته المعروفة باسم (الإيمان) في سنة ١٩٥٣م دليلًا على إيمان أعضائه بقضية العرب، وعلى الرغم من أن هذه المجلة قد توقفت عن الصدور في سنة ١٩٥٥م إلا إنها لاتزال في الأذهان.

دعي الدكتور محمد صلاح الدين إلى زيارة الكويت، وكان الداعي كما ذكرنا هو النادي الثقافي القومي، وكان النادي يأمل في أن يلقى الباشا محاضرة تتناول الأوضاع العربية كما تتناول تجاربه السياسية، وقد حدث ذلك، فحضر وألقى محاضرة احتشد لها عدد كبير من الراغبين في الاستماع إلى الرجل، وكلهم كانوا يسمعون عنه وعن أعماله ومعاركه السياسية حين كان وزيرًا لخارجية مصر قبل ثورة سنة ١٩٥٢م.

ولم نتمكن من الحصول على نص هذه المحاضرة، ولكننا نعرف أن ردود الفعل تجاهها كانت كثيرة ومتنوعة وقد ثبت أن هذا الرجل إذا تكلم فإن ما يقوله لا يمر

(١) قام مركز البحوث والدراسات الكويتية بإعادة طبع ما صدر منها، وهي معروضة لمن يريد.

ثم يذهب أدراج الرياح، والدليل على ذلك ما نشرته مجلة الإيمان في عددها رقم (١٦) الصادر في شهر أبريل لسنة ١٩٥٥م، فقد أشارت بصورة خاطفة إلى المواقف التي ظهرت بعد إلقاء المحاضرة، ثم قالت ما يلي: «حديث الجميع هذه الأيام هو الدكتور محمد صلاح الدين، ذلك الرجل الباسم القوي الذي ملأ قلوب الكويتيين إجلالًا له وتقديرًا لعلمه وفضله، وقد شجب الأحلاف شجبًا منطقيًا، كما غمز الجبهة الشيوعية غمزًا تحسس له الطابور الخامس عندنا مواضع أضلاعه وخرج ببغاواتهم وهم غير راضين عن الدكتور المخلص الجريء.

بقي أن الدكتور لم يُرض رجال الطابور الخامس من مأجوري الصحافة ولم يرض عبيد موسكو ودعاة الإباحية التحللية وعلى هذا يكون أرضى الفضيلة وأثلج صدور المخلصين».

ويكفينا هذا دليلًا على قيمة المحاضرة، وما جاء فيها.

هذا ما سمعناه من بعض أعضاء النادي الأقدمين، وما قرأناه في مجلة (الإيمان)، ولكن هذه المجلة ذكرت في موضع آخر من عددها الذي أشرنا إليه أمرًا إضافيًا آخر، حين تحدثت عن زيارة الدكتور محمد صلاح الدين للكويت، وبعد أن أشادت به، وبأفكاره النيّرة وإخلاصه لعروبته قالت:

«زار الكويت الدكتور محمد صلاح الدين بدعوة من النادي الأهلي وقد قوبل الدكتور العربي بحماس بالغ وألقى بضع محاضرات حول موضوعات الساعة التي تهم الوطن العربي، وكان إقبال الجماهير على سماع محاضراته عظيمًا جدًا ولم يسبق للكويت أن اهتمت بشخص يزورها قدر اهتمامها بالدكتور محمد صلاح الدين. ولا غرابة في ذلك فقد عرف الدكتور بأنه أحد الركائز المهمة للفكرة العربية في مصر، وأقيمت للدكتور حفلات التكريم في سائر الأندية المهمة ولولا ضيق وقته لشهد احتفالات أعم ولكانت الفائدة منه أكثر على كثرة ما قدم للشباب الواعي من فوائد».

وأضافت المجلة قائلة: «وقد أقام له النادي الثقافي القومي مأدبة إفطار يوم الخميس الموافق ١٩٥٥/٤/٢٨م. وكان وجوده فرصة طيبة حيث تحدث معه خلالها شباب النادي أحاديث قومية مختلفة كان فيها نعم الموجه في المجال القومي».

وفي الختام كان للمجلة تعليق مليئ بالأسف لعدم استفادة بلاده منه مع خبرته ودرايته وإخلاصه، تقول: «وإذا كان هناك ما يُؤسِفُ فهو عدم الاستفادة من عبقرية الدكتور، وتعطيل مصلحة كبرى للوطن العربي بإيقافه عن العمل السياسي الذي خُلق له».

وبعد حوالي ثماني سنوات جاء الدكتور محمد صلاح الدين إلى الكويت مرة أخرى، وكان مجيئًا مختلفًا عن مجيئة الأول، فهو في هذه المرة مدعو من قبل وزارة الخارجية وأمضى فترة تزيد قليلًا على السنة وكان ذلك ما بين سنتي ١٩٦٣م و ١٩٦٤م. وقد صار منذ وصوله مستشارًا قانونيًا يعمل في الدائرة القانونية في الوزارة المذكورة، وكان مقربًا من الجميع محبوبًا منهم، وكان أداؤه هو الأداء الذي اعتاد القيام به فهو يتقن تمامًا ما يؤديه من عمل تشهد له بذلك أعماله السابقة، كما يشهد بعض من زامله في وزارة الخارجية بالكويت، ونقول (البعض) لأن كثيرين منهم تركوا العمل أو تركونا إلى العالم الآخر في رحمة الله تعالى.

ومن الأمور الدالة على اهتمام الدكتور محمد صلاح الدين بالكويت قبل أن يأتي إليها رسالة بعث بها إلى الشيخ أحمد الشرباصي حينما كان هذا مدرسًا هنا. والرسالة مكتوبة في اليوم السابع والعشرين من شهر يناير لسنة ١٩٥٢م وفيها عن الكويت قوله: «وختامًا يهمني أن أسمع منك الشيء الكثير عن الكويت، ومهمتك فيها، لقد كان كتابك الأول أبلغ استهلال في هذا الشأن، ولكني انتظر المزيد فالكويت على صغر مساحتها، وقلة سكانها عظيمة الأهمية في كتلة الأمم العربية والإسلامية، ويمكن أن تصبح مصدر خير عميم لشقيقاتها إذا خلصت نيتها، وصحت وجهتها، ووقاها الله شر دسائس الكائدين ومطامع الطامعين».

وسوف يرى القارئ صورة للرسالة بخط يد كاتبها منشورة مع هذا المقال نقلًا عن كتاب الشرباصي: «أيام الكويت» ومن المهم أن نقول أن الكويت أخلصت النية، وتوجهت وفق ما أشار الباشا إلى خير الأمة العربية والإسلامية.

عندما وصلت في الكتابة عند السطر السابق لهذا الذي أقدمه هنا كنت أظن أن الحديث عن الدكتور صلاح الدين باشا قد انتهى، ولكن الأمر جرى بخلاف ذلك، فقد أمدني أحد الأخوة الأعزاء (لا يريد ذكر اسمه) بعدد من قصاصات الصحف التي صدرت في الزمن الماضي عندما كان الباشا يتولى مهمته الوزارية، وقد وجدت في بعضها ما لا ينبغي أن يترك لما فيه من دلائل على شخصية الدكتور ولما فيه من طرافة. وهذه هي النقاط التي التقطتها من بين مجموعة كبيرة من القصاصات:

- نشرت إحدى المجلات المصرية في عدد قديم لها أسماء أعضاء وفد مصر إلى جلسة الأمم المتحدة المنعقدة في باريس، وقد ذكرناها في المقال، ولم تكتف المجلة بذكر الأسماء فأضافت إلى ذلك بعض المعلومات عن هؤلاء الأعضاء ويكفينا هنا أن نشير إلى ما ذكرته عن الدكتور محمد صلاح الدين باشا فقد قالت إنه: «رئيس الوفد، ووزير الخارجية، في التاسعة والأربعين من عمره، يحمل ليسانس الحقوق، أتم دراسته العالية في باريس.. من زعماء الشباب في ثورة سنة ١٩١٩م، كان سكرتيرًا في مفاوضات (النحاس – هندرسون) ومفاوضات سنة ١٩٣٦م، ومفاوضات مونتريه، عين سكرتيرًا لوزارة الخارجية، ثم وكيلًا لها حتى أسند إليه منصب وزير الخارجية».

والخلاصة أن هذا هو ما كنت أبحث عنه، وقد تيسر لي الحصول عليه عبر هذه المجلة .

- كتب الصحافي الكبير والشهير فكري أباظة كلمة ضمن حديثه الأسبوعي تناول فيها مؤتمر باريس، وذلك تحت عنوان: «وزير الخارجية في باريس» ذكر فيها أهمية المؤتمر وأهمية دور الوفد المصري إليه، وذكر أن الفرصة المتاحة الآن هي عقد صلات مع عدد من زعماء العالم ممن يحضرون إلى باريس لهذه المناسبة الدولية، وذلك من أجل التعريف بقضية مصر، والدعاية لها على مستوى العالم.

وفي آخر حديثه قال فكري أباظة: «إن صلاح الدين باشا شخصية غير محبوبة من الساسة الإنجليز، ولكن ذلك الحب الإنجليزي قد انقضى عهده منذ زمن بعيد، وقد عودتنا السياسة البريطانية أنها لا تلتوي إلا أمام شخصية عنيدة مؤمنة بحق بلادها، وبجهادها، وهم يجدون هذه الصفات في شخصية الوزير المصري الشاب.. فلندع له بالتوفيق».

- هذا موقف من المواقف الطريفة، يكشف لنا عن ناحية من نواحي شخصية الدكتور محمد صلاح الدين، ذلك أنه أقيمت حفلة ساهرة أحيتها كوكب الشرق أم كلثوم على شاطئ من شواطئ مدينة الإسكندرية، وقد كتبت مجلة المصور- آنذاك- وصفًا لتلك الحفلة جاء فيه ما نصه: «كانت الحفلة الساهرة التي أقامتها مصلحة خفر السواحل في الأسبوع الماضي، في نادي الصيد الملكي بالإسكندرية حفلة ناجحة حقًا.. لقد حضرها نحو أربعة آلاف شخص، وجلسوا جميعًا في مقاعدهم في ربع ساعة.. ولبثوا ينتظرون في هدوء ظهور «أم كلثوم».

وقبل أن تغني «أم كلثوم» حاول بعض المشرفين على النظام معرفة الأغاني التي ستلقيها.. فقالت لهم إنها سر لا يمكن إذاعته، كأسرار المفاوضات تمامًا.. ووصل هذا الرد إلى الدكتور محمد صلاح الدين باشا وإبراهيم فرج باشا، فقال الأول للثاني: «يقولون إن الجنس اللطيف لا يكتم الأسرار، وهذه هي أم كلثوم تحرص على الكتمان».. فقال إبراهيم باشا: «إذن تشترك معنا في أي مفاوضات ندخل فيها بعد ذلك!».

وقبل أن تبدأ الوصلة الثانية أرسل إليها حيدر باشا الصاغ عمر سليم يطلب أن تغني «ولد الهدى».. وأرسل إليها حنفي محمود باشا يطلب أن تغني «رباعيات الخيام»، فقالت لحنفي محمود باشا ومن معه: «ولد الهدى.. بأمر القائد العام»..

وبين الوصلتين الأولى والثانية، طاف على الحاضرين سرب جميل من الفتيات وكن يبعن الزهور ويجمعن النقود لإنشاء المبرة التي أقيمت الحفلة من أجلها.. وتقدم السرب إلى عبدالفتاح حسن باشا فقال لهن: «ألم تقرأن حديثي في «المصور»».. فقالت إحداهن: «قرأناه.. ولا نريد إلا القروش.. وسنترك لك الجنيه!» ثم تقدم السرب إلى الدكتور حامد زكي باشا فقال لهن:

– عبدالفتاح باشا له في البنك جنيه وقروش، ولكنني أنا مديون! وذهبن إلى اللواء وحيد شوقي بك، فقال لهن: «أنا صاحب الحفلة!..» فقالت له إحداهن: «ادفع.. ولو كده وكده.. علشان تشجع الوزراء!» فدفع جنيهًا.. وإذ ذاك قام له غنام باشا: «اطلع من دول.. أنت حتاخده منهم تاني».. فقال وحيد بك: «الدنيا غلاء.. والذي يدفع جنيهًا كأنه لم يدفع إلا عشرة قروش».. فقال غنام باشا، وهو وزير التجارة والصناعة: «وبعدين.. بلاش كلام في السياسة دلوقت».

واستكمالًا لما ذكرته المجلة فإنها أشارت إلى نادرة من نوادر أم كلثوم التي تفردت بها، تقول المجلة: «وكان الحر شديدًا، على الرغم من أن الحفلة كانت على شاطئ البحر وفي الهواء الطلق.. وعرقت أم كلثوم فقالت: «أنا دلوقتي باغني بالبخار»!.

– كان الدكتور صلاح الدين وديعًا في تعامله مع غيره من السياسيين، وكان لا يأبه بأن يكون وزيرًا للخارجية أم يبقى بعيدًا عن هذا العمل. وهو بسبب ما كان يحسه من أعمالُ تناقض توجهاته وأعماله ضمن وزارة مصطفى النحاس باشا كان عازمًا على ترك الوزارة والبقاء بعيدًا عن الهموم السياسية، ولكنه اضطر للخروج

مع الجميع حين حدث حريق القاهرة في ٢٦ من يناير لسنة ١٩٥٢م، فاستقالت حكومة الوفد برمتها. ولقد كتبت مجلة «آخر ساعة» في تلك الفترة عن هذا الأمر تحت عنوان: «صلاح الدين في القطيع الأسود» وجاء في ذلك ما يلي: مسكين هذا الرجل محمد صلاح الدين، إنه يقف وحده كالحمل الأبيض الوديع وسط القطيع الأسود.

لقد كانت هناك حملان بيضاء وديعة في ذلك القطيع قبله ولم يكن أمامها إلا مهربان..

أن تشرد عن القطيع وأن تباعد فيما بينها وبينه أو تنزوي داخل نطاقه وتنتظر المكتوب، أما هو فلم يتعلم الدرس الذي تلقته الحملان البيضاء قبله، فلا هو ابتعد، ولا هو وضع يده على خده وانتظر المكتوب.

إنه يقف وحده ويحاول ألا يصدق وأحيانًا يحاول أن يضع يديه على عينيه حتى لا يرى ما يضطره لأن يصدق وفي هذا الأسبوع فجع الحمل الوديع بقصة محاولة صاحب المقام الرفيع رئيس الوفد الاتصال بالإنجليز وإبلاغهم أنه في المرة القادمة سيكون عاقلًا متزنًا وسيكون ضمان هذا الهدوء إبعاد صلاح الدين.

إن هذه القصة لم تكن مجرد إشاعة، ربما كانت واقعة يؤيدها أكثر من دليل... ومن هنا كانت فجيعة الحمل الوديع أن مبعث الفجيعة لا يرجع إلى أنه لن يكون – طبقًا لوعود النحاس باشا على لسان وسطائه – وزيرًا للخارجية – إذا جاء الوفد إلى الحكم..

لا ترجع الفجيعة إلى هذا فإن صلاح الدين لا يهمه كثيرًا أن يكون وزيرًا للخارجية: بل هو أن حوادث ٢٦ يناير لم تحدث، ووزارة الوفد لم تخرج من الحكم بسببها، لعاد صلاح الدين من باريس وزيرًا سابقًا للخارجية، لأنه كان سيقدم استقالته من الوزارة قبل أن يخطو خطوة واحدة في الطريق إلى القاهرة.

هذه حقيقة يعرفها كل الذين اقتربوا من صلاح الدين باشا في باريس والذين سمعوه يقول أكثر من مرة:

- أنا لست وزير خارجية مصر، إنما أنا هنا رئيس وفدها لدى الأمم المتحدة.

وإذن فما مبعث فجيعة صلاح الدين لا شيء... لا شيء إلا أن الحمل الأبيض الوديع يكتشف يومًا بعد يوم.. أنه يقف وحده في القطيع الأسود».

كان الدكتور محمد صلاح الدين باشا رجلًا لا يُنسى ولا تنسى أعماله، وقد مضى وترك ذكرًا حميدًا ومحبة لدى كافة أبناء وطنه، بل ولدى عدد كبير من أبناء الأمة العربية. رحمه الله.

ملاحظة

قد يتساءل القارئ، من الذي دعا الباشا إلى زيارة الكويت في سنة ١٩٥٥م؟ هل هو النادي الأهلي كما قالت مجلة «الإيمان»؟ أم النادي الثقافي القومي الذي رحب به وأقام له مأدبة؟ وللرد على ذلك فإن ما قدمناه هو ما ورد في المجلة التي يصدرها النادي الثقافي القومي، وليس هناك ما يمنع من تعاون الناديين على القيام بدعوة الباشا، وترتيب لقاءاته في الكويت، وقد سبق لهذين الناديين أن تعاونا في مبادرات أخرى مشابهة.

****

ملحاق خير

عرفنا مدى اهتمام الدكتور محمد صلاح الدين باشا بمسألة تأميم قناة السويس، وهو اهتمام نابع من عنايته الكبرى بمسألة جلاء البريطانيين عن مصر. وعرفنا أنه كفل التغطية الرسمية والقانونية لوجود الدكتور مصطفى الحفناوي في باريس، فهو هناك طالب من طلاب الدراسات العليا، ولكنه بموجب التعليمات التي تلقاها من الباشا وزير الخارجية كان ينبغي أن يهتم في أثناء وجوده هناك بمسألة قناة السويس، وأن يكون قريبًا من إدارتها الرئيسية حتى يتوصل إلى أدق المعلومات عنها وبالتالي يبلغ حكومته بما يتوصل إليه من ذلك. وبالفعل فقد اجتهد الدكتور الحفناوي حتى نجح في مهمته الاستطلاعية هذه، ونجح في الحصول على شهادة الدكتوراه كما رأينا في المقال المنشور بجوار هذا الملحاق. ولئن كان الدكتور محمد صلاح الدين، قد خرج من الوزارة بعد ذلك بخروج حزب الوفد منها، فإن الدكتور مصطفى الحفناوي لم يتخل عن متابعة مسألة تأميم قناة السويس واعتبرها قضيته بقدر ما هي قضية بلاده، تابعها مع الوزارة اللاحقة، ثم مع مجلس قيادة الثورة عندما قامت ثورة يوليو لسنة ١٩٥٢م، وقد ذكر عنه أنه لعب دورًا كبيرًا في تأصيل اهتمام الضباط الذين قاموا بالثورة بمسألة تأميم شركة قناة السويس، كما قام بأمر من الرئيس جمال عبدالناصر بتحضير قرار التأميم ذاته، وكان قد هيأ لما بعد التأميم من إعداد الخطط التي تكفل استمرار العمل في القناة عندما تكون في عهدة الحكومة المصرية ولم تغب عنه غائبة فيما يتعلق بذلك، وكانت خطة العمل التي أعدها لهذا الغرض هي التي جعلت القناة تسير دون معوقات تذكر على الرغم من المحاولات التي بذلتها الدول المساهمة في الشركة ولقد كان التحضير الجيد لما

سوف يجري بعد التأميم، وعدم ترك الأمور لظروفها سببًا مهمًا من أسباب نجاح مصر في هذه الناحية.

يبدو أن الرئيس جمال عبدالناصر كان يعرف منذ بداية قيام الثورة بمسألة إمكان تأميم قناة السويس، بل ويعرف أن هذا الأمر قد بحث من قبل دون أن تتاح الفرصة لتحقيقه باعتباره أملًا من آمال الأمة في مصر. وفوق هذا فإنه كان يعرف الرجال الملمين بهذا الموضوع ومنهم الدكتور مصطفى الحفناوي، ولذا فإن عبدالناصر لم يضيع وقتًا فقام في شهر أغسطس لسنة ١٩٥٢م أي بعد الثورة بشهر واحد بدعوة الدكتور الحفناوي إلى مكتبه من أجل الاستماع إليه وهو يتحدث عن تأميم قناة السويس، وكانت جلسة مهمة دار خلالها نقاش طويل تناول كافة جوانب الموضوع، ولأن عبدالناصر كان مقتنعًا بكل ما سمعه من هذا الرجل فإنه دعاه مرة أخرى إلى نادي الضباط بمنطقة الزمالك لكي يلقي محاضرة على الضباط حول الموضوع، كانت الأولى من نوعها من حيث فتح الحديث حول تأميم قناة السويس. وعندما تأسس المكتب الذي أوكل إليه الإعداد لهذا المشروع القومي الكبير كان الدكتور الحفناوي من أبرز العاملين في هذا المكتب، وعندما تم تأميم قناة السويس كانت من مهماته إضافة إلى أعمال كثيرة أخرى أن تولى الدفاع المدني القانوني عن الحكومة المصرية حين قامت الشركة الفرنسية برفع عدة قضايا، وقد بذل جهدًا كبيرًا في هذا السبيل تكلل بالنجاح والتوفيق.

لقد كانت عملية تأميم القناة منذ بدأت فكرة في رأس محمد صلاح الدين باشا إلى أن تلقفها ودرس كل جوانبها الدكتور مصطفى الحفناوي ونقلها بدوره إلى جمال عبدالناصر والضباط الذين قاموا بثورة يوليو ملحمة وطنية بكل المقاييس، ولئن كان الرئيس عبدالناصر قد تحمل العبء كاملًا، ولقي في سبيل تحقيق التأميم الكثير من الصعوبات فإننا لا ننسى أن شرارة العمل تبدأ من الرجلين

اللذين ذكرناهما، على أن هذا لا ينسينا جهود الآخرين من أبناء مصر الذين كان منهم الزعيم الوطني محمد فريد الذي كتب في سنة ١٩٠٩م، كما كتب في سنة ١٩١٠م. معترضًا على محاولات تمديد امتياز القناة مطالبًا بعودتها إلى مصر، إضافة إلى أعمال وطنية عدة في هذا المجال.

ولابد لنا ونحن نتحدث في موضوعنا هذا أن نذكر كتاب الدكتور مصطفى الحفناوي: «قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة»، وهو من أهم الكتب التي صدرت حول موضوع القناة وما دار حولها من الناحيتين التاريخية والسياسية، ولا شك في أن الدكتور الحفناوي هو خير من يكتب في هذا المجال لأنه درسه دراسة علمية أولًا ثم اضطلع به بصفته مستشارًا وقانونيًا ومنظمًا، يتكون الكتاب من اثني عشر فصلًا تبدأ المقدمة والفصل الأول بخلفية تاريخية عن نشأة القناة وظروف تلك النشأة، والسبب الذي أدى إلى فتحها بما في ذلك من تيسير للملاحة وتوفير في وقت السفن المبحرة، وفي الفصل الثاني والثالث حديث عن المساعي الفرنسية لربط البحرين الأحمر والمتوسط إلى أن جاء بونابرت إلى مصر وخاض على هذا الطريق منافسة مع بريطانيا. ثم استمر في باقي الفصول ليتحدث عن حكام مصر الأقدمين منذ عهد محمد علي الذي كان معارضًا لإنشاء القناة، وسعيد باشا الذي منح (الفرمان) الخاص بعمل هذا المشروع لفرديناند ديليسبس.

ولما كان الكتاب قد صدر في عدة أجزاء فلنا أن نتصور ضخامة المعلومات التي وردت فيه، وأن نتوقع -أيضًا- أهميتها لأنها صادرة من رجل جعل قناة السويس همه منذ بدء دراسته ثم حصوله على شهادة الدكتوراه من فرنسا مستعينًا بالمعلومات التي وفرتها له شركة قناة السويس «المركز الرئيسي في باريس»، وهي لا تعلم أن هذا الرجل سوف يكون خنجرًا في خاصرتها.

****

ملحاق خير

من المآخذ التي نراها تسيطر علينا أكثر مما نراه عند الآخرين مأخذ يتنافى عند عدم تلافيه مع إنسانية الإنسان وطباعه التي ينبغي أن يعمها الوفاء لمن عمل معه وارتبط معه فترة من الزمن.

وإذا كان الأمر كذلك فما هي الحال إذا كان الأمر متعلقًا برجل عاش معنا وعمل في منشآتنا الصحية طبيبًا ومحاضرًا وباحثًا فترة من الزمن اكتسب خلالها ثقة المسؤولين والمرضى وثقة كل من عرفه وأدرك ما يتصف به من علم وأخلاق ولباقة وحب للناس.

هذا هو الدكتور مدحت محمود أحمد مختار الذي عرفته شخصيًا وراجعته مريضًا ووجدت فيه كل الصفات الطيبة، وهو مؤهل أفضل تأهيل للعمل في مهنته الإنسانية المرموقة، فقد تخرج في كلية الطب بجامعة القاهرة سنة ١٩٦٨م، وحصل منها في سنة ١٩٧٤م على دبلوم الأمراض الباطنية، وصار عضو كلية الأطباء الملكية بإيرلندا سنة ١٩٨٨م، وزميلًا في كلية الأطباء الملكية بإيرلندا في سنة ١٩٦٩م.

وللدكتور مدحت ثلاثة أولاد هم محمد ومحمود وقد تخصصا في مهنة والدهما: الطب، وهما يعملان في مستشفيات الكويت، وتخصص الثالث وهو أحمد في الهندسة وعمل في حقلها وهو حاليًا يدير مشروعات إنشائية في أبوظبي، وهو من مواليد الكويت، وأخوه محمود كذلك.

ولو أردنا أن نتتبع الأعمال التي قام بها الدكتور مدحت مختار خلال فترة عمله في الكويت لوجدنا أن من الصعوبة بمكان أن نحيط بها فهي كثيرة جدًا تعرفها وزارة الصحة جيدًا، فهو استشاري كبير، ومدرس في كلية الطب، ومحاضر في قسم الدراسات العليا بها، ورئيس لأقسام الأمراض الباطنية في مستشفى مبارك الكبير بجانب رئاسته لوحدة بقسم الأمراض الباطنية، هذا بالإضافة إلى أعمال أخرى قام بها أو لايزال يقوم بها وكلها مرتبطة بتخصصه، مع عدد من البحوث الطبية التي أعدها ونشرها في كبريات المجلات العلمية الدولية.

في فترة الغزو العراقي الغاشم لدولة الكويت تابع الدكتور مدحت عمله في مستشفى مبارك الكبير حتى شهر أكتوبر لسنة ١٩٩٠م، ثم غادر إلى القاهرة، وكان في هذه الفترة يتعاون مع المكتب الصحي الكويتي هناك، وصار عضوًا في البعثة الطبية الأولى التي غادرت القاهرة في شهر يناير لسنة ١٩٩١م، واستقرت في جدة إلى أن دخلت إلى الكويت بعد التحرير مباشرة، وكانت مساهمته مع زملائه الأطباء -واضحة- في إعادة الخدمات الصحية الكويتية إلى ما كانت عليه قبل الغزو.

وكما ذكرت فإن أعمال الرجل هنا كثيرة ومتشعبة وكلها تدل على فهمه لعمله وحسن أدائه له.

وبعد هذه الجهود يجد الدكتور نفسه في موقف حرج فقد صارت سنه الآن عقبة في طريق استمراره في العمل، وإذا لم تجدد له وزارة الصحة عقده فإنه ربما غادرنا.

وهو إن استغنت عنه هذه الوزارة فسوف يجد عملًا آخر في بلد آخر قد يكون أفضل له ماديًا، ولكنه ارتبط معنا بعواطفه وبالصداقات التي كوّنها طوال فترة بقائه في الكويت.

أليس من الأصلح أن يبقى هنا بعد كل ما قدم؟

إنني لست على يقين بأن الوزارة تنوي إنهاء عقده بسبب السن، ولكني لابد أن أشير إلى هذا الوضع من البداية حتى لا يقع ما ليس في الحسبان، وأنا على ثقة بأن الدكتور وزير الصحة حريص على بقاء الكفاءات في وزارته، ولا يمكن أن يفرط بواحد مثل الدكتور مدحت مختار، وبخاصة إذا اطلع على ملفه، وعلم بإنجازاته.

****

قراءة قصة المولد النبوي الشريف في الكويت قديمًا[1]

احتفل العالم الإسلامي بالأمس بقدوم يوم مهم في تاريخ الإسلام والمسلمين، وهو يوم يوافق في هذه السنة الثلاثاء الثاني عشر من شهر ربيع الأول، وفيه كان مولد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم.

كان الكويتيون - بوجه خاص - يهتمون بهذه المناسبة المباركة، ويحتفلون بها في كل سنة عن طريق قراءة قصة المولد النبوي الشريف. وكانت هذه القراءة تتم في المساجد وفي الديوانيات والمكاتب والمنازل وكان يحتفل بها الرجال والنساء بل والأطفال، وكانت المدارس تعطل في هذا اليوم على الرغم من أن المدارس في ذلك الوقت فلما تعطل على خلاف أيامنا التي تعطل مدارسنا ودوائرنا الحكومية فيها لأيام ولمناسبات ليست بحجم هذه المناسبة، ونحمد الله أن تعطيل المدارس ابتهاجًا بالمولد النبوي قد صار سنة لا تزال المدارس تعمل بها، ولكن كثيرًا من مظاهر الاحتفال التي كانت تتم في الأيام الماضية قد انحسرت وقل وجودها.

كان أئمة المساجد يقرأون قصة المولد النبوي مساء اليوم الذي يصادف تاريخه وهو كما قلنا الثاني عشر من شهر ربيع الأول، ما عدا مسجدًا واحدًا أذكره جيدًا هو مسجد المديرس الذي كانت القصة تروى فيه يوم الثامن عشر من الشهر نفسه، وكان إمامه يقصد من وراء ذلك أمرين أولهما: أن يحتشد له الناس الذين كانوا يتفرقون بين المساجد في اليوم السابق ذكره وهو الثاني عشر، وثاني الأمرين

---

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١١/٢/١٦م.

أنه يسير على رواية أخرى ذكرت أن المولد الشريف تم في اليوم الثامن عشر. وكان هذا المسجد أكثر ما يكون امتلاءً في هذه الليلة وبخاصة وأن إمامه يتميز بصوت جميل، وقراءة متأنية.

أما ما كان يقرأه أولئك الأئمة فهو كتاب كانت له شهرة كبيرة وهو كتاب (المولد) للبرزنجي.

كنت انتقل في الصغر من مسجد إلى آخر من أجل الاستماع إلى ما اصطلح الناس على تسميته بالمولد أو المولود وفي بعض الأحيان: المالد. وكان أحد أخوالي وهو الخال صالح سليمان الجراح[١] أطال الله في عمره يصطحبني معه لأن الليل يمتد في أثناء القراءة التي تبدأ بعد صلاة العشاء.

وأذكر أن القهوة المرة والقهوة الحلوة وأحيانًا الشاي يدار بها بين المستمعين احتفاءً بهذه المناسبة، وذلك تبرعًا من أحد أو بعض سكان المنازل المحيطة بالمسجد، وهذا أمر قائم في مساجد الكويت في المناسبات الاحتفالية ومنها أوقات صلاة القيام خلال شهر رمضان المبارك.

ومسجد المديرس من مساجد الكويت الموغلة في القدم بالنسبة إلى تاريخ نشأة الكويت، فقد بناه المرحوم عبدالله المديرس في سنة ١٢٢٥هـ التي توافق سنة ١٨١٠م، أما الإمام الذي حضرت قراءته للمولد النبوي في ذلك الوقت فهو رجل صالح لا أذكر اسمه الآن وكانت قراءته محببة إلى النفوس لما كان يتميز به من الورع، وقد أحب الناس فيه هذه الصفة فأقبلوا عليه حتى ضاق بهم المسجد على سعته.

يقع مسجد المديرس أمام المدرسة القبلية للبنات القائم مبناها حاليًا، ولكن هذا المبنى (أي المسجد) مُستَغل لصالح المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،

(١) انتقل إلى رحمة الله تعالى بعد نشر هذا المقال وذلك في ٢٠١٣/٣/٢٢م.

وهو إلى الجنوب من المدرسة، وقد اهتمت به دائرة الأوقاف العامة منذ نشأت فجددت بناءه في سنة ١٩٥٦م، ثم قامت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ببنائه من جديد في سنة ١٩٨٤م، وهو على حاله منذ ذلك اليوم.

ومن المساجد التي كان الناس يسارعون إليها من أجل سماع قصة المولد من الإمام مسجد الساير الشرقي وهو مسجد لايزال قائمًا يطل على مبنى قصر العدل، وقد أنشئ في سنة ١٣١٢هـ التي توافق سنة ١٨٨٤م، وقد قامت دائرة الأوقاف العامة بتجديده في سنة ١٩٥٥م وكان افتتاحه بعد التجديد يومًا مشهودًا في فريج الشاوي، وقد حضر على رأس المحتفلين بذلك المرحوم الشيخ عبدالله الأحمد الجابر الصباح وعدد من مسؤولي دائرة الأوقاف العامة. وقد أسعدني أن أحضر هذا اليوم الذي كان كبيرًا عندنا بحيث ظل أبناء الفريج يتحدثون عما جرى فيه طويلًا.

هذا الإمام يقرأ البرزنجي ويخلط معه بعض الأناشيد التي يرددها بصوت شجي، وأداء معبّر هو الشيخ الملا محمود بن الملا محمد، وهو - أيضًا - من السكان القريبين من فريج الشاوي في إحدى ضواحيه القائمة غربًا عنه. وهو الذي بدأت الدراسة على يديه إذ كانت له مدرسة أهلية يديرها والده، وهو يساعد الوالد، وقد ترك الرجل وأسرته جميعًا ذكرًا عطرًا في الفريج لما تميزوا به من حسن الخلق وحب الخير والوفاء. ولقد انقطعت هذه العادة (عادة قراءة البرزنجي) عن كافة مساجد الكويت الآن، وتم الاكتفاء بالحفل السنوي الرسمي الذي تقيمه دائرة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، وهو حفل لولا إذاعته بواسطة التلفاز لما علم به أحد.

ويبدو أن قراءة المولد للبرزنجي كانت قديمة هنا ومما يذكر في هذه السبيل ما أورده الشيخ يوسف بن عيسى القناعي عندما كتب عن نشأة المدرسة المباركية

والأسباب التي دعت إلى ذلك، ضمن حديثه عما تم في سنة ١٩١٠م يقول: «كان الشيخ محمد بن جنيدل يقرأ البرزنجي في محلنا وكان المجلس محتشدًا بالمستمعين، فلما انتهى المولد قام المرحوم السيد ياسين طبطبائي وألقى كلمة خلاصتها «ليس القصد من مولد النبي تلاوة المولد وإنما القصد الاقتداء بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من الأعمال الجليلة. ولا يمكننا الاقتداء به إلا بعد العلم بسيرته. والعلم لا يأتيكم اليوم إلا بفتح المدارس المفيدة، وإنقاذ الأمة من الجهل». وبعدما انتهى كلامه تدبرته فإذا هو الحق فأخذت أفكر في الوسيلة التي يكون بها فتح مدرسة علمية».

كانت هذه المناسبة التي أدت إلى نشأة المدرسة المباركية في اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول لسنة ١٣٢٨هـ الموافق لليوم الثاني والعشرين من شهر مارس لسنة ١٩١٠م. ولهذا الحدث عدة دلالات هي:

١ - أن قصة المولد كانت تقرأ في أي مكان يمكن أن يجتمع فيه الناس ولو كان مكتبًا تجاريًا.

٢ - أنه على الرغم من أن الجالسين كانوا من المتعلمين وبعضهم كالشيخ يوسف بن عيسى من العلماء لكنهم طلبوا من الشيخ محمد بن جنيدل أن يقرأ لهم.

٣ - أن قراءة المولد والاحتفال به كانا قديمين في الكويت، لأن الحادثة رواها الشيخ يوسف وحدثت في سنة ١٩١٠م ليس فيها ما يدل على أن هذه هي المرة الأولى التي يجتمع فيها جمع من الناس لسماع قصة المولد، مما يوحي بأن هذا الأمر قديم في البلاد، وقد درج عليه السكان منذ وقت لا تعرف بدايته.

ومحمد بن جنيدل الذي ذكره الشيخ يوسف بن عيسى، من مواليد سنة

١٨٩٠م، وكان مولده في الحي القبلي من الكويت (العاصمة)، درس في الكتاتيب التي كانت بالقرب من سكنه، وتلقى العلم على أيدي عدد من العلماء، ثم جلس للقاء طلاب العلم، وكان إمامًا وخطيبًا ويتولى كتابة عقود الزواج ويفتي في المسائل الفقهية، وكان محبًا للخير، لا يتقاضى مالًا من أولئك الذين يدرسهم، تبرع لبناء المدرسة المباركية عندما علم أن جمع التبرعات لها قد بدأ.

توفي- رحمه الله- في سنة ١٩٣٠م.

وللنساء - أيضًا - جلسات لقراءة المولد أو قصة المولد، فهذه امرأة صالحة تسكن في فريج الشاوي تحيي المناسبات الدينية، نُسميها مْطوّعة أمينة، وقد جرى عليها اسم أمينه لِيهَرَهْ (أي الجهراء) ربما تكون قد جاءت من هناك في بداية حياتها. وقد كانت تقرأ المالد في موعده، ويتجمع حولها النسوة للاستماع وترديد الأدعية والصلاة على الرسول الكريم، كما يتجمع الأولاد في خارج بيتها يلعبون ويصخبون، ويشترون ما يشاؤون من حلوى عندما يمر بهم الباعة المتجولون الذين يستغلون هذه الفرصة لترويج ما لديهم من بضاعة.

أذكر أن هذا اليوم كان من أسعد الأيام، وكنا في زمن الطفولة نترقب قدومه.

وكلمة (المالد) المتداولة في ذلك الوقت تدل على الحفلة التي يجتمع فيها الناس لقراءة ما كتبه البرزنجي عن مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي تقام في ذكرى ميلاده الشريف، وتطلق هذه الكلمة - أيضًا - على الورقات التي تتضمن الحديث عن المولد، وهي من تأليف جعفر البرزنجي.

وهنا سوف أتحدث عن هذا النوع من الموالد إلا أنني سوف أمر سريعًا على بعض الأنواع دون التركيز عليها، ذلك لأن هناك جلسات تسمى المالد أو المولود وهي لا تتعلق بزمن معين، يقوم بها أشخاص اعتادوا حضور هذه الجلسات، وترديد

النشيد فيها، كما يقوم بأمرها رجال لكل واحد منهم مهمته أثناء الجلسة ولهذا الأمر تفصيل كثير لا سبيل إلى الحديث عنه لضيق المجال من جهة، ولأنه ليس هو ما أريد الحديث عنه من جهة أخرى، فقد ذكرت سالفًا ما أريد ذكره في مقالي هذا.

قبل أن استطرد في حديثي عن مولد البرزنجي الذي كان يُردّدُ فيما مضى، فإنني لابد وأن أذكر ما يلي:

لم يكن علماء الدين الكويتيون يرون بأسًا في الحضور والاستماع، ولم يكونوا يرون فيما يُقرأ مما كتبه البرزنجي شيئًا مخالفًا للدين. وكان عدد منهم ممن ينتهج منهج السلف، ولكنهم لم يتوقفوا عند أمر المولد بل لقد رأوا أن الاحتفاء بيوم مولد الرسول الكريم هو يوم على خلاف باقي الأيام فهو اليوم الذي أشرق على الدنيا بنور النبوة المباركة والاحتفال فيه نوع من تبجيل رسول الله، والتعبير عن محبتنا له، وللرسالة التي حملها إلينا من رب العالمين.

ولقد وجدت عددًا من الأحاديث التي تدعو إلى محبة الله ورسوله، وهذا الاحتفال الذي ليس فيه مظهر من المظاهر المخالفة للشرع إنما هو تعبير عن المحبة المطلوبة لله ولرسوله من كل مسلم.

وهذان حديثان وردا في كل من صحيح البخاري وصحيح مسلم يؤكدان على ضرورة أن يحب المسلم ربه ونبيه أولهما حديث سيدنا أنس بن مالك الوارد في صحيح البخاري وصحيح مسلم الذي جاء في أوله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان؛ وإحدى الثلاث: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما».

أما الحديث الثاني فقد ورد - أيضًا - في البخاري ومسلم وهو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين».

شيء آخر ينبغي أن أشير إليه هنا وهو قول البعض إن الاحتفاء بالمولد النبوي بدعة، ولقد ردّ أحد الكتاب على هذا القول ردّا واضحًا وجيدًا فذكر أن هذا العمل (الاحتفاء بالمولد) إذا كان بدعة لأنه ابتدع بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن هناك العديد من الأمور التي أخذ بها المسلمون وبخاصة الصحابة رضوان الله عليهم ولم تكن على عهد رسول الله، فهي بحسب المصطلح بدعة ولكنها بدعة حسنة، وهناك من الأعمال التي نذكر منها على سبيل المثال: نقط المصحف.

ويرد هذا الكتاب على مثيري الأقوال التي تمنع قيام المسلمين بالتعبير عن محبتهم لنبيهم صلى الله عليه وسلم فيقول: «أما المقصود بقوله صلى الله صلى الله عليه وسلم: «كل محدثة بدعة...» وقوله: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ». فإنه بذلك يعني ما خالف الشريعة، وأخذ فيه المرء بالرأي وبالهوى».

إذن فلا مجال للتوقف عن الاحتفال بالمولد النبوي كل سنة، وهو احتفال ليس فيه من المظاهر الاحتفالية التي تخالف ظاهرًا من الدين بل كان يقتصر على قراءة قصة المولد كالسابق أو إلقاء كلمات بسيطة كما يجري عندنا اليوم، ولذلك فإنني كررت هنا كلمة (الاحتفاء) وهي تعني الاهتمام بهذا اليوم المبارك.

وعندما أقول هذا فإنني لا أقصد الموالد التي نشهد فيها الرقص والضرب على الدفوف، والتغنّي بالمحرمات من الكلام والأصوات، ولكنني أقصد الاحتفاء اللائق الذي لا خروج فيه عن الدين والعرف، وهذا هو ما كان سائدًا عندنا في الكويت.

أما البرزنجي فهو زين الدين جعفر بن حسن البرزنجي المتوفى في سنة ١٧٦٤م، وقد عرف بأنه فقيه أديب من أهل المدينة المنورة، ولد فيها ونشأ وتوفي. ويقال إنه كان مفتيًا لأتباع المذهب الشافعي هناك.

ولعلك تلاحظ الضعف الشديد في لغة البيت المتقدم ولكن هذا ما كان بإمكانهم أن يقدموه في تلك الأيام.

يمضي الليل وهم ينشدون إلى أن يصلوا إلى نهاية حفلهم هذا، وعند ذلك يقفون متقابلين ويرددون نشيدًا موحدًا بينهم. ثم يقدم لهم طعام العشاء أما نحن المشاهدين فنجلس على الأرض نحيط بهم ونستمع اليهم، وكلٌّ منا ينصرف عندما يجد نفسه قد اكتفى بمشاهدة وسماع ما مرّ عليه. لقد كانت ليلة جميلة سعد بها أبناء الفريج إذ كان الباب مفتوحًا لهم جميعًا، ولم تكن هناك دعوة مقصورة على أناس بعينهم.

وشهدت حفلًا للمولد النبوي في سنة ١٩٦٩م، وكان بمبادرة خاصة مني، وقد دعوت إليه زملائي القدماء في معهد الكويت الديني الذين تميزوا بإجادة الإنشاد وقد كانت ليلة من أجمل الليالي أبدع فيها المنشدون وأجاد المرددون، وكان من ضمن الذين شاركوا المرحوم علي حسين الحسيني وهو قارئ للقرآن في الإذاعة معروف، ومنشد من الدرجة الأولى، ومنهم المرحوم يعقوب اللوغاني وهو مبدع في هذا المجال، وقد أسعدني الحظ فأهداني شقيقه الأخ خليفة اللوغاني شريطًا سجل فيه جلسة من جلسات المولد التي أنشد فيها، وكان إلقاؤه واضحًا ورقيقًا في الوقت نفسه. ولا أريد أن أطيل في ذكر الباقين فقد كان عددهم كبيرًا. وكانت سعادة الجميع في النهاية غامرة، أما لحن الختام فكان نشيدًا قصيرًا مما يردده الصوفية دائمًا، وهو قولهم:

دعْ طرق الغيْ

فالدُّنيا فيْ

الكلُّ يفنى

والباقي حيْ

رحم الله من توفي منهم، وأطال في أعمار الباقين.

هذه اللقاءات تتكرر في كل مكان في السابق ويمكن أن يكون شيء منها قائمًا إلى الآن في الكويت، ولكننا لا نعلم عنه الكثير، على العكس مما كان سائدًا في الماضي من وجود فرق بعينها ذات نظام دقيق يشرف عليها مسؤولون، يؤدون ما تحتاج إليه من خدمات أثناء العمل وقبله بحيث يكون ما يقدمونه على مستوى راقٍ من الإتقان، ويكون اللقاء بعيدًا عن الفوضى التي تعم في أماكن التجمعات إن لم يكن هناك من يقوم بالضبط. وبما أن العمل هو عمل فرقة فإن حكمها حكم غيرها من الفرق التي تقوم بأعمال أخرى لها رئيس ومساعد ولها مراقبون ومشرفون على تقديم الأدوات والمشروبات والمأكولات وغيرها لأفراد الفرقة وللحاضرين للاستماع إليها. وكانت فرقة الشيخ محمد الدوب من أهم الفرق الخاصة بالمالد وأكثرها شُهرةً، وَيُطلبُ الدوب لأداء المالد في المنازل وفي الديوانيات، ويحتشد الناس لسماعه، وقد صارت له أناشيد معروفة ومحفوظة في أذهان الناس ومنها هذه النشيدة المشهورة في ذلك الوقت:

صلى عليكَ اللهُ يا العدناني

يا المصطفى يا صفوةَ الرحمنِ

قفْ لي قليلًا حاديَ الأظعانِ

قلبي كَوَتْهُ جمرةُ الأشجان

يا ليلُ لا تهجر وَعُدْ من شاني

فالقلبُ في قربِ الأحبةِ هاني

وتجد الملا محمد الدوب يخلط في بعض الأحيان بين بعض الألفاظ الدارجة التي تتعلق بأحد الصالحين مع أبيات من قصائد معروفة مثل نشيد «الله ولي» ففيه يبدأ بقوله:

الله ولي الله ولي ولي النعم الولي

يا شيخنا العيد روس يا ساكن العدن

ثم يقول أبياتًا هي من قصيدة البردة للبوصيري منها:

أيحسبُ الصَّبُّ أن الحبَّ مُنْكَتِمٌ
ما بين منسجمٍ منه ومضطرمِ
فاثبتَ الوجدُ خَطَّي عبرة وَضَنَا
مثل البهار على خديك والعَنَمِ
يا لائمي في الهوى العذريِّ معذرةً
مني إليكَ ولو أنصفتَ لم تَلُمِ

وهذه الأبيات منتقاة من القصيدة المشهورة، ولكنها غير مرتبة وفق ترتيب الأصل. وفيها بعض الأخطاء وقد صححتها وفق ما جاء في ديوان البوصيري.

وبعد؛ فقد كتبت هذا عما أعرفه عن المالد في الكويت بعد سماع ومشاهدة، أو بعد قراءة في كتاب، أو نقل عن شخص أثق به. وقد أكون قد تجاوزت بعض الأشخاص فلم أذكرهم في مقالي هذا، فذلك لأن عدم الذكر إنما كان للسبب المتقدم، ولا يغض هذا من قيمة أحد.

****

ملحاق خير

ينبغي أن نشير هنا إلى أمر له علاقة وثيقة بالمولد النبوي، ذلك أن مناسبات المولد عندنا كانت تضم إلى جانب قصة مولد الرسول الكريم شيئًا من المدائح التي مدح بها، وأغلبها من أقوال شعراء العصور المتأخرة من الذين عرفت عنهم مثل هذه الأشعار بل إن بعضهم خصص نفسه لها.

القاعدة هنا مختلفة فإن الذي سوف نعرضه ليس مثل تلك الأشعار التي أشرنا إلى بعضها في المقال بل إننا سوف نعرض أشعارًا قيل بعضها في زمن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم.

بين يدي كتاب ألّفه أخ عزيز ارتبطت به، وارتبط به كذلك أخي الدكتور مرزوق يوسف الغنيم وأخي الدكتور عبدالله يوسف الغنيم وارتبط به كذلك رواد ديوانية الثلاثاء كلهم وروّاد عدد من دواوين الكويت التي كان يتردد عليها، وكانوا يحرصون على حضوره، لما يُقدِّمُهُ من فوائد جمة في المسائل المتعلقة بالدراسات الإسلامية التي برز بها. ومن أجل أنني كتبت عنه مقالًا كاملًا وشاملًا ضمن مقالات «الأزمنة والأمكنة» فلا أجد داعيًا لإعادة الحديث عن حياته ودراسته وتاريخ العلاقة به. ولقد كانت فجيعتنا بوفاته كبيرة إذ فقدنا بذلك منهلًا عذبًا للعلم، وكان خير من يطرح ما لديه من معلومات ولا يمل المرء سماعها مهما طال الحديث، أو تكرر.

رحم الله الأخ الأستاذ عبدالحميد البسيوني صاحب هذا الملحاق. وهو صاحبه من حيث إنه مكرّس للحديث عن كتابه: «المادحون لرسول الله صلى الله عليه وسلم»

وهو كتاب صغير الحجم عظيم الفائدة، جمع بين دفتيه قصائد لعدد من الشعراء الذين مدحوا الرسول الكريم أثناء وجوده بينهم، ومن أولئك الذين وردت لهم أشعار في هذا الكتاب عم رسول الله العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه. الذي قال عنه ابن الأثير في كتابه «أسد الغابة»: أن العباس تقدم يومًا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: يا رسول الله، أريد أن امتدحك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قل، لا يَفضض الله فاك. فقال:

من قبلها طِبتَ في الظلال، وفي
مستودع حيث يُخصف الورقُ
ثم هبطتَ البلادَ، لا بشرٌ
أنت، ولا مضغة، ولا علقُ
بل نطفة تركب السفين، وقد
ألجم نَسْرا وأهله الغرقُ
تُنقلُ من صالب إلى رحِمٍ
إذا مضى عالم بدا طبَقُ
وردت نار الخليل مكتتمًا
في صلبه أنت، كيف يحترقُ؟
وأنت لما وُلدتَ أشرقت الأر
ضُ، وضاءت بنور وجهك الأفقُ
فنحن في ذلك الضياء وفي النو
ر، وَسُبْل الرشاد نستبقُ

كانت هذه الأبيات أول أبيات مستقلة بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم. وهي أبيات في منتهى الجمال، تدل على شاعرية مبهرة وعلى فهم وإدراك للحياة، وتقدير عالٍ لرسول الله الذي شهدنا في أبيات العباس ابن عبدالمطلب تنقله في أصلاب الأنبياء والصالحين منذ كان سيدنا آدم في الجنة، إلى أن ورد نار الخليل عليه السلام وهو في صلبه واعْجَبْ لهذا التساول: «في صُلبه أنت، كيف يحترق»؟

ثم يمضي ليعبر في آخر بيتين عن إشراق الأرض بالنور، عندما أضاء وجهه الكريم الآفاق، وتبع ذلك بالتعبير عن تمتع المسلمين بذلك الضياء الغامر والنور المبين، وتبيان ما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كانوا يتسابقون في سبل الرشاد.

وعلى الرغم من أنها - كما ذكر الأستاذ بسيوني - أول قصيدة من نوعها فقد كانت إبداعًا بمعنى الكلمة بأسلوب رقيق صادق، ولغة سهلة.

****

تعليق على ما سبق

بعد أن صدرت «الوطن» حاملة القسم الأول من مقالنا «الدكتور محمد صلاح الدين باشا في الكويت» اتصل بي الأستاذ الكبير إبراهيم محمد الشطي ليبلغني بأنه قرأ المقال وأعجب به، وتحدث في الوقت نفسه عن أمرين؛ الأول منهما تقديره الشديد لمحمد صلاح الدين ومحبته له لما كان يتميز به من خلق كريم وإخلاص وطني وعربي لاشك فيهما. أما ثاني الأمرين فهو ما جاء في قوله:

«كنت في القاهرة أتلقى دراستي في جامعتها يوم أعلن النحاس ما أعلنه عن إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦م. وقد كان الناس يحيطون بوسائل الإذاعة - آنذاك - للاستماع إلى وقائع جلسة البرلمان المصري التي كانت لها أهميتها الكبرى، وقد سمعت النحاس باشا وهو يقول:

«من أجل مصر وقعت معاهدة سنة ١٩٣٦م، ومن أجل مصر أطالبكم اليوم بإلغائها».

وقد ضجت قاعة الجلسة بالتصفيق، وطارت الطرابيش إلى الأعلى، وهتف الناس في الشوارع فرحًا بهذه الخطوة الوطنية التي اتخذت في سبيل الاستقلال».

هذا هو النص الذي نقله إليّ الأستاذ أبوقتيبة، وكنت قد أوردت في المقال نصًا مشابهًا إلى حد كبير، نقلته من مجلة المصور القديم الصادر في ذلك الزمان.

شكرًا لأستاذي العزيز إبراهيم الشطي على مداخلته هذه التي ضمّت إفادة جديدة، وأرجوه مواصلة ذلك ففيه إثراء لموضوعات «الأزمنة والأمكنة»، وإضافة إلى ما فيها من موضوعات.

ولقد تبادلت معه في آخر حديثه نقاشًا ضاحكًا حين سألته: كيف رأيت الطرابيش وهي تطير من على رؤوس أعضاء المجلس إلى الأعلى وأنت تستمع إلى المذياع، فرد فورًا: كان هناك مذيع يصف تلك الجلسة وما دار فيها وكان موضوع الطرابيش مما دار وقتذاك.

****

رجال لن ينساهم الوطن: حسن جوهر حيات(١)

كثير من شباب هذه الأيام لم يسمعوا بهذا الرجل على الرغم من دوره البارز في الحياة البرلمانية، وذلك لأنه توفي في اليوم الثلاثين من شهر نوفمبر لسنة ١٩٧٨م، ومنذ ذلك الوقت لم يكتب عنه ما يدل على أعماله، وما يشير إليه، وكأنما كان المقصود هو إغفاله، بل وإغفال أولئك الرجال الذين كانوا معه زملاء له في المجلس وفي الحياة، ففي الكويت يتفاوت الناس في مسألة بقاء ذكرهم، وحين نرى رجلًا منسيًا مثل هذا فإننا نجد آخرين تدق لهم الطبول وتسمى بأسمائهم الشوارع، ولو حسبنا الجهود التي كان يبذلها الجميع ووازناهم بحسب أعمالهم لوجدنا الغبن واضحًا في انسحاب ذكر البعض، ومنهم صاحبنا هذا الذي سوف أتحدث عنه في هذا المقال: حسن جوهر حيات.

عرفت هذا الرجل الطيب خلال ترددي على مجلس الأمة بحكم عملي، عندما كنت وكيلًا لوزارة التربية، وسرعان ما توثقت صلتي به لأنه كان دمث الأخلاق، وكان يحرص على علاقاته بمن يعرف، ولذا فقد تردد عليّ في مكتبي لأكثر من مرة، لا لشيء إلا لطباعه الكريمة وحرصه على التواصل.

ولد حسن جوهر حيات في سنة ١٩١٠م، وذلك في الحي الشرقي من العاصمة، ونشأ في رعاية والده الذي اهتم بتدريسه فألحقه بالكُتّاب، وكان هو المدرسة المتاحة في ذلك الوقت، ولكنه استفاد منه وتعلم القرآن الكريم والقراءة والكتابة والحساب، وانفتح أمامه طريق العمل، ولم يتخل عن الطريق الذي سلكه

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١١/٢/٢٣م.

غيره من أقرانه أبناء الكويت فشارك في رحلات الغوص حين كان في السنة الثانية عشرة من عمره، ثم اتجه إلى السفر، وكانت وجهته إلى الهند وما جاورها، وهناك اتجهت نفسه إلى التجارة لما شاهده من حركة قوية في هذا المجال هناك، ولذا فإنه عندما عاد من رحلته هذه بادر إلى افتتاح محل تجاري له في سوق الغربللي، كان يزاول فيه بداياته التجارية، وكان محله هذا مخصصًا للأواني المنزلية وتم افتتاحه في سنة ١٩٣١م. ولم تقتصر تجارته فيه على الاتجار مع الهند إذ كان يستورد البضاعة من أوروبا (ألمانيا بالذات)، ومن الصين. وعندما أحس بأنه قد قطع شوطًا مهمًا في هذا العمل الذي توجهت إليه نفسه فاكتسب فيه خبرة كبيرة، أراد أن ينحو بعمله هذا مَنْحىً آخر فانتقل بمحله إلى الموقع التجاري المعروف الذي كان يُطلق عليه - آنذاك - اسم سوق التجار، كما يطلق عليه - أيضًا - اسم السوق الداخلي وفي هذا السوق كان محله الثاني الذي خصصه لتجارة المواد الغذائية بصفة عامة فكان يستورد ويبيع التمور والقمح والشاي والسكر والأرز، ثم يقوم بتصدير جزء منها إلى بعض الدول المجاورة.

كان - رحمه الله - متفتح الذهن، متطلعًا إلى دورٍ ما يقوم به في الحياة، وكانت تستهويه متابعة ما يجري في العالم، وفي الكويت بصفة خاصة، ولذا كان يهتم بقراءة الصحف والمجلات التي كانت تصدر في ذلك الوقت وترد إلى الكويت من البلاد العربية التي كانت صحافتها قد تقدمت وأصبح قراؤها في كل مكان، وفي الأربعينيات من القرن الماضي كانت بالقرب من مكتبه التجاري مكتبة معروفة ولا تزال وهي مكتبة محمد الرويح التي كانت تجلب المجلات المذكورة، وبحكم المجاورة والرغبة الشديدة التي كانت عند صاحبنا في القراءة فقد كان يهتم باقتناء ما يرد إلى هذه المكتبة من صحف، وكان يقرؤها بنهم شديد، ونذكر أن من تلك الصحف: الهلال والمصور وآخر ساعة وروز اليوسف والأهرام والأخبار، وكلها من مصر، ونذكر الصياد اللبنانية. ولقد كان - إلى جانب ذلك - مهتمًا بمتابعة الأخبار

ونتيجة للمحادثات التي جرت تقرر عقد اجتماع فرعي ضم وزير خارجية الكويت والسيد حسن صبري الخولي.

وقد أكدت صحف القاهرة أن زيارة أمير الكويت للقاهرة «ستسفر عن نتائج طيبة ومفيدة وتزيد ما بين الشعبين من روابط الأخوة والود».

ويكاد المراقبون السياسيون يجزمون بأن الوساطة الكويتية تهدف بالدرجة الأولى إلى تخفيف حدة الحرب الباردة بين القاهرة والرياض تمهيدًا لاجتماع جديد يعقد بين الملك فيصل والرئيس جمال عبدالناصر تكون الغاية منه استئناف الحوار الودي بغية إعادة الحياة إلى مؤتمر حرض والعمل على إيجاد الحل السلمي المنشود لوضع حد للحرب اليمنية. وهذا ما أكده سفر وزير خارجية الكويت الشيخ صباح الأحمد الجابر إلى المملكة العربية السعودية للاجتماع مرة أخرى بالملك فيصل بعد أن أصبحت لديه فكرة مفصلة عن رأي القاهرة ووجهة نظرها. وهو يحمل رسالة من أمير دولة الكويت إلى الملك فيصل، وعلم أن هذه الرسالة تتعلق بمساعي أمير الكويت للوساطة في قضية اليمن».

ونشاهد في العدد الذي أشرنا إليه من المجلة أمرًا آخر يدل على اهتمامها بكل ما يرد لها عن الكويت، ففي ص٥٣ تحت عنوان «رسالة الكويت» مجموعة من الأخبار السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وفي أعلى الصفحة صورة الشيخ جابر العلي السالم الصباح وزير الإرشاد والأنباء (الإعلام حاليًا) وهو يستقبل سفير العراق لدى الكويت، وفي أسفلها صورة جماعية تمثل الفريق الرياضي الذي شارك في دورة كأس العرب التي أقيمت في ذلك الوقت، وأخذت الصورة في مطار الكويت عند وصوله .

أما الأخبار التي كانت منشورة في العدد المشار إليه فهي كما يلي نذكرها كما وردت دون تغيير:

- وصل إلى الكويت الشيخ عبدالرحمن بن محمد آل خليفة في زيارة خاصة تستغرق يومين.

- بدعوة من جمعية المعلمين الكويتية ألقى الدكتور يوسف إدريس محاضرة في قاعة الجمعية عنوانها «التربية والمسرح».

- أصدر معالي الشيخ صباح الأحمد الجابر وزير الخارجية ووزير المالية والنفط بالوكالة قرارًا يقضي بنقل السيد محمد السداح السكرتير الأول بوزارة الخارجية إلى سفارة دولة الكويت في المغرب، كما أصدر قرارًا آخر يقضي بتعيين السيد علي مشاري الهلال كأول كويتي قائم بالأعمال لدى جمهورية إيطاليا.

- بعثت سفارة الجمهورية التونسية في بيروت كتابًا لمعالي السيد خالد المسعود الفهيد وزير التربية، تجدد فيه الدعوة لزيارة تونس، وقد قبل معاليه الدعوة.

- عقدت الجمعية العمومية العادية للجمعية التعاونية لموظفي وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل اجتماعًا انتخبت فيه أول مجلس إدارة للجمعية المذكورة.

- تصل أول باخرة لشركة الملاحة الكويتية واسمها (السالمية) في أول حزيران المقبل إلى الكويت وهي تحمل بضائع من أوروبا إلى الكويت وإمارات الخليج العربي.

- وصل إلى الكويت قادمًا من البحرين المسترساندلز مدير شركة الخدمات السلكية واللاسلكية في البحرين وذلك للتباحث مع وزارة البريد والبرق والهاتف حول تحسين الخدمة اللاسلكية بين الكويت والبحرين.

- عاد إلى الكويت السيد عبدالرحمن ملا حسين مفتش الجمارك العام بعد أن مثّل الكويت في مؤتمر المنظمة البحرية الاستشارية للحكومة والذي عقد أخيرًا في لندن.

- عقدت اللجنة المكلفة بوضع مناهج الأمية بين رجال الشرطة آخر اجتماع لها ناقشت فيه المشروع النهائي الذي قامت بإعداده ووضعت تقريرًا لرفعه إلى معالي وزير الداخلية ليصدر أمره بتنفيذه.

- استقبل معالي السيد عبدالله مشاري الروضان وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية بمكتبة البروفيسور شارل آدم مدير المعهد الإسلامي بجامعة مونتريال بكندا وذلك للسلام على معاليه بمناسبة زيارته للكويت.

- قررت وزارة التربية الاشتراك في مخيم الصداقة الخامس للبحر الأبيض المتوسط والبلاد العربية الذي سيقام بالأردن في الفترة ما بين الثاني عشر والعشرين من شهر حزيران المقبل.

☆☆☆☆

العدد الثاني من أعداد مجلة «الجمهور الجديد» وهو ضمن الأعداد الثلاثة التي أشرت إليها منذ البداية؛ هو الذي صدر في اليوم التاسع عشر من شهر مايو لسنة ١٩٦٦م.

وفي هذا العدد مقال طويل متشعب، تناول موضوعات تتحدث عن واقع الأمة العربية في ذلك الوقت، وقد جاء تحت عنوان: «في الأفق السياسي العربي» وكتبه إبراهيم الحلو، الذي بدأ مقالة بداية حزينة ينعى فيها على أمة العرب حالها المؤسف، الذي يتمثل في الخلافات المستعرة بينها، وعدم الاستقرار، ومما قاله: «بين يسار ويمين، وبين وحدة وانفصال، وبين تقارب وتباعد، بين دعوات ودعوات، بين سياسات وسياسات؛ تدور الدنيا العربية في فراغ بعيد المدى، عميق القرار، قاسمه المشترك الأعظم هو مركب النقص الفتاك الذي خلفته نكبة فلسطين»، إلى أن يخلص من كل ذلك إلى أن ذلك قد تحول في النفس العربية المعاصرة إلى عقدة عميقة أزمنت وتمكنت في أعماق الصدور حتى عسر اقتلاعها.

ويستمر في وصف الحالة البائسة التي كان يراها ويتألم لها ثم يصرخ قائلًا: يا لفرحة الاستعمار والصهيونية.

وبعد هذه المقدمة الحزينة يدخل إلى عدد من الموضوعات المثارة آنذاك في دنيا العرب، وأولها عن الكويت.

كان الحديث في المقال ينصب على حدث مر بالبلاد في تلك السنة التي صدر فيها العدد المذكور من المجلة، وذلك الحدث يتعلق بمحاولات بعض غير الكويتيين آنذاك زعزعة المجتمع الكويتي ببعض تصرفاتهم وفق ما جاء في المقال.

قال الكاتب إن الكويت التي قدمت الكثير للعاملين فيها من غير أبنائها، كما قدمت الكثير لدولهم، وهي التي نهضت بسرعة عجيبة وتخطت القرون لكي تقف على قدم المساواة من الدُّوَل المتقدمة الأخرى، وكانت قيادتها مُتَفَهِّمَة حريصة على أن تتوالى الأعمال الجيدة في وطنها وكما قال الكاتب فإن الكويت «مع فجر الاستقلال أقامت الدولة الحديثة على أسس دستورية متقدمة، فوزعت السلطات فصار مجلس الأمة يمتلك حق التشريع، والقضاء يتمتع بكل حرية، أما السلطة التنفيذية فهي في يد الحكومة».

واستعرض بعد ذلك ما تقدمه الكويت ليصل إلى القول بأن الكويت قد لاقت في مقابل كل ذلك جزاء سنمار، كما يقول المثل العربي القديم. إن إبراهيم الحلو يقول: «وعلى الرغم من كل ذلك.. يوجد بين الناس - مِنَ العرب - من قد صمم على تخريب هذا الصرح العربي الذي شيّده هذا البلد الصغير ونفع العرب جميعًا».

لقد قامت قيامة الكثير في دنيا العرب ضد الكويت في أعقاب ما حدث، وهو أمر لا يقصد منه إلا تطهير البلاد ممن كانوا ينوون لها الشر، يقول الكاتب: «تسأل عن سر القيامة التي يُقيمونها الآن على حكومة الكويت لأنها رأت الشر

بارز الأنياب فلم تصدق أنه يبتسم، وأرادت استباق وثبته، فعملت بالمثل الحكيم القائل: درهم وقاية أفضل من قنطار علاج.. تسألهم عن سر هذه الضجة فيقولون: الكويت تبعد الوافدين.

تلك في نظرهم جريمة لا تغتفر.. جريمة أن تتخذ حكومة الكويت بعض الاجراءات الاحتياطية فتبعد بعض الهدامين قبل أن يتمكنوا من وضع اللغم في أساس البنيان.. وجريمة أيضًا أن تغلق بعض الصحف التي لا تدين بالولاء للبلد، وتدعو ليل نهار إلى تخريبه ونشر الفوضى فيه.. هذه جريمة أما دعوتهم إلى الهدم والتخريب فتلك بطولة قومية وتقدمية ثورية!

منطق عجيب لا ترى معه منفذًا لشعاع من عقل أو نور من ضمير! فتلوذ بالصمت على مضض!».

هذا وقد تحدثت المجلة حديثًا إضافيًا عن الأحداث التي أشرنا إليها فقالت: «إنه في الوقت الذي واصلت فيه أجهزة الأمن عملية إبعاد المشبوهين عن البلاد أكد الشيخ سعدالعبدالله وزير الداخلية والدفاع الكويتي، إن بلاده ما زالت، كما كانت دائمًا، ترحب بجميع أبناء الدول العربية وغيرها ممن يقصدونها للعمل الشريف».

وأضاف الوزير: «ونحن على استعداد لتقديم جميع التسهيلات لمن غايته العمل المنزه لكن الذي لا نريده هو أن يأتينا أناس ونياتهم أشياء أخرى وفي مثل هذه الحالة لا نطلب منهم سوى البقاء في بلدانهم».

وفي هذا المقال تحدثت المجلة - أيضًا - عن رحلة قام بها أمير البلاد آنذاك إلى عدد من دول الخليج العربية ومنها عمان والبلدان التي تكونت منها دولة الإمارات العربية المتحدة، ومملكة البحرين. وقد أجرى محادثات منتجة في زياراته

كلها، وأسهم كل ذلك في تقوية أواصر المحبة بين هذه البلدان، وفي إطار ما حدث في الكويت ممَّا أشرنا إليه فإن الحكومة الكويتية قامت بتقديم أكثر من تأكيد لجهات عربية عديدة بأن تدابير الملاحقة والإبعاد لا تشمل إلا العناصر الهدامة بغض النظر عن جنسياتها.

وبذا تكون مجلة «الجمهور الجديد» قد قدمت عرضًا شاملًا عن الحدث الذي أشرنا إليه، وقدمت كل ما قيل عن الكويت بخصوصه وذيلته بردها، ورد حكومتنا على كل التخرصات التي أثيرت حول قيام المسؤولين بأداء واجبهم تجاه وطنهم من حيث حرصهم على أن يكون دائمًا وطن أمن وأمان، وأن يكون مقرًا للعيش الكريم لمن يريد أن يعيش فيه بكرامته.

ومن الجدير بنا أن نذكره هنا أن المجلة وقد زينت مقالها بعدد من الصور منها صور للوزراء الكويتيين الذين كانوا يتولون مناصبهم الوزارية آنذاك، وضعت إلى جانب المقال صورة كاريكاتيرية رسمها رسام المجلة الخاص، وفيها أحد المسؤولين الكويتيين وقد أمسك بمكنسة يكنس بها بعض الأوساخ، وكتبت تحته تعليقًا يدل عليه، وعلى ما جاء في المقال من حديث، والتعليق هو: «في الكويت: تنظيف البيت».

☆☆☆☆

أما العدد الثالث من أعداد مجلة «الجمهور الجديد» فقد جاءت به أكثر من إشارة إلى الكويت، أولها ما يعبر عن استمرار الفرحة بقيام الكويت بالوساطة في الشأن اليمني الذي كان يقلق أمة العرب آنذاك واكتفت من ذلك بالإشارة حين وضعت رسمًا كاريكاتيريًا يعبر عن هذه الفرحة وكتبت فوقه «بدأت بوادر الوساطة الكويتية تبشر بالتفاؤل» وجاء الرسم المذكور بصورة لسمو الشيخ صباح الأحمد الجابر وهو يعزف لحنًا يدل على الابتهاج بينما وقف اثنان من العرب يتبادلان القبل والأحضان بهذه المناسبة السارة.

وفي صفحة أخرى من العدد نفسه خبر مصور عن مغادرة الشيخ سعد العبدالله السالم الصباح بيروت متجهًا إلى أوروبا، وكان يومها وزيرًا للداخلية والدفاع هنا، وقد وضعت المجلة صورة سموه في إطار باسم سوف يراه القارئ ضمن مقالنا هذا، وكان الشيخ قد وصل إلى بيروت قبل أسبوع من صدور العدد الذي نتحدث عنه من مجلة «الجمهور الجديد».

وبخلاف ذلك فقد كانت سنة ١٩٦٦م سنة مليئة بالإنتاج بالنسبة لدولة الكويت، وقد جرى ذلك في مجالات متعددة شكّلت نقلة واسعة للبلاد وأدخلت عناصر جديدة إلى الحياة العامة.

فمن جهة أنشئ الهلال الأحمر الكويتي في اليوم العاشر من شهر يناير. وبدأ نشاطه فورًا، وأقام في السنة ذاتها أول دورة تدريبية على الإسعاف الأولي. وأنشئ النادي البحري الكويتي في اليوم الثاني عشر من شهر مارس، والاتحاد الرياضي للجيش في اليوم التاسع من شهر أبريل، وتم إشهار وافتتاح نادي الجهراء، في اليوم الرابع من شهر ديسمبر وكان يسمى نادي الشهداء، وكذلك نادي الساحل، وكان عند تأسيسه باسم نادي الساحل الثقافي والاجتماعي، ثم تغير اسمه في سنة ١٩٧٢م فصار: نادي الساحل الرياضي.

وتمت في السنة نفسها أعمال أخرى منها:

- إصدار قانون التعليم العالي، وافتتاح جامعة الكويت، وذلك في السابع عشر من شهر أبريل والسابع والعشرين من شهر نوفمبر على التوالي.

- صدر قرار في اليوم التاسع عشر من شهر مايو بحل المجلس البلدي، ثم تشكلت لجنة مركزية للإشراف على بلدية الكويت تحل محل المجلس مؤقتًا وذلك في اليوم الثاني والعشرين من شهر مايو.

- بدأت حكومة الكويت اعتبارًا من هذه السنة في تنفيذ مشروع الاستفادة من مياه موقع الشقايا بعد دراسات طويلة حول الأرض والمياه هناك.

ومن جهة أخرى كانت هذه السنة حافلة بالنشاط الدبلوماسي في الكويت وخارجها، فقد أقامت دولة الكويت سفارتين في كل من سويسرا وهولندا.

كما افتتح فيها عدد من السفارات الأجنبية منها:

- **سفارة فنزويلا.**
- **سفارة رومانيا.**
- **سفارة سويسرا.**
- **سفارة ماليزيا.**
- **سفارة الصومال.**

وبذا ارتفع مدى التمثيل الدبلوماسي الكويتي في الخارج، وبمثله ارتفع التمثيل الأجنبي للدول الأخرى في الكويت. وهذا من الأدلة على اهتمام الحكومة الكويتية بتقديم الصورة السليمة عن البلاد وهو في الوقت نفسه دليل على ثقة البلدان الأخرى بها، ونوع من التأييد والدعم لهذا الوطن العزيز.

وكما سعت دولة الكويت إلى العالم بافتتاح سفاراتها في مختلف البلدان، فإنها في هذه السنة قد سعت إلى المنظمات الدولية من أجل الانضمام إليها، وإكمال ما لم تنضم إليه من تلك المنظمات حتى سنة ١٩٦٦م، ومن ذلك انضمام الاتحاد الكويتي للسباحة إلى الاتحاد الدولي للسباحة، واعتباره عضوًا فيه منذ هذه السنة، وانضمام دولة الكويت إلى المجلس الدولي للرياضة العسكرية، وانضمام دولة الكويت - أيضًا - إلى الاتفاقية الدولية للحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التابعة للأمم المتحدة. وغير ذلك.

أنهي مقالي هذا بشكر الأستاذ عبدالرحمن عبدالعزيز الخرجي الذي ما برح يمدني بكل أصيل من مجموعته التي كونها خلال انشغاله بمكتبة: الطلبة. وبسبب ذلك قدمت عددًا لا بأس به من المقالات ومنها هذا الذي هو الآن بين يدي القارئ.

****

ملحاق خير

حرض بلدة يمنية قريبة من الحدود الجنوبية للمملكة العربية السعودية، وهي اليوم مديرية تتبع محافظة حجة.

أما المؤتمر المشار إليه في المقال فقد انعقد في هذه البلدة في اليوم السادس والعشرين من شهر نوفمبر لسنة ١٩٦٥م. وكان انعقاده بسبب رغبة الطرفين المتحاربين في اليمن آنذاك وهما الطرف المؤيد للملكية والطرف المؤيد للجمهورية في الصلح وإيقاف الحروب، وكان انعقاده نتيجة لجهود بذلتها المملكة العربية السعودية والجمهورية العربية المتحدة رغبة في حقن الدماء، وإعادة الهدوء إلى اليمن، ولكن هذا المؤتمر لم ينجح لأسباب كثيرة ليس هذا مجال الحديث عنها؛ كان الوفد الملكي برئاسة السيد أحمد محمد الشامي، أما الوفد الجمهوري فكان برئاسة القاضي عبدالرحمن الإرياني.

كل الحاضرين كانوا من كبار القوم في اليمن، وكانوا أصدقاء، ولكنهم لم يوفقوا..

****

الشاعر الفارسي الشيرازي والغناء الكويتي القديم[1]

عندما بحثت عن النصوص الشعرية التي تغنى عندنا قديمًا باللغة الفصحى استرعت انتباهي أغنية لحنها على نمط (الصوت) الشاعر عبدالله الفرج، وغناها أكثر من مطرب، كان مطلعها:

تعذر صمت الواجدين فصاحوا
ومَنْ صاح وجدًا ما عليه جناحُ

ولقد سعيت إلى معرفة الشاعر الذي كتب هذا الكلام فوجدته: سعدي الشيرازي، وهو شاعر مشهور غزير الإنتاج الشعري من أهل فارس. ولقد دفعتني هذه المعرفة بصاحب الأبيات المغناة إلى الحديث بتوسعة حول هذا الموضوع الذي تجدر بنا الإشارة إليه، لقيمة ما قاله الشيرازي من الناحية الفنية، ولإرتباطات أخرى سوف تتبين فيما بعد.

في أواخر سنة ١٩٥٧م بدأت دراستي في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة، وكان من ضروريات الدراسة أن ينهي كل طالب منهجًا في اللغة الفارسية أو اللغة العبرية وكانت الكلية تقسم الطلبة إلى قسمين لكل قسم نصيب من هذين المنهجين، وقد كان من نصيبي دراسة اللغة الفارسية، ولم تفتني دراسة اللغة الأخرى فقد كانت مقررًا إلزاميًا في مرحلة الإعداد للدراسات العليا، وبذا فقد درست اللغتين معًا.

(1) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١١/٥/١٨م.

فيما يتعلق باللغة الفارسية أشير هنا إلى أن الأستاذ الذي كان يقوم بتدريسها لنا هو الدكتور محمد موسى هنداوي، وكان متضلعًا بهذه اللغة وله منها ترجمات كثيرة، كما له معجم عربي فارسي مفيد كنا نعود إليه أثناء الدراسة وإن لم يكن هو المقرر الرئيسي، وقد أسعدني فيما بعد بإهداء نسخة من هذا المعجم القيم الذي لا أزال أحتفظ به.

كان الدكتور محمد موسى هنداوي يدرسنا شيئًا من الشعر الفارسي وكان الكتاب المقرر هو (بوستان) وفيه أشعار الشاعر الذي أطلق عليه المؤلف صفة: شاعر الإنسانية، وهو سعدي الشيرازي، والكتاب من تأليف استاذنا محمد موسى هنداوي، وقد بدأ بتعليمنا القواعد النحوية التي تسير عليها اللغة الفارسية ثم بدأ في قراءة الأبيات الواردة في الكتاب وتفسيرها مؤكدًا إن هذه اللغة ليست صعبة على أبناء العربية لأنها تضم عددًا كبيرًا من ألفاظ لغتهم. وبالفعل فإننا لم نجد صعوبة في دراستها، ولا دراسة الكتاب المقرر. ونتيجة للجهد الذي كان يبذله أستاذنا فقد تعلقنا بالشاعر وبلغته، وبعد حين طرأت لي حادثة طريفة سببها سعدي الشيرازي وهذا هو ما حدث لي:

خاطبني أخي الدكتور عبدالله يوسف الغنيم هاتفيًا، وكان وقتها يعمل على تأليف كتابه «اللؤلؤ» فقال لي: لقد عثرت على أبيات للشاعر الفارسي سعدي الشيرازي يذكر فيها شيئًا عن اللؤلؤ، وإن هذه الأبيات قد قام بترجمتها إلى اللغة الإنجليزية شاعر إنجليزي اسمه (ديفي)، ثم ترجمت إلى العربية نثرًا، وطلب إليّ أن أقوم بتحويل النص المنثور إلى نص شعري فاجتهدت في ذلك حتى جاء كما يلي فالمعاني في أصلها هي معاني الشيرازي:

قطرةٌ جادَ بها ماءُ المطر
ساقها يومَ على الدنيا انهمرْ

سقطت من سحبه خائفة
وإلى الأمواج كان المنحدر
بَسط البحرُ عليها سحرهُ
إذ رأته هائلاً ملء البصر
فتوالت عنده أحزانها
وتوالت عندها شتى الفكر
حدثتها وهي خجلى نفسها
هل لمثلي عند هذا مِنْ أثر
أنا قد جئت إليه قطرة
وهو ذو شأن عظيم وخطر
ودنت منه فألقت نفسها
وهوت في اليم وهو المستقر
فاحتوتها عنده محُارةٌ
غمرتها بحنان منتظر
ونمت في حضنها قطرتنا
فاستحالت درة تسبي النظر
أخذت شهرتَها من صَبْرها
ومن الرِّقة وافاها الظفر

كتاب «بوستان» لسعدي الشيرازي مطبوع في سنة ١٩٤٥م لدى مكتبة الإنجلو المصرية بالقاهرة بعد أن قام أستاذنا بترجمته، وكتابة مقدمة وافية عنه وعن الشيرازي وقد جاء في مقدمته: «صاحب هذا الكتاب «سعدي الشيرازي» من ألمع النجوم في حياة الأدب الفارسي، كما كان يُعدُّ في طليعة شعراء الإنسانية. وله في الحياة – في مختلف نواحيها – نظرات صادقة، جاءت وليدةً لطول حياته، وعُمق خبرته، وصدق تجاربه التي اكتسبها من رحلاته الطويلة، ومعاشرته لأقوام تباينت أوطانهم، وتنوعت طبائعهم».

ولد هذا الشاعر الفيلسوف الحكيم في سنة ١١٩٠م وتوفي في سنة ١٢٩١م، وقد امتلأت حياته بما أنتجه فكره النيّر، وما أبدعته قريحته الصادقة.

ونذكر له هنا - كما أسلفنا - أن إنتاج الشيرازي قد مرّ بالغناء الكويتي القديم، فهذه أبيات من الشعر غريبة في تناولها لمعنى العشق، وصدق المغرمين يشدو بها الفنان الكويتي عوض دوخي على نغمة الصوت، وهي من ألحان الفنان عبدالله الفرج، ووجه غرابتها أنها لم تنتشر كثيرًا كما انتشر إنتاج هذين الفنانين الغنائي. وأنها لشاعر فارسي كتبها باللغة العربية الفصحى وهو سعدي الشيرازي. ثم إننا نجد بالاستماع إليها بعض الأخطاء اللغوية والنحوية مما نستكثره على الشيرازي المعروف بإجادته للغة الفصحى وقواعدها، فله نصوص شعرية ونثرية كتبها بلسان عربي مبين واضح لاخطأ فيه:

تقول الأبيات:

تعذر صمت الواجدين فصاحوا
وَمَنْ صاح وجدًا ما عليه جُناحُ
أسروا حديث العشق ما أمكن التقى
وإن غلب الشوق الشديد فباحوا
سرى طيف من يجلو بطلعته الدُّجى
وسائر ليل المقبلين صباح
يطاف عليهم والخليُّون نُوَّمُ
ونفسي وعقلي والصباحُ رباح

لقد أنشد سعدي الشيرازي هذا النشيد ليعبر عن شعوره بعد أن اشتد به العشق، وبرّح به الوجد، وَتَعذر عليه الصمت على ما يعانيه مما جعله يصيح ألمًا. وهو يبرر صياحه قائلًا: إن من يصيح بسبب آلام الوجد (ما عليه جناح)، وهو يتحدث عن العاشقين الذين أسرُّوا في أنفسهم الحديث عن عشقهم، وحاولوا

التغطية على مشاعرهم بكل وسيلة ولم ينفعهم ذلك فغلبهم الهوى ولم يستطيعوا الكتمان فباحوا بما يشعرون به.

ثم يقول: مر طيف المحبوب ليلًا، وهو طيف يجلو ظلام الليل، في حينه، فيصير الليل كأنه الصباح ولا غرو فليل المحبين صباح دائم، يطوف عليهم والخليون الذين لم يشغلهم العشق ولم يسيطر عليهم على عكس المحبين الذين لا يعرفون إلى النوم سبيلًا بل هم ساهرون تدمع أعينهم وكأن مدامعهم تملأ لهم كأسًا من الخمر.

اهتمت مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري بالشاعر الفارسي سعدي الشيرازي، وأقامت له منتدى في طهران سنة ٢٠٠٠م لإحياء ذكراه، وقد أصدرت من أنشطة هذا المؤتمر كتابًا ضم أشعاره التي قالها باللغة العربية ومنها القصيدة التي نتحدث عنها هنا.

الشاعر له أنشطة أدبية متعددة وله اهتمام بالشعر والنثر، يكتب شعره بالفارسية، ويكتب قسمًا منه بالعربية الفصحى، له كتابان مشهوران أحدهما نثري وهو «كلستان»، والثاني شعري وهو «البستان» وقد نالا شهرة كبيرة وتمت ترجمتهما إلى عدة لغات، وجرى تدريسهما أو أحدهما في عدد من الجامعات منها جامعة القاهرة.

ولئن كان النص الذي غناه المغنون عندنا لا يتجاوز الأبيات الأربعة؛ فإن ما ورد في الكتاب منه يصل إلى عشرة أبيات الأربعة الأولى منها متطابقة مع أبيات الغناء.

يغلب على شعر الشيرازي الغزل والخمريات كما يغلب شعر الحكمة، ومن لطيف شعره:

يا نديمي قم تَنَبَّهْ
واسقني واسق الندامى

خَلّـنـي أسـهـر لـيـلـي
ودع الـنـاس نـيـامـا

ومنها قوله:

قـل لمـن غَـيّـر أهـل الحـ
ـب بـالجـهـل ولامـا
لا عـرفـت الحـب هـيـهـا
ت ولا ذقـت الـغـرامـا
مـن تَـعـدّى زمـن الـفـر
صـة بُـخـلاً واهـتـمـامـا
ضـيـع الـعـمـر أيَـوْمًـا
عـاش أو خـمـسـين عـامًـا

أما الدكتور محمد موسى هنداوي فهو من المتخصصين في اللغة الفارسية المخلصين لمادته هذه، يؤدي واجب التأليف فيها والترجمة منها وتدريسها، كان من أوائل خريجي جامعة القاهرة التي كانت تُدعى جامعة فؤاد الأول، وتخرج في كلية الآداب - معهد اللغات الشرقية، وهو معهد تابع لهذه الكلية. وعندما تخرج عمل في سلك التدريس في كليته أولًا، ثم في كلية دار العلوم، ومنها انتقل إلى العمل في جامعة الكويت، وكان حضوره إلى الكويت هو بداية تدريس اللغة الفارسية في جامعتنا. ولقد بقي في مزاولة التدريس في الكويت إلى أن وافاه الأجل المحتوم.

كان الدكتور هنداوي قوي العلاقة بعدد من أدباء وعلماء زمنه منهم الدكتور طه حسين والدكتور عبدالوهاب عزام والدكتور صادق نشأت وغيرهم، وفي الكويت كانت علاقته بجميع زملائه في الجامعة علاقة محبة ووفاء، وفوق هذا فإنه لم ينس صلاته بتلاميذه الذين تلقوا اللغة الفارسية على يديه في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة ومنهم كاتب هذه السطور الذي لا يمكن أن ينسى أستاذه مهما

مر عليه من زمن لأن علمه الغزير وأخلاقه الكريمة وحرصه على دوام الصلة من الأمور التي تربط كل واحد من تلامذته به. وكل ما يمكن أن يقال عنه هنا أنه رجل دؤوب. حريص على أداء رسالته العلمية مهما كانت التضحيات. وقد كتب الكثير من المقالات والبحوث وألّف عددًا من الكتب وترجم مالا يحصى من النصوص الفارسية، وكأنه قد عاش أكثر من عمره الذي عاشه معنا، وذلك لكثرة جده واهتمامه بالعمل العلمي الذي وهب له حياته.

هذا وقد أنتج الدكتور محمد موسى هنداوي عددًا من الكتب ذات أهمية كبرى في مادتها أولها كتاب: تاريخ الأدب الفارسي، وهو كتاب مترجم عن الفارسية، يتناول تاريخ هذا الأدب منذ عصوره الأولى حتى العصر الحديث.

ومنها كتاب: سعدي الشيرازي شاعر الإنسانية؛ عصره، حياته، ديوان البستان، وفيه تاريخ حافل للأحداث التي جرت في القرن السابع الهجري، مع تحليل وافٍ لأهم القصص التي جاءت في البستان، بعد التحقيق الشامل الذي يتناول حياة الشاعر، وما أحاط به من أحوال.

ومن إنتاجه المعجم الذي أشرت إليه، وهو معجم عربي فارسي، يضم عشرين ألف كلمة أو ما يقرب من هذا العدد، ويبين استعمال كل كلمة منها ويبين التراكيب المستعملة في تلك اللغة، إضافة إلى أنه قام بمقابلة كل ذلك مقابلة دقيقة على أوثق المعاجم الحديثة.

ثم من مؤلفاته كتاب بوستان، وقد صدر منه الجزء الأول منه في السنة التي ذكرناها عندما تحدثنا عنه، وبقي منه الجزءان الثاني والثالث، وفي الأجزاء الثلاثة تناول بالترجمة كامل النص مع دراسة تاريخية قدم بها لهذا العمل الجليل الذي يدل على مقدرة الدكتور هنداوي وإمكاناته العلمية التي يندر وجودها عند كثيرين من محبي العلم. وإضافة إلى ذلك فإنه ترجم كتاب كَلستان لسعدي الشيرازي الذي

وصفه المترجم بأنه خير ما أبدعه الشاعر من الأدب المنثور. ويبدو أن أستاذنا كان متتبعًا للشيرازي نتيجة لإعجابه الشديد به وبفنه الراقي فترجم له - أيضًا - كتابه (البدائع) وعلق عليه بأنه أروع ما نظمه الشاعر من الغزل الصوفي.

ولم يكتف بكل هذا فقدم كتبًا أخرى. ولا شك في أنه أنتج كتبًا أخرى بعد سنة ١٩٥٤م، ولكنني لم اطلع عليها، وعلى كل حال فإن ما أشرنا إليه فيه الدلالة الكاملة على مقدرة الدكتور الهنداوي، ونشاطه العلمي، وهمته العالية التي سخرها لهذا الجانب المهم من جوانب المعرفة.

وأخيرًا ماذا نعرف عن الدكتور الهنداوي في الكويت، أكثر من علاقاته الشخصية، وحبه للناس، والترحيب بلقائهم، وهو الأمر الذي أحظى منه بالكثير، فهو كثير الاتصال بي لا ينقطع عن الزيارة، وهذه خصلة محببة فيه، وفوق ذلك فإن المرء عندما يتصفح دليل توثيق تاريخ كلية الآداب في الكويت الذي صدر في عيدها الثلاثيني وذلك في سنة ١٩٩٦م يجد فيه صورة جامعة مهمة، تم التقاطها في سنة ١٩٧٠م، وبالتحديد في شهر مارس من السنة المذكورة، كانت هذه الصورة تضم عددًا من أعضاء هيئة التدريس بقسم اللغة العربية، وقد وقف معهم الطلاب الذين تخرجوا في ذلك الوقت وأذكر منهم الدكتور خليفة الوقيان، والدكتور سليمان الشطي والدكتور يحيى أحمد والأستاذ عبدالله خلف وآخرين نحتاج إلى مجال آخر للحديث عنهم.

أما الأساتذة فمنهم:

- **الأستاذ عبدالسلام هارون.**
- **الدكتور عبدالعزيز مطر.**
- **الدكتور محمد موسى هنداوي.**
- **الدكتور محمد خلف الله أحمد.**
- **الدكتور أحمد الغندور.**
- **الدكتور عبدالعال سالم.**
- **الدكتور محمد زكي العشماوي.**

هؤلاء الرجال كانوا من خيرة علماء ذلك الزمان الذي شهد بداية عمل جامعة الكويت، ولقد كان من حسن الحظ أن هذه الجامعة قد استقطبت عددًا كبيرًا من المتخصصين في كافة المجالات التي بدأت الدراسة بها يوم نشأت وكان هذه الجمع الكبير الذي ذكرناه ضمن أولئك الذين انتشرت جهودهم في شتى الأقسام العلمية الجامعية.

وهذه نبذة عن بعض هؤلاء الذين زاملوا الدكتور محمد موسى هنداوي، وشهدوا معه تلك الأيام الخصبة التي غُرست خلالها نواة التعليم الجامعي في دولة الكويت:

١ - الأستاذ عبدالسلام هارون؛ هو بقية العلماء المتخصصين في النحو وكافة علوم اللغة العربية، أولى اهتمامه الشديد لأمرين أحدهما التعليم وتخريج أجيال ربّاهم على ما يحب من تَشبّع بالعلم ومحبة له، والثاني هو تحقيق النصوص التراثية.

فيما يتعلق بالأمر الأول نلاحظ أنه كان من أعمدة كلية دار العلوم بجامعة القاهرة، وكان لي حظ وافر بتلقي العلم على يديه، ثم أتى إلى الكويت، وصار رئيسًا لقسم اللغة العربية بكلية الآداب في جامعة الكويت، وبذا فهو من أوائل المدرسين الجامعيين هنا. أما فيما يتعلق بتحقيق النصوص فإن له باعًا طويلًا في هذا الشأن، وله من الكتب المحققة بجهده المنفرد: كتاب سيبويه في عدة مجلدات، وكتاب خزانة الأدب، وهو - أيضًا - في عدة مجلدات، وله اهتمامات كثيرة، وتحقيقات متعدّدة. وبالجملة فإن ما تركه لنا في بطون الكتب التي أنجزها من علم، يعتبر ذخيرة غالية لكافة الأجيال.

أما الدكتور عبدالعزيز مطر فهو - أيضًا - من أوائل الأساتذة الذين عملوا بقسم اللغة العربية في كلية الآداب هنا، وشهدت جامعة الكويت أنشطته وأبحاثه ومحاضراته. وكان اهتمامه منذ أتى إلينا منصبًا على اللهجة الكويتية، فألف فيها

وكانت دراسته لها علمية بمعنى الكلمة، وله عدة كتب في اللغة، وله كتب أخرى من كتب التراث العربي قام بتحقيقها ونشرها مثل كتاب «لحن العامة» للزبيدي، وقد نشره في الكويت إبّان سنة ١٩٨٦م، وله - أيضًا - تحقيق كتاب «تقويم اللسان» لابن الجوزي، وكتاب: «فائت الفصيح» لأبي عمر الزاهد، وغير ذلك كثير.

والدكتور محمد خلف الله أحمد من الأسماء البارزة في مجال الأدب واللغة، وله إنتاجه الغزير من المؤلفات، وقد أدّى واجبه العلمي جيدًا في قسم اللغة العربية بكلية الآداب - جامعة الكويت.

وأما الدكتور أحمد الغندور فكان من أوائل الذين انتظموا في سلك التدريس الجامعي في الكويت، وكان في عمله أستاذًا لمادة قانون الأحوال الشخصية منذ أول يوم لافتتاح جامعة الكويت في سنة ١٩٦٦م.

وإذا أردنا الحديث عن الدكتور عبدالعال سالم مكرم، وجدناه حديثًا طويلًا، فهو ذو خبرة كبيرة في التعليم الجامعي، وفي التأليف وتحقق النصوص. إنه من المتخصصين في دراسات اللغة العربية، وله اهتمام بالنحو والصرف والعروض، طبعت له كتب كثيرة في الكويت وفي خارجها، منها كتاب «القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية»، و«ظواهر لغوية من المسيرة التاريخية للغة العربية في الإسلام» وغيرها كثير، فهو لا يتوقف عن الإنتاج العلمي في مجال تخصصه حتى صار علمًا واضحًا بين علماء اللغة العربية وهَدَفًا لطلاب العلم.

والدكتور محمد زكي العشماوي هو أحد هؤلاء الذين نتحدث عنهم، وهو من مواليد شهر فبراير لسنة ١٩٢١م، تخرج في كلية الآداب بجامعة الإسكندرية (قسم اللغة العربية)، وكان من المؤمل أن يصبح ذا دور مهم في مجال الدراسات اللغوية والأدبية، وقد تحقق ذلك؛ فتخرج حاصلًا على الدكتوراه، وتدرج في الوظائف الأكاديمية حتى صار نائبًا لرئيس جامعة الإسكندرية التي تخرج فيها، ثم صار عميدًا لكلية الآداب بجامعة بيروت العربية.

واختير عضوًا في مجلس الثقافة بالإسكندرية، وعضوًا في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بمصر، ونظرًا لتفوقه في دراسته، وفي عمله، وفي أنشطته المتنوعة الأخرى فقد قدرت جامعة الإسكندرية عطاءه هذا فمنحته جائزة التفوق العلمي، وميداليتها الذهبية في سنة ١٩٧٩م.

للدكتور العشماوي مؤلفات كثيرة حول عدد من الشعراء العرب القدماء، وحول القصيدة العربية في العصر الجاهلي، وله اهتمام بالمسرح والكتابة عنه، حيث قدم في هذا المجال كتابه الذي أطلق عليه اسم «دراسات في النقد المسرحي»، وله إلى جانب ذلك كتب كثيرة تدل على همته التي لا تفتر في سبيل التخصص العلمي الذي ارتضاه لنفسه، بل وعَشِقه.

كانت هذه جولة واسعة، أساسها الصوت الذي غناه الفنان عوض دوخي من ألحان الفنان الشاعر عبدالله الفرج، وكان لابد لنا من أن نتحدث عن سعدي الشيرازي صاحب الأبيات التي جاء لحن الصوت عليها، ولا بد - أيضًا- من أن نتكلم عن أستاذ اللغة الفارسية الدكتور محمد موسى هنداوي، فهو الذي اهتم بمن سماه شاعر الإنسانية وقرب إلينا أدبه وأفكاره. ولقد كانت الجهود التي بذلها هذا الأستاذ النابه من الأمور التي حببت إلينا دراسة اللغة الفارسية وقربتها إلى أذهاننا، وكانت اتصالاته في مصر وفي خارجها منصبة على ترسيخ ما توصل إليه من أهداف، وكل هذا الذي نتحدث عنه مرّ هنا بالقارئ خلال المقال الذي بين يديه، فأرجو أن أكون قد وُفقت.

ويكفينا ما أوردناه من أبيات هذه القصيدة التي تم غناؤها هنا، ولن نوردها كاملة اكتفاءً بما ورد في لحن الصوت المغنّى، ومن أراد الباقي فيمكنه الرجوع إلى أشعار الشيرازي العربية المطبوعة التي أشرنا آنفًا إلى المصدر الذي وردت فيه.

****

ملحاق خير

قرأت في عدد «الوطن» الصادر في اليوم الثالث عشر من الشهر الجاري مقالًا تحت عنوان «استراحة الجمعة» كتبه الأستاذ خلف الدواي. وكان مقالًا شاملًا مفيدًا من شتى نواحيه. إلا أنه أيقظ مواجعي حين أشار إلى موضوع يتعلق بـ«البيجر» وتحدث عن «بيجري» الفقيد حديثًا يدل على مشاركته لي في الشعور نفسه، وأنا إذ أشكر الأستاذ خلف على إعادة ذكر «البيجر» الذي كانت لي معه أيام، لاشكره - أيضًا - لأنه تحدث عن موضوع يهمني كثيرًا، ولقد كتبت عنه قبل ذلك دون أن ينتبه إليّ مسؤول أو يرد عليّ مجيب.

وهذا الذي أشير إليه هنا هو موضوع النداءات السخيفة التي تصدر من بعض محطات الوقود «البنزين وخلافه» وبخاصة المحطة القريبة مني وهي محطة المنصورية. هذه النداءات مع ما نسمعه منها من غثيث القول، ومهما تقادم عليه الزمن كما ذكر الأستاذ خلف، فإنها تصدر عن صوت مزعج شديد الإلحاح علينا ونحن وقوف بانتظار ملء خزانات سياراتنا، ولا أدري السبب الذي يجعلهم يكررون هذا القول السمج لسنوات عدة، ألا يدرون أن كثيرًا مما ورد في حديثهم قديم وبائد، أم أنهم يفترضون فينا الجهل، وعدم الاهتمام بما يقولون فهم يكررون ويلحون، ويؤذون أسماعنا تلبية لرغبة أنفسهم التي تسول لهم أنهم - فقط - الذين يفهمون، وأما باقي خلق الله فلا فهم ولا إدراك لديهم.

ليست المسألة متعلقة بـ«البيجر» وحده - يا أستاذ خلف - ولكنها مسألة عامة تتعلق بهذا الجهاز الفقيد، وتتعلق بما يناله الناس من الأذى السمعي، والأذى الذهني. ولا أجد الحل في حذف عبارة أو أخرى، ولكن المطلوب هو إلغاء فكرة التنويه الذي لم يقترحه عليهم شخص يتمتع بذهن صافٍ، أو يجد في نفسه قدرة على احترام الناس، وحرصًا على إيذائهم.

فيا أصحاب هذه المحطة أنقذوا أسماعنا وأذهاننا، واحترموا فهمنا للأمور دون أن نحتاج إلى هذه التنويهات التي امتلأت بكل ما يجلب الضيق، وبكل الغثاثة من مقدمها. وسوف نشكركم فيما بعد.

****

ملحاق خير

من الجدير بنا في هذا المقام أن نذكر مجموعة كريمة من أبناء الكويت كانوا طليعة خريجي قسم اللغة العربية بجامعتنا العتيدة، لقد كان هؤلاء وهم الذين يمثلون الدفعة الأولى من أبناء كلية الآداب مثالًا يحتذى للجد والاجتهاد والمثابرة، وفي ميدان عملهم بعد ذاك صاروا من المنتجين البارزين الذين برع كل واحد منهم في مجاله.

ولن يتسع المجال للحديث عن الجميع في هذا الملحاق ولكننا نشير - فقط - إلى أربعة منهم وهم:

أولًا: الدكتور خليفة عبدالله الوقيان. وهو الآن من أبرز الكتاب والنقاد والشعراء في الكويت، شارك في عدد من الهيئات منها عضويته في مجلس إدارة مركز الدراسات والبحوث الكويتية، ومنها توليه الأمانة العامة لرابطة الأدباء الكويتيين منذ سنة ١٩٨٨م حتى سنة ١٩٩٠م. وكان أمينًا عامًا مساعدًا بالمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ثم صار مستشارًا في المجلس ذاته.

له عدد من المؤلفات والمجموعات الشعرية وهو حتى الآن مستمر في نشاطه الثقافي لا يمر عليه وقت طويل دون أن ينتج لقرائه ما يفيدهم ويفتح أمامهم طرق المعرفة.

ثانيًا: الدكتور سليمان علي الشطي، وهو من أدباء الكويت الذين برزوا في عدد من فنون الأدب، وصار من الأعلام في فن القصة عندنا، ولد في سنة ١٩٤٣م، ودرس دراسته الأولى في المدرسة الأحمدية وتدرج بعد ذلك في الدراسة إلى أن انتظم في كلية الآداب عند إنشائها وتخرج في قسم اللغة العربية بجامعة الكويت سنة ١٩٧٠م ، واشترك مع عمله في التدريس الجامعي في عدة أنشطة خارجية، وألّف عددًا من الكتب منها مجموعة قصصية وبحوث، وقد ترجمت بعض قصصه إلى بعض اللغات الأجنبية كالروسية والإنجليزية.

وهو لايزال - بتوفيق من الله - يؤدي رسالته التي يهتم دائمًا بأدائها في مجال نشر الأدب ورعاية محبيه.

ثالثًا: الأستاذ عبدالله خلف المولود في سنة ١٩٧٣م أحد الرجال الذين أتحدث عنهم في هذا الملحاق، تدرج في دراسته حتى تخرج في قسم اللغة العربية بكلية الآداب.

وقد نشأ الأستاذ عبدالله في بيئة مثقفة.. أخوه الأكبر هو الأديب الشهير الأستاذ فاضل خلف، والثاني هو الأستاذ خالد خلف، وعبدالله مثلهما في الاهتمام بالثقافة والأدب وله نشاط كبير في مجال الإعلام، كما أن له مؤلفات كثيرة في القصص والبحوث الأدبية، ودراسات اللهجات وله أنشطة أخرى خارج ذلك فهو من المهتمين بالمسرح وكان أحد مؤسسي مسرح الخليج العربي، وكان أمينًا عامًا لرابطة الأدباء الكويتيين ولا يزال منتجًا لا تخلو الصحف من مقالاته، ولا تصمت إذاعة دولة الكويت عن أنْ تقدم له أحاديثه الشيقة، بل ولا تتوقف المطابع عن طباعة كتبه التي يتحفنا بها بين وقت آخر.

رابعًا: الدكتور يحيى علي أحمد، أحد المجموعة الطيبة التي تخرج أفرادها سنة ١٩٧٠م في قسم اللغة العربية، وقد تخصص في مرحلة اشتغاله بالتدريس في الجامعة بعلم اللغة والصوتيات، وهو حاصل على الدكتوراه من جامعة لندن سنة ١٩٧٩م، وله نشاط واسع في البحث والتأليف، وكان عميدًا لكلية الآداب في فترة سابقة.

****

حديث حول وربة وبوبيان[1]

مع بداية التحرك نحو تنفيذ الخطة الاقتصادية الكبرى التي اقترحتها الحكومة وأقرها مجلس الأمة، تبين لنا أن من أهم بنود هذه الخطة إحياء منطقة بوبيان بإقامة منشآت عملاقة ذات أهداف اقتصادية فيها.

ولعل مما لفت الأنظار اختيار اسم الشيخ مبارك الصباح لكي يطلق على بعض الأعمال المزمع إنشاؤها هناك وبخاصة الميناء الكبير المنتظر.

والشيخ مبارك يستحق ذلك ليس فقط من أجل أنه مؤسس الكويت الحديثة، وحامي حماها، والحريص على استقلالها فقط بل لأن اسمه مرتبط ارتباطًا كبيرًا بكل من جزيرتي بوبيان ووربة، ذلك أنه بذل من الجهود المضنية ما مكنه من إثبات حدود البلاد بجهوده التي لم تنقطع حتى تحقق له ما أراد، وبما قدمه من أدلة قاطعة، تنفي كل ادعاء من شأنه أن يؤثر في قضية الحدود. والغريب أن أطماع الدولة العثمانية لم تنته بزوالها إثر الحرب العالمية الأولى فورثت حكومة العراق هذه الأطماع وبخاصة فيما يتعلق بجزيرتي وربة وبوبيان، ولقد جرت عدة محاولات في عهد الشيخ أحمد الجابر الصباح بهذا الخصوص وكان من الأمور التي تلفت النظر وتثير الاستغراب هو تدني النظرة العراقية إلى الأمور ذات الأهمية، ففي مسرى الحديث عن الحدود ظهر لنا قولان غريبان يتعلقان بموضوع هاتين الجزيرتين وهما:

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١١/٥/٢٥م.

أولًا: من ضمن الحجج التي توصلوا إليها قولهم إن المنطقة التي تكون وربة وبوبيان منطقة طينية لا تصلح للسكن ولا تستفيد منها الكويت، وما دامت كذلك فالأفضل عندهم تسليمها للعراق، ولا شك في أن هذه حجة واهية، وكم في بلاد العالم من المستقعات ولكنها محفوظة عند أهلها لا يفرطون بها، ولم نسمع في يوم من الأيام بمثل هذا الأمر الغريب الذي يثيرونه بعد أن فقدوا كل الحجج.

ثانيًا: ومن غرائب الادعاءات أن جعفر العسكري الذي كان وزير الدفاع في العراق سنة ١٩٣٥م قد أصر على المطالبة بجزيرتي بوبيان ووربة باعتبار أنهما تكونتا من المواد الطينية القادمة من الأنهار عبر العصور، وبحسب هذا المنطق فإن من المفترض أن تشترك في ملكية هاتين الجزيرتين عدة دول؛ هي التي تمر الأنهار على أراضيها مكونة في الآخر شط العرب الذي يصب في الخليج، علمًا بأن مصب النهر لا يجري في اتجاههما، بل هو إلى الشمال الشرقي منهما، ولكن الأطماع تعمي العيون والقلوب أيضًا، وقد لا يغيب عن الأذهان ذلك الوادي الكبير المسمى وادي الرمة (الباطن)، الذي شكل في العصر المطير من الزمن الجيولوجي الرابع دلتا كبيرة يقع رأسها عند حفر الباطن، وتنتهي عند السواحل الكويتية الحالية، وقد كان لإرساباته الفيضية الوفيرة الأثر الكبير في تكوين معظم أشكال سطح الأرض في هذه المنطقة بما فيها جزيرتا بوبيان ووربة.

نكتب هذا الموضوع للمناسبة التي ذكرناها في بداية هذا المقال، إذ لابد أن نحيي ذكرى تلك الجهود التي تم بذلها في سبيل هذه المنطقة التي هي موضع المشروعات الجديدة، لقد كانت حلبة نضال، وصراع ضد الباطل ولم يهدأ للشيخ مبارك الصباح بال حتى نال الاعتراف الواضح بحق الوطن في كافة ترابه.

تقع جزيرة بوبيان في الجزء الشمالي الغربي من جون الكويت، يفصلها خور عبدالله عن مصب شط العرب، وخور بوبيان عن جزيرة وربة شمالًا وخور الصبية

عن اليابسة التي تقع غربًا عنها. وهي ممتدة طولًا مسافة ٢٦ ميلًا وعرضًا ١٢ ميلًا، وتسمى النقطة التي تقع في أقصاها الشرقي رأس القيد، والنقطة الجنوبية رأس البركة (بكاف مكشكشة) وفيها منخفضات كثيرة وبخاصة إلى الشمال من الجزيرة، كما أنها خالية من الزراعة والمياه العذبة، وكثيرًا ما يطغي ماء البحر على بعض أرجائها وبخاصة في الشمال، وكانت هذه الجزيرة - ولاتزال - مصدر رزق لكثير من الكويتيين الذين يذهبون إليها وإلى ما جاورها من أجل صيد السمك، واشتهر رأس القيد برحلات موسمية خاصة يقوم بها سكان جزيرة فيلكا منذ القدم لاصطياد سمك الزبيدي الشهير، وكانت هذه المواسم تسمى القيد، ولها نظام خاص، ومواعيد محددة يعرفها المجربون.

أما وربة فيصفها لوريمر قائلًا: «وربة: جزيرة تقع بين الطرف الشمالي لجزيرة بوبيان وأرض العراق التركي، ويحيط بها خور عبدالله الآتي من جهة الجنوب الشرقي، وخور الصبية الآتي من الجنوب، ويبلغ طول وربة ثمانية أميال من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، ويبلغ أقصى عرض لها ميلين، وسطحها مستو، ورملي، وبه الشجيرات الصغيرة، كما يبلغ أقصى ارتفاع لها عن سطح الماء المرتفع نحو عشرة أقدام، ويكون الماء عميقًا عند طرفها الجنوبي الغربي الذي تميل الجزيرة نحوه بانحدار».

هذه هي وربة، وتلك هي بوبيان، وقد تردد في وصفهما اسم خور عبدالله، وهو ممر مائي أخذ تسميته من اسم الشيخ عبدالله الصباح حاكم الكويت في الفترة ما بين سنة ١٧٧٦م و١٨١٤م، ونسبة هذه التسمية إليه معروفة ومتواترة، ولا عجب في ذلك، فقد كان بطل معركة الرقة القريبة من تلك المنطقة، والتي حفظت للكويت مركزها المرموق في عهده.

عندما طلبت السلطات العثمانية من الشيخ مبارك أن يرسل لها بيان الحدود التي يراها لبلاده بصفة غير رسمية، أرسل لها مذكرة وافية بدأها بتاريخ نشأة الكويت، ثم تحديد حدوده مع العراق التي يسيطر عليها، فذكر من تلك المواقع التي تقع تحت سيطرته أم قصر وسفوان وفيلكا وبوبيان وواربة ومياهها، هذه فقرات من رسالته تلك، وقد أرسل نسخة منها إلى المعتمد البريطاني في الكويت، ووردت صورة لها في وثائق دار الاعتماد البريطانية: «... ومن شرق: جزيرة فيلكا أهاليها بحرية أميرهم سعود الصباح، وبوبيان، والصبية، والحجيجة، والصابرية، وأم نقا هذه المياه المذكورة جميعها موارد عشائرنا من القديم» ويلاحظ عدم ذكره لجزيرة وربة، لأن أمرها مفروغ منه فهي تقع بين بوبيان وأم قصر وكان قد ذكر في الرسالة نفسها: «وحدودنا من شمال أم قصر الذي بناها جدنا جابر، وسفوان ومنه قبلة إلى الباطن...».

بالإضافة إلى أن وربة تكاد تكون ملتصقة ببوبيان حتى يمكن اعتبار الجزيرتين جزيرة واحدة، واعتبرت وربة دائمًا جزءًا من بوبيان بحكم الشفعة، فهي قريبة جدًا منها لا يفصلها عنها إلا ممر مائي ضيق. بالإضافة إلى ما سوف يرد على لسان الشيخ بعد قليل حين يورد الحجج القوية على ملكية الكويت لهذه الجزيرة.

ويوحي طلب الأتراك لهذه البيانات من مبارك أنهم في حيرة من أمرهم في هذا الشأن في مقابل الضغوط التي يلقونها من ألمانيا الطامعة في المنطقة.

مع ما في سؤالهم من غرابة، إذ كيف تسأل تركيا عن حدود منطقة تعتبرها جزءًا منها؟

ولم تقف بريطانيا موقف المؤيد لمبارك في مسألة وربة وبوبيان إلا بعد بحث وتقص مضنيين، اطلعت فيهما لجنة خاصة على وثائق وإفادات عدد من سكان المنطقة، فوجدت الصدق فيما سمعت وفيما اطلعت عليه، وهذا هو ما دعاها إلى

الخروج من التردد إلى العزم الصادق على مؤازرة الشيخ وتأييده أمام المطامع التركية، وفي هذا المجال نذكر النصين التاليين وهما في عهدين مختلفين بالنسبة للكويت:

١ - ما ورد في ختام مذكرة كتبت في أعقاب التحقيقات البريطانية، وبعد توقيع اتفاقية سنة ١٩١٣م، بين بريطانيا وتركيا وهو: «أكدت بريطانيا من خلال مندوبها السياسي في الكويت ملكية الكويت لجزيرتي وربة وبوبيان، كما نصت المادة السادسة من الاتفاقية الإنجليزية التركية لعام ١٩١٣م على ملكية شيخ الكويت لجزيرتي وربة وبوبيان».

٢ - خطاب نوري السعيد الصادر في ٢١ يوليو من سنة ١٩٣٢م والموجه إلى السير فرنسيس:

عزيزي...

أظن أن سعادتكم توافقون أنه حان الوقت لتأكيد الحدود القائمة بين العراق والكويت.

ولذلك فإنني أطلب القيام بالإجراءات الضرورية للحصول على الاتفاق من السلطات الرسمية في الكويت للموافقة على الوصف التالي للحدود القائمة بين البلدين:

من نقطة التقاطع لوادي العوجة مع الباطن ومن هناك نحو الشمال على طول الباطن إلى نقطة جنوب خط عرض صفوان، وبعد ذلك إلى الشرق مارًا بجنوب آبار صفوان، وجبل سنام وأم قصر يتركان للعراق، وبعد ذلك إلى تلاقي خور الزبير مع خور عبدالله، أما جزر وربة وبوبيان وفيلكا وعوهة وكبر وقاروه وأم المرادم فهم يخصون الكويت».

وهذا الخطاب واضح الدلالة على أنه تم بمبادرة من الحكومة العراقية، وإلا لقال: بناءً على طلبكم، أو بناءً على المحادثات التي تمت بيننا، ولكنه هنا يبدأ بقوله: أظن سيادتكم توافقون، ثم لو كان هذا الكتاب قد تم بناء على مبادرة بريطانية لما ذكر الجزر الأخرى البعيدة عن الحدود فهم يعرفون أكثر من نوري السعيد ما ينبغي أن يقال. وللأسف الشديد فإن العراقيين اليوم يرون أن هذا الكتاب قد أرسل بضغط من الحكومة البريطانية اشترطته من أجل انضمام العراق إلى عصبة الأمم، بينما الواقع أنه كان من شروط القبول في تلك المنظمة أن تكون الدولة ذات حدود معلنة معترف بها، ولذا فإن نوري السعيد حريص على أن يطلب موافقة السلطات الرسمية في الكويت لا أية جهة أخرى.

ومع ذلك فإن المغالطات من جانبهم لا تتوقف.

يقول ب.ج. سلوت في كتابه «أصول الكويت»: «كانت خرائط ثورنتون عن الخليج مشتقة من خرائط هولندية.. أما البيانات الأكثر حداثة على خريطة ثورنتون فتعود إلى عام ١٦٦٦م، وبعد ذلك عام ١٧٥٣م نشر فان كولن الجزء السادس الذي يعتبر بحق خطوة رائعة إلى الأمام في رسم خرائط الخليج.

لم تبتدع خريطة فان كولن للخليج شيئًا في دقتها الجغرافية، ولكنها أضافت أربعة أسماء في منطقة الكويت هي: القرين وفيلكا وبوبيان وعوهة. وتعد هذه الخريطة الأولى التي تظهر فيها القرين، وهي تحوي - أيضًا - أرقامًا عن عمق البحر أمام القرين، وهكذا فهي تبين أن الملاحة الهولندية كانت موجودة في هذه المنطقة في تاريخ ما قبل طباعة هذه الخريطة».

هذا من الناحية الجغرافية ذات الصفة التاريخية وما توحي به عن الأوقات التي جرت فيها الأمور المؤدية إلى رسم هذه الخريطة ثم إعلانها. أما من حيث ما لحق ذلك من أمور؛ فتتعلق بأمرين:

١ - تأكيد الشيخ مبارك الصباح المستمر على حقه في كامل حدود بلاده بما في ذلك تلك الواقعة إلى الشمال.

٢ - الاعتداء التركي على جزيرة بوبيان واحتلال جزء منها بثلة من الجنود.

فيما يتعلق بالبند الأول فإن الرسالة التي أشرنا إليها من قبل والتي أرسلها الشيخ مبارك إلى العثمانيين محددًا فيها حدود بلده تدل على اهتمامه بعدم إغفال أي جزء من الأراضي الكويتية فقد ذكرها كلها وأصر على أنها تقع ضمن حدود الكويت، وفي سنة ١٣٢٦هـ - الموافق ١٩٠٨م وردت رسالة من الشيخ مبارك إلى المندوب السياسي البريطاني في الكويت عن جزيرة وربة يؤكد فيها:

١ - أن جزيرة وربة هي ملك الكويت.

٢ - أن الجزيرة كانت محل إقامة شباك صيد صيادي السمك الكويتيين منذ مائتي سنة.

٣ - أن الأجانب طلبوا السكن فيها مقابل الإيجار ولكن صيادي الكويت رفضوا ذلك.

٤ - لذلك فإن الجزيرة جزء من الكويت.

وقد رد الميجور نوكس Knax على الرسالة السابقة بتاريخ ١٩٠٨/٦/٧م مؤكدًا أنه:

١ - يعترف بكل ما جاء في الرسالة من أفكار وبأن وربة جزء من الكويت ومحل إقامة شباك صيادي الكويت منذ مائتي سنة.

٢ - إن الكويتيين والإنجليز يعترفون بذلك ولكن يجب تقديم الدلائل والحجج للآخرين الذين يشكون في ذلك.

٣ - يطلب الميجور نوكس من حاكم الكويت أن يرسل له بعض كبار السن ممن لهم معلومات عن هذا الموضوع حتى يتم سؤالهم بهذا الخصوص، ويقترح بعض الأسماء مثل عبدالعزيز بن سالم أو عبدالله الهاجري أو حجي علي.

ثم ترد رسالة من الشيخ مبارك إلى الميجور نوكس بتاريخ ٧ جمادى الأولى ١٣٢٦هـ يوضح فيها أنه لا يقول إلا الحقيقة وأن جزيرة وربة معروفة للجميع وأن كثيرًا من رجال الكويت وحجي علي سوف يكونون شهودًا على ذلك.

وعندما بدأ اهتمام بريطانيا بالخليج وبالكويت خاصة، فإنها وجدت حالة فريدة من نوعها، فقد كانت الإمبراطورية العثمانية بكل قوتها وهيمنتها تحاول أن تفرض وجودها على الكويت، كما كانت الكويت تقف ضد كل التهديدات العثمانية وتحاول أن تثبت أحقيتها في أرضها بما فيها جزيرتا وربة وبوبيان. ولكن بريطانيا لم تقف بجانب الكويت لمجرد أنها عدو للدولة العثمانية، بل حاولت أن تتقصى الحقائق وتتبين دعاوى شيخ الكويت في ملكيته لجزيرتي وربة وبوبيان ولذلك فإنهم حاولوا أن يقفوا على طبيعة المشكلة من جوانبها المختلفة والتأكد من كل وجهات النظر والادعاءات حول الجزيرتين.

ووردت وثيقة بتاريخ ١٩٠٨/٦/٧م نصها كالآتي:

«أقوال الشهود في مسألة ملكية جزيرة وربة (سري)» وبتوقيع الميجر نوكس المندوب السامي البريطاني في الكويت:

أعطى الاستبيان لـ : رجا بن مبارك ٨٥ سنة، ورشيد بن سلمان ٧٠ سنة. وبناءً على أقوالهما:

فإننا لو حسبنا أن هذه المعلومات تعود إلى ٧٠ سنة قبل ذلك أي أن هذا يبين الأحوال التي رآها الشهود حوالي عام ١٨٣٨م، بالإضافة إلى ما نقلوه عن أجدادهم، وأن أماكن الصيد تملكوها بالوراثة، وأن الذي قام بتوزيعها بين قبيلة العوازم هو الشيخ عبدالله الصباح جد الشيخ مبارك، وأن الحكام الذين جاؤوا بعده لم يغيروا هذا الوضع.

لذلك فإني أسجل رأيي بأن مطالب الشيخ مبارك بملكية جزيرة وربة مطالب قوية جدًا وأن الاعتبارات المسجلة أعلاه جديرة بالاعتراف ويمكن إثباتها دون أقل نزاع. إني أعتبر أن الملكية الخاصة لجزيرة وربة بلا شك من حق الشيخ مبارك كالملك الخاص في الشمال للخط الساحلي كما أثبتته الحجج المسجلة في إحدى محاكم القضاء التركية...

أما فيما يتعلق بجزيرة بوبيان فقد ذكروا أن الشواهد التي جمعها المندوب السياسي في الكويت أظهرت أنه حتى وقت إنشاء السلطات التركية حديثًا مركز هناك فإن الجزيرة كانت تحتلها قبيلة العوازم الكويتية منفردة وقد مارست لعدة أجيال حقوقها المتوارثة في الصيد بناءً على مكرمات من شيوخ الكويت وأن سلطة الشيوخ في منح تلك المكرمات لم تكن حتى الآن محل نزاع من أحد».

وفي ١٠ من سبتمبر ١٩٠٨م أرسلت حكومة الهند إلى وزير الخارجية نسخًا من المراسلات التي تلقتها من المقيم السياسي في الخليج... حول موضوع أحقية شيخ الكويت بجزيرتي بوبيان ووربة.

وأكدت بريطانيا من خلال مندوبها السياسي في الكويت ملكية الكويت لجزيرتي وربة وبوبيان، كما نصت المادة السادسة من الاتفاقية الإنجليزية التركية لعام ١٩١٣م على ملكية شيخ الكويت لجزيرتي وربة وبوبيان.

ملحاق خير

نقلنا في هذا المقال حديث لوريمر عن جزيرة وربة وذكرنا إنه قال إنها تقع بين الطرف الشمالي لجزيرة بوبيان وأرض العراق التركي، بحسب نصه المثبت في كتابه.

والواقع أن التحديد الشمالي لجزيرة وربة في حديث لوريمر غير دقيق، فهناك فاصل مائي بين شمالي هذه الجزيرة وأرض العراق هو المسمى: خور شتيانه، وهو خور كان ينبغي أن يقسم بالنصف بين الكويت والعراق عند تحديد الحدود دوليًا، وهذه هي الأصول القانونية لمثل هذه الحالات، ولكن «لجنة الأمم المتحدة لترسيم الحدود الدولية بين دولة الكويت وجمهورية العراق بحرص واضح على تأمين الممرات المائية في منطقة مدخل خور الزبير لصالح العراق، حيث ينحرف خط الترسيم الذي وضعته في هذه المناطق إلى الجنوب داخل المياه الإقليمية الكويتية، وهنا يمر خط ترسيم الحدود الذي وضعته لجنة الأمم المتحدة عند نقطة انحسار المياه على طول السواحل الكويتية المطلة على مدخل خور الزبير كما توضحه أرقام علامات الحدود ١٠٦، ١٠٧، ١١٤، ١١٩، ١٢٤، ١٢٩، ١٣٤، على خريطة مدخل خور الزبير ليتيح للعراق الاستفادة من الجانب العميق من الخور وهو الأكثر اتساعًا، مما يؤدي من الناحية العملية إلى حرمان الكويت من الملاحة في مدخل خور الزبير، كما يتضح من الخريطة.

ورغم أن دولة الكويت قد تحفظت على هذا التجاوز في ترسيم الحدود البحرية الذي تجاهل خط الوسط كأساس لترسيم الحدود المائية بين الدول

المتجاورة حسب نص المادة (١٥) من اتفاقية البحار الدولية لعام ١٩٨٢، إلا أنها قبلت بقرار اللجنة من منطلق سياستها الثابتة التي تدعو إلى التعاون مع المنظمة الدولية في سعيها لحل المشكلات الدولية بطرق سلمية وودية».

وهكذا نرى أننا قد فقدنا جزءًا من حدودنا، في الوقت الذي يصرخ فيه الآخرون الذين استولوا على هذا الجزء.

ويجدر بنا هنا أن نتذكر أن مركز البحوث والدراسات الكويتية قد أصدر كتابًا شديد الأهمية تحت عنوان: «منافذ العراق البحرية»؛ أورد فيه الكثير من الحقائق التاريخية والجغرافية والقانونية، مع خرائط واضحة تبين كثيرًا من الأمور التي يحاول البعض إثارة المشكلات بسبب عدم وضوحها أو بسبب التغاضي عنها.

هذا وقد حرص المركز على أن يطلع على هذا الكتاب أكبر عدد من القراء، ولذا فقد قام بعد نشره باللغة العربية، بنشره بثلاث لغات أخرى هي الإنجليزية والفرنسية والألمانية، والمؤمل هو أن يطلع أبناء وطننا عليه ويعرفوا الحقائق التي تَضمَّنها، ومنها ما أثبتناه بين قوسين في هذا الملحاق. وذلك حتى لا يَغْتَرّ أحد بما يردده من لا تعنيه مصلحة الكويت.

****

رجال لن ينساهم الوطن: خالد راشد بورسلي[1]

كتبت فيما مضى شيئًا من أخبار هذا الرجل، وبعض المعلومات عنه، ولكن ما يمكن أن يُقال عنه، أو يُروى من حَكاياه لنا كثير لا ينفد.

وهذه متابعة لبعض ما سبق ذكره:

كان حظي سعيدًا حين عرفت أبا راشد، ولقد كانت لي معه لقاءات متعددة، وكان يتكرم كثيرًا بزيارة ديوانية الثلاثاء فيثري الحديث الدائر فيها بمعلوماته الغزيرة التي استمدها من قراءاته ومن تجاربه.

خالد راشد بورسلي ظل على وفائه لكل من يعرفهم حتى توفي في اليوم السادس من شهر أكتوبر لسنة ٢٠٠٠م رحمه الله رحمة واسعة، ولقد ترك في نفوس كل محبيه أحزانًا تتجدد كلما جرى ذكره أو تداول هؤلاء حديثًا جرى على لسانه حين كان يخالط الناس ويعايشهم، ويحرص على تمتين علاقته بهم، وذلك طبع كريم من طباعه التي نشأ عليها واستمر معه إلى أن توفي.

إنه رجل من رجال الكويت الذين عشقوها، وعملوا من أجلها. ولقد أسهم في مجالات النهضة المتعددة الجوانب في البلاد عندما كانت تتطلع إلى التقدم والرقي.

ولقد كتبتُ عنه - فيما سبق - معلومات متفرقة ضمن كتابي: «ملامح من تاريخ الكويت» وضمن بعض مقالات «الأزمنة والأمكنة» التي تنشرها «الوطن»

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١١/٦/١م.

وليس هذا بمستغرب إذا نظرنا إلى العلاقة المتينة التي أقامها معي ومع رواد ديوانية الثلاثاء، وإذا نظرنا إلى تمكنه من تسجيل كل ما مر عليه في حياته من أحداث تسجيلًا ذهنيًا لا يغيب شيء منه عن باله أبدًا. فهو كنز من المعرفة بتاريخ الكويت ودليل على الصورة التي كانت عليها في السابق من حيث الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي، بل وكل الأوضاع التي قد يمر بها بلد ناهض مثل بلدنا.

وهو يقول إنه قد تلقى دراسته في مدارس الكويت مثل المباركية والأحمدية، وأقبل على القراءة والاطلاع وحفظ الكثير من الأشعار سواء أكان منها ما هو بالفصحى أو بالعامية، وهو يروي الآن عددًا كبيرًا من القصائد، والكثير من الأخبار المتعلقة بالتاريخ، وبخاصة ما يتعلق منها بتاريخ الكويت، ولا غرو في ذلك فقد نشأ أبوراشد في بيئة تحب الشعر وتنشده وشاعر الكويت الشعبي فهد راشد بورسلي من نتائج هذه البيئة، وهو شاعر معروف، له شعر جيد حواه ديوانه المطبوع، وتردده ألسنة الناس في كل حين، يقول بوراشد عن دراسته وبداية عمله: «افتتحت المدرسة الأحمدية، وافتتحت مدرسة أخرى إلى جوارها، درست في هذه الأخيرة فترة ثم انتقلت إلى الأحمدية، وكان الشيخ يوسف بن عيسى، والشيخ عبدالعزيز الرشيد، ومحمد الشايجي، وعبدالملك الصالح في المدرسة المباركية، ثم انتقلوا إلى الأحمدية وجاء في هذه الفترة إلى المباركية السيد عمر عاصم، كما جاء إلى المدرسة الأحمدية الشاعر محمود شوقي الأيوبي، وأذكر أننا كنا ندرس الفقه وعلوم العربية والأناشيد، وكان الشيخ أحمد الجابر وكبار القوم يحضرون إلينا ويستمعون إلى أناشيدنا التي كان منها:

كويتنا هي الوطن
وهي الحمى وهي السكن
وهي البديعة بالزمن
فلا نرى لها مثيل

إخوانـنـا هـب الـفـلاح
بـاحـمـد آل صـبـاح
عـم الـهـنـا والارتـيـاح
فـكـن مـعـيـنًـا يـا جـمـيـل

وأذكر أن من زملائي في فترة الدراسة تلك عبدالعزيز الحمد الصقر، وجاسم السميط، والشيخ صباح السالم، وكان عبداللطيف الثنيان من ضمن تلاميذ المدرسة، ولكنه كان أكبر منا سنًا».

يشير بقوله: المدرسة الثانية إلى مبنى مدرسي كان يقع إلى الجنوب مباشرة في مقابل المدرسة الأحمدية وقد شهدت هذا المبنى وكان يستغل - يومًا - لمحو الأمية بجهود جمعية الإرشاد الإسلامي، وموضعه على تل مرتفع يصل إليه المرء من جهة الأحمدية مستغلًا طريقًا مائلًا من الأعلى إلى الأسفل، ففي ارتقائه إلى المدرسة صعوبة وعندما يريد أن يغادرها إلى الشارع العام فكأنه يتدحرج بسبب شدة الميل.

هذا وقد كان لي نصيب من العمل التطوعي بالتدريس المسائي في هذه المدرسة، وكان أغلب الدارسين من كبار السن.

ولقد تحدث يومًا عن عمله فقال إنه مرتبط بظهور بشائر النفط حين كان يدرس في المدرسة الأحمدية، ذلك أن الشيخ أحمد الجابر الصباح حاكم الكويت في الفترة من سنة ١٩٢١م حتى سنة ١٩٥٠م، كان يرغب في أن يُدخل العناصر الكويتية الشابة إلى مجالات العمل في شركة النفط التي بدأت - يومذاك - بالتحري عن وجود الذهب الأسود في منطقة من المناطق الكويتية النائية، وكان هذا العمل للشباب الذين تم اختيارهم لهذه المهمة إنما هو تدريب على نوع جديد من العمل هنا مما لم يسبق لأبناء الكويت أن مارسوه، ويقول أبوراشد: «أرسل

الشيخ أحمد الجابر أمير البلاد الأسبق رسائل إلى حوالي ثلاثين شابًا من شباب الكويت يدعوهم فيها إلى العمل في شركة نفط الكويت التي بدأت - آنذاك - في التنقيب عن النفط في البلاد، وكان البدء في منطقة بحرة شمالي الكويت، وقد انتقلنا للعمل هناك حيث استمر العمل لمدة سنتين دون أن تظهر بوادر النفط، وجاءت الحرب العالمية الثانية لتوقف هذا المشروع الذي عاد - فيما بعد - من جديد، ولكن في مكان آخر هو: برقان».

وإذا استمعنا إلى أحاديث هذا الرجل، ورأينا كيف أنه متنبّة إلى كثير من الأمور، تأكدنا أن وراء ذلك أساسًا متينًا من التنشئة السليمة تولاها والده الذي لم يكن رجلًا عاديًا ففي وقت مبكر جدًا من تاريخ الكويت، وفي زمن كان العلم فيه صعب المنال اتجه والد صاحبنا وهو: راشد بن ناصر بورسلي إلى الدراسة الأعلى مما هو موجود في الكتاتيب عندنا - آنذاك - فكان من أوائل الذين غادروا البلاد من أجل الدراسة في الخارج، إذ رحل إلى مصر في سنة ١٣٠٦ هـ التي توافق سنة ١٨٨٨م، لكي يتلقى دراسته في الأزهر الشريف في القاهرة، وكان أول من غادر البلاد لهذه الغاية الشيخ أحمد بن محمد الفارسي، الذي سبق إلى هذا المجال فقد كانت رحلته في سنة ١٨٦٤م، ولقد حثت هذه المبادرة الشيخ مساعد العازمي على ارتياد هذا المورد العذب، فرغبت نفسه في السفر إلى مصر كما فعل من سبقه رغبة في تحصيل العلم، وأملًا في الحصول على معرفة ينفع بها قومه إذا رجع إليهم. ثم جاء دور راشد بورسلي لكي يلحق بالركب رغبة في الدراسة الأزهرية.

هذا الحرص على العلم الذي وجدناه عند راشد بورسلي هو الذي كان الغرس الذي وضعه الوالد في ابنه، ولذا وجدنا أبا راشد يهتم بالدراسة والقراءة والتثقيف الذاتي بكل الوسائل المتاحة له وهو في مقتبل حياته، ولما كان يتمتع برحابة صدر وتقبل للأسئلة والأجوبة فقد أسس لنفسه في قلوب الناس من أبناء وطنه مكانة

مرموقة، إذ صار بعد حين من الزمن مرجعا يُعاد إليه في الكثير من الأمور المتعلقة بتاريخ الكويت، وأخبار رجالها.

يتذكر المرحوم خالد بن راشد بورسلي دائمًا أيام دراسته ويتحدث عن المدرسين الذين كان يتلقى دروسه عنهم، وقد ذكر منهم عبدالعزيز الرشيد وعبدالملك الصالح ومحمد الشايجي، وذكر بصفة خاصة الأستاذ محمود شوقي الأيوبي الشاعر المعروف، الذي كان يعلمهم الأناشيد، ويعودهم حب الشعر والاستماع إليه، وقد وضع لهم نشيدًا جميلًا لكي يرددوه في المناسبات، مرّ بنا ذكره في هذا المقال.

ثم يقول إن هذه المدرسة كانت محط رعاية الشيخ أحمد الجابر، وكان يدفع لها ألفي روبية سنويًا، ويكرر زيارتها مع القائمين عليها من خارج هيئة التدريس، أو مع من يأتيه ضيفًا من خارج البلاد كما حدث أن زارها يوم زيارة حاكم البحرين الشيخ سلمان بن خليفة للكويت في سنة ١٩٤٩م وطاف الرجلان الكبيران في أرجاء المدرسة واطلعا على سير الدراسة فيها، وذلك بعد انتهاء دراسة صاحبنا في هذه المدرسة وتحوله إلى العمل.

كان الشيخ أحمد الجابر الصباح حريصًا على تتبع نشاط هذه المدرسة ولذا فإنه يمنحها كثيرًا من وقته حتى إنه إذا جاءها في إحدى زياراته، كان يستمع إلى النشيد الذي أشرنا إليه، والأمير ومرافقوه يستمعون.

يقول أبو راشد: إذا جاء الشيخ أحمد الجابر في يوم من الأيام إلى مدرستنا الأحمدية لزيارتها كعادته فإنه كان يجلس مع مرافقيه حتى يستمعوا إلى نشيدنا الذي نردده بهذه المناسبة وقد مر ذكره، ومطلعه:

كويتنا هي الوطن
وهيَ الحمى وهي السّكن

وهي البديعة بالزمن
فلا لها نلقى البديل

يقول: كنا نردد هذا النشيد بصوت واحد، وكنا جميعًا من أبناء الكويت أذكر منهم عبدالعزيز الصقر وجاسم السميط وأنا خالد راشد بورسلي، وبعض أبناء الأسرة الحاكمة كان منهم المرحوم الشيخ صباح السالم.

يعزو أبو راشد هذا النشاط الإضافي إلى الشاعر محمود شوقي الأيوبي، ويرى أنه كان حريصًا على أداء رسالته التربوية أداءً كاملًا، رحمه الله.

ثم يقول: وعلى الرغم من الجهود التي كنا نبذلها في الدراسة، وكان يبذلها أساسًا مدرسونا فإننا كنا نحس بأننا كنا مقصرين وأن العلم الذي نلناه لم يكن كافيًا، ذلك لأن مشاغل البحر تصدنا في بعض أشهر السنة عن مواصلة الدراسة، فكان آباؤنا يذهبون بنا صيفًا إلى رحلاتهم البحرية المعتادة.

وليس له انتقاد على مناهج الدراسة التي كانت سائدة في المدرسة آنذاك إلا ما عبر عنه من حرمانهم من دراسة لغة أجنبية إضافية وكان هذا أمرًا مهمًا في ذلك الوقت الذي بدأت فيه البلاد تتفتح نحو أعمال كثيرة يحتاج العاملون فيه إلى لغات أخرى كالإنجليزية، وأكبر مثل على ذلك بدء عمل شركة نفط الكويت التي استقطبت عددًا كبيرًا من الكويتيين وأتاحت لهم سبل العمل، وكانت هذه الشركة تسد النقص المنهجي بعمل دورات لحسابها تعلم من خلالها كافة منتسبيها اللغة الإنجليزية التي يحتاجون إلى استعمالها في وظائفهم المختلفة لديها.

ثم يتحدث أبو راشد حديثًا مفصلًا عن بدء عمله، وهو حديث جاء مجملًا فيما سبق من هذا المقال، ولكنه هنا يسرد فيه الحديث كاملًا فيقول:

بعد انتهاء الغوص، وتوقف مواسمه نهائيًا اتجهت إلى الوظيفة، وأول عمل لي كان من خلال المدرسة وبطلب من الشيخ أحمد الجابر الصباح. كما ذكرت سابقًا.

كان التنقيب عن النفط قد بدأ في الكويت، وبدأت الشركة القائمة بالبحث عنه بحفر آبار استكشافية في منطقة (بحرة) شمال الكويت، وكان مجال العمل فيها مفتوحًا، فقام الشيخ أحمد الجابر بإرسال طلب إلينا وكنا في حوالي ثلاثين شخصًا من أبناء الكويت يريد منا أن نعمل في هذه الشركة، وكنا جميعًا في سن الشباب وبحكم احساسنا بواجب العمل، والنشاط الذي يدفعنا إليه شبابنا فقد لبينا الطلب وتوجهنا إلى منطقة (بحرة)، واذكر أننا بعد تمام الاتفاق على ذلك انتظمنا على ساحل البحر في العاصمة، وأرسلت الشركة من قام بنقلنا إلى مقر عملنا.

ويتذكر أبوراشد أسماء بعض من كانوا معه في هذا الأمر الذي كان أشبه بفزعة للكويت، إذ لبى فيها هؤلاء الشباب رغبة أمير بلادهم، وتوجهوا إلى العمل في المورد الجديد الواعد بالخير وهو: النفط.

وكان ممن تذكرهم أخاه (حسين) وعدد من أبناء أسرة المناعي، وبعض أولاد أسرة النصف، هؤلاء من شرقي المدينة، ولقد جاء من حي القبلة (غربيًا) بدر يوسف البدر وعدد آخر من أبناء الأسر القاطنين في هذا الحي.

ولا ينسى أن يذكر أن الكويتيين الذين هم خارج هذه المجموعة قد سعوا إلى الاستفادة من هذا المجال الجديد للعمل، ومن هؤلاء من كان يقوم بأعمال المقاولات مثل مساعد الصالح والصبيح وخالد العدساني وبن هنيدي (هذا نص حديثه عنهم).

ولم يستمر عملهم طويلًا إذ اشتعلت الحرب العالمية الثانية فتوقفت أعمال التنقيب لمدة سنتين، وقد كان التوقف في هذا الموضع نهائيًا، إذ أن الشركة نقلت أعمالها إلى منطقة برقان حيث اكتشفت النفط بغزارة يعرفها الجميع، ومن ثم صار موقع عمل صاحبنا ومن معه في منطقة (المقوع).

وتحدث أبو راشد عن الغوص وكان أول عمل قام به، وزاوله أثناء دراسته كما أشار قبل قليل، يقول:

أول ما دخلت مهنة الغوص كان ذلك مع والدي الذي شارك أعمامه في تلك الرحلة، كان البوم المستغل لهذه الرحلة كبيرًا، وكانت نيتنا في سفرنا الطواشة وهي عملية تعني المتاجرة باللؤلؤ في عرض البحر أو على السواحل وكان يقوم بها عدد من رجال الكويت.

بدأ الغوص بتراجع بعد رحلتنا تلك، وصرنا نستعمل سفنا صغيرة نمارس الغوص من عليها في أماكن قريبة من البلاد، وكان يوم انتهاء الموسم مهمًا عندنا لأنه يوم الرجوع إلى الأهل في الكويت، وكان للغوص مسؤول في عرض البحر يدعى أمير الغوص، وكان - وقتذاك - هو راشد بن أحمد الرومي، وهو الذي يطلق إشارة القفال ثم يتبعه الناس قافلين بحيث يخرج الغائص من البحر فورًا لتنفيذ أمر أمير الغوص والعودة إلى البلاد.

ويقول أبو راشد:

كان الشيخ أحمد الجابر يحاول إحياء مهنة الغوص في فترة ركودها، فيخرج بنفسه إلى المغاصات ويسير بسفينته بين سفن الغواصين يشجعهم، ثم هو الذي يتولى عملية القفال عند نهاية الموسم. ولقد استمر على هذا الأمر مدة خمس سنوات يخرج خلالها في المواسم.

وتحدث - أيضًا - عن طُرُق بيع اللؤلؤ، والأسواق التي يمكن البيع فيها ولكنه يؤكد على ضعف عملية الغوص وتراجع الأسعار بحيث تضرر عدد كبير من العاملين في هذا المجال الذي كان حيويًا في مواسمه الأولى.

كان - رحمه الله - ملمًا إلمامًا كاملًا بكل ما يتعلق بالغوص فتناول أساليبه، وأنواع السفن المستعملة له، كما تحدث عن المغاصات، ومواضع المحار في البلدان المحيطة إلى أن وصل إلى القول إن من أماكن وجوده البحر الأحمر. وقد ذكر تدني الأسعار بعد أن نزل إلى الأسواق اللؤلؤ المزروع الذي أنتجته اليابان. وقال - أبو راشد - هنا كلمة تدل على اطلاعه وقراءاته فهو عندما تحدث عن المقارنة بين نوعي اللؤلؤ الأصلي والمزروع قال إنك تضع واحدة من كل منهما في يدك فلا تجد فرقًا يذكر، وكأن لؤلؤة تقول لك: «اسألوا الغواص عن صدفاتي» وهذا يوحي بمعرفة صاحبنا بشعر شاعر النيل حافظ إبراهيم فهذه القطعة من بيت له جاء ضمن قصيدة عنوانها «اللغة العربية تتحدث عن نفسها» وهي قصيدة صارت مشهورة يستشهد بها كل عربي يأسف لما حل بلغته من حيث عدم مواكبتها للمخترعات الحديثة، وعدم اهتمام أبنائها بها وتفضيلهم غيرها عليها.

يقول مطلع القصيدة:

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي

وناديت قومي فاحتسبت حياتي

رموني بعقم في الشباب وليتني

عقمت فلم أجزع لقول عُداتي

تقول اللغة العربية إنها رجعت إلى التأمل في حالها، فاتهمت عقلها ورأيها، وإنها كادت تيأس عندما نادت قومها العرب فلم يستجب لها أحد، ولذلك ادخرت حياتها عند الله. وتقول إن هؤلاء الذين كنت أتوقع منهم النهوض إلى مساعدتي

والوقوف معي اتهموني بالعقم وأنني لا أتطور ولا أنتج أي جديد ويا ليتني كنت كذلك فلم أجزع لما قالوا.

ثم تتحدث اللغة العربية عن نفسها وتصف مزاياها التي كانت متتابعة في أبيات القصيدة ومنها هذا البيت الذي التقط أبو راشد جزءًا منه واستشهد به في مجال الغوص على اللؤلؤ:

أنا البحر في أحشائه الدُر كامنٌ

فهل سالوا الغواص عن صدفاتي

لقد كانت قصيدة شاعر النيل حافظ إبراهيم من أقوى القصائد التي ذُكرت فيها اللغة العربية وصفًا، وتأكيدًا لمكانتها، وانتقادًا لمن وقف ضدها، ولم يقدم مؤازرة لها.

ومما قالت هذه اللغة الكريمة:

وسعتُ كتابَ الله لفظًا وغايةً

وما ضقت عن أي به وعظاتِ

فكيف أضيقُ اليوم عن وصف آلةٍ

وتنسيق أسماءٍ لمخترعات؟

وقد كتب الشاعر هذه القصيدة في وقت قامت به قيامة بعض الكتاب في وطنه ضد هذه اللغة ففزع لذلك:

أرى كل يوم في الجرائد ضجة

من القبر تُدنيني بغير اناةِ

وأسمعُ للكتاب في مصرَ ضَجَّةً

فأعلمُ أن الصائحينَ نُعاتي

والقصيدة طويلة كم أتمنى أن يطلع عليها أبناء العروبة في هذه الأيام لعلها تغرس فيهم حب لغتهم والحرص عليها.

كان أبو راشد يحفظ القصيدة ويتمثل بجزء من أحد أبياتها كما رأينا.

وإذا علمنا أنها نشرت في مصر خلال سنة ١٩٠٣م قبل مولد صاحبنا بست سنوات عرفنا أن اهتمام هذا الرجل بالقراءة ومتابعة ما يكتب في الثقافة والتاريخ والشعر كان اهتمامًا قديمًا يدلنا عليه تاريخ نشر هذه القصيدة، إذ لابد وأنه حفظها في مطلع شبابه.

هذا إسهاب لابد منه لأنه مرتبط بحديث خالد راشد بورسلي الذي نكتب عنه هذا المقال، ولأنه يكشف عن زاوية من الزوايا المعبرة عن شخصيته، ويرينا جانبًا من اهتماماته الكثيرة.

في إتمام لحديثه عن الغوص أورد وصفًا لحياة الكويت الاقتصادية قديمًا ثم في ظل أزمة بيع اللؤلؤ، وتدهور أسواقه فقال إن أبناء هذا البلد الكريم عندما وجدوا الشيخ صباح بن جابر الذي تولى الحكم في سنة ١٨٥٩م وتوفي في سنة ١٨٦٦م ينوي فرض رسوم على الصادرات لأن البلاد في حاجة إلى تغطية المصروفات العامة التي لابد منها، وذلك على الرغم مما قيل عنه أن أيامه كانت كلها هناء وسعة في المعيشة، ولكنه مرغم بحسب ظروف الأعمال الحكومية إلى ما اتجه إليه.

يقول أبوراشد إن الأهالي عرضوا على الشيخ عرضًا آخر تكون فيه فائدة مادية للحكم، ولا يضر بتجارة الكويت الخارجية وهو دفع قسط من ناتج الغوص تؤديه كل سفينة لتغطية المصروفات التي دعت إلى الرغبة في فرض الرسوم، وقد استجاب الشيخ صباح بن جابر لهذا الاقتراح وسار عليه الجميع عن رضا وقبول ليس فيه تردد. وهذا الحاكم هو والد الشيخ مبارك الصباح، وابن الشيخ جابر بن عبدالله الصباح صار يسمى «جابر عيش» واستمر من بعده من الحكام على ذلك إلى أن

تولى الحكم الشيخ عبدالله السالم الصباح في سنة ١٩٥٠م، وتغيرت الأحوال، وسدت حاجات الناس المادية من طرق أخرى هي طرق العمل التي وفرتها الحكومة على نطاق واسع بموجب مشروعاتها المتعددة والمتنوعة، وتزامن هذا مع وفرة المال بعد أن توسعت أعمال استخراج النفط وتصديره.

توفي خالد راشد بورسلي رحمه الله في التاريخ الذي ذكرناه قبل قليل، وخسرت الكويت بوفاته رجلًا من رجالها، ومع القيمة العالية لهذا الرجل من حيث الفضل والعمل والإلمام بحركة الزمن في الكويت، ومع أنه كان زينة المجالس لم يحظ بالتقدير في بلده ولم نسمع أن حكومتنا قد صنعت شيئًا يحيى ذكراه.

وفي إشارة أخيرة أود أن أذكر أن هذا الموضوع كان من حديثه المباشر لي أولًا. وثانيًا هو من تسجيل صوتي أجرته معه الأخت موضي سليمان الموسى السيف في منزله بتاريخ ١٣/٧/١٩٩٨م وقد حققت بذلك رجائي إليها بالقيام بهذا العمل الجليل. رحم الله أبا راشد.

****

ملحاق خير

لم يخبرنا الحاج خالد بورسلي عن أعماله الأخرى، إذ ركز حديثه على عملين هما: الغوص، والنفط، ولم يكن ذلك لأنه لا يريد الحديث عن غيرهما، ولكنه تقيّدَ بالأسئلة التي تم تقديمها إليه.

ونحن إذا تتبعنا أعماله منذ أن ترك العمل في منطقة (بحره) إثر إغلاق أعمال الشركة هناك، وجدناه يعمل في شركة التموين الحكومية منذ سنة ١٩٤٢م التي سميت فيما بعد دائرة التموين وترأسها الشيخ عبدالله السالم الصباح.

عندما قامت الحرب العالمية الثانية ألقت بآثارها على الكويت من حيث نقص الإمدادات الغذائية وغيرها مما دفع الشيخ أحمد الجابر الصباح أمير الكويت آنذاك إلى الطلب من بريطانيا تزويد الكويت بهذه المواد الضرورية بصفة أن بريطانيا كانت في ذلك الوقت مسيطرة على الطرق التجارية كلها.

ووفق اتفاق بين الطرفين أمدت بريطانيا الكويت بحاجاتها على أن يكون صرفها للمواطنين عن طريق البطاقات التموينية، ولذلك سمى الناس سنة ١٩٤٢م سنة البطاقة.

كانت البطاقات توزع على أرباب الأسر، وفيها بيان عدد أفراد كل أسرة، والكمية المخصصة لها من كل مادة.

في هذه الأثناء كان خالد راشد بورسلي أحد العاملين في هذه الدائرة التي أدت واجبها إلى أن انزاحت غمة الحرب، وعادت المياه إلى مجاريها، والأسواق إلى نشاطها.

وعندما ترك أبو راشد العمل في دائرة التموين انتقل بعد فترة قصيرة من الزمن إلى الانتظام في سلك دائرة البلدية وذلك في سنة ١٩٥٠م، وكانت هذه الدائرة – آنذاك – تقوم بمهمات كبيرة وكثيرة في البلاد، وكانت خدماتها تمتد إلى كل اتجاه، ذلك لأنها عندما نشأت لم تكن في الكويت دوائر كثيرة العدد تتولى بعض مهام دائرة البلدية فقامت هذه الدائرة النشطة بالعمل كله إلى أنْ تم تأسيس الدوائر التي انتقلت إليها بعض اختصاصات دائرة البلدية لقد كان عمل أبي راشد في دائرة البلدية منذ سنة ١٩٥٠م كما قلنا، وبعد مضي ست سنوات من عمله فيها قدم طلبا يرجو فيه إحالته على التقاعد وقد تم له ذلك.

كان من أعمال هذه الدائرة – فيما مضى – الاهتمام بكافة المحتاجين، وعلى الأخص الذين تتعرض منازلهم إلى الهدم جراء الأمطار الغزيرة التي كانت تأتي في تلك السنوات على عكس ما هو عندنا اليوم. ولما كانت أغلب البيوت مبنية من الطين فإن تساقطها وارد. لذا قامت دائرة البلدية بتجنيد عدة أشخاص ثقاة من أبناء الكويت في مهمة متابعة هذا الأمر واقتراح المساعدة المطلوبة، فكان خالد راشد بورسلي أحد هؤلاء. وقد قامت المجموعة المختارة بدور كبير في مساعدة الناس الذين كانوا في حاجة ماسة إلى المساعدة، فمنحتهم الطمأنينة والاستقرار في حياتهم.

وبعد أن غادر أبو راشد عمله هذا، تفرغ لقراءاته، ومتابعة أنشطته الاجتماعية، فلم ينقطع عن الزيارات، ولم يتخلف عن الجلوس في ديوان بورسلي لاستقبال زواره.

****

الكويت في شعر الأخطل الصغير [1]

الأخطل الصغير هو أمير الشعراء الثاني، وقد توج أميرًا في اليوم الرابع من شهر يونيو لسنة ١٩٦١م، وكان ذلك في مهرجان حاشد أقيم في بيروت شارك فيه كبار الشعراء العرب، وحضر معهم هذا التكريم عدد من النقاد والفنانين وكان من ضمن الحاضرين الفنان محمد عبدالوهاب والشاعر سعيد عقل وعدد كبير آخر من المهتمين بالشعر والأدب.

اجتمع الشعراء للمناداة بالأخطل الصغير أميرًا لهم، وكان الأمر جماعيًا، كما كان اختيارًا وليس كما نرى اليوم حين تقام مسابقات نشك كثيرًا في قيمتها وفي أهميتها، ثم يأتون بشاعر لم يقرأ الناس شعره كما قرأوا شعر الأمير الأول: أحمد شوقي، ولا الأمير الثاني بشارة الخوري وينصب بموجب أساليب لا علاقة لها بالأساليب الشعرية أو النقدية التي يتم من خلالها تقييم الشعر والشاعر.

اسم الأخطل الصغير هو: بشارة عبدالله الخوري، وهو لبناني من بيروت، وهو من أشهر شعراء لبنان، بل لقد كان مشهورًا في الدول العربية كافة، وكانت له علاقات متينة مع عدد من الأدباء والشعراء والفنانين، وإذا نظرنا إلى فهرس ديوان شعره، وجدناه يذكر بل ويتحدث إلى أسماء كثيرة منهم الزعيم المصري سعد زغلول، وإبراهيم عبدالقادر المازني، والشاعر الزهاوي، وأمير الشعراء الأول أحمد شوقي، وخليل مطران، وأحمد رامي، وحافظ إبراهيم، وكثيرون غيرهم.

---

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١١/٦/٨م.

ولد الشاعر في بيروت سنة ١٨٨٥م، وتوفي بها سنة ١٩٦٨م. وكان قد تعلم في مدارسها، وتتلمذ على يد الأديب الكبير عبدالله البستاني، وعندما تفتحت نفسه على الأدب نثرًا وشعرًا، فكر في العمل الصحافي فأنشأ جريدة سماها «البرق» في سنة ١٩٠٨م، وهي أدبية أسبوعية، ثم صارت يومية، مع انتهاء الحرب العالمية الأولى، وكان ينشر غالب قصائده في جريدته هذه، وخلال فترة الحرب كان ينشر قصائده مذيلة بتوقيع «الأخطل الصغير» وقد لزمه هذا اللقب، وعرف به إلى آخر يوم من حياته.

كان من المشاركين في مهرجان تكريم أمير الشعراء أحمد شوقي، ذلك التكريم الذي تمخض عن تتويج الشاعر المصري ذائع الصيت أميرًا لشعراء عصره، وقد انتقل الأخطل الصغير إلى القاهرة للمشاركة في هذه المناسبة، وقد كانت له علاقة متينة مع الأمير أحمد شوقي، وذكره في عدة قصائد في ديوانه. وبشارة الخوري كثير الترحال يأخذه شعره إلى عدة أماكن يدعى إليها لكي يشارك بإلقاء قصائده عندما تحين المناسبة لذلك. ومن تلك المناسبات رحلته إلى حلب للمشاركة في مهرجان أقيم هناك في ذكرى المتنبي، وقد ألقى فيه قصيدة عصماء فائقة الجمال في سبك الألفاظ وفي المعاني، وفي استجرار ذكرى الشاعر العربي العملاق «أبوالطيب المتنبي»، وقد ذاعت هذه القصيدة، ونشرت في أكثر من موضع منها ديوانه، وسوف يكون لنا معها وقفة خاصة فيما بعد.

أصدر في حياته ديوانه «الهوى والشباب» وقد طبعته دار المعارف بمصر في طبعة فاخرة مصورة، نأسف أنها الآن قد نفدت، ولم تقم هذه الدار العريقة بإعادة طبعها، كما صدرت له مجموعة شعرية أخرى بعنوان: «شعر الأخطل الصغير» ولكن الديوان الذي أشرنا إليه أخيرًا ضم كل قصائده حتى التي لم يذكر منها في هذين الديوانين، فالشكر لمؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري التي قامت بهذا المجهود الجليل.

وقبل أن ننتهي من ذكر سيرة بشارة الخوري الذاتية لابد من الإشارة إلى أنه عُيِّن في سنة ١٩٤٦م مستشارًا فنيًا للغة العربية في وزارة التربية الوطنية في لبنان، وأن اهتمامه بالكتابة الصحفية لازمه طوال حياته، ومن يطلع على تفصيلات حياة هذا الرجل، وعلى كامل ما أبدعه من شعر؛ سوف يجد رجلًا ذا قدرة كبيرة على الإبداع، وذا قدرة على تكوين العلاقات الإنسانية مع عدد كبير من الناس، وذلك بفضل ما طبع عليه من خلق كريم وإيمان بالأمة العربية التي ينتمي إليها ويتغنّى بها في شعره، ومما قال في هذا الشأن قصيدة نظمها بمناسبة الثورة الفلسطينية التي قامت في سنة ١٩٣٥- ١٩٣٦م وقد جاء فيها:

يا فلسطين التي كِدنا لما
كابدته من أسىً ننسى أسانا
نحن يا أختُ على العهد الذي
قد رضعناه من المهد كلانا
يثربُ والقدس منذ احتلما
كعبتانا وهوى العُرب هوانا

قدمت الكويت للأخطل الصغير شيئًا، وقدم لها شيئًا آخر. فالذي قدمته له هو المهرجان الكبير الذي رعته ودعت إليه، وأنفقت عليه مؤسسة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، وكان مهرجانًا مهمًا أحيا ذكرى الشاعر وقدم إبداعه من جديد في ثوب شيِّق، وبعناية فائقة، كما قدم الكثير مما ينبغي أن نعرفه عنه، مما سوف نذكره فيما بعد.

أما ما قدمه للكويت فهو ذكرها وذكر عدد من رجالها في قصائد وردت في الطبعة التي أشرنا إليها من ديوانه، وقد كانت قصائد تلفت الأنظار إلى وجوب الحديث عن الرجل وعما كتب وهذه هي تفصيلات ذلك:

١ - جرت محاورة بين الأخطل الصغير والشيخ عبدالله السالم أمير الكويت الأسبق دارت حول الشعر، وقد حولها الشاعر من محاورة شفهية إلى عمل أدبي مكتوب نثرًا وشعرًا.

كان الشيخ عبدالله السالم من محبي لبنان، وكان كثير التردد عليه صيفًا، وذلك في الفترة التي سبقت تغيير محطته الصيفية إلى بومباي الهندية بعد سنة ١٩٦١م. وفي إحدى هذه الزيارات كان الشيخ عبدالله السالم يستقبل الشاعر ويتحدث معه حول عدد من قضايا الشعر، وقد أعجب الأخطل الصغير - فيما يبدو - بمتابعة الشيخ لشعره، وباهتمامه بالأدب بشكل عام، الأمر الذي يتضح في الرسالة التي كتبها بعد تلك الزيارة، وهي رسالة أرفقها بقصيدة.

تحدث في الرسالة عن المقابلة الأميرية التي تمت له مع الشيخ عبدالله السالم فقال: «حضرة صاحب السمو الأمير عبدالله السالم آل الصباح أمير الكويت وحبيبها ومعزز دولة الأدب فيها وفي سائر البلاد العربية.

ما برحت يا سيدي أذكر مع الاعتزاز ذلك العطف الذي شملتموني به قبيل سفركم إلى أوروبا للاستشفاء.

ما برحت كذلك اذكر نظرتكم النافذة في مطلع قصيدتي «المتبي» «نفيت عنك العلى..» ثم انتقالكم منها إلى مطلع قصيدة «جرير» «أتصحو أم فؤادك غير صاح» وكيف أن عبدالملك بن مروان جَبَه جريرا بقوله له بل «فؤادك» كراهية منه لذلك الاستهلال، وما كان ليشفع لجرير عنده قوله في هذه القصيدة ذلك البيت الذي عدّ أمدح بيت قاله شاعر وهو:

وأنتم خيرُ من ركب المطايا
وأندى العالمين بطون راحِ

وها أنا يا صاحب السمو أقدم لكم جريرًا معتذرًا له مستغفرًا عنه بهذه الأبيات التي أرجو أن تلقى لدى سموكم حسن القبول، أيدكم الله ورعاكم.

المخلص بشارة الخوري – الأخطل الصغير

ألندى العالمين بطون راح
سواكم؟ عفوكمْ آل الصباحِ
أعبد الله صفحًا عن جرير
ومعذرة أتعتب غير صاح
فأول موكب للنور أنتم
وأول بسمة بفم الصباح
يزف الروض أبكار الأغاني
لكم ويزف عذراء الأقاح
كأن الله جاء بكم مثالا
لرحمته ورمزًا للسماح
إذا عزت بغيركم المطايا
فقد عزت بكم ذات الجناح
علوت بها فنسر فوق نسر
تذلُ لديه جامحة الرياح
ذكرتك والبيان له مَصَالٌ
وأنت تفيض بالدرر الصحاح
وحولك من بني الآداب رهط
تمايَلَ نشوة من غير راح
أبا العلياء هذا الأرز فانظر
فقد حياك بالغرر الصِّباح
طلعت فاشرق «العيدان» فيه
وقد جعل القلوب من الأضاحي

كانت قصيدة المتنبي التي تحدث عنها الشيخ من عيون الشعر، وهي من أفضل ما كتبه الأخطل الصغير، ولكن مطلعها يفجأ السامع والقارئ معًا، فهو يقول:

نفيتَ عنك العُلى والظرف والأدبا
وإن خلقت لها، إن لم تزر حلبًا
خذ الطريق الذي يرضى الفؤاد به
ولا تخف، فقديمًا ماتت الرُقبا

كان مهرجان المتنبي في مدينة حلب السورية، والشاعر يرى أن هذه المدينة تتمتع بالظرف والعلى والأدب، وهو يقول لنفسه: إنك وإن خلقت لهذه كلها فإنك قد نفيتها عن نفسك، إن لم تزر عاصمة سيف الدولة حيث كان المتنبي يصدح بشعره أمام ذلك الحاكم العربي الذي رفع الشاعر المتنبي ذكره وخلد بطولاته الكثيرة.

كانت كلمة (نفيت) شديدة الوقع سلبًا على قارئ متمكن مثل الشيخ عبدالله السالم، ولذلك فقد مازح الأخطل الصغير حول هذه الجزئية، وضرب له مثلًا بما حدث مع شاعر العصر الأموي جرير بن عطية.

وجرير بن عطية شاعر مشهور، وهو من أقران الفرزدق والأخطل الكبير الشاعرين، وفد على عبدالملك بن مروان، وكان هذا غير راضٍ عنه قبل وفادته، ولذا فإن عبدالملك تَجهّم بعدما سمع مطلع قصيدته:

أتصحو أم فؤادك غير صاح
عشية هم صحبك بالرَّواحِ

وصرخ في وجه الشاعر قائلًا له: بل فؤادك أنت، يريد أن يقول: بل فؤادك أنت غير صاح.

ولكن جريرًا استطرد في إلقاء قصيدته حتى وصل إلى البيت المشهور الذي يقوله مدحًا لعبدالملك وقومه:

الستم خير من ركب المطايا
وأندى العالمين بطون راحِ

وهنا دخل السرور على الخليفة، وقال: للشعراء الحاضرين: «من مدحنا منكم فليمدحنا بمثل هذا أو يسكت».

والقصيدة - بعد - جميلة تحوي عددًا كبيرًا من الأبيات الجياد، وهي من أشهر قصائد جرير، وقد اشتهر هذا الشاعر إلى جانب ما جاء في قصائده التي يناقض بها الشاعرين الفرزدق والأخطل الكبير، وقد عرف له بيت سار بين الناس سير الأمثال وهو:

إن العيونَ التي في طرفها حورٌ
قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

وانظر كيف ضمن الأخطل الصغير بخبرته الشعرية، وقوة تمكنه من فنِّه موضوع بيت جرير، وهو يتوجه بقصيدته إلى الشيخ عبدالله السالم الصباح، فقد أدرك الشاعر بفطنته أنه يتحدث مع رجل له إلمام كبير بالشعر العربي وبتاريخ الأدب، وله متابعة لشعر بشارة الخوري نفسه ولذلك فإنه عندما قال في أبياته: «صفحًا عن جرير» فإنه يقصد ذاته لا جرير العصر الأموي، وعندما قال: «أتعتب غير صاح» فإنه يقصد نفسه أيضًا، فلم يكن متنبهًا إلى قدرة المتحدث إليه من الناحية الفكرية والأدبية.

أما قوله: «طلعت فأشرق العيدان» فقد كان ذلك في عيد الأضحى وكان وجود الشيخ عند الشاعر بمثابة عيد ثان.

٢ - كان الشيخ عبدالله الجابر الصباح رئيس دائرة معارف الكويت - فيما مضى - يهوى لبنان ويفضل قضاء فصل الصيف في ربوعه، وقد كانت له معرفة متينة بالأخطل الصغير جعلت هذا الشاعر يخاطبه بالأشعار، ومن ذلك أرجوزة

كتبها مهنئًا الشيخ عبدالله الجابر بزفافه إلى السيدة ليلى المرعبي في لبنان، ومما قاله في أرجوزته:

ليلى وما سقّى العربْ
أحلى، ولا غنّى القصبْ
قيثارة الإلهام
ونشوة الأحلام
نفحة عبدالقادر
للأريحيِّ الجابر
الرافع المنائرا
والناشر المآثرا
قناص كل مكرمة
ما حاتم، ما عكرمة
إيهٍ أخي المفدّى
زد رفعةً ومجدا
أما ترى لبنانا
كيف ازدهى وازدانا
مهللاً للعرس
مفدِّيًا بالنَّفس

تتكون القصيدة من تسعة عشر بيتًا، وهي لا تعدو التهنئة بالزواج، ولكنها تعبر عن تقدير الشاعر للشيخ عبدالله ومحبته له، وقد نشرت في مجلة الصياد اللبنانية خلال شهر نوفمبر لسنة ١٩٥٥م.

وللأخطل الصغير قصيدة أخرى يمتدح بها الشيخ عبدالله الجابر الصباح، ويذكر مآثره الجمة، ويثني على الكويت:

ربوع الكويت عليك سلا
مي، لك العَلَمُ الأحمرُ الظافرُ

بلون الجهاد صَبَغْتَ لِوا

ك، ليَنصره رَبُّنا الناصرْ

شيوخك، بل أنجمُ ساطعا

ت، يتيه بها الفلك الدائر

وشعبك يرعى العهود أبـ

يٌّ، وشيك الخطى للعلا سائر

ثم يقول:

أبا جابر يا أَحَبَّ ندا

ء يُسلْسله المنهل الطاهرْ

يلوذ بِعَدْلك من يشتكي

وينشده الخاطئُ العاثر

وينهيها بقوله:

أبا جابر يا فتى المكرما

ت، ينام الورى وأنا ساهرْ

فكم للعروبة من ذكريا

ت، يُخلِّدها قلمي الثائر

سل الشعر عني، تُغنِّي الطيو

ر، ويَخْضَّر مرج الهوى الناضر

أنا من هواك غزلت جنا

حي، وهذا صُداحي لكم ذاكر

فلولاك ما عاودتني القوا

في، ولولا الوفا ما أنا شاعر

قصيدة جميلة، فيها وفاء، وفيها صدق، ولها دلالة على ما كان يربط بين الإثنين من محبة. بقيت لنا منها إشارة لها تاريخ، بل إشارتان، الأولى ذكره لون علم

الكويت، وهو يقصد العلم القديم ذا اللون الأحمر، والثانية هي تنويهه بعمل من أعمال الشيخ عبدالله الجابر في الكويت - آنذاك - فقد كان إلى جانب رئاسته لدائرة المعارف رئيسًا لدائرة المحاكم، ولذلك فإنه قال: يلوذ بعدلك من يشتكي.

وهناك قصيدة ثالثة ذكر الشاعر أنها: «مهداة إلى صديقِ الشاعر الشيخ عبدالله الجابر الصباح وزير معارف الكويت» وعنوانها «شرف الفتح»، ومطلعها:

قل لآسي الشعوب تِه وتملّى

الصديق الذي أسوت أبلا

مِنَّةٌ للعليل في عنق الأ

سى، إذا راحت المآثر تُتْلى

وليس في القصيدة ذكر صريح للشيخ عبدالله الجابر، ولم نعرف أنه المقصود بها لولا التعليق الذي كتبه الشاعر وقدمناه قبل قليل، ولكنها تضم إيماءات تدل على مطابقتها لتعليقه، ولها دلالتها الموحية عليه:

أي فتى العرب هُبّ نستبق الفجـ

ر بفجر من ناظريك أطلا

قم نُخشِّنَ منا اليدين فلا نحـ

صد حقلًا إلّا ونزرع حقلا

يستحث الأخطل الصغير الفتى العربي طالبًا منه سلوك طريق المجد، والترفع عن الدنايا، وتحطيم القيود التي تكبله وتمنعه من التقدم، وقد قال إن هذا هو الفتح بل هو شرف الفتح. ثم نراه يستذكر ليالي الجهاد وما تم له فيها، ويتحدث عن نتائج ذلك معرجًا مرة أخرى على الدعوة إلى النهوض، واتخاذ العدة لخوض غمار الحياة في سبيل الوصول إلى الغد المشرق المنشود بلا توان أو كسل:

شقيت أمة إذا الجدّ نادا

ها تَلَوَّتْ على الأسرّة كَسلى

٣ - وللشيخ عبدالله المبارك الصباح نصيب في شعر بشارة الخوري، وقد جاءت في الديوان أربعة أبيات كان عنوانها: «يرحب لبنان معي بحبيبه»، ولقد كان الشيخ يحب لبنان ويحرص على زيارته وقضاء أوقات الصيف فيه، وقد نظم الشاعر هذه الأبيات، في سنة ١٩٥٥م وكانت بين الشيخ والأخطل الصغير علاقة جيدة جعلت الشاعر ينطق باسم لبنان وهو يرحب بقدوم الشيخ إلى تلك البلاد:

لمن يفتح الأرز الممرد صدره

إذا هو لم يفتحه لابن المباركِ

أطل، فكم من نفحة عربية

ترفُ على هذي المروج الضواحك

تطوف به الآمالُ من كل جانب

فيلقاه طلق الوجه رحب المسالك

يرحب لبنان معي بحبيبه

ألم تسمع الأطيار فوق الأرائك؟

إذن فشعر الأخطل الصغير يتغنى بالكويت، ويذكر رجالها، وله معهم علاقات طيبة دلتنا عليها هذه القصائد التي أشرنا إليها، وعرضنا ما كان فيها من إشارات صادقة موحية تدل على محبته ووفائه.

وكان من نتيجة ذلك أن أحب أبناء الكويت هذا الرجل ولم ينسوا مواقفه القديمة، ولذا فقد قامت مؤسسة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري بمهمة كبيرة قصدت من القيام بها تكريم الشاعر، وإحياء ذكراه في لبنان وفي الكويت على حد سواء.

عقدت المؤسسة دورة خاصة به من تلك الدورات التي تقدمها بين وقت وآخر فتحيي بها ذكرى علم من أعلام الشعر العربي، وكانت هذه الدورة تحت اسم: «دورة الأخطل الصغير»، وقد عقدت في بيروت في الفترة من اليوم الرابع عشر

من شهر أكتوبر إلى اليوم السابع عشر منه لسنة ١٩٩٨م، واحتشد عدد كبير من المسؤولين والشعراء من الكويت ومن لبنان للاحتفاء بالشاعر: بشارة الخوري.

كان على رأس الحاضرين رئيس وزراء لبنان - آنذاك - الشهيد رفيق الحريري، وكان حفل افتتاح الدورة تحت رعايته.

وقدمت خلال أيام الدورة بحوث متعددة، وجرت مناقشات وحوارات مهمة كلها تدور حول إنتاج الشاعر، وأضافت المؤسسة إلى ذلك إضافة مهمة وهي إصدار مجموعة من الكتب المتعلقة بموضوع الدورة.

قُدمت خلال جلسات الدورة ثمانية بحوث كلها يدور حول الأخطل الصغير وأعماله، وكان هذا العمل هو أول ما طبع من مجموعة الكتب التي أشرنا إليها آنفًا. ثم طبعت له:

١ - الأعمال النثرية.

٢ - سيرته وأدبه.

٣ - رسائله.

٤ - هو في عيون معاصريه.

٥ - ديوانه.

وسوف تبقى هذه الذخيرة يستفيد منها طلاب العلم وهواة الشعر والأدب، ويبقى معها ذكر الشاعر، كما يبقى الذكر الحسن للأخ الشاعر عبدالعزيز سعود البابطين لما قدمه من خلال هذه المبادرة العالية القيمة.

لابد لنا من الإشارة إلى أمر مر علينا عند عرض الأبيات التي قالها الشاعر الأخطل الصغير وعبر فيها عن سروره بشفاء الشيخ عبدالله الجابر الصباح، ثم أردف تهنئته للشيخ بالحديث عن أمور أخرى أوردناها في موضعها.

كان الشيخ عبدالله الجابر الصباح قد أحس بمرض مفاجئ في عينيه، اضطر على أثره إلى السفر إلى بومباي من أجل العلاج، وهو يحب هذه البلاد، وله فيها مبنى يستقر فيه كلما ذهب إليها، ولقد اهتم الناس كثيرًا لهذا الأمر وتمنوا للشيخ الشفاء العاجل. ولذا فإنه عندما أنهى فترة العلاج وعاد من بومباي وهو بكامل صحته، نهض الجميع إلى تحيته حامدين الله على سلامته وشفائه.

كانت عودة الشيخ عبدالله الجابر الصباح من رحلة العلاج التي أشرنا إليها في الساعة السادسة من صباح يوم ١٩٥٢/٥/٣م، وقد استقبل استقبالاً كبيرًا جرى له في ميناء الأحمدي، وكانت عودته بالباخرة (دامرا) وهي من البواخر الشهيرة التي كانت تعمل على الخط البحري: الكويت - بومباي لنقل المسافرين.

اهتمت مجلة «البعثة» بعودة رئيس معارف الكويت اهتمامًا كبيرًا وخصصت لعودته صفحتين مصورتين، بالإضافة إلى صورة الغلاف التي كانت تشمل كبار المستقبلين من الشيوخ ورجال البلاد الذين بكروا في ذلك اليوم لكي يكونوا في استقبال الشيخ العائد بسلامة الله.

فكانت قصيدة بشارة الخوري (الأخطل الصغير) بهذه المناسبة، وإشارة إلى قوله: «الصديق الذي أسوت أبلا» فإن أسوت تعني: داويت، وأبل معناها: شفي.

****

شاعر البحرين إبراهيم العريِّض في الكويت[1]

نتحدث في هذا الموضوع عن شاعر من شعراء مملكة البحرين هو الأستاذ إبراهيم العريِّض وهو شاعر مرموق، ومبدع، وهو ذائع الصيت في وطنه وفي خارج وطنه.

وقبل أن نصل إلى الحديث المفصل عنه، فإننا ينبغي أن نقدم لذلك بمقدمة تاريخية عن الأرض التي نشأ عليها، وبث إنتاجه الشعري منها فنقول:

يطلق اسم البحرين - قديمًا - على موضع واسع من الأرض يزيد بكثير عن الموقع الحالي لمملكة البحرين فهو كما وصفوا في كتب الأماكن القديمة يبدأ من حدود الكويت الشمالية حتى عمان، ووصف ذلك وارد في كتابنا: كاظمة في الأدب والتاريخ، فلا داعي لتكراره هنا.

وللبحرين ذكر في التاريخ العربي القديم، وفي التاريخ الإسلامي، سكنها عدد من قبائل العرب، وكان من سكانها عدد من الشعراء الذين ذاع صيتهم وبقي شعرهم إلى اليوم.

وممن ذكر الشعراء في هذه المنطقة محمد بن سلام الجمحي في كتاب: «طبقات فحول الشعراء» حين قال: «وفي البحرين شعر كثير جيد وفصاحة»، ثم ذكر من شعراء هذه البلاد عائذ بن غصن الشهير بلقبه: المثقب العبدي، وذلك لقوله:

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١١/٦/١٥م.

ردن تحية وكنّ أخرى

وثقبن الوصاوصَ للعيونِ

الوصاوص: الثقوب التي تكون في البراقع، أو في الستور تتخذ للنظر. وهذا البيت من أبيات قصيدة طويلة معروفة وهي من جياد أشعاره.

ومنهم شأس بن نهار الملقب بالممزق لقوله:

فإن كنت ماكولًا فكن خير آكل

وإلا فادركني ولمّا أمزق

وهذا بيت مشهور جرى مجرى الأمثال ولم يتوقف نبع الشعر في البحرين فاستمر الشعراء يتقدمون واحدًا بعد واحد ينشدون أشعارهم في شتى الموضوعات حتى العصر الذي عاش فيه إبراهيم العريّض فإن شعراء البحرين كانوا يقدمون كل جديد وينشرونه في أنديتهم وفي الصحف التي كانت تصدر في بلادهم أو في الكويت.

وكان العريض من أبرز هؤلاء، ولم يكن ذلك تقصيرًا من زملائه، ولكنه عرف كيف يخرج بشعره إلى آفاق لا تحدها حدود فنشر شعره في كافة بلدان الوطن العربي وطبع دواوينه ومسرحياته الشعرية في مصر ولبنان والكويت وغيرها. وأقام صلات مع عدد من الأدباء في هذه البلاد منهم أمير الشعراء أحمد شوقي والمفكر ميخائيل نعيمة، وإيليا أبو ماضي وعبدالرزاق البصير وغيرهم..

حياة الشاعر إبراهيم العريّض حافلة بالأعمال، ولكن همّه كان في الشعر والتربية ومزاولة الأعمال التي تسند إليه في وطنه أداءً لواجب المواطنة عليه.

ولد هذا الأديب الفذ في اليوم الثامن من شهر مارس لسنة ١٩٠٨م، ولم يولد في بلده البحرين ولكنه من مواليد مدينة بومبي في الهند فقد كان والده من تجار

اللؤلؤ الذين يُكثرون من الرحيل إلى هناك من أجل تجارتهم وكانت أم إبراهيم عربية تزوجها والده هناك، ولكنها توفيت بعد ولادتها للشاعر بشهر واحد، فرباه والده بالاستعانة بمربية هندية اختارها له من الهند. فأحسنت رعايته، ولكنها توفيت وعمر صاحبنا أربع سنوات فقط، لينتقل إلى يد أخرى ترعاه من الهند أيضا. ولقد بقي في مسقط رأسه، يتعلم ويتفتح ذهنه على آداب الهند وفنونها ولم يحضر إلى البحرين إلا في سنة ١٩٢٢م، وبدأ يتعلم العربية بلهفة شديدة حتى إنه بعد ثلاث سنوات من وصوله وتعلمه للغته الأم كان على استعداد لإلقاء محاضرة في مدرسة الهداية، وهي أولى المدارس النظامية في البحرين، وقد لفت إليه الأنظار لأنه قدم بحثًا جيدًا آنذاك، وانطلق منذ ذلك اليوم انطلاقته الأدبية التي قدمت لنا أديبًا وشاعرًا عربيًا نعتز به.

كانت قراءاته متنوعة، وانكبابه على القراءة لا يقف عند حد، وتنبه إلى قصائد كبار الشعراء، فكان معجبًا بكل من أبي تمام وأبي فراس الحمداني وإيليا أبي ماضي، فقرأ شعرهم وأمعن النظر فيه حفظًا ودراسة، وقرأ باللغة الإنجليزية لعدد من الشعراء الإنجليز مثل شكسبير وبايرون واليوت وغيرهم ثم عكف على دراسة رباعيات الخيام فكتب حولها بحثًا قيمًا له صداه في دنيا الأدب، وكتب أدبه في أكثر من لغة.

في بداية حياته العملية افتتح له مدرسة أهلية خاصة به، التحق بها عدد من الطلاب النابهين الذين صار منهم مفكّرون ووزراء وأدباء. وعمل مترجمًا في شركات النفط، وخلال الفترة من سنة ١٩٤٤م و١٩٤٥م استعارته حكومة الهند للعمل في إذاعتها. ثم عاد ليشارك في الحياة الأدبية، فحضر مؤتمرات عدة في دمشق والقاهرة والكويت والإسكندرية وبغداد وبلاد أخرى، وحضر مؤتمر الدراسات العربية الرابع للجامعة الأمريكية في بيروت سنة ١٩٥٤م والمؤتمر الرابع

للكتاب الأسيويين الأفريقيين بنيو دلهي سنة ١٩٧٠م إلى غير ذلك من الأنشطة التي كان يقوم بها في خارج وطنه إضافة إلى الجهود التي يقوم بها في مملكة البحرين رغبة منه في نشر الثقافة واستمرار النهضة التي كانت مبشرة بكل خير، وتشهد له بذلك: الصحف التي صدرت - آنذاك - والأدباء الذين بدأ إنتاجهم يزداد غزارةً وعمقًا وانتشارًا.

وكأن اهتماماته هذه لم تكن كافية له، فتقدم في سنة ١٩٧٢م إلى انتخابات المجلس التأسيسي الذي كانت مهمته محددة في إنجاز دستور البلاد، ففاز في الانتخابات ثم فاز مرة أخرى برئاسة هذا المجلس. وعندما جاءت سنة ١٩٧٤م عُيّن سفيرًا متجولًا، ثم سفيرًا مفوضًا فوق العادة في وزارة الخارجية.

ونتيجة لكل هذه الجهود فقد نال عددًا من الأوسمة منها الوسام الذي منحه إياه أمير البحرين السابق الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة في سنة ١٩٧٦م، وهذا هو وسام الكفاءة من الدرجة الأولى. وفي شهر سبتمبر لسنة ٢٠٠١م قلده الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة ملك البحرين وسام الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة أمير البحرين الراحل من الدرجة الأولى، وذلك تقديرًا منه لجهود العريض المتميزة في مجال الثقافة والأدب بصورة خاصة ومجال الخدمة في وزارة الخارجية حيث عمل سفيرًا فيها.

ولقد حظي بأوسمه أخرى هي عبارة عن عدد كبير من رسائل الإطراء التي جاءته من كثيرين من أدباء العرب نذكر منهم الشاعر أحمد زكي أبو شادي رائد مدرسة «أبولو» الشعرية ذات الأثر الكبير في دنيا الشعر العربي الحديث، فقد أعد أبو شادي دراسة عن العريض في سنة ١٩٥١م قال عنه فيها إنه: «منصف العربية، وطاقتها الحضارية، كما ينصف عصره ونفسه، وهو واحد من كثيرين يكاد كل منهم بتنوعه واستقلاله يكون مدرسة خاصة به».

وكتب له الشاعر القروي في سنة ١٩٦٢م يقول: «وكم أنا معجب بأنامك الصناع تنسج هذا المطرف الفضفاض من سبعة خيوط من الشعر».

أما المفكر المعروف ميخائيل نعيمه فكتب إليه يقول: «أنت تأخذ بيد القارئ برفق لتسير به في شعاب يطل منها على مواطن الجمال في الشعر، وأنعم بك من رفيق ودليل، ولولا أنك اهتديت إلى مواطن الفتنة في الشعر من زمان لما كنت ذلك الرفيق الأنيس، والدليل الأمين».

وتحدث ابن البحرين الشاعر علي الشرقاوي لوكالة الصحافة الفرنسية عن إبراهيم العريض، فقال: «إن العريض يعتبر واحدًا من الشعراء الموسوعيين، ويمثل بداية الحداثة الشعرية في منطقة الخليج». ثم قال: «لقد كان يتكئ على مزيج واسع من الثقافات بدءًا من الإنجليزية والهندية والفارسية والعربية، مما أعطاه مجالات وقدرة لكي يختط لتجربته الشعرية طريقًا مغايرًا عن الشعراء الآخرين.. كان يُحلق في الشعر بجناح عربي، ولكن بأفق كوني مفتوح».

ثم أشار الشاعر الشرقاوي إلى أن العريض يعتبر من مؤسسي المسرح الشعري في منطقة الخليج منذ أعماله الأولى في هذا الميدان في الثلاثينيات».

وقد أكد الشرقاوي فيما بعد على أعماله التي قام بها في وطنه، وعلى إنتاجه المطبوع من شعر ونثر مما سبق أن أشرنا إليه.

كان الشاعر إبراهيم العريض شعلة من النشاط في جانبيه الفكري والعملي، ولم يكن يركن إلى الراحة طيلة حياته، ولذا فقد ترك خلفه ذكرى طيبة، وأنجز أعمالًا لا تنسى على مدى الزمان.

وفي سنة ٢٠٠٢م توفي هذا الشاعر النابغ، وفقدت به البحرين رمزًا من رموزها الثقافية والسياسية، كما فقد الشعر العربي بوفاته شاعرًا بارزًا بين شعراء

أمة العرب، وكانت وفاته عن أربع وتسعين سنة كان حتى آخر يوم فيها مرتبطًا بعمله في وزارة الخارجية بصفته سفيرًا متجولًا منذ سنة ١٩٧٥م.

ليس إبراهيم العريض غريبًا عن الكويت، وليست هي غريبة عنه، فله زيارات متعددة لها، وله فيها أصدقاء كثيرون يحبهم ويحبونه، يلقاهم هنا ويلقاهم هناك في البحرين وليس ذلك بغريب فأبناء الكويت وأبناء البحرين تجمعهم لحمة واحدة واصل واحد، وتسود بينهم - دائمًا - المحبة، ويعم الوفاء والاخلاص.

ولقد عبر الشاعر عن أحاسيسه الطيبة تجاه وطننا حينما جاء في سنة ١٩٥٨م ليحضر مؤتمر الأدباء العرب بصفته رئيسًا لوفد البحرين، وبهذه الصفة ألقى كلمة مهمة كان بدايتها الإعراب عن محبته للكويت وإعجابه بنهضتها وبشبابها، ونوه بمشاهداته فيها.

وهذا هو الجزء الذي أشرنا إليه من كلمته تلك:

«يسرني أن أنتهز هذه الفرصة السعيدة لأزف إلى الكويت، غرة جبين الخليج بحق، حكومةً وشعبًا، أجمل تهاني شقيقتها الصغرى في الخليج مشفوعة بأطيب تمنياتي على مبادرتها هذا العام لرفع راية الأدب العربي في ربوعها العامرة، وجمعها كلمة الأدباء العرب الأحرار تحت سمائها السافرة، كما أني انتهز هذه الفرصة السعيدة لأرفع إلى مقام سمو حاكمها الهمام الشيخ عبدالله السالم الصباح أسنى آيات الشكر على أريحيته الكريمة في دعوتنا نحن معاشر الأدباء من أرجاء الوطن العربي كافة لعقد الدورة الرابعة لمؤتمرنا تحت رعايته الخاصة.

إننا بني البحرين لنعتز بأخوتنا لأبناء هذا البلد المضياف، الذين يبادلوننا ودًا بود، ويشاطروننا صفاءً بصفاء، ويفسحون لنا المجال كلما ضاقت بنا المجالات، ويوسعون لنا في الدرب كلما ضاقت بنا الدروب.

وإذا شكونا هناك من جو لنا (رطب) يأتي على الجذوة، إنسنا هنا في الكويت جوًا بعيدًا كل البعد عن الرطوبة والضباب، يعيد إلى الأجسام لباسها من العافية، وإلى النفوس رضاها واطمئنانها وإلى الأفكار عمقها وصفاءها، وإلى القلوب ما يخفق لأجله القلب من الحب والهناء.

لقد سبق لي أن زرت الكويت أكثر من مرة، فما هبطت منها إلا في وطني وداري، ولا سكنت إلا بين أهلي وإخواني. وحمدت الإقامة والجوار على طيب الإقامة وحسن الجوار. وكان آخر عهدي بزيارة الكويت قبل أربعة أعوام، فما أميِّزَ الليلة من البارحة! ولا أقول: ما أشبه الليلة بالبارحة! وها أنا أهبطها اليوم مع زملائي الأدباء، فأجيل في طرقها المستجدة الواسعة ومبانيها المستحدثة الرائعة، عينين زاغت بهما الحيرة تحاولان عبثًا الاهتداء إلى ما كنت أعرف من معالمها القديمة، وقد تغير في الكويت كل شيء بعد أن دُكَّ نهائيًا ما كان يحصرها من سور! ما أشبه أمري في حيرتي وأمر الكويت التي تضحك من حيرتي بذلك الإنسان الذي عهده أحد معارفه حتى أمس القريب طالبًا في مدرسته، ويجدد به العهد أخيرًا فإذا بالطالب أستاذ فوق الأساتذة في الجامعة التي كان يدرس فيها».

ولقد كان للعريض نشاط واسع في المؤتمر الذي عقد في الكويت، يبدو ذلك في التعليقات التي كان يقدمها والمداخلات التي يتحدث خلالها، واللجان التي يشترك فيها.

فكان له تعليق مهم ولطيف على المحاضرة التي ألقاها الدكتور شكري فيصل بعنوان: «البطولة في الأدب العربي منذ سقوط بغداد حتى فجر النهضة الحديثة» وقد أثنى كثيرًا على المحاضرة وقدم بعض الملاحظات الجديرة بالاهتمام.

ثم جاء دوره في مناقشة عامة جرت حول محاضرة موضوعها: «البطولة في الأدب الشعبي» ألقاها الدكتور عبدالحميد يونس. ولقد اغتنم العريض الفرصة

لكي يتحدث عن المتنبي، وهو الشاعر الذي اهتم به صاحبنا وكتب عنه ، ووجد الآن فرصته السانحة ليدلي بدلوه بالحديث عنه.

وبالاختصار فقد كان للعريض حضور واضح في هذا المؤتمر، وكان له نشاط أحس به الجميع.

نعود مرة أخرى للحديث عن العريض والكويت، وقد قدمنا الحديث السابق لأن فيه دلالة على مشاعر هذا الرجل تجاه وطننا ودليلًا آخر على تكرار زيارته لنا. أما الآن فسوف نعود إلى الترتيب الزمني لما سوف نذكره، وذلك كما يلي:

١ - نشرت مجلة البعثة في سنة ١٩٤٨م مقالًا كتبه الأستاذ الشاعر أحمد العدواني عن ديوان إبراهيم العريض المسمى «العرائس» وقد اهتم به شاعرنا الكويتي اهتمامًا كبيرًا وأثنى على العريض وقال إنه من غير المستغرب أن نستقبل هذا الديوان بالتقدير والتكريم والترحيب ففيه ملاك الشعر الصحيح، وصدق العاطفة، وجمال التعبير، ودقة الأداء. ومما قاله الأستاذ العدواني:

«والأستاذ صاحب العرائس، كما ينم عليه شعره، إنسان رقيق العاطفة، لطيف الشعور، ناعم الإحساس، والمرأة عنده مدار كل جمال في الوجود والفن:

هذا الوجود إطار لا كفاء له
وغاية الفن فيه رسم حواء

وهي تُمثل ما يضطرب في الحياة من معان جميلة، وأهداف جليلة، وذلك لأنّ...

لها الشاب الذي تشفى برقيته
ما كابد القلبُ من صدٍّ وإغراءِ
لها الجمال الذي تعنو لعزته
فيما تشاهد من ظلٍّ ومن ماء

لها الوداد الذي تبقي أشعته
تثير خطوك في طوفان أهواء

ويقول:

لا تكذب النفس في مجد حلمت به
فلست تحسن إلا قول أهواها

ولماذا؟ لأن المأساة والمهزلة في حياتنا الدنيا قضية واحدة كما يقول في مقدمة بعض قصصه:

هي أسطورة حواء جرت في أثر حيه
والحياة بغير حواء ظلمة لا تطاق
هل تكون الحياة لولاك إلا
ظلمة لا أطيق منها خروجا

وفي فراديس الجنان لا أمل للشاعر إلا في الفوز بالمرأة على انفراد:

وما تؤمل بالفردوس منفردًا
إلا رجاؤك أن تحظى بلقياها

حتى الطبيعة لو تمثلت بشرًا سويًا لكانت امرأة نواحة:

إن الطبيعة لو تمثل شخصها
لبدت فتاة في ثياب حداد
تبكي على وجه يحول وزهرة
تذوي وحسن مشرف لنفاد

وهكذا تجد المرأة هي كل شيء عند هذا الشاعر الطريف، فلا غرو أن يهدي عرائسه إلى حواء، ما دامت لها تلك المنزلة ومادامت هي الملهمة:

أفَهلْ تذكرين حواء لما
قلت لي والهوى يرف علينا

أي حسن رايته في حتى

حال نورًا يشع من ناظرينا

حبذا لو جلوت لي في إطار

أثر الحب في نفوس كلينا

فخذيها مني أحاسيس شتى

نبضت بالحياة لونًا فلونا

وغزل الشاعر – في الأغلب الأعم – شريف عفيف يتسم بطراوة المعاني وطلاوة الألفاظ، ويعرب عن روح شاعرة أصدق إعراب، وحسبك أن تقرأ له هذه الأبيات فقد اشتملت على أكثر خصائصه».

٢ – وفي سنة ١٩٥١م نشرت «البعثة» ما يلي:

أصدرت «دار العلم للملايين» ببيروت كتاب «أرض الشهداء» وهو يضم ملحمة شعرية عن مأساة فلسطين الشهيدة: من شعر شاعر البحرين الكبير «إبراهيم العريض» الذي اشتهر بقوة شعره وعميق تفكيره، وجزالة ألفاظه، وسلاسة أسلوبه، وروعة معانيه.

وليس لنا إلا أن نهنئ الشاعر على هذه الملحمة الشعرية الخالدة راجين منه المزيد.

كما نشكر «دار العلم للملايين» على هذه الخدمات الجليلة، والمجهود الجبار الذي تبذله في إخراج مثل هذه النفائس إخراجًا متقنًا أنيقًا».

٣ – وذكرت «البعثة» في عددها الصادر في شهر نوفمبر لسنة ١٩٥٢م ما يلي:

«زار الكويت في منتصف شهر نوفمبر لسنة ١٩٥٢م شاعر البحرين الكبير إبراهيم العريض، وقد أقام له النادي الأهلي حفلة تكريم تكلم فيها عن علاقات

الود والإخاء التي تربط البحرين بالكويت، وأعرب عن سروره وابتهاجه لاجتماعه بنخبة من شباب الكويت».

وفي ذلك الوقت نشرت مجلة الرائد التي كان نادي المعلمين يصدرها في الكويت في عددها المزدوج الصادر عن شهري نوفمبر وديسمبر لسنة ١٩٥٢م، أن نادي المعلمين استقبل بحفاوة بالغة شاعر البحرين الأستاذ إبراهيم العريض الذي زار النادي ضمن زيارته للكويت. وقد ألقى بعضًا من قصائده الرائعة في أمسية نظمها النادي، واستمتع الحضور – يومذاك – بما ألقاه عليهم فيها من شعر.

وقد نشرت المجلة في عددها المذكور صورة للشاعر وهو يلقي قصائده.

٤ – وفي العدد الصادر في اليوم الأول من شهر إبريل لسنة ١٩٥٣م من مجلة البعثة كتب إبراهيم العريض ملحمة عنون لها بعنوان: أخت شيرين. وذكر أنها جاءت على هامش الحرب الثالثة. وبدأها بقوله:

يعقد الجيش حفلة

كلما عاد خاسرا

هكذا الشعب غفلة

لا يمل المظاهرا

ثم استمر في عرض الملحمة فجاءت في صفحتين ونصف الصفحة من صفحات مجلة البعثة، وكانت هذه المجلة قد أصدرت في شهر أبريل لسنة ١٩٥٣م عددًا خاصًا عن البحرين تناولت فيه كثيرًا من شؤون هذا البلد العزيز وكان للعريض نصيب كبير مما جاء في العدد المذكور، فبخلاف نشر ملحمته هذه، ورد ذكره أكثر من مرة، وفي كل مرة نلقي المحلة الثناء عليه وعلى شعره وعبقريته ذلك ما جاء في مقال كتبه الأستاذ عبدالله الطائي ونشر في العدد نفسه، وكان تحت عنوان: «اليقظة الأدبية في البحرين» وفيه ذكر لأدباء البحرين وشعرائها في ذلك

الوقت ومنهم إبراهيم العريض الذي ذكر عنه أنه خرج من حَيِّز الإقليمية، وثبت اسمه مكينًا بين أدباء العرب البارزين في القرن الأخير، ثم استعرض مؤلفاته ودواوينه، وأثنى بصفة خاصة على أحدها بقوله: «وواسطة العقد بين هذه الكتب ملحمته الرائعة (أرض الشهداء) التي سجل فيها مأساة فلسطين، وحلل الخلق اليهودي...».

وكنا قد تحدثنا عن هذه الملحمة قبل قليل.

٥ - واهتمت الكويت بديوان الشاعر إبراهيم العريض فقامت وزارة الإعلام هنا بطبعه كاملًا خلال سنة ١٩٧٩م. وللأسف الشديد فإني لم أتمكن من الحصول على نسخة من هذه الطبعة ولم أشاهدها حتى اليوم فلعل أحدًا من مسؤولي هذه الوزارة يتكرم بإهدائي نسخة أسعد بقراءتها.

ثم يأتينا عمل كبير قامت به الكويت تكريمًا لهذا الشاعر الفذ، وقد قامت بهذا العمل- مشكورة- الدكتورة سعاد الصباح، ونشرته عن طريق دارها التي طالما اتحفتنا بروائع من المطبوعات.

أصدرت الدار في هذا المجال كتابًا تذكاريًا بعنوان: «إبراهيم العريض وإشعاع البحرين الثقافي» وذلك في سنة ١٩٩٦م، وقد حرره منصور محمد سرحان وأشرف عليه الأستاذ الدكتور محمد جابر الأنصاري. وهو في أكثر من ستين وثلاثمائة صفحة من القطع الكبير.

وفي الكتاب تتبع دقيق وواسع لحياة الشاعر ولإنتاجه النثري والشعري معًا. ومتابعة لأنشطته كلها، مع ذكر ما كتب عنه، وإيراد مراسلاته وردود الأدباء عليها، كما أورد الكتاب بيانًا عن أدب العريض في مرآة النقاد العرب، وتحدث عن العريض المؤلف المسرحي، وغير ذلك كثير يضاف إليه عدد كبير من المصورات التي لا غنى عنها لباحث.

أجدني بعد أن وصلت إلى هذه المرحلة قد كتبت كل ما تجب عليّ كتابته عن إبراهيم العريض الشاعر الناثر الناقد الحكيم الذي اعترف به عالم الأدب العربي على اتساعه، وأجدني قد أديت واجبًا يستحقه هذا الرجل لأنه أحب الكويت وأهلها، وارتبط بعدد كبير من أدبائها وقد دلت على ذلك كتاباته وعلى الأخص منها ما أوردت من كلمته التي ألقاها في مؤتمر الأدباء العرب الرابع هنا.

إنه يستحق كل تكريم وتقدير.

****

البوم الكويتي في تنزانيا[1]

يعرف كل متتبِّع لهذه المقالات أننا قد تحدثنا كثيرًا عن شؤون البحر، وكان حديثنا منوعًا يهدف إلى التذكير بماضي الكويت وعلاقتها بهذا المورد الطبيعي المهم، ويكشف جهود أبناء البلاد في العمل وكسب المعيشة، ويبين صلاتهم بالعالم الخارجي الذي تصل إليه سفنهم منذ بداية القرن التاسع عشر. ولقد تتبعنا صناعة السفن في الكويت وذكرنا صناعها وتحدثنا عن الغوص وعن السفر وأتيحت لنا فرص الكتابة عن النواخذة الكويتيين ومدى مقدرتهم على قيادة سفنهم في تلك اللجج العميقة من المحيط الهندي، ثم إلى شرقي أفريقيا، ولم ننس ما قاله الزوار الأجانب الذين جاءوا إلى وطننا في سنوات ماضية عن ميناء الكويت وعن سفنها وعن رجال البحر فيها.

كل ذلك لا مجال للعودة إليه، ولكن الحديث عن النشاط البحري الكويتي لا ينتهي، فهو نشاط قام به رجالنا على مدى طويل من السنين، ولهم في كل ميناء زاروه ذكرى ولهم فيه عمل بارز، ولكلٍّ منهم تاريخ خاص به يدل على أعماله خلال سفراته المتعددة التي تحدثنا عن بعضها، ولذلك كله فإننا في هذا المقال نرجع إلى حديث البحر مرة أخرى، ولكننا نعود إليه من زاوية جديدة لم نتطرق إليها من قبل. لأننا سوف نتحدث عن البوم الكويتي وهو يخترق مجاهل أفريقية البعيدة، ويعود منها ظافرًا بعون الله وبفضل جهود أبناء الكويت الذين كانوا يقودونه.

---

(1) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١١/٦/٢٢م.

في نهاية سنة ١٩٣٩م عندما عزم آلن فاليارز على القيام برحلته الشهيرة مع النوخذة علي بن ناصر النجدي على البوم المسمى «بيان» كان النواخذة الكويتيون قد كونوا لهم خبرات متراكمة تجمعت على مدى سنين طويلة، وبفضل هذه الخبرات كانوا يؤدون عملهم في البحر بما يشبه العجائب.

فنحن اليوم عندما نسمع أو نقرأ عن رحلاتهم وأعمالهم نستغرب لكل ما يُذكر عنهم، إذ كيف تملكوا ناصية البحر واستطاعوا أن يعبروا المحيط ويخوضوا المخاضات في سفينة تعتبر صغيرة بالنسبة للسفن الأوروبية التي كانت لها شهرة في عالم البحار.

وهذه صورة من صور أعمال أولئك الرجال نقوم باستعراضها هنا حتى لا ننسى:

نردد في مناسبات عديدة أن سفن الكويت الشراعية تصل إلى أماكن بعيدة عن الوطن في سبيل كسب الرزق وأنها وصلت إلى شرقي أفريقيا، ولا ندري بدايات عمل هؤلاء الذين قادوا تلك السفن إلى أماكن كانت تعتبر من المجاهل في ذلك الوقت، وكيف اهتدوا إليها وعرفوا أن في غاباتها ما تحتاجه بلادهم من الأخشاب وبخاصة ذلك النوع الذي يسمى «الكندل» وهو يستعمل في تسقيف الغرف، ومنه أنواع موجودة إلى اليوم، وكيف تمكنوا من التعامل مع أهالي تلك البلاد وتفاهموا معهم، وعاشوا عدة أشهر في مناطق خطرة كانوا فيها عرضة للأمراض المتنوعة ولكنهم بذلوا الجهد حتى توصلوا إلى هذه النتائج التي نستغرب وصولهم إليها، ونعتبر لذلك ما قاموا به في ذلك الوقت البعيد، وفي تلك المواطن النائية نوعًا من مجهود إنسانيٍّ له العجب.

البوم الذي هو موضوع حديثنا هنا هو البوم «بيان» الذي نال شهرة كبيرة بسبب راكب غريب على المنطقة صمم على مرافقة النوخذة والبحارة وعاش

معهم سبعة أشهر وصوّرهم وكتب كتابه الشهير: أبناء السندباد إعجابًا بمهاراتهم ومقدرتهم الكبرى على خوض الأخطار، ومعرفتهم بطرق الوقاية من المشكلات، أو التخلص منها إذا هي وقعت، ولقد وصف هذا الغريب وهو آلن فالياز كل شيء عن رحلته هذه التي قضاها على متن البوم «بيان» بصحبة النوخذة علي ناصر النجدي.

صنع هذه السفينة الأستاذ القدير محمد حسين، وكان قد طلب إليه ذلك النوخذة ناصر النجدي، الذي وجد لدى ولده (علي) مقدرة على قيادة السفن بعد تجارب كثيرة خاضها فقرر أن يتحفه بهذا البوم الذي كان بحق تحفة فنية باهرة، ولقد لفت هذا البوم أنظار أصحاب الصنعة لجماله وحسن تناسقه، وعدم وجود أي عيوب فيه، فقال عنه الأستاذ علي عبدالرسول وهو من أكبر صناع السفن الكويتية: «بوم النجدي.. صبه محمد حسين صب»، يقصد أنه لحسن العمل وإتقانه وجمال المنظر كأن صانعه قد وضع الأخشاب والمسامير وما يحتاج إليه في صناعة البوم في بوتقة كبيرة أو في قالب فخرج متكاملًا يأخذ الأبصار ويسيطر على الألباب.

ولقد ذكر أخي الدكتور يعقوب الحجي هذا البوم بإعجاب كبير، وقدم له وصفًا تفصيليًا في كتابه: «صناعة السفن الشراعية في الكويت» وهو مرجع مفيد جدًا في موضوع السفن وصناعها عندنا، وبالعودة إليه يجد القارئ الصورة الحقيقة التي كان عليها بوم «بيان».

ولقد استمر هذا البوم في العمل بالنقل البحري منذ إنشائه في سنة ١٩٣٧م إلى أوائل خمسينيات القرن الماضي عندما توقف النشاط البحري المعتمد على هذا النوع من السفن فتم بيعه إلى جهة خارجية.

أما علي النجدي فقد كان شابًا نشيطًا يوم تسلم العمل بصفته نوخذة للبوم «بيان» إذ لم يتجاوز سنة السادسة والعشرين سنة، ولكنه برهن عن قدره كبيرة في رحلاته كلها، ولا سيما هذه الرحلة التي كان عليها شاهد من غير أهلها، وهو آلن فالياز.

كان علي النجدي من النواخذة الكويتيين المعدودين، وكانت له رحلاته ومغامراته البحرية التي تنم عن قدراته في هذا المجال، وتنم في الوقت نفسه عن محبته للبحر ورغبته في أن يعيش فيه مسافرًا ومخاطرًا، ولقد مرنه والده تمرينًا جيدًا وهيأ له السبل من أجل تحقيق رغباته تلك وأعد له خصيصًا السفينة «بيان» وهي كما ذكرنا من نوع البوم، ولكنه كان من أفضل الأبوام صنعًا وأرسله بعد أن تم بناؤه في رحلة سفر إلى الهند، ولكنه وضع معه مساعدًا له خبرة يكون له عونًا عندما يحتاج إلى من يعينه، ولقد عاد من رحلته الأولى وهو في أحسن حال، وعرف الوالد من نتيجة ذلك أن ولده لا يخشى عليه من خوض غمار البحر، بعد أن قام بهذه الرحلة الطويلة وعاد منها دون أن تبدر منه بادرة تدل على ضعفه أو عدم قدرته على أن يكون نوخذة.

لقد صار النوخذة علي النجدي بعد ذلك من أشهر نواخذة السفر الكويتيين، وكانت قيادته لسفينته مبهرة، دالة على جسارته، ومقدرته، ومعرفته بمجاري البحر وأحوال المناطق التي يحل بها، وكان يقود سفينته بمقدرة فائقة ليلًا أو نهارًا، ويبحر في أوقات السلم والحرب دون أن يعوقه ظلام أو تردعه حرب، ولن نقدر أن نصف هذا الرجل بمثل ما وصفه ألن فاليارز الذي كان رفيقه في رحلة من رحلاته، وشهد عمله، وعمل بحارته، وأعجب بأدائه وأداء الرجال الذين معه على متن البوم «بيان» وكان يقول عنه إنه كان بحارًا ذا صفات رائعة، كما كان قائدًا قديرًا وملاحًا وربانًا يشار إليه بالبنان، علاوة على دهائه ومقدرته على مقارعة التجار والوسطاء المقيمين على البر. ويقول: لقد كان النجدي رجلًا بكل ما في الكلمة من معنى ولذا أحببته كثيرًا. وتضاف إلى هذه الأقوال أوصاف كثيرة ساقها فاليارز عن النوخذة النجدي، أما ابن الكويت فقد علق على كل ما قاله القبطان فاليارز قائلًا: لست بأحسن من غيري، ولكنه الشوق إلى البحر، لقد كان فكري وعقلي للبحر دائمًا، أراقب المسافات، وتحرك الرياح، وتقلب الأمواج، وكل ما له علاقة بمهنة النوخذة وهو يقود سفينته.

وأما رحلة النوخذة النجدي الخالدة، فهي التي أبحر خلالها إلى شرقي أفريقيا وانتهى إلى تنزانيا حيث دلتا نهر الروفيجي.

وتنزانيا اليوم غيرها بالأمس فقد كان الموضع بائسًا وكانت الحياة هناك شاقة جدا، مما حدا فاليارز إلى تسمية دلتا الرفيجي باسم: دلتا النعاسة. ولكن هذا البلد الأفريقي الكبير صار الآن مختلفًا بحيث نرى صورته كما يلي:

تقول كتب الجغرافيا: إن تنزانيا قطر كبير من أقطار أفريقيا الشرقية، وأنها تطل على المحيط الهندي، وتضم عددًا من الجزر المجاورة لساحلها.

وأن عاصمتها هي «دار السلام»، ويفكر أهلها حاليًا في إنشاء عاصمة أخرى تحت اسم «دودوما» موقعها في وسط تنزانيا، يتكون سكانها في الأساس من الأفارقة، ولكننا نجد من يعيش بينهم ممن هو منحدر من أصول أسيوية أو أوروبية، وهي من أفقر دول العالم إذ يعيش ما يقرب من ٨٠٪ من سكانها في الريف معتمدين على الزراعة التي يحترفونها من أجل العيش فقط دون أن يستطيعوا الاستفادة من إنتاجها في تحسين أحوالهم.

ومع هذه الحياة الجافة في جمهورية تنزاينا المتحدة؛ فإننا نجد البلاد تتميز بطبيعة خلابة، تعمها الحياة الفطرية المليئة بأنواع من الحيوانات والزروع ففيها محميات للحيوانات البرية، وفيها جبل كلمنجارو الشهير المغطى بالجليد بارتفاع يصل إلى ٨٩٥ مترًا، وفي تنزانيا بحيرة هي أطول بحيرة تحوي مياهًا عذبة في العالم هي بحيرة تنجانيقا، وتمتد إلى مسافة ٦٨٠ كيلو مترًا، وبها بحيرة فكتوريا الواسعة التي تعتبر من أكبر بحيرات أفريقيا، وكانت تنزانيا مستعمرة ألمانية فترة من الزمن إلى أن زالت ألمانيا عن مستعمراتها واستقلت هذه البلاد ضمن ما استقل من المستعمرات السابقة.

وغني عن البيان أن هذه البلاد كانت تتكون أولًا من تنجانيقا، وفي شهر أبريل لسنة ١٩٦٤م اتحدت تنجانيقا مع زنجبار ثم في شهر أكتوبر من السنة ذاتها سمي هذا الاتحاد: جمهورية تنزانيا المتحدة.

تتخلل هذه البلاد أنهار عدة يؤدي بعضها إلى نشوء مواضع بينها هي التي تسمى في الجغرافيا الدلتا ومن بين هذه الأنهار نهر الروفيجي الذي يتفرع فتظهر عن تفرعه دلتا عظيمة، ولكنها من النوع الذي تصعب المعيشة فيه، إلا أنه مليء بالأشجار التي يؤخذ منها الكندل الذي تحدثنا عنه فيما سبق، وهذا هو اسمه في اللهجة الكويتية، وفي العربية الفصحى (انظر كتاب لسان العرب، مادة كندل).

ولا ندري كيف استدل ربابنة السفن الكويتيون إلى هذا الموقع الخطر، وكيف اجتازوا العقبات التي تمنع اختراقه، ولكن النوخذة علي النجدي فعل ذلك كما فعله غيره من الربابنة، وقد فعله بطريقته الخاصة التي تعتمد على الجسارة مضافًا إليها الفهم الكامل لطبيعة عمله بصفته قائدًا مسؤولًا عن اليوم ومن عليه.

بدأ اليوم «بيان» رحلته كما هي العادة بالنسبة للسفن الشراعية الكويتية في سنة ١٩٣٨م، وذلك بالذهاب أولًا إلى الشمال من أجل شراء كمية من التمور ينقلها إلى مسقط ثم إلى ميناء المكلا في جنوبي اليمن. وقد باع ما يحمله من تمور في هذين الميناءين، ونقل معه عددًا من المسافرين إلى شرقي أفريقيا الموقع الذي كان ينوي الذهاب إليه من أجل جلب الأخشاب، امتلأ البوم بالركاب الذين كانوا في غاية البؤس، وقد زادهم تزاحمهم في مكان ضيق ورحلة صعبة في بحر هائج بؤسًا على بؤس. عبر «بيان» عددًا من البلدان محاذيًا الساحل، فمر بمقديشو في الصومال، وممباسا ولامو في كينيا ثم زنجبار وكان له في كل ميناء قصة، وفي كل موقع عمل، إذ لم يضيع النوخذة أي فرصة تعود على سفينته بالمكسب، فكان ينقل الناس والأغذية والأدوات المختلفة وهو في طريقه المرسوم، فيوصلها إلى حيث

يريد أصحابها، ثم يخلي السفينة من كل شيء لكي يجعلها جاهزة لحملها الجديد الذي عبر كل هذه المسافات من أجله وهو الكندل، كان الموضع الأخير وهو الهدف في تنزانيا يتمثل في دلتا نهر الروفيجي الخطر الصعب. وكان الولوج إليه من أجل الحصول على البضاعة المطلوبة من أشد ما في الرحلة كلها، ولا يستطيع أن يمر بين ممراته المتشعبة المليئة بالنتوءات والصخور والإلتواءات إلا النوخذة الذي نال قدرًا كبيرًا من التدريب، وحمل بين جوانحه قلبًا قويًا لا تزعزعه الأخطار.

وصل البوم «بيان» إلى الموضع المطلوب، ولن نجد أحدًا يتحدث عن هذا الموضع، وعن نتائج الرحلة الطويلة التي قام بها علي النجدي أفضل من مؤلف كتاب أبناء السندباد الن فاليارز، الذي أطلق على هذه الدلتا اسمًا يدل على كل ما فيها حين سماها: دلتا التعاسة كما ذكرنا سابقًا.

وفي طريقهم رست السفينة في مرسى بجزيرة كوالي، واعتبروا هذه المحطة هي مركز الاستعداد لخوض المغامرة القادمة التي تنتظرهم في دلتا التعاسة.

جهزوا السفينة وطلوا جوانبها وأعدوا الأشرعة ثم بدأت الرحلة عندما رفعوا الأشرعة ثم ساروا باتجاه «سمبا أورنجا» في دلتا نهر الروفيجي.

لقد كان وصف فاليارز لما حدث لهم في هذه الدلتا وصفًا دقيقًا شاملًا، لا يمكننا أن نجد أفضل منه للحديث عن رحلة من هذا النوع إلى مكان مثل هذا المكان الذي تحدث لنا عن مداخله ومخارجه، وعن الطريق الذي سلكه البوم «بيان» بقيادة النوخذة الكويتي علي بن ناصر النجدي، وكان مما قاله القبطان فاليارز صاحب الخبرة الكبيرة في عالم البحار، وهي خبرة تجعل انطباعاته كلها صادقة، ورؤيته للأشياء لا تشوبها شائبة، يقول ونحن نختصر ذلك من كتابه أبناء السندباد: في صباح اليوم التالي رُكبت الصواري، والأجزاء الأخرى مرة ثانية، وأبحرنا باتجاه ذلك المكان الغامض المدعو «سمبا أورنجا» في دلتا نهر الروفيجي.

ونهر «الروفيجي أحد أنهار إفريقية القوية، ينبع من مرتفعات تنجانيقا ويجري شرقا باتجاه المحيط الهندي، وما زال، منذ سنين لا تحصى، يجرف معه التربة من التلال، ويلقيها فوق مئات الأميال من الشاطئ. أما البحر المقابل له فيمتلئ بالركام الرملي، وبالجزر المغمورة، وبالصخور المرجانية التي تستحيل رؤيتها بسبب الطين الذي يجرفه النهر معه. أما مداخل الدلتا، فتتألف من شبكة من الممرات المعقدة الكثيرة الأمطار، كأن الطبيعة قد خلقتها لتجعل مرور المراكب في الدلتا صعبًا للغاية. فالعوائق المختلفة، من رمال وصخور ومياه ضحلة، ومجموعات أخرى من العوائق التي لا يمكن التنبؤ بها، والتيارات المتقلبة باستمرار، كلها تتظافر لتكون مجموعة من الصعاب الملاحية التي يمكن أن تسبب كابوسًا لأي بحار.

وعلى امتداد مساحة الدلتا الشاسعة، نرى المياه وهي تُغطِّي ثلاثة أرباعها فقط، بينما يغطي الوحل الربع الباقي. أما تربة الجزر والشواطئ، فإنها تتألف من ثلاثة أرباع من الوحل والربع الآخر فقط من الماء. وتزخر المنطقة بالأبخرة العفنة، والمستنقعات الحارة، والغابات النتنة، وبأوبئة من جميع الأنواع. أما مجرى النهر، فإنه لا يستقر على حال، بل يتغير من يوم إلى آخر بسرعة محيرة، ومن غير سبب واضح. كما أن قوى المد والجزر والتيار النهري تتغير بسرعة، وبشكل لا سبيل للطاقة البشرية أن تتكهن به. حتى إن اتجاه جريان الماء في أي من الروافد المختلفة للدلتا لا يمكن التنبؤ به. وعلى اتساع تلك الدلتا، أو تلك المتاهة التعيسة المخيفة الموحلة، تكوِّن روافد نهر روفيجي، باستمرار، تَشَعُّبات جديدة، تصل ما بين المجاري المرسومة على الخريطة، وتغير اتجاهاتها، حتى إن البحّار الذي يعرف الدلتا في سنة ما، يمكن أن يعود في السنة التالية فلا يتعرف على شيء من معالمها.

خلاصة القول إن المكان سيِّئ بشكل يفوق التصور، ولا أتصور وجود مكان في العالم بأسره يفوق في السوء دلتا نهر الروفيجي، فإذا كان ذلك المكان موجودًا

بالفعل، فإنني أضرع إلى الله ألا أعيش لأراه، فأنا لم آت بعد على ذكر جميع مساوئ هذا المكان. فهناك التمساح القاتل، وأفراس البحر الضخمة التي تختبئ في مجرى النهر، وهي على استعداد لقلب قارب ضعيف والتهام ركابه بسرعة هائلة. أما في الغابة، فإن القرود لا تنقطع ثرثرتها ولا زعيقها. كما أن الطيور المائية، كالطائر الرفراف، ومالك الحزين، فإنها تطير على حافة الماء بألوانها الزاهية. وعلى قمم الأشجار العالية تجثم النسور مترقبة. كما أن في الغابة أنواعًا مختلفة من الأفاعي، منها الضخمة كأفعى البواء، ومنها الصغيرة السامة. ويزخر وحل المستنقعات السام بالعلق والقراد المتحفز للالتصاق بالأقدام، بالإضافة إلى النباتات المستقلة التي تعيق السير، والحيوانات الشوكية التي تمزق الساقين. فهنا لا تعيش إلا وحوش الغابة. كما لا يتوافر أي نوع من الغذاء، وليس فيها أية بساتين، لأنه لا توجد قطعة من الأرض الجافة يمكن أن يبنى عليها كوخ واحد فيما عدا قرية «سلالة»، والقرى القليلة الأخرى. أما الضفاف، فإنها واطئة لا ترتفع إلا قليلًا جدًا عن الماء في الوقت الذي تفيض الدلتا. وعندما يكون المد عاليًا، فإن كثيرًا من الجزر تختفي من الوجود. أما التيارات السريعة في النهر، فإنها تضغط على الحبال التي تشد السفينة إلى البر بقوة مخيفة، وتقتلع بعض الأشجار الضخمة من اليابسة وتقذف بها على المراكب. إن الإبحار في مكان كهذا نوع من الكابوس، كما أن الدلتا بأسرها حلم مزعج، وليس هناك ما يؤكل فيها سوى الطعام الذي يحمل على ظهر المركب.

ثم يقول: في هذا المكان المخيف المقبض، في الدلتا التعيسة لنهر الروفيجي السريع، قضينا شهرًا كاملًا. لقد كان بحق أسوأ شهر مر بنا طوال الرحلة.

ولم أكن أدري ما تخبئه لنا الأقدار، عندما دخلنا مصب نهر سمبا أوارنجا، وهو أحد أذرع هذا النهر العظيم، عصر أحد أيام شهر مارس، بعد أن كنا قد نظفنا المركب على الشاطئ وأصبح خفيفًا ومرتفعًا كثيرًا في الماء، حتى إننا لم نجرؤ على نشر الشراع الرئيس، بل اكتفينا برفع أصغر أشرعة الدقل (القلمي) على الصاري الرئيس. فقد كان أي ثقل يزيد عن ذلك كافيًا لقلب المركب لأن الخن كان فارغًا. فقد خلفنا وراءنا عاصفة ممطرة، وكان المد عاليًا جدًا والريح معتدلة. كما كان مبارك مرشدنا يرقب الوضع بحذر بالغ، ونحن ندور حول نقطة مغطاة بشجر الكزورينا. وأصبحنا وعلى يميننا مزرعة لشجر جوز الهند، وعلى مسافة بعيدة منا كان أحد أذرع النهر يمتد باتجاه الغرب، ولكن مباركًا أبلغنا أن هذا المصب كان أخطر مصبات نهر الروفيجي، وأنه لا يمكن الملاحة فيه حتى على يد العرب في مراكبهم الشهيرة. وقد وقفنا قريبين من ضفة سمبا أورانجا المواجهة للجهة اليسرى من المركب.

ثم تحدث فاليرز طويلًا عن أساليب شراء الأخشاب التي كان يقطعها أناس من أهل المنطقة على حساب صاحب السفينة. وذكر كيف يتم تجميعها ثم تحميلها واصفًا طريق العودة، عارضًا المخاطر التي استمرت تلاحقهم حتى أتاهم الفرج ورأوا أول الأنوار من ميناء كمبيجي وكأنها ترحب بقدومهم.

بعد ذلك – في اليوم التالي – وصلوا إلى زنجبار، ومنها واصلوا رحلة العودة إلى الكويت.

كان حديث فاليارز عن هذه الرحلة طويلًا جدًا استغرق ستًا وعشرين صفحة كاملة من كتابه، وعرض على قارئه معلومات كثيرة عن الأماكن والأجواء العامة وسوف لا يغني قارئ هذا المقال ما قدمته هنا في إيجاز.

فقد كان متتبعًا وصف الرحلة التي تحدث عنها بما يشبه التصوير السينمائي. ولذا أحيل من يريد المزيد على الكتاب وهو من منشورات مركز الدراسات والبحوث الكويتية.

عاد البوم «بيان» حاملًا ما عليه من بضاعة معيدًا أبناء الكويت إلى وطنهم، وكان علي النجدي فخورًا بما قدم، وكان فاليارز سعيدًا بما رآه من أعمال بحرية رائعة على الرغم من أن بحارتنا لا يمتلكون المعدات ولا الأدوات المساعدة التي كان يستعين بها عندما كان يقود سفينته.

رحم الله النوخذة علي النجدي الذي نفخر به وبأمثاله من النواخذة البارزين.

****

الذئب.. في الشعر الفصيح والشعر النبطي الكويتي[1]

الذئب كما يعرف الجميع حيوان مفترس، يغير على الناس وعلى المواشي، ويسبب الهلع عندما يصرخ بصوته مناديًا مجموعته من الذئاب لأنهم يعيشون على هيئة مجموعات، كل مجموعة لها رئيس يدعوها عندما يجد الفرصة سانحة للافتراس، وسوف نتحدث عن هذا فيما بعد مع بعض التفصيل، ولكن ما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن الذئب كان موجودًا في الصحراء الكويتية وما جاورها، كان في بر كاظمة وكان في الموقع الذي شقه طريق العبدلي، والآخر الذي شقه طريق السالمي، يتبع الرعاة وأحيانًا المشاة فيفتك بمن يضعه سوء الحظ بين مخالبه وأنيابه، وكان وجوده في الكويت بشكل ظاهر حتى نهاية خمسينيات القرن الماضي، وبعدها تكاثر الناس، وزادت حركة السيارات وامتدت المباني مما أدى إلى انحسار قطعان الذئاب من المنطقة ولم نعد نسمع بوجود واحد منها إلا ما ندر.

الذئب الذي له شهرة سيئة تنطوي على روح العدوان، والافتراس، وتضييع الكثير من أملاك الرعاة من المواشي، له ذكر مختلف في الشعر الفصيح وفي الشعر النبطي، وسوف نعرض فيما بعد شيئًا من ذلك للاستدلال على ما نقول.

إن الذئب في الشعر قد اتخذ صفة الصديق وتخلى عن صفته التي اشتهر بها وهي البطش وعدم الوفاء كما حدث مع المرأة التي جاء الحديث عنها في الماضي فقيل انها اعتنت بتربية ذئب صغير، وجعلته مع شاة لها، وعندما كبر كان أول عمل

---

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١١/٦/٢٩م.

من أعمال الذئاب قام به هو القضاء على الشاة وبقر بطنها ثم أكل أجزاء منها، وقد عبرت المرأة عن حسرتها بقولها:

بقرت شويهتي وفجعت قلبي
فمن أدراك أن أباك ذيب

كنا نستمع إلى هذه الحكاية ونحن صغار باعتبارها من الموروثات الشعبية، لكننا الآن نجدها في عدد من كتب التراث مع بعض التعديلات أو إضافة بيت أو بيتين على البيت الذي ذكرناه.

تحدث أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في كتابه «الحيوان» المكون من سبعة مجلدات عن الذئب في أكثر من موضع من هذا الكتاب، والواقع أن العناية الكبيرة التي بذلها شيخي الأستاذ عبدالسلام محمد هارون في تحقيق كتاب الحيوان جعلت الفائدة المطلوبة منه في متناول كل قارئ، وقد أعد له فهارس مفصلة هي التي دلت على مواضع ذكر الذئب فيه وسوف نعرض لبعض ما ذكره الجاحظ دون أن تكون لنا فرصة للتوسع لأن المقام أكثر ضيقًا من أن نقدم فيه كل ما نريد تقديمه، وعلى الأخص أن المعلومات الواردة عن الذئب في الكتاب متناثرة بين المجلدات السبعة، ولكن ذلك لا يمنع من تقديم شيء موجز عنها مع اختيار ما يلائم، وذلك كما يلي:

ذكر أنه من ذوات الشعر، وأنه من ذوات الأنياب وأنه وحشي، وأنه قد يتزاوج مع حيوانات أخرى كالكلب، وأنه يوازن الثعلب في المكر، ويشبه الكلب في الشكل، وتحدث عن قوة فكيه، وقوة أنيابه، وتحدث - أيضًا - عن قبح صوته وعن ظلمه، وحبه للدم وغدره بصاحبه من الذئاب، وعن خبثه، وعن صورة مشيه التي تسمى الختل وهي مشية أشبه بالتسلل إلى ما يريد الوصول إليه، هذا بالإضافة إلى وصف الذئب في جميع حالاته بما في ذلك سوء طريقته في شرب الماء، وفي استرواحه للنسيم، وأخيرًا في أنه ينام بعين واحدة ويفتح الأخرى وذلك لشدة

حذره، وانتباهه إلى ما قد يأتيه من شر، وضرب لذلك مثلًا من شعر حميد بن ثور الهلالي الذي يقول فيه:

ينام بإحدى مقلتيه ويتقي
بأخرى المنايا فهو يقظانُ هاجعُ

وجاء كمال الدين الدميري بعد عدد كثير من السنين لينحو نحو الجاحظ، فألّف كتابه «حياة الحيوان».

جاء ما كتبه الدميري عن الذئب في كتابه المذكور في نحو ست صفحات من الحجم الكبير، وبمقارنته بما كتب الجاحظ نجده يُعوّل كثيرًا على كتاب الحيوان، مع بعض التوسع في إيراد الحكايات والأشعار، إضافة إلى ما ذكر عن الخواص التي يتميز بها هذا الوحش من حيث استعماله في مجال الشعوذة والسحر قديمًا إضافة إلى بعض الطلاسم التي تحمي منه وهذه كلها أمور لم يذكرها الجاحظ لأنها جاءت في العصور المتأخرة التي كتب فيها الدميري كتابه، ولذا لم يستطع هذا أن يتجاوزها بل أضاف إليها ما أسماه بالتعبير، ويقصد به تعبير الرؤيا، بمعنى أن المرء إذا رأى في المنام حلمًا فما تفسير ذلك.

ويتكرر في الشعر العربي القديم ذكر الذئب كثيرًا، والواقع أنه لما كان هذا الجنس من أجناس الحيوان من الوحوش التي تعيش في صحراء العرب، فقد ظل في أذهان الشعراء يخاطبونه، ويفضون إليه بما في أنفسهم، أو يعرضون عليه الماء والطعام كما فعل الشاعر المعروف النجاشي الحارثي، وهو قيس بن عمرو بن مالك، وقد نسب إلى أمه لأنها كانت حبشية، وعلى الرغم من حياة هذا الشاعر الماجنة فإنه كان من أشراف العرب، وقد حدثت له حادثة في أيام خلافة سيدنا علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه تدل على تدنِّي سلوكه، جاء في كتاب «سمط اللآلي» لأبي عبيد البكري: «وهو الذي أتي به إلى علي وهو سكران في شهر رمضان، فضربه ثمانين (يقصد جلدة) وزاده عشرين فقال: ما هذه العلاوة يا أبا حسن؟ قال:

لجرأتك على الله، وشريك في رمضان، ولأن ولداننا صيام وأنت مفطر». ومع هذا السلوك فقد كان له شعر جيد منه هذه الأبيات الجميلة التي تحدث فيها عن لقائه بالذئب وحديثه (المتخيل) إليه. يقول:

وماءٍ كلونِ الغسل قد عاد آجنًا
قليلٌ به الأصواتُ في بلد مَحْلِ
وجدتُ عليه الذئبَ يعوي كأنهُ
خليعٌ خلا من كل مالٍ ومن أهل
فقلت له يا ذئبُ هل لك في فتًى
يواسي بلا من عليك ولا بُخل
فلست باتيه ولا أستطيعه
ولاك اسقني إن كان ماؤك ذا فضل
فقلت عليك الحوض إنِّي تركتُهُ
وفي صغوه فضل القلوص من السجل
فطرّب يستعوي ذئابًا كثيرةً
وعدتُ، فكل من هواهُ على شكل

(نلاحظ في الأبيات: كلمة الغِسْل، وهو نوع من العشب كان يُطحن طحنًا جيدًا، ويستعمل عندنا بهذا الاسم بديلًا لما نسميه اليوم البودر، وهو خاص بالأطفال الرضع. وكلمة صغوه نقول في اللهجة فلان يصاغي الإناء أي يميله حتى يفرغ ما فيه).

ومن الشعراء الذين تخيّلوا مخاطبتهم للذئب شاعرنا الفرزدق، الذي عاش في العصر الأموي، وتردد على كاظمة، وعاش فترة من عمره فيها وفيما حاورها من أماكن، واشتمل شعره على ذكرها في أكثر من موضع، وقد حدثت لهذا الشاعر حادثة تروى، إذ لحق بركبه أحد الذئاب ليلًا، فأخذ الفرزدق يطعمه من شاة ذبحها من أجل أن يطعم بها رفاقه، ثم تخيل أن هذا الذئب يدرك ما يقول فخاطبه قائلًا:

وأطلسَ عسّالٍ وما كان صاحبًا
دعوتُ لناري مَوْهنًا فاتاني
فلما دنا قلتُ ادنُ دونَكَ إنني
وإياك في زادي لمشتركان
فَبِتُّ أُسَوّي الزادَ بيني وبينه
على ضوءِ نارٍ مرةً ودخان
فقلتُ له لما تكشّر ضاحكًا
وقائمُ سيفي من يدي بمكان
تعشَّ فإنْ واثقتني لا تخونني
نكن مثلَ من يا ذئبُ يصطحبان

فها هو الفرزدق يصف الذئب الذي لحق بركبه موهنًا أي بعد دخول الليل بساعة وهو أي الذئب له لون أطلس أي رمادي، يجري سريعًا ويهتز في جريه، يقول: وقد دعوته لناري التي أشعلتها كرمًا، وعندما دنا قلت اقترب فإنني سوف أشترك معك في طعامي هذا، وقد مضى الليل وأنا أقسّم بالسوية هذا الطعام على ضوء النار المشتعلة أو على دخانها عندما خمدت، يقول الفرزدق: ولقد شعرت بأن هذا الذئب قد سعد بما قدمت له وكَشّر عن أنيابه ضاحكًا في سرور، ومع ذلك فلم أغتر بهذا التكشير إذ كان قائم سيفي بيدي مستعدًا لكل طارئ، ولكنني رَدّدْتُ عليه القول طالبًا منه أن يتعشى، معلنًا له أنني سوف أكون له صديقًا وسوف نكون صاحبين إذا أعطاني موثقًا بأنه لن يخونني.

بعد هذا ننتقل إلى الشعر النبطي، فنرى شاعرًا من شعراء الكويت النبطيين يخاطب الذئب بمثل ما خاطبه الفرزدق، هو الشاعر صقر بن مسلم النصافي، وهذه بعض المعلومات عنه:

ولد الشاعر في الكويت في سنة ١٨٧٨م وهو من الشعراء الكبار الذين أبدعوا في الشعر النبطي كثيرًا، وله في شعره ميزات تحسب له، فهو صادق التعبير عما في نفسه، يحس قارئه أنه يقرأ لشاعر مطبوع، قوي الشعر، ينطلق فيه من روح عالية تفهم الحياة، وتحبها، وتصور كل ما فيها.

لقد عاش هذا الشاعر، وهو يشدو بشعره حتى سنة ١٩٤٨م حيث توفي بعد أن ترك كنزًا من الشعر الجميل، وقد عُني حفيده مهلّي بن مهلي النصافي بجمعه وترتيبه وتقديمه إلى محبي هذا النوع من الشعر.

لقد عاش النصافي الشاعر في وطنه الكويت طوال عمره، وعمل في عدد من الأعمال في البر والبحر، وانطبعت صورة هذه الحياة المزدوجة في أشعاره، فقد ذكر حياة البادية، ورحلاته فيها، ومعيشته في كنفها، كما ذكر حياة البحر، والعمل المضني الذي تتطلبه هذه الحياة، وما يكتنف العاملين في هذا المجال من مشاق وأهوال.

ولقد عاش النصافي حياة تحوطها العفة، والحرص على الكرامة، وذلك ما يدل عليه شعره الذي يخلو الغزل فيه من أية مظاهر حسيّة تثير الغرائز، أو تدفع بالإنسان إلى الخروج عن اللياقة، وحسن السمت، وهو الأمر الذي يلفت النظر كثيرًا في أشعاره.

أما قصيدته التي ذكرنا أنه تحدث بها إلى الذئب فهي:

يا ذيب وشْعلْمك تهيض لساني
بغواك يوم إن المخاليج غافين
أنا بلايه قُوجوع حداني
الليل قمرا والضواري فواطين
يا ذيب حسّك في منامي شعاني
لولا الحيا جاوبت صوتك بصوتين

عزي لمن مثلي جداه اقنبانِ
ماله جدا والناس ما همّ معطين
يا ذيب ياللي بالخلا ما تداني
ما شِفت لي حول الثميله بوَيْتين
مريت لي ابويتين يا مودماني
عنها شمال في ظِبَطْها مجيمين
يا ذيب ما قاربتهم بختْلان
يكود تبخص لي فريج اريش العين
أنا الذي من شاف زولي نحاني
ما أحرزت أجيهم خابر غيبهم شين
يا ذيب ما عينت صافي الثمان
عند الغنم ولا يرد البعارين
أنا ما عَرَف الصاحب المرحباني
الناس واجد والعذارى مزايين
ما ريّته يا ذيب عُوده لياني
والنور بين اقذيلته والحجاجين
هذاك أنا قبل أمس جيته وجاني
من كثر دمعه محفي محجر العين
الله يوَفّقك للشياه السمان
من مال كرهين الوجوه البخيلين

وهكذا نلاحظ أن حديث النصافي مع الذئب يختلف عن حديث الفرزدق، فالنصافي يشكو وضعًا مؤلمًا، ولم يجد في ذلك الليل صاحبًا غير هذا الذئب يبثه حزنه وألمه. ليس عنده ما يعطي الذئب؛ ولذا فهو يؤكد له أنه جائع مثله، وأن الكرام قليلون، فلم يجد عندهم ما يسد جوعه فكيف يستطيع أن يطعم غيره.

يقول الشاعر النصافي:

أيها الذئب ما خبَرُك الذي جعلك تثير لساني بالحديث إليك، وما الذي دفعك إلى هذا العواء الصادر منك في بهمة الليل والناس نائمون، إن الذي أسهرني يا ذئب هو الجوع الذي ابتليتُ به، إنه جوع قوي دفعني إلى الاستيقاظ في هذا الوقت الذي لا أستطيع فيه الحركة، والبحث عما أقتاتُ به، لأن الوحوش الضارية محيطة بالمكان تفطن لكل ما يدور حولها وذلك لأن الليل مقمر، وضوء القمر يكشف لها كل مستور.

وعندما حاولت النوم آلمني صوتك العالي وأفزعني، حتى كدت - لولا الحياء - أن أرد عليك بنداءين يشبهان نداءك القوي هذا.

ثم يقول: أما شفقتي فهي على من هو مثلي لا يملك إلا العويل، وليس له من دنياه شيء، وقد سيطر الشح على الناس فهم لا يدفعون له شيئًا ينفعه.

وكأنه يقول: لو كان عندي شيء مما تبحث عنه لأعطيتك إياه كما أعطى الفرزدق صاحبك من قبل.

وبعد ذلك يعود النصافي إلى حديث القلب، فهو يسأل ذلك الذئب قائلًا: أيها الذئب المبتعد في الخلاء، ولا تقترب من أحد، ألم تر لي بيتين صغيرين حول تلك الثميلة حيث الماء الذي يبحث عنه الناس في الصحراء.

لقد سبق لي أن مررت على أهل بيتين واقعين إلى الشمال من تلك الثميلة مقيمين في اتجاهها. فهل قاربتهم أيها الذئب وأنت تسير بمشيتك الحذرة التي عُرِفْتَ بها، فلعلك تتحقق من الموقع الذي يسكنه أريش العين، الذي تصيب عينه من تقع عليه إصابته فلا ينساها.

ثم يقول: إن أريش العين، ذاك الجميل الذي أهواه، إذا رأى هيئتي من بعيد تنحّى عني، في الوقت الذي لا أقدر فيه على الذهاب إلى مقر سكنه لأن ذلك أمر معاب في غياب بقية السكان. وليس لي إلا العودة إلى الذئب أسأله: ألم تر يا ذئب صافي الثمان ذا الأسنان البيضاء الصافية، ألم تره في تلك الصحراء عند الأغنام؟ أو عندما يعود بالإبل من مراعيها؟ إنني لا أستطيع أن أميز صاحبي الطيب من بعيد، فالناس هناك كثيرون ومتشابهون، والعذارى كلهن جميلات.

ولكنني أقول لك يا ذئب علامة فيه تدلك عليه، فهو لين العود، يشع النور من جبينه، وبالتحديد، في الموقع ما بين قصة شعره وحاجبيه. فذلك الجميل هو الذي جاءني قبل الأمس وجئت إليه، وقد تأثر كثيرًا بهذا اللقاء وبكى ساعة الوداع حتى تقرّح محجر عينه لكثرة ما ذرفه من دمع.

ثم يختم الشاعر قصيدته بمكافأة لهذا الذئب الذي سوف يقوم بمهمة لصاحبنا، وليست هذه المكافأة إلا دعاء له، لأنه لا يقدر على غير ذلك، فيقول: عسى الله أن يوفقك إلى شياه سمان تأكلها وتسد جوعك بها، على أن يكون أصحابها من ذوي الوجوه الكريهة البخلاء الذين لا يجودون لأحد بشيء مما يملكون.

وهكذا نجد الشاعر صقر النصافي، وقد أخَذَنَا معه إلى البادية، وأشْرَكنا معه في ليلته تلك التي أسهره فيها الجوع الشديد، وتذكر فيها الأحباب، واستمع إلى الذئب الذي يصرخ والناس نيام. وأسمعنا حديثه إلى هذا الوحش الذي أشركه معه في معاناته، فطلب منه أن يأتيه بأخبار الأحبة الذين وصف له مكانهم، وبين له ما يوصله إليهم، ذاكرًا له صفات المحبوب، وما حدث له معه عند اللقاء.

ولا ينسى النصافي أن يدعو للذئب دعاء يتلاءم مع وضعه معه راجيًا أن يُوَفّق إلى شياه سمان يتمتع بأكلها، ويُغيظ بما سوف يحلُّ بها قلوب أصحابها البخلاء.

ولا يعيب عن المطلع على هذه القصيدة الروح الكريمة الطيبة التي يتحلى بها الشاعر، وعمق الإحساس بالحياة وما فيها من إنسان وحيوان، وهذا أمر يبدو واضحًا عنده ليس في قصيدته هذه فحسب، بل في سائر شعره، فهو شاعر إنسان، يحمل بين جوانحه نفسًا شاعرة معبرة.

ولا ننسى في ختام حديثنا عن قصيدة الشاعر صقر النصافي أن نعود إلى ما قاله الجاحظ وذكرناه في بداية مقالنا هذا، وهو أنه عندما وصف مشية الذئب قال إنها تسمى: الختَل.

وها هو النصافي يقول عن ذئبه: «يا ذيب ما قاربتهم بخُتلان» إلا أن هذا اللفظ كما هو في الفصيح فإنه مستعمل في لهجتنا إذ يقول الناس: فلان يختل وفلان يتختل وما أشبه ذلك.

هذا ولفظه (اقنباني) معناه العواء، عواء الذئب، وقد ورد في كتاب لسان العرب قوله: «والقانب: الذئب العواء»، فهذه لفظة فصيحة وهي في لهجة الكويت.

وبعد، فهذا موضوع يحتاج إلى مزيد من الحديث، ذلك لأن ما ورد عن الذئب في الشعرين الفصيح والنبطي كثير، ولكن المجال لا يسمح بالزيادة، وعلى كل فإن الرجوع إلى ما جاء عن هذا الموضوع في كتابنا «دروس في اللهجة الكويتية من خلال الشعر النبطي» قد يكون مجديًا.

****

ملحاق خير

ورد ذكر الذئب في الشعر النبطي - أيضًا - ولكنه هذه المرة تحت مسمى عام وهو: «السبع» وهذا اسم عربي فصيح يطلق على الحيوانات المتوحشة.

والشاعر الذي ذكره هو فهد بن محمد بن جافور وهو من كبار شعراء الشعر النبطي في الكويت، ولد في سنة ١٨٦٨م على حد التقريب، بقرية الفنطاس وتوفي في سنة ١٩٧٥م، عاش في بداية حياته بالبادية، يتنقل فيها حيث يشاء، يرعى الإبل ويربي الغنم، وينشد الأشعار، وحين دعاه داعي العمل اتجه إلى الكويت وأقام فيها وعمل في مجال الغوص، مثله في ذلك مثل الكثيرين ممن انخرطوا في هذا العمل ذلك الوقت.

وقد قال قصيدة جاء فيها:

هَـيّض القلبِ تـالي الليل سِبْع عوى
يـوم شـرّف على المرحان شاف العنين
قـام يَـقـنِـبْ بـصوتـه بـايـتٍ بـالقـوى
مـا درى ويـن شَـدّوا والـعرب قاطنين
مـن عشير نـوى لـفراق بيتـه طـوَى
قـربّـوا لـه مـراحيـلـه وهُـم نـازحين
هيه يا طـارديـن الـغيّ يـا أهـل الـهوى
احـذروا مـن نـقاض الحـب يـا جاهـلين

وان نقض بالمودّة ما يسِز الدّوا

والهوى لو كميته لازم أنه يبينْ

يقول الشاعر: أثارني آخر الليل صوت أحد السباع وهو يعوي، وقد أشرف من على إحدى المرتفعات فوجد المنازل خالية؛ فصار يصرخ بصوته العالي وبكل ما فيه من قوة، ولكن الواقع أنه لا يدري أين رحل هؤلاء، وأين يقيمون الآن، لقد أثار هذا السبع مواجعي، فأنا أشكو ما حل بي من معاشر لي نوى الفراق وطوى بيته، وأُحضرت له مراحيله (أي النياق التي يرحل عليها) واستعد للنزوح، ثم يحذر الشاعر السائرين وراء المحبة، وهم أهل الهوى من نقض المحبين لعهودهم (نقض الحب) وسماهم جاهلين لأنهم لا يفطنون إلى ذلك، ولا يدرون أن نقض المودة لا دواء له، وأنك لو أخفيت الهوى فلابد أن يظهر.

فهذه أبيات جميلة، اشتملت على خيال بديع، في تصوره للسبع الذي يعوي آخر الليل، يصيح بكل قوته وهو لا يعلم بما حل بالقوم الذين جاء إليهم، ويشبه الشاعر نفسه بهذا السبع فهو – أيضًا – يشكو الحبيب الذي نقض عهد المودة الذي جمعه به، ولذا فهو ينبه أهل الهوى إلى مثل هذا المصير الذي لقيه.

(هيّض: أثار، شرّف: أشرف، وهي عربية فصيحة. المرحان: جمع مراح ويقصد به الأماكن التي تنصب فيها بيوت الشعر والخيام ويعيش فيها سكان البادية. العنين: جمع عنّة، والعنة شبه العشة الصغيرة وهي كلمة فصيحة. يقنب: يصيح – شدوا: رحلوا، قاطنين: ساكنين – عشير: معاشر، مراحيله: إبله التي يرحل عليها. طاردين الغي: المسرعين خلف الهوى. كميته: أخفيته).

وجدير بالذكر أن هذه القصيدة قد اشتهرت لأنها صارت تغنى على اللحنين السامري والفرينسي، ورددتها الإذاعة كثيرًا.

****

الشاعر الكويتي إبراهيم سليمان الجراح(١)

قال لي أحد الأصدقاء: لقد كتبت عن الكثيرين من أهل الكويت على اختلاف مشاعرهم وأعمالهم، ولكنك لم تكتب عن خالك داوود الجراح ولا عن خالك إبراهيم الجراح وقد رددت عليه بأنني أصدرت عن كل واحد منهما كتابًا يضم معلومات كثيرة كما يضم ما بقي في اليد من قصائدهما.

ولقد لفت نظري إلى ضرورة الكتابة عنهما كثرة التساؤل عن هذين الشاعرين، وكأن الكتابين اللذين أصدرتهما عنهما غير كافيين – هأنذا – أبدأ بإبراهيم سليمان الجراح وهو شيخ جليل يعتبر خزانة للعلم وبخاصة في مجالات العربية والتاريخ، وله اهتمام كبير بتاريخ الكويت ومعرفة تامة بأبناء هذا الوطن.

ليس الشيخ إبراهيم سليمان الجراح مجرد شاعر أقرأ له وارتاح لشعره، ولكنه خالي الذي قضيت معه وقتًا طويلًا منذ صغر سني. وعشت التقط منه المعلومات في شتى ضروبها من لغة وتاريخ وفهم للشعر وإدراك لمعانيه. ولما كنت قد قضيت – في ذلك الزمان – أوقاتًا طويلة سعيدة عند أخوالي، فقد استفدت منهم جميعًا كل فيما اختص به، ولقد برع الخال إبراهيم في قول الشعر، وفي معرفة التاريخ، وبخاصة التاريخ الإسلامي، ثم تاريخ الكويت الذي عرف تفاصيله، وأصبح حجة فيه، نشأتُ وأنا أستمع إليه، أريه ما عندي من كتب وينصحني بما يجب عليّ أن أقرأه منها، ونقرأ سويًا بعض القصائد في الدواوين وكتب المنتخبات الشعرية،

---

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١١/٧/٦م.

وبذلك كله نلت فائدة كبيرة منها ما هو متعلق بالمعلومات الغزيرة التي اكتسبتها، ومنها ما هو متعلق بطريقة الاستفادة من القراءة، واختيار الكتب واكتساب ما فيها من معلومات.

ولم يكن بيت أخوالي هو المكان الوحيد الذي كنت ألتقي فيه بهذا العالم الجليل، فقد كنت أتردد عليه في دكانه في سوق الخضرة بالعاصمة، وكان يجتمع حوله فيه عدد من الأدباء والشعراء، هذا يقرأ له قصيدته الجديدة وهذا يطرح له بعض ما اطلع عليه من معلومات، وقد ردد في شعره كثيرًا من أخبار هذه اللقاءات، وذكر أولئك الصحب الذين لم ينقطع عنهم إلا في أخريات أيامه. وكانت استفادتي من هذا الموقع مزدوجة، فمنه استفيد، وإلى تعليقاته أستمع، ومن هؤلاء الأدباء أحظى بما أتمناه من معلومات، وأشعار، ويقبل المساء وأنا واقف في عكاظ الصغير، وعندها يقوم بإغلاق دكانه ويصحبني إلى البيت حيث نفترق في فريج الشاوي الذي فيه بيتنا، ويستمر هو إلى فريج الزنطة في غربي العاصمة حيث يعيش مع والده وإخوانه.

كانت أيامًا جميلة نلت فيها الكثير من الفوائد، ووجهتني إلى الطريق الذي سلكته في دراستي فيما بعد، وحببت إليّ القراءة، واقتناء الكتب المفيدة، وفتحت أمامي الطريق إلى المحاورة حول المعلومات، والرغبة في قرض الشعر.

لم يُعرف إبراهيم سليمان الجراح على نطاق واسع في الكويت، ولكن الناس بدأت تتساءل عنه بعد وفاته نظرًا لما كتب عنه من رثاء بين مآثره، وأوضح إمكاناته العلمية والأدبية، وألقى الضوء على شعره الجميل.

هو شاعر أديب، له دراية باللغة العربية، والتاريخ الإسلامي، وله اطلاع واسع، ومتابعة لشتى فنون التراث الإسلامي، وقد ظل يوالي هذه المتابعة حتى تقدم به العمر، وحانت وفاته، لم يتكاسل عن المتابعة المعرفية.

ولم تكلّ همته عن الاطلاع. وحين توفي في اليوم الثامن من شهر ديسمبر لسنة ٢٠٠١م كان قد بلغ المائة سنة من عمره. ومع ذلك فقد كان ذا ذاكرة قوية، يسترجع أحداث التاريخ الإسلامي، ويتذكر تاريخ الكويت، لا تفوته صغيرة ولا كبيرة من تاريخ وطنه، ولقد كان مرجعًا في التاريخ الكويتي، وفي ذكر الأماكن وما مرّ عليها من أحداث. وعلى الرغم من أنه لم يتصدر للتدريس، فقد كان يستقبل من يأتيه سائلًا، ويرد عليه بالرد الشافي، وكان عدد من الشعراء يأتون إليه عارضين عليه شعرهم ليطلع عليه، ويبدي لهم رأيه فيه، فكان يهتم بذلك، ويرد عليهم دون تجريح. وكان شعره جميلًا معبرًا قوي اللغة، وقد كانت القصيدة التي رثى بها شقيقه الشيخ محمد سليمان الجراح من أفضل قصائده، فهي صدرت عن قلب محب، وفيها أبدى إحساسه بدنو أجله، بعد وفاة شقيقه الذي عاش معه زمنًا طويلًا، وتقاسم وإياه أفراح الحياة وأتراحها، ومما يدل على ذلك قوله فيها:

ما كنت أحسب أن تطول حياتي
حتى أراك سبقتني بمماتِ
قد كنت أرجو أن أفوز بدعوة
مبرورة لي منك أو بصلاة
فسبقتني ضيفًا لربك للذي
يُقري النزيل لديه بالجنات

وفي هذه القصيدة بيت يدل على ما ذكرناه من أنه أحس بدنو أجله عندما توفي أخوه محمد، حيث يقول:

شِقّي لأنتَ ومن تساقط شقُّهُ
كان الردّى منه على خُطُواتِ

وبالفعل فإن حياة الشيخ إبراهيم لم تطل كثيرًا بعد ذلك.

لقد انتقل الشيخ إبراهيم سليمان الجراح إلى رحمة الله في صباح يوم السبت الموافق الثامن من شهر ديسمبر لسنة ٢٠٠١م كما قلنا آنفًا وهو عالم من علماء الكويت في اللغة والأدب والفقه، وشاعر من شعرائها الذين عبروا بشعرهم عن أحاسيس الحب تجاهها، يحس من يجلس إليه بمقدار ما حصل عليه من علم، ويرى عنده الرغبة في إيصال ما عنده إلى من يتطلع إلى الاستفادة منه، وعلى الرغم من أنه محب للعزلة، راغب عن الاتصال بالناس بشكل عام إلا أنه كان يستقبل في مصلاه في أحد مساجد الكويت عددًا من طلاب العلم الذين يأتون إليه للسؤال عن أمر من الأمور التي أشكلت عليهم فيجدون عنده الجواب الشافي، فيعرفون بذلك مقدار علمه، وتمكنه من الإحاطة بكثير من المسائل العلمية التي يسعى هؤلاء إلى معرفتها، وهذا هو ما أشرنا إليه قبل قليل.

درس الشيخ إبراهيم العلم مع أخويه داوود ومحمد عند عدد من علماء عصرهم، واشتهر بالتواضع والزهد، وعدم الرغبة في الاختلاط بالناس، غير أن من يتصل به - كما أشرنا قبلاً - يدرك غزارة علمه ليس في مجال اللغة العربية والفقه والتاريخ فحسب، بل وفي مجال المعرفة بالكويت وكل ما يتعلق بتاريخها وبأهلها ومواضعها المختلفة.

وإذا أردنا الحديث عن شعره، فإن له شعرًا رقيقًا، لم يكن - في حياته - قد جمع في ديوان - ولكنه كان متداولاً يحفظ عدد من ملازميه بعضًا منه، ويستمتعون بما يتميز به من جمال وصفاء، ومن تنوع في الأغراض التي كان من أهمها الإخوانيات ووصف الأشياء.

وكان الأخ جراح بن داوود الجراح قد سأله في جلسة صفاء عن أفضل قصائده عنده، فرد عليه: إنني أرتاح إلى ثلاث قصائد من شعري إحداها التي مطلعها:

تحدثت عن مصر فاعربت عن خبر
حنانيك هام القلب حبًا بما تُطري

وأما الثانية فهي التي مطلعها:

يا صاحب النَّفحاتِ الغر والأدب
أطربتني بثناء ليس من أربي

وإذا رجعنا إلى القصيدة الأولى فإنها كانت جوابًا على رسالة أرسلتها إليه من مصر حين ذهبت إليها من أجل الدراسة في سنة ١٩٥٧م، وقد وصفت له في تلك الرسالة كثيرًا من الأشياء الجميلة التي لقيتها هناك مما جعله يستثار فيكتب هذه القصيدة التي جاء فيها:

لقد حَبَّبَتْ مصرا إليّ رسائلٌ
جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدري
بَعَثْتَ بها بين الطروس كأنها
عيون المها بين الرصافة والجسرِ
فَعَبّرن عمّا في الكنانة من رؤى
وحلقن بي في مستوى الوسط الحرِّ

ومن وصفه الجميل قوله:

تجولتُ في آثار عمرو وجوهر
وما تركا في مصر من نابه الذكر
وَسَرَّحْتُ في النيل المبارك ناظري
فقلتُ جنان يلتقين على نهر
ورحت إلى وادي الملوك بخاطري
فَرُوِّعْتُ من أملاكه الصيد بالذعر

ثم يمضي في ختام قصيدته موجهًا القول إليّ:

فيا هدف الآمال بُوركتَ ناشئًا
وأفلحتَ مرتادًا وَوُفِّقْتَ للبِرِّ

تَفَقَّدْتَ لم تشغلكَ عنا مناظر

هنالك منها ما يروق وما يُغري

ومن يك شهم القلب لم ينس موطنًا

له ذكريات فيه جلّت عن الحصر

فَدُمْ رافلاً في مصر تخطر دائبًا

كما أخذت ذكراك تخطر في صدري

وقد وردت القصيدة كاملة ضمن أشعاره في الكتاب المذكور وسيرى القارئ فيها الرقة التي تظهر دائمًا فيما يكتب، والمعاني الجميلة التي يلتقطها التقاط الدرر، فيقدمها في سبك جميل. ولذلك فإننا لا نستغرب اختياره لها كما أسلفنا.

وأما القصيدة الثانية التي رأى الشاعر أنها من أفضل شعره؛ فهي التي يقول في مطلعها:

يا صاحب النفحات الغر والأدب

أطربتني بثناء ليس من أربي

وهي قصيدة طويلة وجهها إلى الشاعر المرحوم عبدالله سنان المحمد الذي كان وثيق الصلة به، دائم التردد عليه. وعندما طبع عبدالله ديوانه «نفحات الخليج» ذكر في مقدمته شيئًا عن هذه العلاقة، فما كان من شاعرنا إلا أن قام بالرد على ذلك، شاكرًا له، معبرًا عن سروره التام بإيراد عبدالله لذكره، على الرغم من أنه يخجل لذلك، ويعلن أن التصريح باسمه ليس من أربه:

عفوًا أبا نفحات المسك إنك قد

أحرجتني بالذي نوهت بالكتب

ومازال يقرأ تلك القصائد الجميلة التي احتواها ديوان عبدالله سنان ويعجب لما فيه من جمال إلى أن قال:

حتى شغفت بها حبًا وهمت بها

فكدت ألثم ما في الطرس من طرَبي

لم أدر هذي عيون الشعر آسرتي

أم أنهن عيون الخرّد العُرُب

ما ينقضي عجب ممّا تضاحكني

به نوادرها إلا إلى عجب

ثم يعبر عن تقديره للشاعر قائلًا:

عش للكويت فأنت اليوم شاعرها الـ

حاني عليها وحادي ركبها اللجِبِ

بل أنت غريدها الشادي وبلبلها

فاصدح كما شئت يا قيثارة العرب

وهي قصيدة جميلة تستحق أن يختارها الجراح من بين أشعاره، ففيها تعبير صادق عن محبته لصاحبه، وتقديره له وحرصه على أن يثني عليه الثناء الذي هو أهل له، ليس في مقابل التنويه الذي أشار فيه إليه بل - وهذا هو المهم - لما احتوى عليه ديوانه من شعر جيد يلفت الأنظار، ويسر القلوب.

وتلي هذه القصيدة قصيدة ثالثة اختارها من بين شعره، وهي التي مطلعها:

من حلّ في روض القريض نزيلا

وارتاد، فاتخذ العروض مقيلا

وهي قصيدة قالها في تقريظ ديوان الشاعر عبداللطيف عبدالرزاق الديين (مجموعة الفصحى) وقد استبق التقريظ بكلمة نوه بها بالشاعر، وذكر اهتمامه بفنه وحبه لوطنه وبين أن مجموعته الشعرية «تلوح عليها ملاحة اللهجة الكويتية، وفصاحة اللغة العربية، وهام وانهمك صاحبها بحب الكويت، ولا غرو في ذلك،

فهو ابنها وفتاها، وجنديها المجهول، فأشاد وأفاد، وشبب وأجاد، وتغنى بما لها من أمجاد غابت الآن عن الكثير من أهل هذا الجيل، حتى لقد ذكر أطلالها وأسواقها وأسوارها».

ولما كانت هذه القصيدة قد جاءت بعد تحرير الكويت فقد وجدنا الشاعر ينوه بهذه المناسبة العزيزة على كل مواطن ويذكر موقف عبداللطيف الذي بقي في وطنه أثناء الاحتلال إذ يقول:

أبت المروءة أن تفارق أهلها
فأبيت أنت عن الديار رحيلا
دافعت فوق المستطاع وكنت في
عام الوغى جنديها المجهولا

وذلك إلى أن قال:

سقط النشامى والأشاوس بعدما
كادوا فأصبح كيدهم تضليلا
طاح الذي في الرأس حتى قبلوا
أقدام جند عدوهم تقبيلا
لم ينج إلا من ترفع رافعًا
كفيه للقوم الكرام دخيلا
فإذا الذي قد حَشَّدوه وَجَنَّدوا
أضحى على مطلاعنا مطلولا

ويتجه الشاعر بعد ذلك إلى مخاطبة وطنه قائلًا:

قري عيونا يا بلادي والعقي
ما سال من دمك الزكي مسيلا

فلقد تبارت من بنيك وبادرت
أيد تضمد جرحك المشلولا
ولسوف تندمل الجراح فلا نرى
أبدًا لجرحك يا كويت مثيلا

ويواصل قوله هذا بعد أن أكد لبلاده أن جراحها سوف تندمل:

ببنيك يا مهد الأحبة لا بمن
كنا نؤمل نصرهم تأميلا
خانوا وكان الغرب أوفى ذمة
فالغرب لبى صوتك المخذولا
ألقى بنيه في حماك فكافحوا
حتى استعادوا عرشك المثلولا
رعيا لبوش في الأنام كما رعا
شعبًا أريع وموطنًا قد نِيلا

وهكذا يُنهي شاعرنا قصيدته التي بلغت الأربعين بيتًا، ويلاحظ القارئ أنه لكثرة ما نوّع فيها، ولشدة تأكيده على مسألة الغزو العراقي للكويت، واندحار الغزاة، وكأنه قد اغتنمها فرصة كي يعبر بها عن مشاعره تجاه هذه المأساة الوطنية الكبرى، فهو بعد أن تحدث عن عبداللطيف الديين ومميزات شعره، وعلو همته، وحبه لوطنه وإخلاصه له؛ انطلق إلى هذا الموضوع ليعلن موقفه الوطني، ويذكر ما تعرضت له البلاد، وما لقي الأعداء نتيجة لتعنتهم الذي لم يفدهم شيئًا حين آن أوان الحرب واشتد أوارها.

القصيدة جميلة جدًا ومعبرة، يمضي فيها الشاعر بكل سلاسة ليعرض ما عنده دون تردد سواء أكان ذلك في حديثه عن عبداللطيف الديين، أم عن الكويت وما نالت من أعدائها وما مَنّ الله عليها به من نصر.

ولقد ذكر الشاعر هذه القصائد الثلاث، وليته ذكر قصيدته التي قالها في سنة ١٩٦١م. فقد كانت هذه السنة مهمة في حياة أبناء الكويت، حيث حدثت فيها حادثة مهمة في تاريخها وهي حادثة ادعاءات حاكم العراق عبدالكريم قاسم المشهورة، وقد تلفت الشاعر فوجد عددًا كبيرًا من رفاقه قد ذهبوا للاصطياف في لبنان قبل أن يظهر إعلان ذلك الحاكم ولكنهم استمروا في بقائهم هناك، فقال قصيدته هذه يستحثهم فيها على العودة. ويبين لهم أهمية المبادرة إلى نصرة الوطن بادئًا بوصف لبنان بقوله:

لبنان مالك ويلي منك لبنانُ
بان الرفاق ولولا أنتَ ما بانوا
في كل عامٍ إلى مغناك أفئدة
تهوي إليه وإخوان وخلانُ
فتنت ويحك يا لبنان إخوتنا
أهكذا أنتَ يا لبنان فتان
يا تاركي الوطن الغالي إلى وطن
للعرب، كل بلاد العرب أوطان
أغراكمُ من أبي حمدون أن به
من كل ما تشتهيه النفس ألوان
مناظر ومراء كلها مُتعُ
فيهن والله للمحزون سلوان

ويستمر ماضيًا في وصفه:

فأينما قد تفيأتم بأفنية
أحنت تُظللكم فيهن أفنان
استغفر الله أم أغرتكم مقل
يريش إنسانها للفتك إنسان

من اللواتي وإن قلنا ملائكة
في كل جارحة منهن شيطان
هُنّ الذئابُ فكم قلب فتكن به
إذا نفرن وإن رُوّضْنَ غزلان

إلى أن يقول داعيًا أبناء وطنه للعودة إلى الوطن، والاهتمام بما تتصدى له بلادهم في تلك الفترة من تهديدات:

فشمروا يا فداكم كل غانية
ما للتصابي بهذا الظرف ميدان
قد كان هذا وما كان العراق لنا
خصمًا، ولا كان إيعاد وعدوان
ولا تحدت نسور الجو كاسرة
جهلًا خفافيش تؤويهن بغدان
دعوا التريث فالأوطان ليس لها
إلا بأبنائها عز وسلطان

هكذا نرى الشاعر قد عَبر عن مشاعره في تلك الأيام الحالكة، وصدع بصوته مناديًا خلانه طالبًا منهم العودة إلى الوطن، وتفريغ جهودهم له، مع تناسي كل المغريات التي يجدونها خارجه، وهي المغريات التي ذكرها شاعرنا ليقول لأولئك الأصحاب إنها لا تغني عن الوطن شيئًا، وأنها ينبغي تجاهلها في مقابل ما يفرضه علينا الواجب تجاه الكويت.

لقد تناول الشاعر موضوعه تناولًا جيدًا، وجاءت أبياته متسلسلة جميلة حتى وصل بها إلى المطلوب، في لفظ رقيق، وفي بيان سهل، ليس فيه شيء من صعوبة الأسلوب. ولذا فهي في رأينا من أجمل قصائده، وهي جديرة بأن تضاف إلى القصائد الثلاث السابقة.

وله قصيدة أخرى من أجمل القصائد، يتحدث فيها عن كتاب لعله أن يكون جزءًا من ديوان الشوقيات الحاوي لأشعار أمير الشعراء أحمد شوقي، ويبدو أنه استعار هذا الجزء من أحد أصدقائه، واستمتع جدًا بقراءته، ولكن ما حدث للكتاب أزعج الشاعر، ووضعه في دائرة الخجل من المعير، حيث إنه على الرغم من حرصه على أن يعيده إلى صاحبه سليمًا إلا أن المطر كان له بالمرصاد فخر سقف الحجرة عليه وأتلف بعض أوراقه، فقدم اعتذارًا حوته هذه القصيدة التي مطلعها:

يا متحفي بالذي يحوي من التحف

ومانحي من نداه أبدع الصحف

بعثت لي ربع شوقي فانهمكت به

ما زلت أتلوه من ياء إلى ألف

وما زال يقرأه، ويُمتع نفسه به حتى حصل ما يحذره:

فما اشتفت بعد نفسي من نفائسه

أو ملّ طرفي ما فيه من الطرف

وصنته عن أديم الأرض مجتهدًا

لم أدر أن له حتفًا من السقف

فشوهت قطرات الماء طلعته

كما يُشوّه حسن الوجه بالكلف

ثم يختم موجهًا القول إلى صاحبه معير الكتاب:

فاغضض فديتك طرفًا عن رثاثته

فقد أتاك على استحياء مقترف

وهذه القصيدة من القصائد المقررة في مادة اللغة العربية على طلاب الصف الثانوي الأخير في مدارس الكويت.

كان حب الوطن يشغل قلب الشاعر إبراهيم الجراح، ولذا فإننا نجد له عددًا من القصائد التي يذكر فيها مواطن صباه، ويحن فيها إلى ماضيه، ومن هذه القصائد ما أشرنا إليه فيما سبق، ومنها ما سوف نشير إليه هنا.

وسوف نكتفي - حتى لا نطيل - بذكر قصيدة واحدة هي قصيدته (من الماضي)، وفيها يذكر أنه انتقل من مقر سكنه الجديد إلى الفريج القديم الذي عاش فيه فيما مضى من زمانه، ويقول إنه انتقل لكي يرى الباقين في تلك المنازل من أصدقائه ولكنه عندما مَرّ عليها في ذلك اليوم لم يجدها كما كانت ولم يجد رفاقه الذين كان يراهم بها، فقد صارت خالية وكأنها مراتع الضباع، ومن بعد أن كان الحمام يسجع بساحتها حل محله (البوم) وهو الطائر المشؤوم الذي جاء إليها في أعقاب خلوها من السكان وَتَهْديم بعضها ولذا فإننا نراه يقول عن ذلك:

فكفكفت آمالي بها ودفنتها

بتربتها إذ عز عن حملها ذرعي

وودعت أحلامي بها ومآربي

وما كان توديع الأحبة من طبعي

ثم أخذ يدعو لها بالسقيا آملًا أن تعود ويعود سكانها كما كانوا من قبل، وقف بها ذاهلًا، وقد تخيل وهو في ذهوله أن امرأة تسأله عن سبب توقفه في هذا المكان ظنًا منها أنه يبحث عن الغزل وهو أمر ليس من مآربه، وقد رد عليها بقوله لها: إن هذه المواطن هي التي ولدت فيها وعشت بين مساكنها ومن واجبي أن أزورها وأتذكر فيها صحبي، وما مرّ من أيام حياتي، ثم أخذ يتحدث عن الأوضاع في الماضي فقال:

ونشرب من كيفان أو ما عداه من

موارد كنا نستقيها من النبع

فهل مدّ شعبي عند ذلك من يد

ولو مدّها يومًا لبُودر بالمنع

لقد كان الكويتيون معتمدين على أنفسهم، وعلى مواردهم الخاصة، ولم يمدوا يدًا إلى أحد من الناس.

إن التعبير الصادق عن محبة الوطن، ومحبة أهله كان من سمات قصائد كثيرة جاءت على هذا المنوال الذي قدمناه هنا، ويكفينا استعراض هذه القصيدة للدلالة على مشاعر الشاعر الجياشة.

وبعد فإن الذي نقدمه في مقالنا هذا، إنما هو جزء يسير مما ينبغي أن نبسطه بين يدي القارئ ولكن الارتباط بالمكان المخصص للأزمنة والأمكنة يمنعنا من الاتساع وما أود الإشارة إليه أن كثيرًا مما قدّمناه هنا يعتمد على كتابنا: «إبراهيم سليمان الجراح، حياته وشعره».

****

الشاعر الكويتي داوود سليمان الجراح(١)

هذا شاعر رقيق الشعر، جيد اللفظ، حريص على المعاني الراقية. ترك لنا شعرًا كثيرًا في أغراض متعددة، ولكننا لم نعثر من شعره مكتوبًا إلا على القليل على الرغم من حرصنا على جمعه والاعتناء به، ولكن ما وردنا منه، واستطعنا أن نرصده كان دليلًا كافيًا على مستوى الشاعر وجودة شعره.

هو الشقيق الأكبر لكل من إبراهيم سليمان الجراح الشاعر الذي جاء مقالنا السابق عنه، كما أنه شقيق الشيخ العلامة محمد بن سليمان الجراح الذي عرف الناس علمه وقدره، فداوود إذن من بيت علم وأدب، ولا غرابة في أن يبرز بشعره بين الناس فيتداولوا ما قال، ويعجبوا بقصائده الجميلة التي تناول بها كثيرًا من الموضوعات مما سوف نبينه فيما بعد.

هذا المقال - كسابقه - يعتمد اعتمادًا كبيرًا على كتاب، وهو هذه المرة كتابنا: «الشاعر داوود سليمان الجراح، حياته وشعره»، وهو كتاب جمعنا فيه ما تيسر لنا من شعره مع بيان سيرته، والإشارة إلى كثير من المعلومات عنه وعن أساليبه الشعرية، فهما محاولتان قمت بهما لإبراز شعر هذين الشاعرين نشرت أولاهما في سنة ٢٠٠٣م وكانت عن إبراهيم الجراح، أما المحاولة الثانية فهي عن أخيه داوود سليمان الجراح.

وقد دفعني إلى القيام بهاتين المحاولتين المرحوم الشاعر الأستاذ عبدالله زكريا الأنصاري، وذلك كما يلي:

---

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١١/٧/١٣م.

عندما أصدرت كتابي «همس الذكريات» في سنة ١٩٩٨م، تكرم الأستاذ الأنصاري فكتب عنه مقالًا نشره في جريدة «القبس» في اليوم السادس والعشرين من شهر يوليو للسنة التي صدر فيها الكتاب، وقد أشاد بما أوردته من أحاديث الذكريات ونص على بعض الأمور التي تناولتها مؤكدًا أنها جديرة بالتسجيل، ومما أشار إليه الأستاذ عبدالله – يومذاك – تلك المختارات الشعرية التي قدمتها لكل من الشاعرين داوود سليمان الجراح وإبراهيم سليمان الجراح، وكان في مقاله حولهما ما يلي: «وجاء في هذه الذكريات بعض مختارات من الشعر لداوود الجراح، وإبراهيم الجراح، وغيرهما. وأعتقد أن لعائلة الجراح شعرًا جميلًا يرصد مراحل مهمة من تاريخ الكويت، وتاريخ أدبائها وشعرائها، وبودي لو قام الدكتور يعقوب برصد وجمع هذا الشعر لعائلة الجراح في ديوان خاص بهم، مع كتابة تواريخ حياتهم وثقافتهم، وتاريخ أدبهم، فلا شك أن في هذا الديوان فائدة أي فائدة لتاريخ الأدب والشعر في الكويت، يستفيد منه الجيل الحاضر، وكذلك الأجيال القادمة».

ولقد كانت لكلمة الأستاذ عبدالله زكريا الأنصاري فائدتان هما ما ذكرته عن صدور الكتابين الخاصين بهذين الشاعرين، وكان له الفضل في ذلك.

وداوود سليمان الجراح شاعر كويتي مبدع، تطرق في شعره إلى عدة أغراض، ولكن الجانب السياسي كان هو الغالب على ما كتبه من شعر، وقد تغنّى بالكويت التي يحبها كثيرًا، كما كان يجيد القول في مجال المداعبات الشعرية، وله فيها مع عدد من زملائه مراسلات ومساجلات. ومع ذلك فإن شعره لم يكن كله مداعبات كما يدعي البعض.

نشأ في بيت علم ودرس مع أخيه الشيخ محمد سليمان الجراح النحو ودرس الفقه على أيدي عدد من علماء عصرهما، وكان من أولئك العلماء الشيخ عبدالله الخلف الدحيان العالم والمصلح الكويتي الشهير، والشيخ العالم أحمد عطية الأثري.

يمتاز شعره بالرقة والمتانة في آن واحد، وعلى الرغم من أن هذا الشعر لم يطبع كاملًا في ديوان قبل اليوم فإنه لا يزال متداولًا على ألسنة العديدين من معاصريه، ومن غيرهم، وذلك لجودته ورقته.

توفي عن عمر يناهز الخمسين عامًا، وذلك في شهر سبتمبر لسنة ١٩٥٧م، ولا يوجد تحديد دقيق لسنة ميلاده؛ فقد ذُكر أنه ولد في سنة ١٩٠٦م، كما ذُكر تاريخ آخر لولادته هو سنة ١٩٠٩م.

وكانت للشاعر عدة رحلات إلى الهند ودول الخليج والعراق. وذهب إلى الغوص على اللؤلؤ كما فعل أقرانه آنذاك.

وعلى الرغم من أن هذا الشاعر كان يعاني من المرض لمدة طويلة، وعلى الرغم من ضيقه بذلك، وحساسيته حيال الكثير من الأمور إلا أن له بعض الالتفاتات الجميلة التي تدخل عليه السرور، وبخاصة عندما يكون مع مجموعة من أصدقائه المقربين. فقد تخيل هؤلاء وهو معهم أنهم أعضاء في نادٍ يرتادونه ويجتمعون فيه، أطلقوا عليه اسم نادي الإصلاح، وكان لهم اجتماع يُخصص له يوم السبت، وكذلك ليلته. وكانوا يحرصون على هذا اللقاء الذي يجمعهم كلهم يتبادلون الأحاديث إن لم يكونوا قد اتفقوا على موضوع معين. ولهم في اختيار هذا التوقيت غرض أوجزه لي الخال داوود الجراح عندما سألته عنه بقوله: «كل أفراد مجموعتي كانوا تلاميذ في المدارس الأهلية، (الكتاتيب)، وكان يوم السبت كريهًا على جميع التلاميذ لأنه يأتي بعد راحة يوم الجمعة فيملأ حياتنا في المدرسة عملًا، وأوامر وزواجر. لذا فنحن ننتقم منه في احتفالاتنا هذه، ونجعله يوم فرحة بعد أن كان يوم شقاء».

ويقول: «وبمثل هذه الليلة وهي ليلة السبت من كل أسبوع يكون انعقاد الجلسات وإلقاء ما تجود به القرائح من نظم ونثر في شتى الموضوعات.

وليلة السبت وافت وهي مشرقة
وَبَدرُها بيّن والله هادينا

فكم لنا في ليالي السبت من طُرَفٍ
مُسَجَّلات بنور من مساعينا

ومن القصائد التي قالها الشاعر الجراح في حفلات ليلة السبت القصيدة التي مطلعها:

السبت أقبل باسمًا بوجوهكم
والبشر خَفَّ بموكب أنتم بهِ
يا أيها الإخوان أهلاً مرحبًا
حياكم الوردُ النديُّ بطيبه

وفي حفل آخر، قال قصيدة مطلعها:

يا ليلة السبت عودي بالهنا عودي
وجدّدي الأنس فينا أيّ تجديد
وشتّتي شَمل أفكار قد اجتمعت
وبدّدي جيش همّ شرّ تبديد
ويا أخا الهمّ إضحك وابتسم أبدًا
تقطيب وجهك هذا غير محمود

وفي ليلة من ليالي شتاء سنة ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م كانت الكلمة الرئيسة للقاء المقرر هي التي ألقاها الشاعر، وقد كانت عن التمثيل اعتمادًا على أن النادي له «في الخيال» فرقة تمثيلية تُخططُ للقيام بتقديم عدد من المسرحيات النافعة.

وهكذا نجد أن لقاءات الرفاق كانت ذات تنظيم وذات هدف، ولكن هذا التنظيم محكوم بالخيال والمبالغة، فكأن النادي حزب سياسي ينظر لكثير من الأمور، ويقوم بكثير من الأعباء، على حين أن الأمر لا يعدو لقاء بريئًا بين مجموعة من الأصدقاء الذين حددوا للقائهم موعدًا اتفقوا عليه، وهدفًا يجمعهم حيث

يقولون في لقاءاتهم البريئة هذه ما لا يقولونه علنًا، فصاروا يقومون - بشيء من الإسقاط - بالتعبير عن كثير من الآراء في المسائل العامة دون حرج.

والحقيقة أنه - كما قلنا من قبل - ليس هناك نادٍ بمعنى الكلمة، إن هي إلا لقاءات تتم ليلة كل سبت تُسعد الأصدقاء وتشحذ قرائحهم، وتكون علاجًا لما علق في نفوسهم عن يوم السبت أثناء وجودهم في مدارسهم عندما كانوا صغارًا، إضافة إلى أن عدد هؤلاء كان قليلًا لا يمكن أن يكوّن جمعية أو حزبًا على الصورة التي نقرؤها في الأوراق المختلفة عن تلك الفترة وأنشطتها.

هذا ويبدو أن استثقال يوم السبت أمر قديم؛ فها هو إبراهيم الموصلي المغني جليس الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٤٩هـ - ١٩٣هـ - ٧٦٦م - ٨٠٩ م) يقول: «سألت الرشيد أن يهب لي يومًا في الجمعة (يقصد في الأسبوع) لا يبعث فيه إليّ بوجه ولا بسبب، لأخلو فيه بجواريّ وإخواني». فإذن لي في يوم السبت، وقال لي: «هو يوم استثقله..».

جاء ذلك في كتاب الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني ج٥ ص٢٣١، طبعة دار الكتب المصرية.

وكما كان الشاعر داوود سليمان الجراح مجيدًا في قول الشعر، فقد كان نثره لا يقل جودة عن شعره، كان يكتب كثيرًا وخاصة في رسائله التي يرسلها إلى أصدقائه، وكانت رسائله إلى صديقه جاسم النصر الله مطولة في كثير من الأحيان، وهي تحتوي على معلومات كثيرة، وإشارات لغوية وتاريخية وفوائد لا حصر لها، كل ذلك بأسلوب رقيق وإنشاء رائق.

وله إلى جانب ذلك كتابات متعددة في موضوعات مختلفة منها هذا الموضوع الذي نقدمه هنا، وقد كتبه تحت عنوان «الجراد وما أدراك ما الجراد» ونشرته

مجلة المنزل التي كانت مجلة محدودة التوزيع لأنها كانت تكتب باليد، وكان يرأس تحريرها الأخ الدكتور مرزوق يوسف الغنيم. وفي المقال المشار إليه حكاية له مع تجربة قديمة حول الجراد. وفيه يقول:

«أيُريب عينَك أن تراني كالذي
سقط الجراد فغال ناضر غرسه»

بمناسبة وجود الجراد هذه الأيام بطرفنا أورد هذه القصة الطريفة أو غير الطريفة لقراء المنزل الكرام. في سنة من السنين الماضية التي اخترمت من أعمارنا صادف مرورها أيام جراد، وقد أظلم الليل والجراد يجثم على سماء الكويت، وكان حديث الناس في تلك الليلة، وقال من قال إنه نزل على ساحل البحر في الشويخ، فعزمت أنا وحمد النفجان وعبدالمحسن رقيطه، وهما موجودان على قيد الحياة فاسألوهما إن لم تصدقوني، فأخذنا ما يقارب من خمسين خيشة وثلاث درازن ميابر وربطة (خيط) سوتلي، وكان العزم أن نذهب قبل الفجر، ولكننا مع أحلام صيد الجراد وملء الخياش وخياطتها طال النوم وتأخرنا إلى طلوع الفجر وصلينا الفجر وخرجنا، وكلما تراءى لنا شبح أسود ظنناه جرادًا واتجهنا نحوه وإذا هو ليس بجراد، وهكذا إلى أن وصلنا الجسرة الطويلة محل الثانوية اليوم، وهذه الجسرة لي فيها أشعار كثيرة ليس هذا محلها الآن ولكن منها:

جسرة ليس يجسُرُ الصبُّ يدنو
من حماها تذللا لهواها
يا خليليَ عرِّجا بي عليها
واسألا الهَرَمَ عن أريج هواها

ولي قصيدة أخرى حينما بني السور:

يا جسرة قتلت بالصد مضناها
والصد أمل أن يمضي بلقياها

ولي من غيرها:

كأن صخرك صخر حين أمدحه
قد كنت في كثرة الأشعار خنساه

ولنعد إلى الموضوع قبل أن يضيع:

«ولقد أعيانا حمل الخياش وباقي الأغراض، وضعنا ما علينا من حمل والبرد قد حسن رؤوسنا بدون أجرة، هذا أكثر ما حصلنا يا جماعة، فأخذ الأخ حمد النفجان يضحك بضحكته المعهودة أيام زمان، ولقد سمعت ضحكته ليلة من ليالي الصيف وأنا نائم في البيت وهو في سكة ديوان النفيسي ولكن يا جماعة السيارات ليست موجودة في ذلك اليوم يا ليتها إلى اليوم ما وجدت فأوقدنا النار واصطلينا عليها ورجعنا بخفي حنين».

كان الجراد في الكويت من المأكولات التي يحرص الناس على جلبها وأكلها عندما يحين موسمه في أوقات ازدهار الربيع وأواخر فصل الشتاء، وكان أكثر الأهالي يخرجون لصيده عندما يهبط في المساء بعد أن كان محلقًا في الجو طوال النهار، ولهم في صيده طرق ذكر الشاعر شيئًا منها عندما تحدث عن تجربته في صيد هذه المخلوقات التي كنا حريصين على أكلها، ولا يخلو هذا الموسم من الفائدة المادية؛ فهناك عدد من الأهالي ينتهزون الفرصة فيصطادون كمية منه تباع حية في ساحة الصفاة، وبعضهم يقوم بوضعه مع الماء والملح في قدور يشعلون النار من تحتها حتى إذا نضجت توجهوا بها إلى حيث يقومون ببيعها وزنًا.

هذا وللشاعر كتابات كثيرة في المجلة التي ذكرناها. إذ كانت مجالًا للتعبير له. وهو مشارك في كل عدد من أعدادها بمقالة أو قصيدة أو بشيء من الطرائف والنوادر التي يختارها من قراءاته المتعددة.

ومن الأمور التي تلفت النظر ضمن آثاره كراس صغير جمع فيه الكثير من الاختيارات الأدبية واللغوية والشعرية والتاريخية. وهو يدل على مدى اتساع قراءاته، وعلى اهتمامه بتدوين كل ما يعجبه خلال ذلك.

جمع اختياراته في هذا الكراس الصغير، وكتبها بخط واضح جميل، وقد جاءت الموضوعات متسلسلة بشكل يوحي باهتمامه بما يطلع عليه من معلومات، وما هذا الكراس إلا تخزين لهذه المعلومات بحيث يعود إليها بسهولة ويسر عندما يحتاج إلى شيء منها.

بدأ الكراس بأبيات تحتوي على نصائح، ثم نقل عن ابن المشرف أسماء الخلفاء من بني أمية مع بيان السنوات التي قضاها كل منهم في الحكم. ثم أورد صفحة تحتوي على فوائد تتعلق بالطرق الكتابية، وأسلوب توجيه الرسائل.

ثم قصيدة (أرجوزة) يغلب على الظن أنها من شعره وهي تحكي قصة ضياع نعال في المسجد، وسماها (النعال المسروقة). كان يصلي في مسجد البدر، وعندما انتهت الصلاة وجد نعالًا قديمة بالية في مكان نعاله وذهب إلى المؤذن (بلال) لكي يطلب إليه التعريف بالنعال الموجودة وطلب النعال الذاهبة ولكن دون جدوى:

خَلَّفَ لي الخبيث نعلًا بالية

وارِثُها من العصور الخالية

لم يُبق منها الدهر إلا إسمَها

ولا صروف الدهر إلا رسمها

ثم أورد قصة تشبه ما هو فيه وهي قصة (بهلول) وفي آخر الأرجوزة يقول:

وهذه قضية النعال

جئت بها بأفصح الأقوال

أنصح فيها كل شهم ماجد

أن يحفظ النعال في المساجد

هذا ولم نضع هذه الأرجوزة ضمن شعره لعدم إشارته في هذا الكراس صراحة إلى ذلك.

وبعد انتهائه من ذلك أورد خمس صفحات تحدث فيها عن كيفية إنشاء الرسائل وآدابها، ثم عاد إلى الشعر فاختار أبياتًا لأبي الحسين أحمد بن منير الطرابلسي، وهو من شعراء أواخر القرن الخامس الهجري وأوائل السادس للهجرة، وهي أبيات غزلية رقيقة.

ثم نقل عن كتاب «وفيات الأعيان» لابن خلكان (الجزء الأول) مجموعة من التراجم اختصرها اختصارًا شديدًا، وكان للإمام أحمد بن حنبل والإمام الشافعي والإمام مالك نصيب من ذلك، ثم ألحق بأولئك ذكر عدد من العلماء والأدباء والشعراء المشهورين.

معلومات:

- زميلاه حمد وعبدالمحسن كانا على قيد الحياة، ولكنهما توفيا بعد ذلك.
- الخيشة: كيس من خيوط (الجوت) يستعمل للتعبلة.
- الميابر: جمع ميبر وهوابرة كبيرة.
- السوتلي: نوع من الخيوط.
- الثانوية: يقصد ثانوية الشويخ التي حلّتْ الجامعة في محلّها.
- الهرم: شجيرات تنبت في السبخات.
- حَسّن: حلق.

ومما ينبغي أن نشير إليه أخيرًا هو بعض أغراض شعره التي تدل على اهتماماته الخاصة أو على تجربته في الحياة، لقد عاش كما عاش الكثيرون فذهب إلى الغوص في مواسمه، وقام برحلات صيد الأسماك مع أصدقائه، وتحدث عن وطنه حديث المحب الوفي، وله في كل ذلك قصائد رقيقة.

له في الغوص قصيدة طويلة ذكر فيها عددًا من زملائه المشاركين له في هذا العمل المضني، وتحدث كذلك عن كافة مناطق نمو المحار الذي يفترض أن يكون مأوى اللؤلؤ.

وقد بدأت قصيدته بذكر وضعه في ذلك المكان بعيدًا عن أحبته، وعن أصدقائه، وعن وطنه، وهو - أيضًا - يندب حظه الذي يسير به إلى الوراء ويعتبر ذلك من آفات الخذلان:

صبرًا على نُوبِ الزمان فإنها
مخلوقة لتَفَرُّق الأخدان
بَعُدَ المزار فلا سبيل إلى اللقا
لم يبق إلا صفقة الندمان
وإذا رأيت الحظ يمشي القهقرى
فاعلم بُليت بآفة الخذلان

وكانت له رحلات إلى صيد السمك في منطقة الوطية المعروفة إلى اليوم، حيث يصطاد السمك مع أصدقائه ثم ينامون على الساحل إلى الصباح:

يا صاح سل فتية بالرمل قد باتوا
أهاجهم من طيور الأيك أصواتْ
لو كابدوا الشوق مثلي في الغرام لما
ذاقوا المنام فإن القوم أموات

وما هذا الشوق وما ذلك الغرام إلا إلى الحداق:

إني أمرؤ كلف مشتاقُ ذو شغف
إلى (الحداق) فما قولي خرافات

وفي قصيدة وطنية كان يتحسر فيها على وطنه ويرى ما حل به فساد، حيث يستبعد الحر الشريف ويقرب المنافق الدجال:

والحر أضحى قابعًا في بيته
من غير ذنب موجب لعقاب
لا يستطيع بأن يُغَيِّر منكرًا
أو أن يُشير لحاجة بخطاب
لهفي على وطني العزيز تغيّرت
حالاته وغدا من الأسلاب

لقد توفي هذا الشاعر المبدع في سنة ١٩٥٧م كما سبق أن ذكرنا، وكانت الأمور في إبان حياته أفضل بكثير مما هي عليه اليوم، وأظن أنه لو عاش بيننا في هذه اللحظات لتقطع ألمًا على وطنه العزيز الذي صار يعاني من بنيه أكثر مما يعاني من أعدائه. والله المستعان.

أرجو أن يكون فيما قدمته هنا ما يكفي القارئ الذي سوف يجد المزيد عن شاعرنا هذا في الكتاب الذي صدر عنه.

****

الشاعر الأديب عبدالعظيم بدوي في الكويت[1]

أذكر الأستاذ عبدالعظيم بدوي جيدًا، أذكره مربيًا كما أذكره شاعرًا وناثرًا له قصائد جميلة، وله مقالات متميزة. وأذكر أنه كان نشطًا لا يترك مناسبة تمر في الكويت دون أن يشارك فيها بشعره أو بنثره، ولكن ما أعرفه عنه غير ذلك قليل جدًا.

الأستاذ عبدالعظيم بدوي كان عضوًا من أعضاء البعثة التعليمية المصرية، إذ كان معارًا من بلده مصر لكي يعمل في الكويت وكانت المجموعات الأولى من المعارين على مستوى رائع من حسن الأداء، ومن المشاركة مع غيرهم في كل نشاط يطرأ، وهذا الرجل واحد من ذلك الرعيل الذي قدم إلى الكويت في السنوات الأولى من خمسينيات القرن الماضي، وسرعان ما بدت مواهبه الشعرية والنثرية، ولفت الأنظار ما كان يُلِمُّ به من معلومات وافرة حَبّبَتْ إليه الجميع وقرّبتْهم منه.

ونحن اليوم نشعر بالأسف الشديد أننا لا نعرف الكثير عنه فليست لنا معلومات عن بداياته ولا دراسته وباختصار فإننا نفقد ما يدلنا على سيرته الذاتية، ولاشك في أن كل هذا كان موجودًا في «ملفات» دائرة معارف الكويت، ثم وزارة التربية، ولكن هناك من الموظفين من لا يسره أن يُبقي على شيء من الماضي قد ترجع إليه الأجيال القادمة فأبيدت أوراق كثيرة تخص أولئك الذين عملوا في الوزارات منذ ثلاثينيات القرن الماضي، وهذا أمر يحز في النفس ويؤلمها أكثر أن

(1) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠/٧/٢٠١١م.

هذه العادة الذميمة لا يقتصر وجودها على بعض العاملين في وزارة التربية بل هي تعم كافة الأجهزة الحكومية فليس عندنا أي سجل أو «ملفّات» تخبرنا عن العاملين الأوائل، والأدهى من ذلك أن بعض الوزارات أو الدوائر الحكومية قبلها كانت تطبع كتيبات حول أعمالها فيها دعاية وفيها إرشاد وتوجيه، وكل هذه الكتيبات قد زالت من الوجود ولا تحتفظ أية مؤسسة حكومية اليوم بشيء مما أصدرته في الماضي.

وهذا نداء نوجهه من هنا ندعو به المسؤولين عن جميع مؤسسات الدولة إلى العناية بهذا الأمر، وتكوين مجموعة من البيانات عن ماضي كل مؤسسة تشتمل على ذكر أعمالها والرجال الذين مارسوا عملهم فيها، فهذا تاريخ مهم يجب ألا يهمل، بل وعلى المختصين استدراك ما فات بجمع كل ما يمكن الحصول عليه من أخبار كل دائرة حكومية ولو عن طريق جمع قصاصات الصحف القديمة أو عمل استطلاعات توجه من خلالها الأسئلة إلى قدامى العاملين، ولنا فيما حدث عند إعداد «موسوعة تاريخ التعليم في الكويت» أسوة حسنة، فقد كان جهد تجميع الوثائق والمعلومات السابق على صياغتها جهدًا مهما أدّى إلى الحصول على نتيجة مبهرة.

تخرّج عبدالعظيم بدوي في كلية دار العلوم، واشتغل فورًا بالتدريس أسوة بزملائه من خريجي هذه الكلية العريقة التي خرجت أعدادًا كبيرة من المتخصصين باللغة العربية وآدابها فيهم عدد من الكويتيين، منهم الأستاذ عبدالله إبراهيم المفرج وكاتب هذا المقال. وبعد أن أمضى عبدالعظيم بدوي بضع سنوات اكتسب فيهن خبرة بالتدريس تقدم بطلب الإعارة وكان نصيبنًا ونصيبه معًا أن يُعار إلى الكويت. ولقد أمضى عدة سنوات هنا كان فيها نشطًا في كل المجالات التي لها علاقة بالشعر والكتابة بصفة عامة وبالتدريس الذي جاء إلى الكويت من أجله. وكان عمله في الكويت بالقسم الثانوي بالمدرسة المباركية، وعندما افتتحت مدرسة

الشويخ الثانوية انتقل إليها، وقد وجدت في إحدى الكتابات أنه كان يدرس فيها حتى سنة ١٩٥٨م، ومنها انتقل إلى توجيه اللغة العربية الفني بدائرة المعارف فوزارة التربية والتعليم فيما بعد.

وعندما انتقل الأستاذ بدوي من التدريس في ثانوية الشويخ إلى ديوان دائرة معارف الكويت، كانت له بذلك فرصة شعرية استطاع من خلالها أن يبرز إنتاجه الشعري، لأن الدائرة كانت تضم عددًا من الشعراء أذكر منهم الأستاذ عبدالمحسن الرشيد والأستاذ أحمد أبو بكر والأستاذ أحمد عنبر وكان الثلاثة يتبادلون الأشعار، ويثير هِمَمُهُم ما يستمعون إليه منها. ومن هنا شارك الأستاذ بدوي بالمناسبات الاحتفالية.

بعد كل ما تقدم أسوق هنا بعض اللمحات عن أعمال هذا الرجل في الكويت، وهي أعمال تذكر له بالخير إذ لم يُضيِّع وقتًا دون أن يستفيد فيه أو أن يُفيد.

● في سنة ١٩٥٩ أصدرت دائرة معارف الكويت بالتعاون مع دائرة الصحة العامة مجلة تثقيفية صحية بأسلوب تربوي قصد منه إثارة اهتمام الطلاب والطالبات بالصحة بصورة عامة وبخاصة الوقاية من الأمراض عن طريق النظافة واكتساب العادات الصحية السليمة، ولقد استمر صدور هذه المجلة تحت اسم: «مجلة الصحة المدرسية حتى شهر مايو لسنة ١٩٦١، وقد سبق لنا نشر مقال عن مجموعة الأعداد التي صدرت من هذه المجلة ضمن «الأزمنة والأمكنة».

كان الأستاذ عبدالعظيم بدوي موجهًا تربويًا بدائرة المعارف حين بدأ صدور مجلة الصحة المدرسية، فكان أن اختارته هذه الدائرة ليكون عضوًا في هيئة إدارة المجلة، وكان معه عدد من الأطباء والمربين، ولقد كان استمراره في هذه الهيئة إلى وقت توقف المجلة عن الصدور دليلًا على الحاجة إلى خبرته التربوية في هذا العمل الذي له في الجانب التربوي دور كبير إضافة إلى الأهمية الصحية التي من أجلها صدرت المجلة المذكورة.

ولم يكتف الأستاذ عبدالعظيم بدوي بتحمل مسؤولية إدارة المجلة مع زملائه، بل شارك بالكتابة فيها، وقد ورد له في مجموعة الأعداد التي طبعها مركز البحوث والدراسات الكويتية مقالان أحدهما بعنوان «ذات النطاقين: أسماء بنت أبي بكر» وهي صحابية جليلة لها في تاريخ الإسلام دور كبير. ولقد ذكر الكثير عنها بأسلوب راقٍ، وعبارات سهلة يستطيع الصغار استيعابها بيسر، واستخلص في النهاية العبر التي نحصل عليها من الاطلاع على سيرة ذات النطاقين العطرة.

وخرج في المقال الثاني عن هذا الطريق ليكتب عن امرأة أمريكية نالت شهرة كبيرة وضرب بها المثل في قوة التحمُّل والشجاعة والصبر على الأحوال غير الطبيعية التي عاشتها هذه المرأة. هي: هيلين كيلر، التي كانت مكفوفة البصر وكانت صماء ومع ذلك فقد اجتازت عقبات الإعاقة، وتعلمت وصارت ذات شَأْن في بلادها، وقد قدم الأستاذ عبدالعظيم بدوي لمقاله هذا بقوله: «إليكم يا أبناءنا وبناتنا هذه القصة العجيبة من قصص الكفاح المر والشجاعة التي لا مثيل لها، والصبر الذي لم يشهد التاريخ البشري له نظيرًا».

لقد كانت العبرة هي المراد مما كتبه صاحبنا في مقاله الأول، ثم في مقاله الثاني، ولقد دلّ على أن روح المربي هي التي تمسك بأنامله لكي تصوغ هذه المعلومات وتستخلص منها ما يدل الأبناء والبنات إلى السبل التي إن ساروا عليها أدركوا آمالهم وحقوقهم.

● نشرت مجلة الرائد التي كان يصدرها نادي المعلمين في الكويت موضوعًا في عددها الصادر في اليوم الأول من شهر أكتوبر لسنة ١٩٥٢م، تضمن تفصيلًا لما دار في المهرجان الشعري الذي أقامته دائرة معارف الكويت بمناسبة رأس السنة الهجرية، وكان على رأس الاحتفال الشيخ جابر العبدالله الجابر الصباح نائبًا عن والده رئيس المعارف. وقد حضر المهرجان عدد كبير من محبي الشعر، وقام عدد

من الشعراء بإلقاء قصائدهم التي نظموها لهذه المناسبة الكريمة، وجرى تقديم تمثيلية مناسبة.

شارك من الشعراء يوم ذاك كلٌّ من الأساتذة عبدالعظيم بدوي ورياض هلال وأحمد أبوبكر إبراهيم وعبدالله الدشلوطي وأحمد عنبر وراشد السيف، وكلهم من العاملين في دائرة معارف الكويت. واشترك في الحفل قارئان للقرآن هما محمود ربيع ومحمد البحيري وكلٌّ منهما مدرس في المعهد الديني وقد سعدت بتلقي القرآن الكريم على يديهما. وكان رياض هلال المذكور ضمن الشعراء وكيلًا للمعهد الديني، وهو من رجال الأزهر الشريف المعارين للكويت، وله شعر جيد واهتمام كبير بطلبة المعهد و بخاصة من يحس فيه منهم بادرة حب للأدب وللشعر، ولم تنشر مجلة الرائد إلا قصيدة واحدة من القصائد التي ألقيت في المهرجان هي قصيدة أحمد أبوبكر إبراهيم ولذا فقد حُرمنا من الاطلاع على قصيدة الشاعر عبدالعظيم بدوي.

ولم تكن مشاركته الشعرية في هذا المهرجان هي الوحيدة من نوعها، فقد مرت بالبلاد فرصة أثارت همم الشعراء واستفزت قرائحهمْ، وهي فرصة الاحتفال بغرس شجرتين جاءتا هدية رمزية من مصر وتم غرسهما بحضور الشيخ عبدالله الجابر الصباح في ثانوية الشويخ، وقد تناولت الرائد هذا الموضوع بإسهاب، وذكرت ما ألقى فيه من خطب وأشعار. وقد ذكرت المجلة أنه بعد انتهاء الاحتفال توجه الجميع.. إلى تناول العشاء على مائدة الشيخ عبدالله الجابر الصباح في قصره، وبعد العشاء جاء دور الأستاذ عبدالعظيم بدوي لكي يلقي قصيدته التي أبدعها في هذه المناسبة.

- ولكن مجلة الرائد نشرت له ثلاث قصائد هي:

١ - أولى القصائد جاءت تحت عنوان: «عالم جديد» وكتب تحت العنوان عبارة تقول: «من أحلام المواطن العالمي» وهو يتخيل في قصيدته هذه عالمًا جديدًا مختلفًا عن العالم الذي عاش فيه فهو عالم:

تشرق الشمسُ في حواشيه رضوى
ويرف الزيتون غض الإهابِ
وتثوب القلوبُ لله ظمأى
لارتشاف السنا من المحراب
ويروق الجمالُ في كلِّ عينٍ
ويطيب الهوى ويحلو التصابي
وأرى العدلَ والإخاءَ يثوبان
إلى الأرضِ بعد طولِ اغتراب

ويستمر في قصيدته ذاكرًا هذا العالم المختلف الذي ليس فيه جوع ولا حزن، ولا يسمع فيه قول الزور إنما هو كما قال:

هـهنا نسمعُ البلابلَ في الدو
حِ ويشدو الحمام فوق الروابي

ثم يدعو العالم المتخيل لكي يأتي إليه عاجلًا:

أيـهذا الغد الحبيب تنفس
قبل أن ينطوي بساط شبابي

قصيدة فيها من الخيال والفلسفة، وفيها إبداع يحسه القارئ مندفعًا من قلب شاعر قوي الإحساس.

٢ - كان الشيخ عبدالله الجابر الصباح رئيس معارف الكويت في زيارة له إلى مصر. وقد التف حوله عدد من أعضاء البعثة المصرية التعليمية في الكويت فأقاموا له في نادي المعلمين في القاهرة حفل تكريم يستحقه، وقف فيه الأستاذ عبدالعظيم بدوي ليلقي قصيدة له بهذه المناسبة. وقد بدأ القصيدة بذكر الكويت وحنينه إليها قائلًا إنه خلّف بين ربوعها أشواقه، وإنه عشق مغانيها مع العشاق وإنه يتمثل دائمًا الصحراء والبحر المتلاطم والمنازل الشماء، ثم:

وعشيرة ملء النُّفوس نفوسهم

ووجوههم فياضةُ الإشراقِ

جعلوا الفدافد جنة حين اهتدوا

بهدى الصباحِ النَّاضِرِ الرَّقراق

ثم يقول:

بوركت يا ربع الكويت وبوركت

وثبات شعب للعلا سباقِ

وذكر الشيخ عبدالله الجابر بقوله:

شيخُ المعارفِ عهدنا لك أن نفي

بالعهد معتصمين بالأخلاقِ

إنَّا جنودك في الكويت فخض بنا

للعلم طوفانًا من الأوراق

والقصيدة طويلة ومعبرة، ومع طولها فهي جيدة السَّبْك طيبة المعاني لا يمل المرء قراءتها.

٣ – في سنة ١٩٥٣م وبالتحديد في اليوم السادس عشر من شهر ربيع الأول لسنة ١٣٧٣ هـ. أقام نادي المعلمين حفلًا بمناسبة مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد شارك الشاعر عبدالعظيم بدوي بقصيدة في هذا الحفل قامت مجلة «الرائد» لسان حال النادي المذكور بنشرها آنذاك. وهي قصيدة طويلة تليق بالمناسبة وبصاحبها الكريم، بل هي تكاد أن تحتوي على سرد جمالي لقصة المولد بدأه بقوله:

أترى أنت مسعدي يا خيالي

هل أحث الخطا وأطوي الليالي

أتخطى هام السنين، وأعدو

خائضًا في مناكب الأجيال

أتحدى فيه الزمان، وألقي

عن كياني، وأنتضي أغلالي

لأناجي خلف القرون المواضي

ليلة اطلعت نبي الجلال؟

ثم يستمر في هذا الطريق الذي عبده لنفسه بعبارات شائقة ومعانٍ طوَّف فيها بين الماضي والحاضر، وهو عندما يتحدث عن الحاضر فإنما يتحسر على الحال التي وصل إليها المسلمون حتى صاروا هدفًا لأعدائهم:

ضجت الأرض بالمآسي وغصّ الـ

بر والبحر من ضحايا الضلال

– ولئن كنا قد تحدثنا عن نشاطه الصحافي وكتاباته التي قدمها لمجلة «الصحة» المدرسية، فإننا نراه لا يتأخر عن الكتابة لمجلة «الرائد» فهذا شعره الذي قدمناه دليل على ذلك ولكنه كتب فيها مقالين نثريين هما:

١ – مقال تحت عنوان «صورة» وهو – بالفعل – يقدم صورة لشخص ثقيل الظل مهذار يغشى مجالس الناس لكي يرمي إليهم ما في جعبته من أكاذيب، وهم في ضيق شديد منه، ولكنه غير عابئ بذلك بل يظنهم من المعجبين به وبأحاديثه السمجة التي يظنها لطيفة مقبولة، إنه ما إن يقبل على مجلس من تلك المجالس، ويبدأ أحاديثه التي لا تنتهي وكلها هراء لا طائل من ورائه حتى تجد الجالسين يتململون في مقاعدهم ويحاولون فض جلستهم للتخلص منه. وفي ختام هذا المقال الانتقادي يقول الكاتب «ليت للناس مرآة يبصرون فيها نفوسهم، كتلك التي يبصرون فيها وجوههم».

ويتكون المقال من صفحتين من صفحات مجلة الرائد.

٢ - والمقال الثاني فيه بحث أدبي تناول فيه عبدالعظيم بدوي موضوعًا مطروقًا ولكنه أجاد في عرضه، عنوان المقال هو «خصومات أدبية حول المتنبي». والكاتب يرى أن هذا الشاعر سيئ الحظ فهو عندما جاء من الكوفة إلى اللاذقية تلقاه الناس بتهمة ادعائه النبوة، وكانت نتيجة ذلك السجن الذي ما كاد ينجو منه، ثم تتفتح أمامه الدنيا حتى بلي بالأمير الشاعر الفارس أبي فراس الحمداني الذي صار يكيد له ويدفع عددًا من الناس إلى معاداته والحط من قدره، مما اضطره إلى الفرار إلى مصر، وهناك لقي من حسد الحاسدين مثل ما لقي في كنف سيف الدولة حتى لقد تمنى الموت، وذكر ذلك في قصيدة مطلعها:

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيًا

وحسب المنايا أن يَكُنَّ أمانيا

وقد جرت حياة المتنبي على هذا المنوال إلى أن قتل.

وخلاصة ما جاء في المقال الذي نتحدث عنه أنه يعرض طبيعة تلك الخصومات وأسبابها، ويعزوها إلى طبيعة المتنبي وأخلاقه، فهو معتز بنفسه إلى درجة لا يطيقها أعداؤه، وكان الكاتب يرى أن من طباع المتنبي الغدر، وعدم التسامح ولذا فهو يقول:

إذا صديق نكرتُ جانبه

لم تعيني في فراقه الحِيَلُ

في سعة الخافقين مضطرب

وفي بلاد من أختها بدل

وكان في نية عبدالعظيم بدوي استكمال هذا المقال في عدد قادم من الرائد، ولكن ذلك لم يحدث لسبب غير معروف.

- كان من مشاركاته تقديمه لعدد من الأناشيد المدرسية، وكانت دائرة معارف الكويت قد أعلنت عن مسابقة عامة لكي تحصل على عدد من الأناشيد الوطنية والدينية والمعبرة عن البيئة، وتقدم لهذه المسابقة عدد من الشعراء جميعهم من العاملين في الدائرة المذكورة، وكانت الأناشيد التي قدمها الشاعر عبدالعظيم بدوي هي التي نالت السبق لأنه فاز بتسع أناشيد من مجموعة الأناشيد المقدمة وعددها أربع وعشرون نشيدًا، وكان عدد الشعراء المشاركين الفائزين في هذه المسابقة خمسة شعراء.

- من أعمال الشاعر عبدالعظيم بدوي في الكويت مشاركته في تأليف بعض الكتب المدرسية المقررة على طلاب المدارس في بلادنا. أطلعني الأخ الأستاذ صالح المسباح المعروف بلقب: «ذاكرة الكويت» على ثلاثة كتب منها، وهذه الكتب هي:

١ - كتاب عنوانه «الجديد في التدريب على قواعد النحو» وقد ألفه بالاشتراك مع الأستاذ أحمد العدواني، والأستاذ أحمد أبوبكر إبراهيم، وراجعه الأستاذ عبدالعزيز حسين، وهذا كتاب قديم يدل عليه أن عمل الأستاذ العدواني كما هو مذكور على الغلاف: مدرس بالمدرسة القبلية الابتدائية. وأن طباعته تمّت في دار المعارف بمصر لعدم توافر وسائل الطباعة عندنا، ولا داعي لعرض ما في الكتاب من موضوعات فهي خاصة بالدرس.

٢ - الكتاب الثاني شبيه بالكتاب الأول: «الجديد في التدريب على قواعد النحو» وهو للمؤلفين أنفسهم بمن فيهم الأستاذ عبدالعظيم بدوي والمراجع الأستاذ عبدالعزيز حسين وقد طبع هذا الكتاب بمطبعة حكومة الكويت سنة ١٩٦١م، وهو للسنة الثانية المتوسطة. ونلاحظ على غلافه أن الأستاذ العدواني صار معاونًا فنيًا في دائرة المعارف، وهذا المنصب هو ما يمكن أن يطلق عليه: نائب المدير.

٣ - أما الكتاب الثالث فهو: «الجديد في المطالعة» وهو لتلاميذ السنة الأولى بالمدارس المتوسط، ولم يتغير المؤلفون ولا المراجع عما ورد في الكتابين السابقين، وهو من مطبوعات مطبعة حكومة الكويت، وطبعته هذه هي الثانية للسنة الدراسية ١٩٦٢ - ١٩٦٣م، ويلاحظ على الغلاف أن دائرة معارف الكويت قد صارت: وزارة التربية والتعليم.

وعندما طلبت دائرة معارف الكويت من الأستاذ بدوي أن يشارك في تأليف بعض الكتب المدرسية فإنها تعلم أنه كان جديرًا بهذا التكليف لأنه قد خاض تجربة مماثلة في وطنه، فقد شارك في تأليف كتب مدرسية مقررة على تلامذة مصر كان منها:

- **التوجيه في اللغة العربية، نشرته مكتبة النهضة المصرية.**

- **والتوجيه في الأدب والنصوص والبلاغة والنقد والقراءة والنحو، وقد صدر عن المكتبة ذاتها في سنة ١٩٦٩م.**

- **مذكرات في الأدب والنصوص والنقد والبلاغة والعروض، طبعته وزارة التربية والتعليم هناك.**

تعست العجلة...

نعم فلقد قيل هذا في الأمثال العربية. لأنني كنت قد ذكرت أنني لم أجد شيئًا عن حياة هذا الشاعر، ولكني - أخيرًا - وجدت هذا الشيء. وإن كان لا يغني كثيرًا عما آمله من معرفة بخبايا حياة الشاعر وأحواله، وإن كان - أيضًا - بعيدًا عن أذهان العاملين في مجال التربية هنا بينما كان علمًا من أعلامها لمدة تسع سنين شارك في التدريس وفي التوجيه، وفي المناسبات يلقي فيها شعره، ويُغني الساحة الأدبية بما يكتب وينشر.

وجدت في كتاب: «معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين» أن اسم الرجل كاملًا هو: عبدالعظيم بدوي عبد الونيس، وأنه ولد في ضاحية من ضواحي محافظة الجيزة المصرية تسمى: المنصورية، وتوفي في القاهرة. ولم تثبت الموسوعة تاريخ ولادته ولا تاريخ وفاته. إلا أنها وضعت تحت إسمه في عنوان الفقرة التي كتبتها عنه: ١٩١٣ - ١٩٧٣م مكتفية بهذا في الإشارة إلى تاريخ مولده ووفاته. ثم أضافت أنه حفظ القرآن الكريم في كُتّاب القرية التي ولد فيها، ثم التحق بالتعليم الأزهري في سنة ١٩٢٦م، وتدرج في مراحله إلى أن حصل على الشهادة الثانوية الأزهرية، وبعد هذا التحق بكلية دار العلوم وتخرج فيها حاصلًا على شهادتها العالية في سنة ١٩٣٩م.

وذكرت الموسوعة أنه فور تخرجه صار مدرسًا في عدد من المدارس إلى أن رُقي إلى وظيفة موجه ثم موجه أول وبعدها صار موجهًا عامًا للغة العربية بمنطقة جنوبي القاهرة ومنها انتقل للعمل معارًا في الكويت بدءًا من سنة ١٩٥٢م وكانت إقامته في الكويت لمدة تسع سنين.

وذكرت الموسوعة بيانًا عن أشعاره المنشورة في كل من مجلة «النهضة الفكرية» ومنها تمثيلية شعرية بعنوان «ضحية الوشاية» نشرها في سنة ١٩٣٤م، وتولت مجلة «أبوللو» الشهيرة نشر عدد من قصائده، ولذا وجدناه يضع فوق عنوان إحدى قصائده المنشورة في مجلة الرائد عبارة: «جماعة الشعر» للدلالة على علاقته بهذه المجموعة المرموقة التي سعى إلى إبرازها الدكتور أحمد زكي أبو شادي، وأصدر لها مجلة «أبوللو» حتى أطلق على كتابها لقب: شعراء أبوللو.

وجاء في الموسوعة - أيضًا - أن للشاعر عبدالعظيم بدوي ديوان شعر مخطوط تحتفظ أسرته به، وياليتنا نجد من أبناء الكويت من يتعهد بنشره ففيه - بالتأكيد - قصائد تهم الكويت قالها صاحبنا على مدى تسع سنين أقامها بين ظهرانينا.

وفوق هذا فإنه قد كتب بعض قصص الأطفال، وشارك في تأليف عدد من الكتب المدرسية، كما رأينا.

لقد جاءت في موسوعة البابطين فوائد كثيرة، ولكنها لا تشفي الغليل ولا تلقي الضوء على الفترة التي قضاها الشاعر في الكويت، وهي الفترة التي ذكرت أنها صارت الآن مجهولة لعدم احتفاظ الجهة التي كان يعمل بها بالأوراق الخاصة به وهي كثيرة فيما أظن. ومع ذلك فإنني أقدم شكري الخالص للأستاذ الأخ عبدالعزيز البابطين فقد صارت موسوعته سجلًا مهمًا يحفظ كل ما يتعلق بالشعراء العرب وأعلم علم اليقين أن الموسوعة ملتزمة بنظام خاص فيما يتعلق بعرض موضوعاتها الخاصة بالشعراء ولذا فهي لا تستطيع بموجب ذلك أن تقدم عن شاعرنا هذا أكثر مما قدمت.

وبعد فهذا هو الشاعر المربي الأستاذ عبدالعظيم بدوي الذي عاش في الكويت وعمل بها، وأحبها كما أحبه أهلها فأمّا أنه أحبها فدليل ذلك ما ورد في شعره مما أشرنا إليه في هذا المقال. وأما أن أهلها قد أحبوه فإن هذا الذي نقدمه هنا دليل على محبتنا له وتقديرنا لجهوده.

رحمه الله تعالى.

****

استدراك

الأخ الصديق الأستاذ صلاح الدين محمد بريقع من المتخصصين في اللغة العربية وآدابها، وكان مدرسًا في مدارس وزارة التربية منذ بدايات ستينيات القرن الماضي، وكان من المدرسين النجباء الذين تركوا آثارًا طيبة بما خَرَّجُوا من تلاميذ، وهو إلى جانب ذلك غزير العلم كثير الاطلاع[1].

يستفيد منه - الآن - مركز البحوث والدراسات الكويتية بصفته باحثًا فيه. وهو بدوره يثري الأعمال التي تُسند إليه بمعارفه المتعددة، وأنا سعيد أن أراه في أحيان كثيرة إذا قمت بزيارة للمركز المذكور، أو إذا استمعت إلى صوته من خلال المِسَرَّة.

لما كان الأستاذ صلاح مدرسًا قديمًا في الكويت فقد حدثتني نفسي أنه ربما يتذكر الأستاذ عبدالعظيم بدوي ولذا فقد سألته عنه. فقال لي:

أنا أعرف هذا الرجل الطيب جيدًا، فقد كنت في سنة ١٩٦٤م مدرسًا في مدرسة المتنبي، وكنت في أحد فصول هذه المدرسة ذات يوم أقوم بتدريس التلاميذ قواعد اللغة العربية بحسب تخصصي كما تعرف. وفي هذه الأثناء دخل عليّ الموجه الأستاذ عبدالعظيم بدوي، وسأل التلاميذ بعض الأسئلة فأجابوا عليها بإجابات صحيحة سُرّ بها، وعلم أن الجهد المبذول في تدريسهم كان جهدًا طيبًا، فقال في نهاية زيارته كلمة أسعدتني، وجعلتني أشعر بأن ما أبذله في تدريسهم لا يذهب سدى، إذ قال:

(١) انتقل إلى رحمة الله في اليوم الرابع من شهر سبتمبر لسنة ٢٠١٢م، غفر الله له.

- يا أولاد ليس التصفيق للتلميذ المجيد فقط، ولكن الأستاذ المتقن لعمله يستحق التصفيق أيضًا. فصفق هو وصفق الأولاد لكلمته.

وهذا الذي قاله الأستاذ صلاح يدل على الروح الطيبة التي كان يتحلى بها ذلك الموجه الشاعر الأستاذ: عبدالعظيم بدوي، وكانت هذه الكلمة الطيبة بمثابة نبوءة تنبأ بها الموجه لهذا المدرس المجتهد، وسببًا من أسباب تقدمه في عمله التربوي حتى وصل إلى مرتبة الموجه العام للغة العربية بوزارة التربية، قبل أن ينتقل إلى العمل في مركز البحوث والدراسات الكويتية.

****

ملحاق خير

عندما خطر ببالي أن أكتب مقالًا عن الشاعر عبدالعظيم بدوي، لم أكن أملك عنه من المعلومات شيئًا غير أنني حضرت إحدى المناسبات فاستمعت إليه وهو يلقي شعره، وقرأت له قصائد نشرها في مجلة الرائد. ولكنني تذكرت أن الأستاذ الشاعر فاضل خلف كان زميلًا له في دائرة معارف الكويت، فقلت لنفسي هذا مورد عذب لابد وأن أجد عنده ما أريدُ من معلومات أو صور. فاتصلت هاتفيًا به وعرضت عليه ما أعاني من الجدب في المعلومات عن شاعر يعرفه منذ كان في المعارف، وذكرت له أنني أوُّد منه - لو استطاع - أن يكتب شيئًا من ذكرياته معه حتى أجعلها باسمه مع المقال. وقد رد أبو محمد كعادته بالاستعداد لذلك، وأصبح يتذكر معي على الهاتف كثيرًا مما جرى في ذلك الوقت الذي عملا فيه معًا كل واحد منهما في مجاله الذي يزاول عمله من خلاله، ثم وعدني بكتابة كل ما قاله لي.

مرت الأيام وأنا في الانتظار حتى ظننت أن صاحبي قد نسي وعده، وهذا أمر لم يحصل منه أبدًا فهو الوفي دائمًا لأصحابه ولأدبه في وقت واحد. ولم أستطع أن أنتظر كما أنني لم أهاتفه ثانية حتى لا أزعجه. وبدأت العمل حتى اكتمل المقال نهائيًا وزودته بالصور كالمعتاد، وبعد مرور فترة من الزمن على إنجاز ما عزمت على إنجازه، فوجئت بأن الأستاذ فاضل خلف يزودني بورقتين جعل لهما عنوان: «عبدالعظيم بدوي وشيء من ذكرياته». وقد فرحت جدًا بذلك وهذا هو ما كتبه

الأستاذ أبو محمد أضعه في هذا الملحاق شاكرًا له اهتمامه ومبادرته إلى تلبية ما طلبته منه بخصوص صاحبه الشاعر عبدالعظيم بدوي:

يقول الأستاذ فاضل خلف:

«كان عبدالعظيم بدوي من خيرة الإخوان المصريين الذي عرفتهم في حياتي، وقد كان مدرسًا في إحدى مدارس الكويت التابعة لإدارة المعارف في الخمسينيات من القرن الماضي، وكنت ألتقي به عندما كان يزور دائرة المعارف بين الحين والحين فيلتقي بالأساتذة المفتشين الذين يعملون في المعارف لبعض الشؤون التربوية، وفي تلك الأيام بين ١٩٥٢ – ١٩٥٤م تلتقي نخبة من الشعراء في دائرة المعارف سواء أكانوا من المدرسين أو الموظفين الإداريين، وفي أحد الأيام حصل بين الشاعر عبدالمحسن الرشيد وبين مفتش الرسم خميس وهو من مصر، شيء من سوء الفهم، جعل (خميس) يحاول أن يهاجم «الرشيد» بشعر غير موزون، فعرض علي قصيدة ليس فيها بيت واحد صحيح الوزن والقافية، وقد صححت له القصيدة فأصبحت تقرأ بعد أن كانت مشحونة بالكلمات العامية المصرية بالإضافة إلى اضطراب الوزن، وما كاد يقرؤها الرشيد حتى هاج وماج فهاجم المفتش بقصيدة من قصائدة النارية وليس في شعرائنا مثل عبدالمحسن في الهجوم العنيف بالشعر، وبدأت بعد ذلك المعركة التي اشتهرت بين شعراء المعارف، وخاصة بعد أن رد عليه خميس بقصيدة نظمتها له، وتدخل أحمد أبو بكر إبراهيم وهو شاعر مجيد، ثم جاءت المداخلات من أحمد العدواني، وأحمد عنبر وعبدالعظيم بدوي وهو كما قلت من أجل شعراء المجموعة، واستمرت المعركة سنتين، كانت حصيلتها عشرات القصائد، من أجملها قصيدة قالها عبدالعظيم وكان مطلعها:

هاجت الذكرى فطافت بخيالي
ذكريات يا لها مني ويالي

ولو جُمعت في ذلك الوقت لكان لها صيت طائر يستفيد منه قراء هذا الزمان، وإنني بعد كل هذه السنين عندما أستذكر خاصة «بدوي» وحياته لا أنسى لقاء دار بين عباس محمود العقاد وأحد مذيعي مصر، حيث ذكر العقاد عبدالعظيم بدوي، وشيئًا عن بديهته الحاضرة القوية في مناظرة «اشمَعْنا» فقد ذكر عبدالعظيم شيئًا من قفشاته في هذه المناظرة لأن بدوي كان من خيرة من يتحدّون بعضهم البعض في هذه المناظرة في مصر، وكان هذا اللقاء في سنة ١٩٦٢ أو ١٩٦٣م، عندما كنت في تونس وكان ذلك قبل رحيل العقاد بسنة أو سنتين، رحم الله كل من ذكر في هذه الكلمة من الذين فارقونا بلقاء ربّهم الدائم».

****

الحمامُ.. عِشقُ العاشقين[1]

الحمام رمز العشق والغرام، ذلك لأن ملاحظته الدائمة توحي بمقدار المودة التي تسود أزواجه. وهو لذلك محبوب عند الناس دون استثناء. وكان يُرى في كل بيت من بيوت الكويت يربيه الصغار والكبار لا من أجل لحمه ولكن من أجل المتعة في رؤيته وهو يلاعب بعضه بعضًا أو وهو يطير محلقًا في السماء بأنواع من التحليق يُعرف بها كلُّ جنس من أجناسه. ومن أجل هذه المتابعة فإن الناس كانوا يعلقون في أعلى جدران مساكنهم من الداخل صناديق خشبية خاصة عندما يراها الحمام يسرع إلى السكن إليها كل زوج منه في فتحة من فتحات الصناديق حيث يعيش متقيًا الحر والبرد، وحيث يتهيأ له المكان الذي يشهد فيه فراخه عندما يحين الوقت لخروجهم من البيض.

تتابع الأسرة هذه المناسبة المهمة، ويكاد الأطفال يمتنعون عن الذهاب إلى مدارسهم في اليوم المتوقع لفقس البيض، ذلك لأن في رؤيتهم للصغار متعة بينما يهدرُ ذكر الحمام بالهديل سعيدًا بهذه النتيجة التي وصل إليها بخروج نسله إلى الدنيا. ويتابع الجميع هؤلاء الصغار حتى يكبروا وينبت لهم الريش، وينظرون بشغف إلى محاولاتهم الأولى للطيران ويكون هذا الحدث هو موضوع مخاطبتهم في مدرستهم وفي خارجها، فكل الصغار يحبون الحديث عن الحمام ويستمتعون بدورته الحياتية التي تتمثل أمامهم جليًا بالبيض وفقسه وخروج هذه الأرواح الصغيرة، ثم تدرجها في العمر حتى تصل إلى ما وصل إليه الأبوان من اعتماد على النفس في الأكل وفي الشراب وفي الطيران.

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١١/٧/٢٧م.

في المساء وقبل غروب الشمس بما يقرب من الساعة كنا نرى الشباب المحب للحمام، وهو واقف على سطح منزله يثير الحمام حتى يجعله يطير محلقًا فيمتع نفسه بهذا المنظر ويتم ذلك في عدد كبير من المنازل، وكنا نطلق على هذه العملية لفظ «كشاش الحمام» وعلى الشخص: «كشّاش» بتشديد الشين الأولى من هذه اللفظة.

نجد هذا الإعجاب بالحمام، والحب الغامر له عند أكثر الناس، وكان الذين يحرصون على تربية الحمام يتفاخرون بما عندهم منه من أنواع، ويسعدهم أن يعرضوا لأصحابهم الحمام الخاص بهم في أثناء طيرانه. ثم إن عندهم طرقًا شتى في اقتناء الحمام الجيد، ومن هذه الطرق التبادل فيما بينهم، والشراء المباشر، وإن لم يكن فإن سوق الجمعة مفتوح أمامهم يستطيعون عن طريقه أن يجدوا ما يغذي هوايتهم، ويسعدهم بما يريدونه من حمام فاخر.

لم نكن نعرف أن الحمامة رمز للسلام في ذلك الوقت الذي تحدثت عنه، ولكننا نعرف أنها رمز للألفة لما يسود (أسرة) الحمام من ترابط، ولأننا كنا نشعر بما تتمتع به الحمامة من وفاء لأليفها، واطمئنان للعيش معه وممن استعمل اسم الحمامة للتعبير عن المحبة والألفة الإمام الفقيه علي بن محمد بن حزم المتوفي في سنة ٤٥٦هـ - ١٠٦٣م فقد ألّف كتابًا اسمه: «طوق الحمامة في الألفة والألاف» طبع في مصر سنة ١٩٥٠م بتحقيق الأستاذين حسن كامل الصيرفي وإبراهيم الأبياري. وقد قدم هذا الأخير للكتاب بمقدمة لطيفة شاملة تحدث فيها عن المؤلف وعن الكتاب وبيّن الكثير مما يحتاج إليه القارئ المهتم بالأدب وما يتعلق به.

ولما كان المؤلف ملقبًا بلقب الإمام الفقيه فإن بعضهم استغرب تأليفه، لمثل هذا الكتاب الذي يتحدث عن الحب وما يُؤدِّي إليه، وعن الألفة بين المحبين مشبهًا ذلك بالألفة التي تجدها بين الحمام. ولكن هذا الرجل لم يكن من النوع المبتعد عن سواء الصراط بل هو ملتزم بدينه، متمسك بالأوامر والنواهي المفروضة عليه به.

ولو نظرنا إلى آخر بابين من الكتاب لوجدنا أحدهما بعنوان: «قبح المعصية» والثاني بعنوان: «فضل العفاف». إذن فهو يقصد بكتابه هذا إسداء النصح لأولئك الذين يحل بهم العشق، وهو يطلب من هؤلاء ألا يميلوا بأنفسهم إلى المفاسد.

ولقد كانت المدارس النظامية في بداياتها تلقن التلاميذ أشياء عن الحمام فهي تضم في منهج «الأشياء» الذي صار اسمه فيما بعد «العلوم» معلومات عن تربية الحمام وعن سلوكه وأسلوب حياته وتزاوجه وبيضه وفراخه. وهي تزود التلاميذ أيضًا بأشعار متنوعة في مادة تسمى «المحفوظات» يتحدث بعضها عن الحمام، أذكر منها ما هو على هيئة قصة كانوا يعلمونها لنا على شكل حكاية شعرية تنص على أن أم الحمام طلبت من فراخها ألا يخروجوا من العش، ولكنهم لم يطيعوا أمرها فخروجوا ولم يعودوا إذ تخطفتهم النسور فقضت عليهم، وتركت أمهم تنوح لفقدهم وتندبهم.

ومما كنا ندرسه قصيدة كتبها للأطفال أمير الشعراء أحمد شوقي، وهي تحكي قصة حمامة وثق بها سيدنا سليمان عليه السلام لما وجده من خدمتها الصادقة له. واستقامتها في عملها معه. وقد كتب لها رسائل إلى عماله في بلدان متفرقة فحملتها تحت جناحيها وطارت بها ولكنها أرادت بدافع حب الاستطلاع أن ترى ما فيها ففتحتها واطلعت عليها وكان ذلك منها خيانة للآمانة؛ يقول شوقي:

كان ابن داودٍ يقز
رِبُ في مجالسه حمامه
خدمته عمرًا مثلما
قد شاء صدقًا واستقامهْ
فمضت إلى عماله
يومًا تبلغهم سلامه
والكتب تحت جناحها
كُتبت لهم فيها الكرامه

فأرادت الحمقاء تعـ
ـرف من رسائله مرامه
عمدت لأولها وكا
ن إلى خليفته برامه
فرأته يأمر فيه عا
مله بتاج للحمامة

إلى أن نظرت إلى باقي الرسائل، فأجهشت بالبكاء وعلمت أنه لا فائدة لها الآن من هذه الرسائل بعد أن فضتها واطلعت عليها ولكنها اتجهت إلى سيدنا سليمان، فكان بينهما ما يلي:

قالت فقدت الكتب يا
مولاي في أرض اليمامة
لتسرعي لما أتا
ني الباز يدفعني أمامه

ولكن سيدنا سليمان:

فأجاب بل جئت الذي
كادت تقوم له القيامه
لكن كفاك عقوبة
من خان خانته الكرامه

وفي الدروس التي كنا نتلقاها في بداية دراستنا كثير من النماذج غير هذين اللذين قدمناهما هنا، وهي منوعة بحسب الدروس وبحسب الموضوعات وفيها ما هو منثور وما هو من الشعر.

وإذا كنا قد تحدثنا عن أساليب اقتناء الحمام من شراء أو تبادل، فإن من المهم أن نشير إلى أسعار الحمام قديمًا وحديثًا، ولاشك في أن أنواعها هي التي تتحكم

في أسعارها فمنها ما هو غالي الثمن بصورة فاحشة ومنها ما هو عادي لا يجد بائعه فيه السعر الذي يرغب فيه.

ومن المعروف عند مربي الحمام، وهواة جمعه وملاحظة طيرانه أن الطيران هو الفيصل في الأمر فكلما كانت الحمامة قوية الجناحين سريعة الطيران تستطيع النهوض إلى الأعلى بسرعة كبير، وتستطيع أن تتقلب على نفسها وهي في الجو مرات عديدة كان لها السعر الأعلى بين مثيلاتها من الحمائم، ولكنها إن كانت من النوع الذي لا يقدر على أداء هذه الحركات (الطيرانية) فإن سعرها يتدنى حتى يصل في بعض الأحيان إلى الصفر.

نقرأ في صحف الكويت معلومات يبثها مربو الحمام في وقتنا هذا. وقد تحدثوا كثيرًا عن أسعارها وأسعار بيضها وقد أفادني أحد المهتمين بأن السعر السائد للحمامة الجيدة هو ثلاثة آلاف دينار، وكان السعر في أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات من القرن الماضي للحمامة المشابهة يتراوح بين خمسين ومائتي دينار وخمسين وثلاثمائة دينار، ولا نستغرب هذه الأسعار التي خرجت في بعض الأحيان إلى المبالغة فالحمام له سعر بالغ القيمة منذ زمن، فهذا هو كتاب: «المستطرف في كل فن مستظرف» لمحمد بن أحمد الإبهيشي، يتحدث (ج٢ ص٩٨) عن أسعار الحمام قديمًا، والمؤلف قد توفي في سنة ٨٥٠ هـ، وحديثه عن أناس سبقوه إلى الدنيا، يقول: «وللحمام من الفضل والفخر أن الحمامة قد تباع بخمسمائة دينار من الذهب ولم يبلغ ذلك القدر شيء من الطير غيرها» ثم يقول: «ولو حدثت أن برذونا أو فرسًا بيع بخمسمائة دينار لكان ذلك سمرًا» أي من أحاديث السمر، وذكر أن بيضتها تباع بخمسة دنانير ذهبية.

ورد ذكر الحمام كثيرًا في الشعر العربي الفصيح منه والنبطي ولا غرو في ذلك فالحمامة كما ذكرنا كانت رمز المحبة والألفة، والشاعر الذي يثيره الحب،

ويستفزه الجمال لا يمكن أن ينسى هذا الطائر الجميل الذي يجده أمامه، ويتأمل كيف يعيش الذكر منه مع أنثاه في مودة لا تخفى على من يراقبه، ولذا فقد وجدنا من الشعراء من ذكر الحمام في مجال الشكوى من فراق المحبوب، وفي مجال التنفيس عما يحس به من كروب يتعرض لها في دنياه، ويعتبر هديل الحمام نواحا، وفي الوقت نفسه فهو يعجب لهذا الطائر كيف ينوح وهو طليق يطير بكامل حريته من غصن إلى غصن، لا يمنعه أحد، ولا يصده عن غايته إنسان، ويرى الشاعر نفسه أولى بالنواح لما يتعرض له في حياته من مشاق لا يجد لها انقشاعا، فتزيد هذه المقارنة التي يعقدها مع الحمامة من همومه وتدفعه إلى مزيد من النواح والعويل اللذين يعبر عنهما بشعره.

ولا يفوتنا أن نثبت هنا الأبيات التي أخذت شهرة كبيرة بين الأشعار التي ذكر فيها الحمام، وقد عرفها الناس عندما غناها المغني الكبير ناظم الغزالي في أحد الاحتفالات بالكويت وهي أبيات قالها الشاعر أبو فراس الحمداني الذي لا يحتاج إلى تعريف لفرط شهرته. والأبيات هي:

أقولُ وقد ناحت بقربي حمامةٌ
أيا جارتا هل تعلمينَ بحالي
أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا
تعالي أقاسمكِ الهمومَ تعالي
تعالي تري نفسًا لديّ ضعيفةً
تردّد في جسمٍ يُعذَّب بال
معاذ الهوى ما ذقت طارقة النوى
ولا خطرت منك الهمومُ ببال
أيضحكُ مأسورٌ وتبكي طليقةٌ
ويفرحُ محزونٌ ويندبُ سال

وتحمل محزون الجفون قوادمُ

إلى غصنٍ نائي المسافة عالِ

لقد كنتُ أولى منكِ بالدمعُ مقلةً

ولكن دمعي في الحوادث غال

قد يلاحظ القارى فرقًا في بعض الكلمات بين ما هو مكتوب هنا وما يحفظه سابقًا من هذه الأبيات والسبب ان هذا النص منقول عن الرواية المغربية التي حققها الدكتور محمد بن شريفة، وطبعتها مؤسسة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري في سنة ٢٠٠٠م.

ولم يغب ذكر الحمام عن شعر أبي العلاء المعري، فنحن إذا قرأنا قصيدته الشهيرة التي يقول في مطلعها:

غير مُجْدٍ في ملّتي واعتقادي

نوحُ باكٍ ولاترنُّمُ شادي

وجدناه يوجه قولًا يتعلق بموضوع القصيدة إلى الحمامات فيقول:

أبناتِ الهديلِ أسْعِدْنَ اوْعِدْ

نَ قليلَ العزاءِ بالإسعادِ

ايهِ لله درُّكنّ، فأنتنْ

نَ اللواتي يُحْسِنَّ حفظ الوداد

ما نسيتنَّ هالكًا في الأوان الـ

ـخالِ أودى من قبل هُلكِ إياد

بيدَ أني لا أرتضي ما فَعَلْتُنْ

نَ وأطواقكنَّ في الأجياد

فَتسلّبنَ واستعرنَ جميعًا

من قميص الدُّجى ثيابَ حداد

ثمّ غرّدنَ في المآتم واندبْـ

ـنَ بشجوٍ مع الغواني الخِراد[1]

يعجب لهن بقوله: لله دركن إذ لم تتسين النواح على الهالكين، وقد بدأتن بذلك منذ القدم الذي عبر عنه بهلك إياد وهي قبيلة عربية قديمة دارجة. وهو لا يرتضي لهن أن يندبن الميت وقد أبقين أطواقهن حول أعناقهن، فهذا لا يدل على الحزن بل إن مظهر الحزن كما يراه إنما يكون بلبس السواد.

وممن ذكر الحمام شاعر معروف بجودة شعره هو الحسين بن علي الطغرائي المتوفى في سنة ٥١٥ هـ. وهو غزير الشعر له ديوان مطبوع منه هذه القصيدة التي وردت في الديوان، وهي فيه – للأسف الشديد – كثيرة الأخطاء، يقول الطغرائي:

يا طائر البان غريدًا على فننٍ

ما هاج شجوك لي يا طائر البانِ

أيكيةٌ صدحتْ شجوًا على فننٍ

فأشعلتْ ما خبا من نار أشجاني

ناحت وما فقدت إلفًا ولا فجعتْ

فذكرتني أوطاري وأوطاني

طليقةٌ من إسار الهم ناعمةٌ

أضحتْ تُجددُ وجدَ الموثق العاني

ثم يقول:

إن كان نوحكَ إسعادًا لمغتربٍ

ناءٍ عن الأهل مَمْنُوٍّ بهجران

فقارضيني إذا ما اعتادني طربٌ

وجدًا بوجدٍ وسُلوانًا بسلوان

(١) الخراد: جمع خريدة، وهي الفتاة البكر التي تتميز بالحياء.

يبدو أن ديوان هذا الشاعر قد طبع في سنة ١٩٧٢م، وما بين يدي تصوير للطبعة الأولى، أهداه إلي أخي المرحوم الشيخ أحمد غنام الرشيد، واستمتعت بقراءته داعيًا الله له بالرحمة والغفران، والشاعر لا ينسى التعبير عن إحساسه في قصيدته التي لم يتحدث فيها عن أمر آخر غير الحمام. فهو يتحدث إلى حمامة (طائر) تحط على غصن من أغصان شجر البان يغرد فوقه، ويتساءل عن السبب في نواحه، ثم يقول إن هذا الطائر ما هو إلا أيكية تصدح شجوًا على غصن أيكة وهي الشجرة الكثيفة الملتفة وجمعها (أيك) وكان غناؤها سببًا في إثارة ما خبا من الأشجان في نفس الشاعر، وهو يعجب لها حين تنوح دون أن تكون قد فقدت إلفًا لها، ولم تلحقها فاجعة. ومع ذلك فقد ذكّرته أوطاره وأوطانه، وهي طليقة حرة، ولكنها تجد شجو الموثق العاني الذي يشكو ما حل به.

إلى أن يقول للحمامة إن كان قصدك من هذا النواح هو إسعادي وأنا المغترب النائي عن الأهل الذي مُنِيَ بالهجران فعليك أن تبادليني وجدًا بوجد وسلوانًا بسلوان.

كم يكون جميلًا أن يقرأ المرءُ هذه القصيدة كاملة ففيها إحساس شاعر، أبدى لحمامته صورة ما هو فيه وطلب إليها أن تسعده بمبادلته مشاعره.

ولم يهمل الشعر النبطي الكويتي ذكر الحمام، وقد كان شعراؤنا ينتهزون كل مناسبة ليذكروه، بصفته رمزًا لكثير من الأمور الدالة على المحبة. وهم يستعملون لفظ الحمام كما يستعملون - في أحيان أخرى - لفظ الورق بضم الواو، ويقولون - أيضًا - الحمامة الورقاء، وهي ذات اللون الذي يميل إلى السواد مع لمعة فيها شيء من زرقة اللون.

وقد ورد ذكر الحمام كثيرًا منذ بدأ تدوين الشعر النبطي الكويتي مع بروز الشاعر عبدالله محمد الفرج الذي كان مما قاله في إحدى قصائده:

يا ذا الحمام اللي على راس ميّاحْ
ياللي على روس الشواهيج ناحِ
زدت العنا يا الورق وأبكيت مرتاحْ
وأيقظت في نوحك عذول ولاحي

والقصيدة طويلة، تحتوي على شكوى المحب، وذكر معاناته مع من أحب، فهو يخاطب في بدايتها الحمام الذي حط على رأس غصن مياح يتمايل به الهواء، ويقول له: لقد ازدادت مشقتي بسببك لأن ما سمعته منك قد أبكاني، وكنت قبل ذلك مرتاحًا، فقد أيقظت أيها الورق بنوحك أولئك العذال الذين تنبهوا بسببه إلى ما حل بي من كرب فصاروا يلحونني، ويطلبون مني الكف عن حالة الوجد التي أنا عليها، ثم يقول:

اصبر على ما حل والصبر مفتاح
يا لورق بيبان الفرج والنجاح

(الشواهيج: الأماكن العالية، وأصل اللفظ فصيح يقولون: بناء شاهق أي عال: بيبان: أبواب).

ومن شعراء النبط الكويتيين الذين ورد ذكر الحمام في أشعارهم الشاعر الكبير فهد بورسلي، فقد رأينا له في ديوانه قصيدة كتبها واصفًا فيها حاله ومعاناته للعشق فيقول في بدايتها:

البارحه بالصوت جاوبت الحمام
ساهر ودموع عيني ساكبين
يا حزين القلب مثلي ما ينام
آه ياللي بالمضاجع نايمين
والسبب في ضيجتي ظبي العدام
صابني بالعين والزول الحسين

(ظبي العدام: الظبي الذي يعيش في المرتفعات والتلال. الزول الحسين: الشكل الجميل والهيئة المحببة إلى النفس).

ومن هؤلاء - أيضًا - الشاعر عبداللطيف عبدالرزاق الديين الذي وصف حمامة بأبيات كتبها في سنة ١٩٧٥م، ونشرها في ديوانه (المجموعة النبطية) الصادر في سنة ١٩٩٤م، فقال:

غـــرَّدَتْ وَرْقَـــا وغـنـت

شـاقـهـا الـــروض الحَـسِـيـنْ

واذكـــرت إلـــفٍ وَحَـــنَّــتْ

وهـــيـضـت[1] دائـــي الـــدفـيـنْ

ذكـرتـنـي يـــومْ وَنَـــتْ

وبـــيـحـتْ مـنـي الـكـنـيـنْ

لـيـتـهـا مـنـي تـدَنَّـتْ

وشـاركـتـنـي بـالـحـنـيـنْ

ومما ينبغي أن نشير إليه هنا أن الفنان الكويتي الكبير عبدالله فضالة قد غنى أغنية جميلة انتشرت انتشارًا واسعًا وسريعًا منذ لحظة غنائه لها وهي التي كتبها الشاعر المهجري اللبناني إلياس فرحات المتوفى في البرازيل سنة ١٩٧٦م. وهذا جزء مما غناه أبو فضالة:

يا عروس الروض يا ذات الجناح يا حمامهْ

سافري مصحوبة عند الصباح بالسلامهْ

واحملي شوق محبٍّ ذي جراح وهيامًا

سافري من قبل يشتد الهجير بالنزوح

واسبحي ما بين أمواج الأثير مثل روحي

فإذا لاحَ لك الروض النضير فاستريحي

(١) هيضت: اثارت. بيحت: جعلتني ابوح بما في نفسي.

وهكذا...

ولعل من أفضل ما يمكننا أن نضيفه إلى كل ما تقدم هو الوصف الذي كتبه أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ صاحب «كتاب الحيوان»، وهو من أهم الكتب التي أصدرها المتقدمون في وصف كافة أنواع الحيوان بما فيه الطير. وقد سبق لنا أن نوهنا بهذا الرجل الذي ألف عددًا كبيرًا من الكتب في شتى الموضوعات ولاسيما في اللغة والأدب.

تحدث في كتابه عن «الحمام» حديثًا طويلًا، ولم يترك شاردة ولا واردة إلا ذكرها عنه. وقد وصف حياة الحمام الزوجية منذ الاستعداد لاستقبال البيض وتفريخ الصغار من الفراخ وقد بذلت جهدًا في اختصار ما قال مع الحفاظ على لغته كما وردت في كتابه، يقول: «والحمام أكثر طلبًا للولد، فإذا علم الذكر أنه قد أودع في رحم الأنثى ما يكون منه الولد؛ تقدمًا في إعداد العش، ونقل القصب، وشقق الخوص، وأشباه ذلك من العيدان الدقاق حتى يعملا أفحوصة، وهي موضع البيض والصغار فيما بعد. فينسجانها نسجًا متداخلًا، في الموضع الذي قد رضياه، واتخذاه بحيث يكون بقدر جثمان الحمامة، ثم جعلا لتلك الأفحوصة جوانب غير مرتفعة لتحفظ البيض وتمنعه من السقوط أو التدحرج. ثم يتعاقبان البقاء في العش يسخنانه ويطيبانه، ويحدثان له طبيعة مشتقة من طبائعها، ومستخرجة من رائحة أبدانهما، لكي تقع البيضة في موضع هو أشبه المواضع بأرحام الحمام، ثم إن الحمام إذا ضربها المخاض بادرت إلى الموضع الذي قد أعدته بالتعاون مع ذكرها، وأسرعت في ذلك، ولكنها قد تتعرض لمكروه كما يقول الجاحظ: «كَأَنْ يقرعها رعد قاصف، أو ريح عاصف، فإنها ربما رمت بها دون عشها، والرعد ربما مَرِق عنده البيض وفسد، (نقول في لهجتنا: بيضة مارية أي فاسدة).

وفي الحالات العادية عندما تضع بيضها في العش، فإنه يبقى إلى أن يحين وقت انصداعه عن الفرخ فيخرج عاري الجلد صغير الجناح، قليل الحيلة، مُنْسَدّ

الحلقوم. فيعينانه لأنهما يعلمان أن فرخهما لا يستطيع الأكل ولا الحركة الكاملة فيطعمانه بقدر طاقته بتدرج حتى يقوى على التقاط الحب من الأرض. وهنا يقول الجاحظ:

«حتى إذا علما أنه قد أطاق اللقط منعاه بعض المنع، ليحتاج إلى اللقط فيتعوده، حتى إذا علما أن أداته قد تمت، وأن أسبابه قد اجتمعت وأنهما إن فطماه فطمًا مقطوعًا مجذوذًا قوى على اللقط، وبلغ لنفسه منتهى حاجته - ضرباه إذا سألهما الكفاية، ونفياه متى رجع إليهما».

ثم تنزع تلك الرحمة العجيبة منهما له، وينسيان ذلك العطف المتمكن عليه، ويذهلان عن تلك الأثرة (له)، والكد المضني من الغدو عليه، والرواح إليه. ثم يبتديان العمل إبتداءً ثانيًا، على ذلك النظام وعلى تلك المقدمات.

هذا هو الحمام فما اليمام. إن اسم اليمام يتردد كثيرًا في كتب اللغة والأدب القديمة. ويتردد كذلك في أشعار الشعراء. وقد بحثت الأمر لأعرف الفرق بين المسميين (الحمام واليمام) وقد كان استنادي على ابن منظور في كتابه لسان العرب، والواقع، أنه نقل أقوال عدد من العلماء الذين سبقوه، ولكن خلاصة ما يمكن أن نستفيده من كل ما قال هو أن الحمام هو هذا الطائر الذي نعرفه، وهو طائر أهلي يغشى البيوت والأماكن المأهولة، أما اليمام فهو على غير هذه الطبيعة نجده وحشًا بريًّا في أكثر الأحيان ولذا فإنني أظن اليمام هو هذا الذي نطلق عليه اسم (حمام بر).

إن الحديث عن الحمام طويل وقد حاولت الاختصار بقدر الإمكان ومع ذلك فإنني أرجو أن يكون فيما ذكرته فائدة.

****

ملاحظة

راجعت - بعد ذلك - أسعار الحمام، فأفادني عنها أحد من لهم اهتمام بتربيتها، وذلك بعد أن قام أخي الدكتور مرزوق يوسف الغنيم بسؤاله عن ذلك، فأجاب:

كانت أسعار الحمام في سبعينيات القرن الماضي تتراوح ما بين خمسمائة وسبعمائة دينار للحمامة الواحدة.

وفي سنة ١٩٨٤م بيعت حمامة بمبلغ وقدره ثمانية آلاف دينار. وفي الوقت الحاضر القريب بيعت حمامة بخمسة وعشرين ألف دينار.

أما البيض فقد توقفوا عن بيعه خوفًا من حرمة ذلك.

هذا وتحدُثُ بعد البيع بعض المشكلات الطفيفة التي سرعان ما يتم التغلب عليها من الطرفين (البائع والمشتري) ذلك لأن الحمام يتميز بالوفاء لصاحبه، ولذا فإنه سرعان ما يعود إلى مكانه الأول بعد نقله إلى المقر الذي هيأه له المشتري، وفي هذه الحالة فإن المالك الجديد سرعان ما يذهب إلى البائع ليجد الحمامة عنده، وبعد بعض التردد يُذعن هذا فيسلمها إلى المشتري، الذي يهتم بوضع عدة احتياطات تكفل عدم تكرار ما حدث.

****

استعمال الطين في قديم الكويت[1]

هذا موضوع غريب على القارئ، لأننا نخوض في مثله لأول مرة، والواقع أن موضوعه مهم لأنه يعبر عن صورة من صور الحياة في كويتنا القديمة.

نحن نعرف (الطين) معرفة جيدة، فهو أمام أعيننا دائمًا. كان يستعمل عندنا في البناء ولا تزال آثار المباني التي استعمل فيها الطين ماثلة حتى اليوم وهو وإن كانت لنا به معرفة تامة ورؤيتنا له دائمة إلا أن تعريفه العلمي من أصعب الأمور. وقد ورد وصفه في كتاب: «الموسوعة العربية الميسرة» كالآتي: «هو خليط دقيق الحبيبات من سيليكات الألمونيوم، ومواد أخرى» وجاء بعد ذلك: «والطين لدن حين يبتل، ولذا يسهل تشكيله حين يجف أو يحرق، ويستعمل الطين لعمل الطوب (الطابوق) والصفائح الآجرية، والخزف والصيني».

وتمضي الموسوعة في هذا الحديث عارضة وصفًا علميًا للطين وما ينتج عنه، ذاكرة أشكاله التي تنتج في الطبيعة أو من صنع البشر.

ومعرفة الإنسان بالطين قديمة، يعرفه منذ خلقه الله، ويكفي أن القرآن الكريم قد كرّر كلمة (الطين) اثنتي عشرة مرة، منها ما أشار فيه إلى خلقه لسيدنا آدم ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين﴾[2].

وفي سورة (ص) (الآية رقم ٧١): ﴿إذ قال ربك إني خالق بشرًا من طين﴾.

---

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١١/٨/٣م.
(٢) سورة السجدة (الآية ٧).

وورد ذكر الطين في مجال تعذيب المنكرين الجاحدين لفضل الله، الشاكين بوحدانيته ﴿لنرسل عليهم حجارة من طين﴾[1].

إذن فالطين مرتبط بأبي البشر، وهو لذلك قديم، وقد استغله الإنسان في كثير من الأمور، وأولها كان استغلاله بصفته عنصرًا من عناصر البناء بعد أن غادر الكهوف التي لجأ إليها في أول الأمر. كما يذكر علماء التاريخ الطبيعي.

وأشار أمير الشعراء أحمد شوقي إلى خلق الإنسان فقال:

خلق الحظ جمانًا وحصى
خالق الإنسان من ماء وطينِ
فوليدٌ تسجد الدنيا له
ووليدٌ في زوايا المهملين

وعندما ذكر جمال الدين بن منظور (الطين) في كتابه «لسان العرب» - مادة: طين، قال: «الطين: معروف، الوحل، واحده طينة» ثم قال: و«الطيان: صانع الطين وحرفته الطيانة».

ويلاحظ أننا نستعمل في اللهجة معنى آخر نريد به الدلالة على طبع الشخص الذي نتحدث عنه، فهو إذا كان سهلًا لين الطباع، غير شرس قلنا فلان حفيف الطينة، وإذا كان على العكس من ذلك قلنا: فلان ثقيل الطينة.

ولهذا الاستعمال أصل عربي ذكره ابن منظور في الموضع الذي أشرنا إليه من كتابه: لسان العرب. يقول: «والطينة: الخلقة، والجبلة، يقال: فلان من الطينة الأولى، يقال: طينة الرجل: خلقته وأصله، ويقال: إنه ليابس الطينة إذا لم يكن وطيئًا سهلًا». فهذه مجموعة من الجمل التي نستعملها في المدح وفي الذم.

---

(١) سورة الذاريات (الآية ٣٣).

ولكثرة ما يتعامل الناس كبارهم وصغارهم مع هذه المادة المهمة فقد دخل (الطين) في الأمثال الكويتية، ومن ذلك أننا نقول: فلان دلو ماي ودلو طين. أي أنه غير مستقر في سلوكه فهو مرة يسلك الطريق المستقيم فهو كالماء، ومرة أخرى نراه على العكس من ذلك فهو كالدلو المليء بالطين. ودخل - أيضًا - في أغاني الأطفال وألعابهم ومن ذلك لعبة: طرباش لوماش، وهي لعبة جماعية يقوم بها الأطفال من الجنسين باستعمال قطع مكورة من الطين اللّيِّن، وصفها الأستاذ الفنان أيوب حسين وصفًا كاملًا ودقيقًا في كتابه: (ألعابنا الشعبية الكويتية) وجعل إلى جانب وصفه لها رسمًا يبين طريقة اللعب بها. ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن الأستاذ المؤرخ سيف مرزوق الشملان قد ألف كتابًا موسعًا تناول فيه الألعاب التي يزاولها أطفال الكويت وشبابها في الفترة الماضية من الزمان، وحبذا لو عاد المهتمون بالرياضة عندنا إلى إحياء بعضها، لأن هذا البعض جدير بالإحياء وبخاصة ما كان منه ذا صفة جماعية مثل لعبة الهول وغيرها.

كانت حركة الإنشاء مستمرة في الكويت قبل سنة ١٩١٢م وبقيت كذلك فيما بعد هذا التاريخ. وكان في كل (فريج) تقريبًا شخص يسمى (الأستاذ) يتولى قيادة البنائين ويشرف عليهم ويوجههم، وهو مسؤول - أيضًا - عن تنظيم المباني التي كانت على أغلب الأحوال مكونة من بيوت السكن الخاص. يجتمع الراغبون في العمل من البنائين في كل صباح أمام مسكن أستاذهم، وحين يخرج إليهم يختار منهم من يرى أنه يصلح للعمل في ذلك اليوم ثم يتجه بالذين اختارهم إلى مزاولة مهمته، في الوقت الذي نرى الذين لم يقع عليهم الاختيار يتسللون من المكان كاسفي الحال منكسري الخاطر، فقد كان العثور على العمل الملائم صعبًا في ذلك الوقت.

يتعامل الأستاذ مع صاحب المبنى بإحدى طريقتين الأولى منهما تسمى (القطوعة) وهي الاتفاق على مبلغ مقطوع يأخذه الأستاذ من مالك العقار، وهو

الذي يتولى الصرف على العاملين والمواد وذلك إذا لم يتكفل المالك بإحضار المواد بطريقته الخاصة. والثانية هي (اليومية) بأن يأخذ الأستاذ والعمال الذين أحضر لهم صاحب العمل أجرتهم يوميًا عند غروب الشمس. ويتولى المالك إحضار مواد البناء وتقديم وجبتين إحداهما (الريوق) وهو الإفطار والثانية الغداء.

والاتفاق الشامل الذي يتم بين الأستاذ (رئيس البنّائين) وصاحب المال الذي يسمّى قطوعة عندنا ورد في لسان العرب ذكر ما يُشبهه، فقال في (مادة قطع): (وقاطعه على كذا وكذا من الأجر والعمل ونحوه مُقاطعة) وإن اختلف وزن لفظ القطوعة عندنا فهذا لا ينفي فصاحته.

من المعروف أن البناء في ذلك الوقت يكون بمادة الطين الذي يحصل عليه البناؤون أحيانًا بحفر ما يجاور المبنى واستخراجه ثم عجنه بالماء، أو يحضره المالك من موقع آخر إذا كانت الأرض غير ملائمة وفي هذه الحالة فهناك عدد من المتعهدين الذين يحضرون الطين على حمير لهم وفق طلب المالك وبحسب حاجة البناء.

جدران البيت لها إحدى ثلاث صفات الأولى هي التي تسمّى بنيان (عروق) وهو أن يُمدّ الجدار على الأرض بعد أن يحفر له قليلًا لوضع الأساس وكان يسمى (السّاس)، ثم توضع فوقه طبقات الجدار وكلها من الطين. والصفة الثانية هي استعمال اللبن وهو (الطابوق) وهو أيضًا مكون من الطين، إذ تجهز المادة الطينية، ثم يؤتي بما كان يسمى (الملبن) وهو إطار من الخشب متوسط الحجم بارتفاع لا يزيد على ثمانية سنتيمترات وعندما ينزع الإطار تكون (اللبنة) أو الطابوقة قد تشكلت وعندما تجف في الشمس تستعمل في البناء حيث تشبك بالطين على هيئة أدوار إلى أعلى الجدار ابتداءً من السّاس.

ثم إن هناك صفة ثالثة للبناء وهي التي يستعمل فيها الصخر البحري الذي كان يجلب من منطقة عشيرج ثم يستفاد منه في عمليات البناء بخلطه مع الطين.

هذا وكان لجلب الصخر أناس متخصصون يذهبون بسفن شراعية صغيرة، ويُجرون تكسير الصخر من منطقة قريبة من الساحل ثم يجلبونه إلى شاطئ المدينة حيث يقوم أصحاب الحمير (الحمّارة) بنقله إلى مواقع البناء. وكانت عملية تقطيع الصخور في ساحل عشيرج المعروف من أشق الأعمال وبخاصة عندما يكون هذا العمل في فصل الشتاء حيث يعاني الرجال من برودة الماء، وبرودة الرياح البحرية.

ولما كان هذا هو مدى الاهتمام بالتعمير في الكويت، فإنه من غير المستغرب أن تعنى دائرة البلدية عندنا بهذا الأمر، بل وتعطيه كامل عنايتها. وتضع الكثير من الشروط للعاملين في مجاله كما تقدم المحاذير التي ينبغي أن يراعيها البنّاء وصاحب المبنى حتى يأتي ناتج هذا التّنبيه لصالح الطرفين: إنجازًا وجدوى.

ومثال تنبيهات البلدية ما جاء في إعلانها المؤرخ في اليوم السابع عشر من شهر ذي القعدة لسنة ١٣٤٨هـ الموافق لليوم الخامس عشر من شهر أبريل لسنة ١٩٣٠م. وكان موقعًا من قبل رئيس البلدية - آنذاك - الشيخ عبدالله الجابر الصباح وفيه:

«لا يجوز لأحد أن يُشغل الشوارع بالصخر والطين مدة طويلة، ومن يشتغل بالبناء فله ذلك مدة البناء».

وفيه أيضًا:

«كل من أراد أن يبني جدارًا على الشارع فعليه مراجعة البلدية».

وورد في أعمال البلدية بيانات وإرشادات كثيرة عن مواد البناء ومنها الطين، ومن ذلك أنها أصدرت قرارًا أمرت بموجبه كل من أراد أن يستخرج من أرض يملكها طينًا قاصدًا بيعه أن تكون الأرض ذات سور يحددها.

ووضعت بلدية الكويت - أيضًا - حدودًا لكل من بائعي وناقلي المواد الإنشائية بحيث لا يتجاوزونها فذكرت الجص ومعايير بيعه وبيان نوعيته وأسعاره، وبينت بمثل ذلك ما يجري على الرمل. ثم حددت أجور العاملين في البناء.

ولم تكن هذه القرارات لتهمل منذ صدورها ولكن المجلس البلدي يتابع التنفيذ، ويمنح رخص البناء لكل من استوفى الشروط، وبذا فقد اطمأن المواطنون إلى سلامة تعاملهم مع العاملين في مضمار البناء، واطمأنوا - كذلك - على مساكنهم بصفة خاصة.

هذا وقد كانت في البلاد أماكن محددة يُستمدُّ منها الطين لأجل البناء، وهذه يطلق عليها اسم: المطاين، وهي جمع مطينة، وعادة ما يكون طينها صالحًا للمباني معتمدًا من البلدية، ومن متعهدي البناء. وتكون الأرض شبه رخوه يسهل الحفر فيها لاستخراج المادة المطلوبة، وغني عن البيان أن هذه المطاين تخضع لترخيص البلدية وإشرافها.

بقي الطين زمنًا طويلًا وهو سيد الموقف في البناء عندنا ولم تعرف الكويت الإسمنت إلا في سنة ١٩١٢م حين بدأت الإرسالية الأمريكية في بناء مستشفاها المعروف شكلًا وموضعًا. وقد اهتم القائمون على أمر الإنشاء بإحضار الإسمنت الذي كان يومها يعبأ في براميل من الخشب، وبعد استخدامه في البناء ومشاهدة أبناء البلاد له، وتحسسهم لجدواه صاروا يفكرون في استعماله، وقد بدأ ذلك بالتدريج البطيء، ولم يجرؤ على شرائه لهذا الغرض إلا المتمكنون ماليًا، كما أنهم لم يستعملوه في البناء بشكل عام ولكنهم استغلوه في الحمامات وصهاريج المياه التي كانت المساكن تحتفظ فيها بماء المطر، وكان ذلك في البداية.

واستمر الحال على ذلك فترة من الزمن إلى أن زاد استعمال هذه المادة الإنشائية المهمة، وحلّت محل الطين، الذي مضى وقت طويل وهو يُستهلك في البناء، ولم يتم الاستغناء عنه نهائيًا إلا في وقت متأخر.

هذا وفي الكويت من المباني التراثية المبنية بالطين عدد لا بأس به، وبعضها قائم حتى يومنا هذا، وبعضها الآخر قد تغيّر وضعهُ بحكم الزمن، وهنا نذكر منها:

أولا: القصر الأحمر

وهو مبنى تم إنشاؤه في حوالي سنة ١٨٩٧م، بناءً على أمر من الشيخ مبارك الصباح، وموقعه في الجنوب الغربي لقرية الجهراء القديمة. وقد كان الشيخ يهدف من وراء إقامته لهذا المبنى إلى استعماله حصناً حربيًا يلوذُ به المقاتلون عند الحاجة، ومستودعًا للأسلحة، ومقرًّا لإقامة الشيخ عندما يأتي إلى هذا الموقع من الأمكنة الأخرى التي يرتادها.

والقصر الأحمر لايزال قائمًا، وقد جرى له أكثر من ترميم حتى يحافظ على بقائه، ويدفع عن نفسه غائلة الزمن، وهو الآن مزار سياحي لكل من أراد أن يستذكر تاريخ الكويت.

بني هذا القصر من الطين، ومزج الطين في بعض مواضعه بالتبن أو قصاصات أطراف شجيرات العرفج (القفاف) وذلك لتقوية البناء، وقد اكتسب المبنى لوناً أحمر بسبب طبيعة الطين في تلك المنطقة، ومنه اكتسب القصر اسمه.

هذا الصرح التراثي دليل من الأدلة الواضحة على استعمال الطين – قديمًا – في المباني الكويتية، إذ كانت هذه المادة هي السائدة في البناء وقت إنشائه.

ولتاريخ هذا القصر حديث طويل ليس هذا موضعه، كما أن تفصيلات المرافق والغرف تحتاج إلى وقت آخر، وهناك كتاب مطبوع يتحدث عن كل ذلك.

ثانيًا: قصر نايف

ومن القصور الكويتية القديمة التي تم بناؤها بمادة الطين: قصر نايف، المعروف لدى الجميع، وهو قصر كبير، لايزال قائمًا على وضعه الذي كان عليه

وقت إنشائه، إلا أنهم أضافوا إليه مبنى إسمنتيًا صار مقرًا لدائرة الأمن العام، وفي ركن من القصر تقع هيئة محافظة العاصمة، تم بناء القصر الطيني على تل يعرف باسم تل نايف أو صيهد نايف، وذلك في سنة ١٩٢٠م وهي السنة التي بُني فيها سور الكويت الثالث في زمن الشيخ سالم المبارك الصباح.

ثالثًا: سور الكويت الثالث

وإقامة هذا السور عمل من الأعمال الباهرة التي اشترك في القيام بها أبناء الكويت، ومن أجل الإلمام بكافة تفصيلات هذا العمل الوطني الكبير نسوق هذه الحكاية:

«نحن الآن في يوم من أيام الكويت الماضية، في شهر رمضان لسنة ١٣٣٨هـ، وهي توافق ١٩٢٠م وكان الشهر المذكور واقعًا بين شهري مايو ويونيو الميلاديين من هذه السنة.

في ليلة من ليالي الشهر الكريم سهر فيها أحد أبناء الكويت وعاد وهو يحس بالتعب إلى أسرته التي كانت في انتظاره، ولم يكن راشد ساهرًا مع أصحابه في إحدى الديوانيات كما هو المعتاد ولكن سهرته كانت في مكان آخر أكثر أهمية وكان يمضي الليل في عمل مستمر يدفعه إليه حبه لوطنه، وحرصه على حمايته وحماية أهله.

لقد كان يعمل طول الليل مع عدد من إخوانه رجال الكويت المخلصين في بناء السور الذين عزموا على بنائه حتى يحيط بالمدينة ويحفظها من الطامعين.

وكانت الكويت خلال هذه السنة قد تعرضت لبعض الأخطار، فرأى حاكم البلاد في ذلك الوقت الشيخ سالم المبارك الصباح أن الحماية الفعالة، وإدخال الاطمئنان إلى قلوب الناس يستلزمان بناء سور واقٍ تهدأ بوجوده النفوس، ويُسَهِّلُ للمدافعين عن العاصمة أمر حمايتها. وقد حرص الشيخ سالم على تنفيذ رأيه،

ولم يقبل أي نقاش حول ذلك، لأنه عرف بفكره المستنير أن هذا القرار إنما يخدم الوطن والمواطنين ولا ينبغي أن يتردد أحد حوله، وفي هذه المرحلة كتب المؤرخ عبدالعزيز الرشيد قائلًا: «ولم يقبل (يعني الشيخ سالم) فيما رأى أخذًا ولا ردًا ممن دهشوا من تصميمه، وعَدُّوه قضاء على حريتهم التي كانوا بها متمتعين».

وتنفيذًا لأمر الحاكم فقد هبّ أبناء الكويت إلى المشاركة في هذا المشروع الوطني المهم، فلم يمض شهران حتى كان السور كاملًا بفضل همة الرجال الذين قاموا متبرعين بهذه المهمة لم يمنعهم صيامهم عن بذل الجهد، بل كانوا يسهرون الليل من أجل العمل على إنجاز سور بلادهم.

وكانت الليلة التي عاد فيها الرجل إلى أهله إحدى تلك الليالي الرمضانية التي أنجز فيها العمل.

وقد تحدث إلى أهله قائلًا:

عندما بدأنا بالعمل حُدِّدَ لنا طول السور وعرضه. وعُرضت أمامنا المواد التي يمكننا استعمالها في البناء فكانت البداية من ساحل البحر شرقًا إلى ساحل البحر غربًا بامتداد يمثل شكل الهلال لا يجعل مجالًا لأي معتد للوصول إلى العاصمة، ويكفل الأمان لكافة السكان.

وأضاف:

كان ينبغي لنا أن نضع بوابات كبيرة الحجم لمرور الناس والسيارات والدواب، وأن نبني أبراجًا يستخدمها المدافعون عن البلاد عند الحاجة، وكان علينا إنجازها في أماكن متفرقة على امتداد السور.

ثم واصل حديثه قائلًا:

- كانت المواد من الطين الخالص وكنا نستخرجه من الموقع نفسه أو من مكان قريب فتنقله الحمير إلى مكان العمل. ولم يشذ عن ذلك إلا الأبراج فقد تم بناؤها من الطين ولبن الطين، أما الماء فتأتي به إلينا الإبل من الآبار.

ثم استأنف حديثه فقال:

أما ما يخص طريقة العمل، فقد وزعت الأميال الخمسة التي هي طول السور على المساهمين بالعمل وذلك بحسب (الفرجان) ومعلوم أن الكويت مقسمة إلى فرجان أخذ أهل كل فريج ما يقابلهم من الموقع المقرر للسور وكان ذلك مجالًا للمنافسة بين الجميع فكل من هؤلاء يريد أن يكون سابقًا فينجز عمله قبل غيره، وجاء ذلك لمصلحة العمل».

(عن كتاب «سور الكويت» لكاتب المقال، صدر في سنة ٢٠٠٦م، من مجموعة الكتب الناشئة).

رابعًا: قصر بيان القديم

كان هذا القصر من المباني الكبرى في زمانه. وكان ذا موقع جذاب فوق ربوة تقع في جنوبي حولي. ولقد شاهدناه أطلالًا متداعية إلى أن أزيل نهائيًا وبني مستشفى مبارك الكبير في موقعه. باني هذا القصر هو الشيخ أحمد الجابر الصباح وكان يحضر إليه في مواسم الربيع، ويقضي فيه بعض ليالي الصيف. ومادة بنائه من الطين، ويتكون من عدة غرف لها استعمالاتها في أي قصر مثله.

وينبغي أن نشير هنا إلى أن اسم هذا القصر لم يَزلْ كما زال مبناه، فقد تم إطلاقه على المنطقة السكنية المحيطة بموقعه القديم، وتم إطلاقه أيضًا على

القصر الكبير الذي بني من أجل الاستفادة منه في المؤتمرات الكبرى التي تقام في الكويت. لقد صار قصر بيان القديم ضمن منطقة الجابرية، أما منطقة بيان وقصر بيان الجديد فهما على الطريق الدائري الخامس شمالاً عن الموضع السابق.

وبعد، فهذه ملامح عن استعمال أبناء الكويت صغارًا وكبارًا للطين في جدِّهم ولعبهم، وفي سد حاجتهم إلى الإنشاء وإصلاح المباني، وفي لهو أولادهم عند أوقات الفراغ. أرجو أن يكون ما قدمته وافيًا، وبخاصة وأنني أثير هذا الموضوع لأول مرة، فلم أكتبه عن تجربة سابقة، وهذا عذر كافٍ إن جاء فيه تقصير.

والله الموفق.

****

ملحاق خير

كانت المساجد - ولاتزال - من المؤسسات المهمة في الكويت. ومنذ بدء تاريخ هذا الوطن والمساجد تشكل الملامح الجميلة عندنا، كما تشكل المظهر الإسلامي الكريم الذي نتصف به، وفي مواعيد الصلوات اليومية، وصلاة يوم الجمعة يجتمع الناس فيتآلفون، وتشيع بينهم المحبة، كما يجدون الفرص الملائمة لمعرفة شؤون دينهم الحنيف.

لاشك في أن بناء المساجد كان من المواد التي كانت تبنى بها المساكن وهي الطين والصخور البحرية واللبن، وذلك حتى جاء الوقت الذي تغيرت فيه أساليب البناء في الكويت وذلك بدخول مادة الإسمنت بصفتها عنصرًا مهمًا من عناصر البناء.

ويعود الفضل في إعادة بناء المساجد الكويتية على النمط الحديث إلى دائرة الأوقاف العامة التي نشأت في سنة ١٩٤٨م برئاسة الشيخ عبدالله الجابر الصباح. فقد أخذت هذه الدائرة على عاتقها إعادة بناء المساجد المبنية - قديمًا - من الطين والصخور، واختطت خطة بارعة أدت إلى إنشاء عدد من المساجد الجديدة في مناطق شتى من البلاد.

لقد كانت مباني مساجد الكويت القديمة - على بساطتها - جميلة، تلفت النظر، وتسرّ المصلين، وكنا نجد فيها هدوء البال وراحة النفس، وهذا مثال لأحد المساجد التي كانت قائمة في ذلك الوقت، أتحدث عنه عندما كان على بنائه القديم

من الطين واللبن وكان الجص يغطي بناءه الداخلي، إنّه مسجد البدر، الذي أزيل الآن من الوجود دون سبب مقنع. وكان يقع في الزاوية الشمالية الغربية لمتحف الكويت الوطني، وهو - آنذاك - من أشهر مساجد الكويت، يقبل عليه الناس من كل مكان للاستماع إلى خطب ومواعظ الشيخ عبدالله الخلف الدحيّان المتوفى في سنة ١٩٣١م، ومن بعده الشيخ أحمد خميس الخلف المتوفى في سنة ١٩٧٤م، ثم الشيخ محمد سليمان الجراح المتوفي في سنة ١٩٩٦م، وكان الأخيران يخطبان بخطب الشيخ عبدالله الخلف الموجزة المليئة بالنصح للمسلمين، وضرورة توخي واجباتهم التي أمرهم الله - سبحانه - بالالتزام بها، وهذه الخطب هي التي يخطب بها اليوم الأخ الدكتور وليد عبدالله المنيس في مسجد المطير بمنطقة ضاحية عبدالله السالم، فتستقطب العدد الكبير من المصلين في يوم الجمعة من كل أسبوع. وكان مسجد البدر حين رأيته لأول مرة مبنيًا من الطين المغطى بطبقة من الجص، وفي داخله بعد الساحة الخارجية المسماة صحن المسجد إيوان، ثم المصلى الرئيسي الذي يدخل إليه المصلون من عدة أبواب، وفي صدر هذا المصلى يوجد المحراب والمنبر، ويعتمد الإيوان والمصلى على أعمدة تنتهي بأقواس مزخرفة بمادة الجص تعطي المسجد منظرًا جميلًا وجلالًا باهرًا، وكان مؤذن المسجد في فترة طويلة السيد سليمان بلال الشهير بصوته المتميز وأدائه المحبب لدى المصلين. وكان في الوقت الذي أدركته فيه يؤذن الأذان الأول فوق المنارة من يوم الجمعة، ثم يأتي ليقف أمام المنبر، وفي هذه الأثناء يكون خطيب المسجد قد وصل وأدى السلام للحاضرين حيث يقوم المؤذن بأداء الأذان الثاني الذي تبدأ بعده الخطبتان، ثم الصلاة. ومن أجمل الليالي التي أذكرها في هذا المسجد ليالي العشر الأواخر من رمضان، حيث تقام صلاة القيام ويجتمع - في فصل الصيف - عدد كبير من الناس مع أبنائهم فوق سطح المسجد حيث يؤدون الصلاة ويستمعون إلى وعظ الشيخ أحمد خميس الخلف ويتناولون في فترات الراحة القهوة الحلوة المكونة من

الزعفران وحبات الهيل والماء والسكر، ولا تنتهي هذه الصلاة إلا قبل موعد تناول السحور بقليل، فيذهب كل مصلٍّ منهم، وبعد الإمساك تبدأ صلاة الفجر، ويتم استقبال يوم جديد. لقد كانت أيامًا جميلة لايزال من حضر صلاة القيام فيها ذاكرًا لها، متمنيًا عودتها.

قام بإنشاء هذا المسجد المرحوم ناصر بن يوسف البدر من ثلث والده، وألحق به بيتًا كان يسكن فيه الشيخ عبدالله الخلف الديحان. ولمكانة هذا الشيخ الجليل فقد ضاق المسجد بالمصلين من أول جمعة صلوها فيه في سنة ١٣١٥هـ وهي توافق سنة ١٨٩٧م، فأمر الشيخ مبارك الصباح بتوسعته، وقد جدد مرتين بعد تلك التوسعة، إحداهما في سنة ١٩١٠م، والثانية في سنة ١٩٥١، بعد أن قامت الحكومة برعاية المساجد.

هذا نموذج لمسجد قديم بني بمادة الطين، وأدى الغرض من إنشائه، وكان يتصف بالجمال والإتقان وتكاد تكون باقي المساجد على هذه الصفة التي ذكرناها وبقيت على ذلك إلى حين نشأة دائرة الأوقاف العامة في شهر ديسمبر سنة ١٩٤٨م حيث اهتمت اهتمامًا كبيرًا بإعادة بناء المساجد، مما غير مظاهرها إلى الأفضل وإن كانت النفوس تحن إلى الوضع القديم الذي كان وجود أولئك الفضلاء من الأئمة والمصلين سببًا في استمرار الانطباع الجيد عن وضع المساجد التي كانت قائمة فيما مضى.

****

أحاديث مجلة الديار اللبنانية عن الكويت(١)

حاولت أن أعثر على معلومات عن مجلة الديار التي هي الآن بين يدي، فلم أتوصل إلى أية بادرة تنبئ عنها إنني أذكر جيدًا أنه كانت تصدر في لبنان جريدة يومية بهذا الاسم، وكنت أطلع عليها باستمرار حينما أكون هناك لأنها كانت مسائية وكان الحصول عليها سهلًا. أما المجلة فيبدو أنها مرتبطة بتلك الجريدة لأن العدد الذي معي منها مكتوب عليها بحروف صغيرة إلى جانب العنوان: «العدد الأسبوعي» ومعنى هذا أن ترخيص المجلة هو ترخيص الجريدة نفسه.

صاحب امتياز الديار هو حنا غصن، ولكن المجلة أو العدد الأسبوعي يصدر عن المؤسسة الصحفية التي يمتلكها جورج سكاف مع شركاء آخرين وهذا الرجل صحافي عريق معروف له اهتمام بالصحافة في لبنان إذ كان أحد أعمدتها.

أظن القارئ الآن قد عرف مصدر هذه المجلة بسبب ما مر من مقالات تحدثت فيها عن بعض المجلات القديمة، ولكني أعيد ذلك إلى الأذهان فأذكر أن الأخ الأستاذ عبدالرحمن الخرجي قد تكرم فأهداني ثمانية أعداد من مجلة الديار سوف تكون مجال حديثي في هذا المقال، وأنا أقدم له خالص الشكر والعرفان بالجميل على كل ما قدّم.

وليس خافيًا الآن أن المجلة قد صدرت من وراء ترخيص جريدة الديار وأنها لكي تكون في الطريق القانوني السليم ادعت أنها العدد الأسبوعي للجريدة.

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١١/٨/١٠م.

أما فحوى المجلة فهو شديد التنوع لأنها تهتم بالسياسة وبالحياة الاجتماعية وتتحدث عن دنيا العرب بشكل عام، وتقدم كثيرًا من الأبواب المنوعة، ومنها بعض الكتابات التي يتم نشرها من أجل الترفيه لا غير.

ويهمني أن أورد ما ذكرته المجلة عن الكويت في أعدادها الثمانية التي هي بين يدي، وسوف أرتبها بحسب تاريخ إصدار كل عدد منها، وذلك كما يلي:

أولًا: العدد الصادر في اليوم السابع والعشرين من شهر أبريل لسنة ١٩٦٨م، وفيه حديث عام عن الأوضاع العربية وبخاصة فيما يتعلق بقضية فلسطين، وقد ذكرت المجلة أن المواقف العربية باتت موحدة، وأن الموقف من إسرائيل صلب جدًا بحيث أفشلت هذه الصلابة مهمة مندوب الأمين العام للأمم المتحدة الذي أرسله بناءً على قرار من مجلس الأمن الدولي بغية التوصل إلى حل للقضية العربية الفلسطينية.

واستطردت المجلة في الحديث عن الأوضاع ذاكرة أن اللقاءات العربية التي تمت في أعقاب انتهاء مهمة ذلك المندوب وفي أثنائها ألغت اجتماع القمة العربية لأن الاتصالات بين رؤساء الدول العربية كانت مكثفة وفي هذا المجال أشارت إلى زيارة قام بها المرحوم الملك فيصل بن عبدالعزيز ملك المملكة العربية السعودية إلى الكويت في ذلك التاريخ، كما ذكر - فيما يخص الكويت - زيارة ملك الأردن ومقابلته للمرحوم الشيخ صباح السالم الصباح.

أما المندوب المشار إليه فهو غونار يارنغ الذي صار مشهورًا في بلادنا العربية لكثرة ما تردد عليها من أجل مهمته التي كلفه بها الأمين العام للأمم المتحدة يو ثانت، بناءً على قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢، الذي كان يهدف إلى وضع حد للمشكلة التي اتسع نطاقها وقد فشل يارنغ في مهمته فشلًا ذريعًا لأن الطرق التي كان يسلكها تغلق في وجهه من قبل إسرائيل وأعوانها من الدول الأخرى التي تقف معها.

ثانيًا: العدد الصادر في اليوم الرابع من شهر مايو لسنة ١٩٦٨م. وهو كغيره من إعداد المجلة من حيث المحتوى ولكن ما يهمنا منه أمران هما:

- خبر جاء ضمن الأخبار الخاصة بالبلدان العربية، وهو ينص على أن الكويت قد منحت أسبانيا حق التنقيب عن النفط فيها، وقد جاء في الخبر ما يلي:

«أقر مجلس الأمة الكويتي بجلسته المنعقدة صباح الثلاثاء ١٩٦٨/٤/٣٠م مشروع القانون المقدم من الحكومة في شأن منح شركة البترول الوطنية وشركة هسبانويل الأسبانية التزام التنقيب عن النفط في المناطق التي تخلت عنها شركة نفط الكويت المحدودة والمقدرة مساحتها ١٠,٠٠٠ كيلو متر مربع تقريبًا وبموجب هذا الاتفاق الذي وافق عليه ٣٧ عضوًا مقابل ١٠ أعضاء لم يوافقوا عليه وامتناع عضوين عن التصويت وغياب ١٣ عضوًا عن الجلسة. تتحمل الشركة الأسبانية جميع نفقات التنقيب عن النفط إلى حين العثور عليه. بحيث حددت مدة الامتياز ٣٥ عامًا قابلة للتجديد خمس سنوات أخرى.

ومن المعروف أن حكومة الكويت تملك ٦٠٪ من أسهم شركة البترول الوطنية الكويتية.

والجدير بالذكر أن شركة هسبانيول تعتبر أول شركة نفط أسبانية تعمل في منطقة الشرق الأوسط والبلاد العربية للتنقيب عن البترول واستخراجه وتسويقه».

وكما رأينا فقد تكونت شركة جديدة مكونة من طرفين هما شركة البترول الوطنية والشركة الأسبانية بحيث تمتلك الشركة الكويتية ٥١٪ من رأس المال وتمتلك الشركة الأسبانية ٤٩٪ منه.

وقد بقي الاتفاق قائمًا لمدة ثماني سنوات تبين في آخرها أن العثور على النفط في الأماكن الممنوحة لهذه الشركة مستحيل فتمت تصفيتها.

- خصصت المجلة صفحة عن أخبار الكويت ومنها:

- إن جامعة الدول العربية قد طلبت من الكويت إعداد برامج تلفزيونية ذات قيمة عن العالم العربي، سواء أكانت سياسية أم تسجيلية تتناول موضوعات عن الإنسان المعاصر ومشكلاته، وعن التاريخ والآثار والمسرح والمأثورات الشعبية، على أن تكون هذه البرامج باللغة الإنجليزية لأنها سوف تعرض على شاشة التلفزيون الأمريكي.

- تحت رعاية الشيخ جابر العبدالله الجابر الرئيس الفخري للاتحاد الكويتي للجمباز؛ أقام الاتحاد حفله الختامي السنوي لبطولة الأندية الكويتية في لعبة الجمباز مساء يوم الإثنين ١٩٦٨/٤/٢٩م بصالة ثانوية كيفان.

- وصل إلى الكويت وفد يمثل جمعية الصداقة الأمريكية العربية، وكان في استقباله السيد صالح شهاب وكيل وزارة الإرشاد والأنباء المساعد لشؤون الثقافة والنشر.

وقد قام الوفد عقب وصوله بزيارة الشيخ جابر العلي السالم الصباح وزير الإرشاد والأنباء في مكتبه بديوان الوزارة، كما زار الوفد داري الإذاعة والتلفزيون، وكانت الوزارة قد أعدت برنامجًا مكثفًا للوفد بحيث يطلع على الأنشطة القائمة في الكويت من جميع النواحي.

- وفي هذه الفترة وصلت السيدة أم كلثوم، إلى الكويت واستقبلها المرحوم الشيخ صباح السالم الصباح أمير البلاد - آنذاك - في مكتبه بالديوان الأميري، وذكرت المجلة بشيء من التفصيل كل ما يتعلق بهذه الزيارة الكلثومية، فقالت: «بدعوة من الجمعية الثقافية الكويتية وصلت إلى الكويت في الأسبوع الماضي سيدة الغناء العربي أم كلثوم، وكان في استقبالها على أرض المطار الشيخ دعيج السلمان

الصباح والسيدة عقيلته والسيد سفير الجمهورية العربية المتحدة والسيدة عقيلته والآنسة لولوة القطامي التي مثلت الجمعية الثقافية الكويتية صاحبة الدعوة. وعدد غفير من العاملين في الفن وحشد كبير من المواطنين والمواطنات. وحلت السيدة أم كلثوم بقصر الشيخ دعيج السلمان الصباح.

وأحيت أم كلثوم حفلة غنائية كبرى على مسرح سينما الأندلس مساء الخميس الماضي استمرت حتى الصباح، وذلك دعمًا للمجهود الحربي العربي.

قدر ريع الحفلة بحوالي ثلاثين ألفًا من الجنيهات تقاسمه المجهود الغنائي والمجهود الحربي العربي بحيث تقاضت أم كلثوم (١٢,٠٠٠) ألف جنيه فقط.

ثالثًا: العدد الصادر في اليوم الحادي عشر من شهر مايو لسنة ١٩٦٨م، وفيه مجموعة أخبار عن الكويت نذكرها هنا كما يلي:

- زار الكويت قبيل صدور هذا العدد من المجلة وفد رسمي ليبي ضمن جولة قام بها الوفد على عدد من الدول العربية لمناقشة ما كان يدور على الساحة السياسية - آنذاك - من أحداث، وقالت المجلة:

«يتابع السيد عبدالرحمن البكوش رئيس الوزارة الليبية زياراته لبعض العواصم العربية لإجراء مباحثات حول التعاون العربي لإزالة آثار العدوان، والتعاون البترولي والاقتصادي لما فيه خير البلاد العربية، وقد بدأ زياراته بالأردن فالسعودية عن طريق بيروت وسيصل بغداد إثر زيارته للكويت. وكان السيد البكوش قد وصل إلى الكويت مساء الثلاثاء في زيارة رسمية لمدة ثلاثة أيام.

وكان في استقباله على أرض المطار سمو الشيخ جابر الأحمد الجابر ولي العهد ورئيس مجلس الوزراء ورئيس بعثة الشرف السيد عبدالعزيز إبراهيم الفليج وزير الصحة العامة.

ويرافق الرئيس الليبي وفد يضم السادة: ونيس القذافي وزير الخارجية، وأحمد الصالحين الهوني وزير الإعلام والثقافة وعبدالكافي السمين السفير بوزارة الخارجية وجبريل شلوف سفير ليبيا لدى دولة الكويت وغيرهم من كبار الموظفين وبعض ضباط الجيش الليبي. كما يرافق سيادة الضيف وفد إعلامي ليبي.

أما الوفد الكويتي في المحادثات الرسمية التي أجريت مع الوفد الليبي فتألف على النحو التالي:

سمو الشيخ جابر الأحمد الجابر ولي العهد رئيس مجلس الوزراء، ووزير الإرشاد والأنباء، ووزير الخارجية، ووزير الدولة لشؤون مجلس الوزراء. ووزير الصحة العامة رئيس بعثة الشرف. وسفير دولة الكويت لدى المملكة الليبية، ومدير مكتب ولي العهد رئيس مجلس الوزراء.

وعلم مندوب «الديار» الخاص أن المباحثات تطرقت إلى التعاون العربي لإزالة آثار العدوان، والتعاون البترولي بين البلدين وتسخير نشاطات البلدين في الحقل البترولي بصورة خاصة لما فيه خير العروبة بصورة عامة».

- وكان عنوان الخبر الثاني هو: بعثة كويتية تسافر إلى القاهرة لتقدير الأموال الكويتية المؤممة، وكانت الجمهورية العربية المتحدة قد أممت عددًا كبيرًا من الشركات كان بعضها يخص كويتيين اهتموا بالاستثمار هناك. وذكرت «الديار» حول هذا الموضوع حديثًا طويلًا تناول ما حدث منذ تأميم هذه الأموال إلى أن تقرر إرسال هذا الوفد بناءً على اتفاق بين الحكومتين.

وكان من ضمن الوفد الكويتي المرحوم محمد عبدالمحسن الخرافي وقد أشارت المجلة إلى أن القاهرة قد قامت بتعويض أصحاب الأموال المؤممة بسندات على الحكومة المصرية، وأضافت «إلا أن هذه السندات لم تصرف ولم يحصل

أصحابها على شيء، كما أنه لم يسمح لأصحاب الأموال النقدية بالتصرف بها بالطرق الشرعية».

– وفي الصفحات الأخيرة من المجلة صفحة عنوانها: «مجمع الكويت» ضمت عددًا من الأخبار الاجتماعية المتنوعة التي كان منها أخبار الكويتيين وغير الكويتيين، ولكن مما يلفت النظر خبر تقديم الأستاذ علي زكريا الأنصاري أوراق اعتماده بصفته سفيرًا للكويت في تونس، وخبر آخر يقول: «لاقت فرقة الدراسات المسرحية التابعة لوزارة الإرشاد والأنباء نجاحًا كبيرًا في تقديم الرواية التاريخية (صلاح الدين الأيوبي وبيت المقدس) على مسرح في بغداد مما استدعى عرضها لليلة ثانية. وقامت الفرقة بعد ذلك بتقديم هذه المسرحية على مسرح الأوبرا في القاهرة فنالت النجاح نفسه. وربح عروض المسرحية يعود إلى المجهود الحربي العربي».

رابعًا: ونأتي هنا إلى العدد الصادر في اليوم الثامن من شهر يونيو لسنة ١٩٦٨م، وليس فيه إلا ما جاء في الصفحة الثالثة والستين تحت عنوان «مجتمع الكويت» وتحوي هذه الصفحة مجموعة من الأخبار كان أولها خبر افتتاح النادي البحري الكويتي في تلك السنة وقد قدمت المجلة صورة لحفل الافتتاح وقالت ما يلي:

«تحت رعاية الشيخ جابر العلي السالم وزير الإرشاد والأنباء الرئيس الفخري للنادي البحري الكويتي، تم الافتتاح الرسمي للنادي في منطقة السالمية.

حضر الحفل رئيس مجلس الأمة والوزراء وأعضاء مجلس الأمة ورجال السلك الدبلوماسي وبعض كبار موظفي وزارة الإرشاد والأنباء وهواة الرياضة في الكويت، وجمهور كبير من المواطنين.

كانت كلمة السيد عبدالرحمن المضاحكة هي بدء الحفل بصفته أمير سر النادي أعلن فيها أن افتتاح النادي يعتبر دعامة جديدة في مجال الرياضة والثقافة البحرية، كما أشاد بالجهود والمساعدات وختم كلمته بتوجيه التحية إلى أمير دولة الكويت.

ثم ألقى السيد جاسم محمد الخرافي رئيس مجلس إدارة النادي كلمة شيقة تحدث فيها عن المراحل التي مر بها هذا النادي حتى برز إلى حيِّز الوجود، واستعرض في كلمته الأهداف الأساسية للنادي البحري الكويتي».

ثم توالت الأخبار هكذا:

– كان المرحوم حمد الرومي مديرًا لشؤون الرقابة في وزارة الإرشاد والأنباء حين ترأس البعثة التي قدمت مسرحية صلاح الدين الأيوبي والقدس وهذا الخبر ينص على عودته إلى البلاد بعد انتهاء مهمته، والأستاذ حمد يوسف الرومي صار فيما بعد وكيلًا لوزارة الإعلام (الإرشاد سابقًا) وقد توفي إثر مرض عضال.

– زار الكويت الفنان فريد الأطرش.

– وصل إلى البلاد مندوبان عن الوكالة الدولية للطاقة الذرية هما يحيى برادة، وجوزيف ويلسون، وكانت وزارة الكهرباء والماء قد طلبت من الوكالة المذكورة إرسال وفد منها.

فانظر منذ متى كانت الكويت تفكر في الاستفادة من الطاقة الذرية سلميًا.

– وخبر عن سفر السيد أحمد زيد السرحان إلى سويسرا للراحة الصيفية، وكان في ذلك الوقت رئيسًا لمجلس الأمة.

خامسًا: وفي العدد الصادر في اليوم الخامس عشر من شهر يونيو لسنة ١٩٦٨، ما يلي:

- كان الحديث في ذلك الوقت يتردد عن إمارات الخليج العربي، وعن الجهود التي تبذل من عدة جهات من أجل التوصل إلى صيغة تكفل توحدها بأية صورة من صور الوحدة. وكتب مندوب «الديار» في الكويت عن هذا الموضوع كتابة مستفيضة، وذكر فيما كتب ما انتشر عن فكرة اتحاد الإمارات العربية، وتحدث عن أن البداية كانت بعد إعلان بريطانيا عزمها على الانسحاب من المنطقة في مدة أقصاها سنة ١٩٧١م إذ قام حكام هذه الإمارات بالتشاور فيما بينهم حول الوضع المستقبلي لبلدانهم، وقد تحمست الدول العربية فأدلت بدلوها في هذا الأمر، وقد قال المندوب إن سمو الشيخ جابر الأحمد الجابر، وسمو الشيخ صباح الأحمد الجابر قد استبقا هذا التحرك فسافرا إلى إمارات الخليج العربي قبل سنتين من تاريخ نشر ما ورد في المجلّة، وأعلن أن القصد من هذه الزيارة الأميرية كان توطيد أواصر الأخوة والمحبة بين الكويت وهذه الإمارات. وقام صاحب السمو الشيخ صباح الأحمد الجابر فيما بعد بزيارة أخرى للموضوع نفسه.

كانت الأمور كلها ملتبسة في ذلك الوقت، وقد تم اجتماع موسع في القاهرة ضم ممثلي الإمارات كلها، وقد تبلور هذا الاجتماع عن رأي يقول إن الأمر يحتاج إلى مزيد من البحث، ولكن دولة الإمارات العربية المتحدة قامت في سنة ١٩٧١م، وقام مجلس التعاون لدول الخليج العربية في سنة ١٩٨١م.

- كان سمو الشيخ صباح السالم الصباح قد زار إيران في تلك الفترة بناءً على دعوة من الشاه محمد رضا بهلوي، وقد نشرت المجلة تصريحًا للشيخ صباح حول هذه الزيارة، وانطباعاته عما شاهد في إيران، وما استمع إليه من الشاه آنذاك.

- جرى التوقيع على قرض لليمن قدمه الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية، ووقع القرض رئيس الصندوق ووزير مالية الكويت السيد عبدالرحمن سالم العتيقي، وكان الغرض من هذا القرض هو تمويل مشروع وادي زبيد باليمن.

- وكما جرت عادة «الديار» جاءت الصفحة قبل الأخيرة بعنوان: مجتمع الكويت، فيها ما يلي:

- خبر عن ولادة الأخت المذيعة أمل عبدالله وإنجابها لطفلها: خالد.

- تلقى الشيخ عبدالله الجابر الصباح بصفته وزير التجارة والصناعة، والسيد عبدالعزيز الصقر بصفته رئيس غرفة تجارة الكويت دعوة من وزير الاقتصاد السوري لحضور حفل افتتاح معرض دمشق الدولي.

- عاد الأخ الكريم عبداللطيف الثويني من لندن بعد أن أجرى فحوصات طبية هناك، وبدأ باستقبال المهنئين له بالسلامة.

وهناك عدد آخر من الأخبار والاجتماعات التي لا تخرج عن إقامة ولائم أو زواجات أو ولادات وما أشبه ذلك.

سادسًا: في العدد الصادر في اليوم الثاني والعشرين من شهر يونيو لسنة ١٩٦٨م نجد ما يلي:

- ذكرت المجلة تفصيلًا على صفحتين تناول أمر زيارة سمو الشيخ صباح السالم الصباح للعراق، وجاء في ذلك ما نصه كما يلي:

«قام أمير دولة الكويت الشيخ صباح السالم الصباح يوم السبت الماضي بزيارة رسمية إلى العراق استغرقت أربعًا وعشرين ساعة. وذلك بدعوة من الرئيس العراقي الفريق عبدالرحمن محمد عارف، وقد أجرى الرئيس العراقي والأمير الكويتي مباحثات رسمية استغرقت ثلاث ساعات تناولت العلاقات القائمة بين البلدين منها موضوع شط العرب ومسألة جر مياهه إلى الكويت، ومسألة قيام تعاون اقتصادي فعال ومتكامل وتشغيل رؤوس الأموال الكويتية في العراق، كما تناولت كذلك الوضع العربي بشكل عام والوضع في منطقة الخليج العربي.

وإن كانت مسألة الحشودات الإسرائيلية قد استأثرت بالاهتمام البالغ.

وقد صدر إثر الاجتماع بيان مشترك جاء فيه أن المباحثات بين الجانبين اتسمت بالرغبة المخلصة في توثيق عرى الروابط الأخوية القائمة بين البلدين في مختلف المجالات. وقد تناولت المباحثات كذلك استعراض الوضع العربي الراهن والتطورات التي تمر بها القضية الفلسطينية والنتائج الخطيرة التي ينطوي عليها العدوان الإسرائيلي المتكرر على الأرض العربية».

ولا تعليق لنا على ما جرى فإن السنوات التي لحقت هذه الزيارة كشفت نكثهم للعهود، وعدم وفائهم بالالتزامات، وما خفي كان أعظم.

سابعًا: وجاء العدد الصادر في اليوم السابع عشر من شهر أغسطس لسنة ١٩٦٨م، وفي هذا العدد خبران فقط يتعلقان بالكويت، واختفت صفحة مجتمع الكويت، ويبدو أن الصيف قد نقل المحرر إلى لبنان ليستريح.

جاء في الخبر الأول أن سمو الشيخ صباح السالم الصباح قد وصل إلى لبنان في رحلة صيف اعتادها وأن عددًا من السياسيين يترقبون فرصة استعداده لاستقبال الزوار حتى يأتوا إليه مسلّمين.

وفي الخبر الثاني أن سموه قد أقام مأدبة في قصره بزحلة، تكريمًا للرئيس شارل حلو كان من حضورها الشيخ عبدالله الجابر الصباح، وحضرها من الجانب اللبناني الرئيسان كامل الأسعد وعبدالله اليافي والوزراء والنواب وعدد من كبار موظفي الدولة.

ثامنًا: هذا هو العدد الأخير من أعداد مجلة الديار التي تحدثت عنها في البداية، وقد صدر في اليوم الثامن والعشرين من شهر سبتمبر لسنة ١٩٦٨م.

وفي هذا العدد خبر مصوّر عن مغادرة الشيخ عبدالله الجابر الصباح لبيروت بعد انقضاء إجازته الصيفية. وكان الشيخ عبدالله - آنذاك - كما أشرنا فيما سبق وزيرًا للتجارة والصناعة، والتقطت له الصورة في مطار بيروت وكان في وداعه القائم بأعمال سفارة الكويت هناك السيد جاسم بورسلي.

- وعادت صفحة مجتمع الكويت إلى المجلة بعد أن توقفت بسبب عطلة الصيف، وجاء فيها:

- خبر عن توقع وصول سمو الشيخ صباح السالم الصباح من لبنان إلى الكويت في اليوم الثاني من شهر أكتوبر ١٩٦٨م.

- وخبر عن وصول السيد أحمد زيد السرحان رئيس مجلس الأمة وكان في استقباله عدد من الوزراء وأعضاء مجلس الأمة وكبار موظفي المجلس، وكنا قد أشرنا إلى رحلته قبل قليل.

- يقوم صاحب السمو الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح بصفته وزيرًا للخارجية بزيارة رسمية لليابان في اليوم الأول من شهر أكتوبر ١٩٦٨م، وذلك تلبية لدعوة تلقاها من وزير خارجية اليابان، وذكرت «الديار» أن هذه الزيارة سوف تكون مهمة، وسوف تتم خلالها مباحثات سياسية عامة تشمل تمتين العلاقات بين البلدين، والأوضاع السائدة في الشرق الأوسط واستبيان موقف اليابان منها.

- غادر الكويت إلى لندن السيد أحمد الدعيج مدير عام مجلس التخطيط للاجتماع ببعض المهندسين المكلفين بدراسة المخطط الهيكلي لمدينة الكويت، وسوف يتوقف في طريق عودته إلى الكويت بباريس لبحث الموضوع نفسه.

- وصل إلى الكويت السيد يحيى حمودة رئيس منظمة التحرير الفلسطينية للتباحث مع المسؤولين حول قضايا الفدائيين الفلسطينيين ومحاولة توحيدهم.

هذه هي نهاية ما ورد عن الكويت في أعداد مجلة الديار اللبنانية، وقد آثرت أن أعرضها هنا لأنها تؤرخ - بصورة ما - للكويت ومجتمعها في سنة ١٩٦٨م، ويلاحظ أن الذين عاصروا هذه الأحداث لا يستطيعون تذكرها الآن لمضي مدة من الزمن على حدوثها، وهذا هو ما شدّ عزمي على نشرها. وفي الختام لا يفوتني أن أشكر الأخ الأستاذ عبدالرحمن الخرجي على هديته التي استفدنا منها جميعًا.

****

نادي المعلمين - الكويت ١٩٥١م(١)

عندما نشرت كتابي المسمى «من تاريخ شارع الكويت» في سنة ٢٠٠٤م كان الشارع المعني هو شارع عبدالله السالم الذي كان يطلق عليه اسم: الشارع الجديد، وهو من أوائل شوارع الكويت بل هو أولها من حيث التنظيم والعناية، ومن حيث اكتظاظه بالمحلات التجارية والمقاهي والرواد الذين يأتون إليه من كل مكان.

وهذا هو سبب ذكري لنادي المعلمين لأنه وارد في فقرة من فقرات الكتاب أطرحها هنا كما هي، ثم أعلق عليها:

«يعتبر هذا النادي من أقدم الأندية في الكويت، ولم يكن قبله من الأندية إلا النادي الأدبي الذي تأسس في سنة ١٩٢٢م، وحين جاء بعد ذلك نادٍ آخر في سنة ١٩٤٠ لم يكتب له النجاح فمات في مهده، أما نادي المعلمين فقد تأسس في سنة ١٩٥١م باهتمام ومتابعة من الأستاذ الشاعر عبدالمحسن الرشيد الذي جمع المعلمين لذلك في المدرسة الأحمدية وعرض عليهم الفكرة التي نالت تأييدهم، واستخرج هؤلاء الترخيص بافتتاح النادي، وقد رحب مجلس المعارف يومذاك بهذا العمل، واقترح طباعة القانون الأساسي للنادي، كما قرر مساعدة النادي ماليًا، وسمح لأعضائه باستخدام ساحة المدرسة القبلية للألعاب الرياضية في إجازة الصيف، ووافق على مشروعهم الخاص بتعليم الكبار.

---

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١١/٨/١٧م.

وصف الأستاذ عبدالمجيد حسين موقع النادي فقال إنه: «أنشئ بالشارع الجديد في بيت مؤجر مقابل البنك المركزي (حاليًا) على التقاطع مع شارع علي السالم حتى سنة ١٩٥٣م، ثم انتقل إلى بيت في منطقة الصالحية، خلف شارع الجهراء، فهد السالم حاليًا».

كان نادي المعلمين نشطًا في كافة المجالات وخاصة عندما انتقل إلى مقره الكائن في المنطقة الأخيرة، فبالإضافة إلى مشروع محو الأمية، كان يقدم الندوات والمحاضرات، ويستقبل الأدباء والشعراء من خارج الكويت ويعرض المسرحيات، وينشر مجلة الرائد، ويقدم مقترحاته إلى دائرة المعارف بما يفيد العمل التربوي في ذلك الوقت. وقد استمر النادي في مقره هذا حتى سنة ١٩٥٩م حيث تم حلّه أسوة بالأندية والجمعيات الأخرى التي حُلت آنذاك. ولكن هذا النادي عاد في سنة ١٩٦٢م تحت اسم جمعية المعلمين.

وهذا هو تعليقنا على ما سلف:

فيما يتعلق بالنادي الذي لحق بالنادي الأدبي يبدو أنه كان في سنة ١٩٤٦م وليس في سنة ١٩٤٠م كما ورد في أحد المراجع، وكان أقرب ما يكون إلى النادي الأدبي السابق وليس مختصًا بالمعلمين وإن كان في هيئته التأسيسية عدد منهم. وقد روى الأستاذ صالح عبدالملك الصالح حكاية هذا النادي لهيئة تحرير كتاب «تاريخ التعليم في دولة الكويت» فقال: «اجتمعت مع عدد من الشباب لعمل نادٍ أدبي كويتي، منهم: عبدالله زكريا الأنصاري، عبدالوهاب العدواني، فهد الدويري، أحمد العدواني، إبراهيم عبدالعزيز المقهوي، محمد عبدالسلام شعيب، سعود الخرجي، حمود عبدالعزيز المقهوي، أحمد زيد السرحان ووقعوا كتابًا سلموه إلى السيد عبدالله الملا سكرتير الأمير أحمد الجابر. ولعلهم أشاروا إلى أنه «لا لهم شغل بالسياسة وإنما هو نشاط ترويحي يعملون فيه ندوات أدبية وشعرية وما شابه ذلك».

طلب هؤلاء من صالح عبدالملك أن يوصل الكتاب اعتمادًا على نشاطه في إقناع سمو أمير البلاد.

يقول:

«وعندما قابلت الأمير طلب مني أن أمر عليه بعد أسبوع، وفعلًا حدث ذلك ووافق سمو الأمير وأصبح الشيخ عبدالله الجابر رئيسًا للنادي بعد استشارته وموافقته، وتم انتخاب عبدالله زكريا الأنصاري مديرًا، وصالح عبدالملك أمين السر، ومحمد قبازرد أمين الصندوق، وتحدد رسم الاشتراك بعشر ربيات، واختير بيت أحمد البحر مقرًا للنادي بأجر شهري قدره أربعون ربية - بعد تدخل الشيخ عبدالله الجابر - رئيس المعارف آنذاك.

لكن هذا المشروع مات في مهده.

«صار خلاف على المراكز وبسرعة تفرقنا ومات النادي».

ولقد استمر الأستاذ صالح في الحديث عن نادي المعلمين الذي جاء بعد ذلك النادي الذي لم يصمد للعواصف، فقال: «زارني الشاعر عبدالمحسن الرشيد، واقترح إقامة نادٍ للمعلمين»، وأضاف أنه استمع إلى أبي ماهر وهو يتساءل، إلى متى نظل نحن المعلمين مذبذبين ليس لنا مكان واحد؟ ولم لا يتم السعي إلى إيجاد نادٍ للمعلمين؟

ويبدو أن هذا الاقتراح قد لقي قبولًا لدى الأستاذ صالح عبدالملك، ولذا فقد أيد زميله عبدالمحسن الرشيد في كل ما قاله. ومن هنا، وفي اليوم نفسه انطلق أبوماهر في العمل على تحقيق الفكرة. ويقول الأستاذ صالح: «دعا (يقصد الأستاذ عبدالمحسن) المعلمين إلى اجتماع تم في المدرسة الأحمدية بغرض إنشاء نادٍ للمعلمين. وتمت الموافقة، وروجع الشيخ عبدالله الجابر (رئيس المعارف) بهذا

الشأن فاستشار سمو أمير البلاد آنذاك الشيخ عبدالله السالم الصباح. وأوضح أنهما اتفقا على أهمية ظهور مثل هذا النادي وشجعاه ولهما الفضل في التأسيس.

ولم يكن عدد المعلمين في تلك الفترة كبيرًا، ولكنهم كانوا يشكلون مجموعة حسنة من المتعلمين، وكان اجتماع بعضهم ببعض يتم في أماكن عامة، بلا مكان واحد يجدون فيه الأجواء المناسبة لنشاطهم الثقافي والعلمي، وكان افتتاح النوادي ممنوعًا بعد منع تجمع «الكتلة الوطنية» السياسي منذ أحداث المجلس التشريعي سنة ١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م.

وهكذا تم استئجار بيت في الشارع الجديد ووزعت قيادة النادي فأضحى حمد الرجيب مديره، وصالح عبدالملك سكرتيره، وعبدالعزيز الدوسري أمينًا للصندوق، وكل من عبدالمحسن الرشيد وخالد المسلم وأحمد العدواني أعضاء في مجلس الإدارة. ثم تغير ذلك بسفر حمد الرجيب فصار صالح عبدالملك الرئيس وعبدالعزيز الدوسري أمين السر وفهد الدويري للصندوق، واقتصرت عضوية النادي على المعلمين أولًا لكنها ضمت فيما بعد الشباب المثقف».

كانت موافقة مجلس المعارف مهمة جدًا لأن أعضاء النادي كانوا يعملون ضمن موظفي دائرة معارف الكويت التي يشرف عليها المجلس، ولأن كافة الأنشطة من هذا النوع بما فيه الأندية الرياضية لابد وأن تحصل على ترخيص بالبدء بالعمل من المجلس المذكور، وهكذا بدأ العمل تدريجيًا وظهر أن هذه الخطوة من قبل المعلمين كانت مطلوبة لأن مجلس المعارف كان يرى فيها نوعًا من النشاط المؤازر لعمله، وجرى الأمر كما يلي:

«رافق مجلس المعارف إنشاء النادي خطوة فخطوة منذ كان فكرة، فوافق على كتاب نظار المدارس بطلب الإذن به في ٨ من ربيع الآخر ١٣٧٠هـ - ١٩٥١/١/١٦م وقال المجلس إنه لا مانع لديه من الموافقة على هذه الرغبة، وفي ٦ فبراير أظهر

ارتياحه لكتاب الشكر الذي كتبه مجلس إدارة النادي للمجلس. واقترح رئيس المجلس في ١٢ من ربيع الآخر ١٣٧٠هـ - (١٩٥١/١/٢٠م) طبع القانون الأساسي للنادي وتوزيعه على المعلمين ليعلموا أهدافه وحدود عمله. ثم وافق المجلس في ٨ من رجب ١٣٧٠هـ - (١٩٥١/٤/١٤م) مبدئيًا على مساعدة النادي ماليًا بعد الاطلاع على أوضاعه من قبل عضوين من المجلس، وسمح للنادي باستخدام ساحة المدرسة القبلية للألعاب الرياضية في إجازة الصيف، ثم وافق على مشروعه الإنساني القومي بتعليم الكبار، وخصص مدرسة لاستخدامها لهذه الغاية، وانحصرت أهداف النادي في رفع المستوى الثقافي والرياضي في الكويت، وتوثيق عرى التعاون العام بين أعضائه واستغلال أوقات الفراغ بما يعود بالنفع العام».

كان مقر نادي المعلمين فيما بعد في منطقة الصالحية بالقرب من مبنى دائرة معارف الكويت، ونستطيع أن نتصور موقعه الآن فقد كان أمام مسجد الغربللي المجاور لدائرة بلدية الكويت شمالًا عنه.

ولقد كان قبول صاحب السمو الشيخ صباح الأحمد الجابر رئاسة شرف النادي خطوة إلى الأمام بالنسبة لهذا النشاط الجديد، ولذا فقد قرر مجلس المعارف في اليوم الأول من شهر أبريل لسنة ١٩٥٢م زيادة المساعدة المالية السنوية من ألف ربية إلى ألفين من الربيات، كما قرر في اليوم الرابع والعشرين من شهر فبراير لسنة ١٩٥٣م صرف خمسة عشر ألف ربية مساعدة للنادي تصرف سنويًا.

جرت انتخابات النادي لاختيار الهيئة الإدارية التي تسير أموره بعد أن أقر قانونه وذلك في اليوم الثامن والعشرين من شهر فبراير لسنة ١٩٥٢م، وفي الوقت نفسه فتح النادي المجال لغير العاملين في سلك التدريس للانضمام إليه بحيث صارت له صفة عامة، ونتيجة لذلك فقد كانت نتائج الانتخابات مقسومة بين الفريقين كما يلي:

ستة أعضاء من سلك المعارف وهم:

- حمد الرجيب. - عبدالعزيز الدوسري.
- أحمد العدواني. - صالح عبدالملك.
- محمد زكريا. - بدر السيد رجب.

ومن خارج سلك المعارف:

- خالد المسلم. - فهد الدويري.
- عبدالعزيز المساعيد. - محمد العدساني.
- خالد الغريللي. - عبدالمحسن الزبن.

وكان من أعضاء النادي المؤسسين الذين سعوا إلى إظهار ناديهم على الصورة التي بدت لنا من تنظيم وحسن إدارة وحرص على المبادئ التربوية كل من:

١ - عقاب الخطيب. ٢ - عبدالله الجاسم العبيد.

٣ - صالح شهاب. ٤ - يوسف العلي.

وآخرون..

هذا وقد كانت لنادي المعلمين أنشطة متعددة، وكان بمثابة خلية نحل يستمر العمل فيه في كل وقت وتزداد كثافة المتواجدين من الأعضاء في الفترة المسائية وقد قام بمشروع جليل هو مشروع محو الأمية، وهو أول عمل من نوعه يتم في الكويت وسوف نعود للحديث عنه فيما بعد، وقام بإصدار مجلة الرائد التي كانت على مستوى عال من الاتقان، وكانت ملآى بالمقالات النافعة في شتى المجالات، وهي في الوقت نفسه سجل لأحداث ذلك الزمان، ومن أنشطة النادي المعروفة إقامة الندوات والمحاضرات وعرض الأفلام - في وقت لم تنشأ خِلالَهُ أيه دور للسينما في الكويت - وتقديم العروض المسرحية، وكان دور الأستاذ حمد الرجيب بارزًا في هذا المجال فقد كان من المتخصصين الكويتيين الأوائل في فنون المسرح.

بقي نادي المعلمين مستمرًا في عمله حتى كانت سنة ١٩٥٩م، وفي هذه السنة أغلقت كافة الأندية في البلاد وكان نادي المعلمين واحدًا منها، فتوقف ذلك العمل الاجتماعي الأهلي الكبير منذ ذلك الوقت، إلى أن بدأ بعض الناشطين من المعلمين الأوائل ومنهم بعض أعضاء نادي المعلمين في التفكير بإقامة نوع من النشاط يجمع المعلمين كما كان يفعل النادي القديم فتحققت لهم فكرة إنشاء جمعية المعلمين. ولكنها لم تكن عملًا طبق الأصل لما كان يبدو في نادي المعلمين فلكل زمن رجاله ولكل رجل خطته وطريق سيره.

بقي لنا أن نتحدث عن مشروعي النادي المهمين اللذين أشرنا إليهما قبل قليل وذكرنا أن القول فيهما سوف يأتي لاحقًا. وهذا هو أوان ذلك:

نشرت مجلة البعثة في المجلد السادس منها ضمن صفحتين كانت قد خصصتهما لأخبار الكويت تحت عنوان «هنا الكويت» ص ١٢٨ وص ١٢٩، ما يلي بحسب نص ما ورد فيها:

- «أشرنا في العدد الماضي من «البعثة» إلى أن نادي المعلمين سوف يصدر مجلة علمية أدبية اجتماعية كل شهر، وقد علمنا أخيرًا أن هيئة تحرير هذه المجلة الكبيرة ستتألف من الإخوان الأساتذة حمد الرجيب وأحمد مشاري العدواني وفهد الدويري، وأنها سوف تطبع في دار الكشاف ببيروت».

- «قَبِل سعادة الشيخ (صاحب السمو) صباح الأحمد الجابر رئاسة الشرف لنادي المعلمين، وقد أبدى روحًا طيبة كريمة، وشعورًا وطنيًا صادقًا نحو النادي».

- «تمت الاستعدادات اللازمة لتفيذ مشروع مكافحة الأمية في الكويت، وقد فتحت بعض المدارس لتسجيل الطلاب الراغبين في الانتساب، وجند للتدريس ما يقارب الثلاثين مدرسًا» وهذه هو بداية جهود نادي المعلمين في هذا السبيل، وقد وقع وفق ما أشرنا إليه سالفًا.

كان اهتمام صاحب السمو الشيخ صباح الأحمد الجابر بمشروع محو الأمية الذي قام به نادي المعلمين اهتمامًا كبيرًا بصفته رئيس الشرف لهذا النادي، وكان دائم السؤال عن المراحل التي قطعها المشروع، وعن العقبات التي تقف في طريقه حتى يذللها من أجل أن يسير هذا المشروع الوطني الإنساني سيرًا حثيثًا إلى النجاح، وكان فوق ذلك يقوم بزيارات متعددة إلى مراكز محو الأمية التي هيأتها للنادي دائرة معارف الكويت دعمًا منها لهذه الجهود الخيرة، وكانت عناية صاحب السمو سببًا من أهم الأسباب التي أدت إلى نجاح المشروع الذي تبنته دائرة الشؤون الاجتماعية والعمل بعد إغلاق النادي، وكان من حسن الصدف أن يكون سمو الأمير هو رئيس هذه الدائرة، وأن يكون الأستاذ حمد الرجيب مدير نادي المعلمين هو مديرها.

أشرفت على مسيرة مشروع محو الأمية لجنة من أعضاء النادي تتكون من الشيخ عبدالعزيز حمادة، والأساتذة: صالح عبدالملك، وسليمان الحداد، ومحمد النشمي، ويوسف العمر، وعبدالمجيد السالم. علمًا بأن هذه اللجنة إنما هي واحدة من اللجان التي أنشأها النادي، وكان منها اللجنة الرياضية، ولجنة التمثيل، وهناك لجان أخرى ينوي الأعضاء تشكيلها منذ بداية عمل النادي، وأظنها قد نفذت، ومنها العزم على إنشاء مكتبة كبيرة متنوعة الموضوعات من أجل أن يستفيد منها الأعضاء، وأولئك الباحثون من غيرهم. وقد أقبل على الانضمام إلى عضوية النادي عدد كبير من المعلمين وغير المعلمين، وذلك لما شاهده هؤلاء من أنشطة داخلية ومشروعات نافعة خارجية كان يقوم بها الأعضاء المؤسسون منذ البداية.

أما مجلة الرائد فقد كانت مفخرة بمعنى الكلمة لا لنادي المعلمين فحسب بل للكويت بأسرها، فقد كانت نوعًا راقيًا من الصحافة تملؤها المقالات الهادفة والمحاورات والأشعار، وتضم أخبار الوطن وأخبار رجاله، ومما يسعدنا اليوم أن نجدها بين أيدينا مصورة عن الأصل في ثلاثة مجلدات فاخرة أصدرها - مشكورًا - مركز البحوث والدراسات الكويتية في سنة ١٩٩٩م، ويستطيع كل راغب في أعدادها شراءها من المركز مباشرة.

كان صاحب السمو الأمير حين كان رئيس شرف النادي مهتمًا بهذه المجلة يشجعها ويدعو إلى استمرار صدورها، كما كان مجلس معارف الكويت مهتمًا بها ولاسيما رئيس المجلس المرحوم الشيخ عبدالله الجابر الصباح الذي كان له اهتمام بمثل هذا النوع من الأنشطة.

صدر العدد الأول من مجلة الرائد في شهر مارس لسنة ١٩٥٢م واستمر صدورها حتى سنة ١٩٥٤م، وكان العدد الذي صدر في هذه السنة هو آخر أعدادها، وكان صدوره في شهر يناير.

كتب أخي الأستاذ الدكتور عبدالله يوسف الغنيم رئيس مركز البحوث والدراسات الكويتية تصديرًا ملائمًا نشره مع المجلد الأول من طبعة المركز لمجلة الرائد، ويكفي القارئ أن يطلع على هذا التصدير ليجد فيه كل ما يحتاج إليه من معلومات من المجلة وعن القائمين عليها، وكانوا ثلاثة أشرنا إلى أسمائهم فيما سبق حين نقلنا الخبر الذي كتبته مجلة «البعثة» عن توقع صدر الرائد، وهم الأساتذة: حمد الرجيب وأحمد العدواني وفهد الدويري، رحمهم الله وجزاهم خيرًا عن كل ما قدموه للوطن من خدمات.

ولا ننسى أن نترحم على كافة الذين بدأوا مسيرة إنشاء نادي المعلمين حتى استطاعوا أن يخرجوه إلى النور وأن نذكر الأحياء منهم بالخير، وندعو الجهات المختصة إلى القيام بتكريم ذلك الفوج المبارك من أبناء الوطن الذين أحبوه وأنتجوا له.

****

ملحاق خير

مرت - في هذا المقال - عدة أسماء للمشاركين في إنشاء نادي المعلمين، وللرعيل الأول من أعضائه العاملين منذ بدايته. وبقيت أسماء أخرى كان لابد من ذكرها لأهمية دورها في خروج النادي إلى الوجود، مع أننا سوف لن نحيط بكافة الأسماء لتقادم العهد على تلك الفترة الذهبية التي كان نادي المعلمين يؤدي واجبه الاجتماعي والوطني فيها.

لجأت إلى أخي الأستاذ عبدالله الجاسم العبيد وهو من أوائل المدرسين الكويتيين، وأوائل المنضمين إلى هذا النادي. وقد استمر في عضويته إلى أن أغلق بابه بأمر الحكومة أسوة بغيره من الأندية التي كانت تعمل آنذاك.

الأخ أبو رائد لا يحتاج إلى تعريف فإن دوره التربوي معروف منذ كان مدرسًا إلى أن صار وكيلًا مساعدًا في وزارة التربية ورئيسًا لجمعية المعلمين الكويتية، التي بدأت رئاسته لها في سنة ١٩٦٦م، وقد بدأ نشاط الجمعية في ١٩٦٣/١٠/٢٤م.

لذا لجأت إلى الأخ عبدالله الجاسم لكي يتذكر بعض الأسماء التي كان أصحابها زملاء له في نادي المعلمين، فزودني بعدد لابأس به سوف أذكره هنا. وليغفر لنا من لم نذكر اسمه لسبب خارج عن إرادتنا وهو النسيان بسبب طول مدة توقف العمل في النادي، وسوف يلاحظ القارئ تكرر بعض الأسماء في الملحاق بعد ذكرها في المقال وذلك لأنني آثرت أن أذكر كافة الأسماء التي أدلى بذكرها أخي الأستاذ أبو رائد.

وهذه هي أسماء الأعضاء كما ذكرها لي:

١ - إبراهيم الفهد.

٢ - يوسف العبدالرزاق.

٣ - أحمد المهنا.

٤ - عبدالعزيز العدساني.

٥ - سعود الخرجي.

٦ - يوسف العلي.

٧ - محمد العلي.

٨ - يوسف العبيد.

٩ - عبدالعزيز المساعيد.

١٠ - محمد علي.

١١ - خالد المضف.

١٢ - خالد المسعود الفهيد.

١٣ - صالح الشهاب.

١٤ - إبراهيم عبدالملك.

١٥ - صالح عبدالملك.

١٦ - عبدالرحمن عبدالملك.

١٧ - إبراهيم المقهوي.

١٨ - محمد صالح تقي.

١٩ - علي أمان.

٢٠ - أيوب حسين.

٢١ - محمد الجسار.

٢٢ - عبداللطيف براك الخميس.

٢٣ - محمد القديري.

٢٤ - فهد العبدالجادر.

٢٥ - عبدالعزيز الدوسري.

٢٦ - راشد إدريس.

٢٧ - مجرن الحمد.

٢٨ - أحمد البشر الرومي.

٢٩ - عبدالعزيز الزامل.

٣٠ - عبدالمحسن الرشيد.

٣١ - محمود محيي الدين.

٣٢ - عبدالعزيز حمادة.

٣٣ - عبدالمحسن المسلم

٣٤ - عبدالله الجاسم العبيد .

٣٥ - محمد الفوزان.

٣٦ - علي القرطاس .

٣٧ - عبدالوهاب القرطاس.

٣٨ - عبدالوهاب الزواوي .

٣٩ - محمد السداح .

٤٠ - بدر السيد رجب .

٤١ - عبدالعزيز محمود .

٤٢ - عبدالعزيز عبدالمحسن العنجري.

٤٣ - عقاب الخطيب.

٤٤ - عبدالله عيسى مطر .

٤٥ - عبدالمجيد محمد حسين .

٤٦ - عيسى الحمد .

٤٧ - أحمد مساعد الرفاعي .

وبعد؛ فليست هذه الأسماء هي أسماء كامل أعضاء النادي الذين قيل إن عددهم كان يزيد على مائة وستين عضوًا، ولكن هذا هو ما ورد في الذهن حتى الآن، وأرجو أن يستذكر الأخ الكريم عبدالله الجاسم العبيد أسماء باقي الأعضاء، والشكر له أولًا وآخرًا.

****

طيور الفنان بدر القطامي[1]

إثر وفاة الصديق العزيز المرحوم الفنان بدر القطامي في اليوم الخامس من شهر مارس لسنة ٢٠٠٩م، كتبت مقالًا ضمن مجموعة «الأزمنة والأمكنة» نشرته جريدة «الوطن» تحت عنوان: «الفنان بدر القطامي وجذور الكويت» احتوى على حديث عنه تناول سيرته الذاتية وأساليبه الفنية، ثم خرجت فيه إلى معرض أقامه تحت عنوان جذور الكويت وصدر به كتيب نشره مركز البحوث والدراسات الكويتية في سنة ١٩٩٨م.

هذه الفنان بديع الإنتاج، وغزيره في الوقت نفسه، محب للكويت وللكويتيين، يرسم كل ما يقع عليه بصره من أمور ذات علاقة بذلك. فهو يرسم الناس دون تمييز، وهو يرسم الأماكن وبخاصة السواحل والفرجان القديمة، وهو يتتبع ما يجري في الحياة أمامه فيرسم ماله علاقة بالأحداث.

ولم يكتف بكل ذلك بل رسم طيور الكويت وإبدع في ذلك أيما إبداع. وأخذ إنتاجه الذي كان يتمثل في عدد كبير من اللوحات الرائعة الصنع فرحل به إلى عدد من الدول لكي يطلع أهلها على ما يبدعه أبناء الكويت من فنون تشكيلية هي جديرة بأن تعرف، وأن يحصل الفنانون الكويتيون بعد عرضها على التقدير والتبجيل. فقد أقام لرسومه معرضًا في بيروت سنة ١٩٦٦م افتتحه الشيخ جابر العلي الصباح وكان هذا الرجل من المعجبين بالفنان بدر القطامي والداعمين له، وفي السنة ذاتها أقام معرضًا له في بغداد برعاية وزير الإعلام العراقي الدكتور

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١١/٨/٢٤م.

محمد ناصر. وتجدر بنا الإشارة إلى أن هذا الوزير جاء بعد ذلك إلى الكويت وعمل مدرسًا بجامعتها. ويبدو أن هذه السنة كانت سنة المعارض بالنسبة لفناننا التشكيلي القدير فأقام بها معرضًا في هولندا تحت رعاية قنصل الكويت هناك. ثم أقام معرضًا بمملكة البحرين كان افتتاحه تحت رعاية سفير الكويت هناك وهو في ذلك الوقت الأخ الأستاذ سليمان ماجد الشاهين. ولم يكتف بذلك فانطلق إلى الصين، وفي بكين أقام معرضه في سنة ١٩٨١م، وافتتحه سفير الكويت هناك.

وأقام عرضًا لفنه في قطر سنة ١٩٨١م وتم افتتاحه في حفل برعاية وكيل وزارة الإعلام القطري. وفي الرباط سنة ١٩٨٢م افتتح الأستاذ السفير عبدالله أحمد حسين الرومي معرضًا لصاحبنا تحت رعايته، ثم عرض فنه في الرياض سنة ١٩٩٣م وكان افتتاح المعرض برعاية الأمير سلطان بن فهد بن عبدالعزيز، وكان أول معرض تشكيلي كويتي يقام خارج الكويت بعد التحرير.

وفي سنة ١٩٩٩م أقام معرضًا له في مسقط تحت رعاية قائد البحرية السلطانية العمانية شهاب بن طارق. وعرض فنه في تونس سنة ٢٠٠٠م وتم افتتاحه برعاية سفير دولة الكويت هناك، وكان في دار الثقافة المغاربية.

وذهب إلى موسكو في سنة ٢٠٠٢م، فأقام معرضه الخاص هناك، وتم الافتتاح تحت رعاية مدير إدارة الشرق الأوسط بوزارة الخارجية الروسية.

هذا ما كان من شأن عروضه في خارج البلاد، أما عروضه التي قدمها على أرض الوطن فهي كثيرة منها ما كان مستقلًا به، ومنها ما كان بالاشتراك مع زميل أو أكثر من زملائه الفنانين الكويتيين. وتنوعت عروضه كما تنوعت أماكن هذه العروض. فقد عرض في صالة أحمد العدواني بمنطقة ضاحية عبدالله السالم لأكثر من مرة. وعرض في جامعة الكويت، وكان في سنة ١٩٦٤م قد أقام معرضًا له في صالة المدرسة المباركية قام بافتتاحه الشيخ عبدالله الجابر الصباح وهو في ذلك الوقت وزير التربية.

يصحب كل هذا النشاط إصدار كتيبات عديدة تشرح كل شيء عن اللوحات التي يقدمها، ويكاد كل منها يكون كتابًا متكاملًا، لأنه يختار لكل معرض موضوعًا معينًا يدور حوله، وبالتالي يكون الكتيب المصاحب له متخصصًا في الحديث عن هذا الموضوع. وإضافة إلى ذلك فإن له كتابين كبيرين يحتويان على رسوم متعددة ومتنوعة الأول منها هو الذي أطلق عليه اسم: «حديث الألوان» والثاني هو: «بورتريه» نجد الأول منهما وقد ضم لوحات متعددة ومتنوعة، يحتاج المرء إلى وقت طويل لتحري ما فيها من التفاتات فنية بديعة، وما ترمز إليه من أمور يعنيها هذا الفنان النابغة. وعندما يتصفح القارئ كتب الفنان بدر القطامي هذه يجد أنه في نهاية المطاف قد اطلع على أمور كثيرة تحكي له العادات والتقاليد وتصور له المباني القديمة، وتقرب إليه صور الماضي ليطلع عليها وكأنه يعيش زمنها.

الكتاب الثاني وهو «بورتريه» كتاب يصور أشخاصًا عرفهم الفنان أو أعجب بهم من بعد، وقد وجد أنهم يستحقون أن يخلدوا صورًا يحتفظ بها الناس ويجعلونها تحت أنظارهم وبين أيديهم، وهي في الواقع صور بديعة رائعة، ومن صَوّرهم فيها هم أهل للتخليد، ولقد كان جهده هذا جهدًا عظيمًا متعبًا ولكنه لم يتردد في إكمال العمل الذي عزم على القيام به مهما كلفه ذلك من وقت، ومهما أتعبه القيام بهذه المهمة صحيًا فهو قد قام بذلك وهو يعاني وطأة المرض الذي جعله يحضر إلى حفلات افتتاح معارضه الأخيرة وهو منهوك القوى يسير على عُكازين بسبب الأمراض التي ألمت به، وأدخلته إلى المستشفى للعلاج في أكثر من مرة.

في هذا الكتاب صور شخصية تستغرق كل صورة منها صفحة كاملة وهي تضم أناسًا متعددين، متنوعي المشارب فيهم الأديب والفنان، والسياسي والطبيب وغير ذلك وفيهم الكويتي وغير الكويتي وإن كان أبناء الكويت هم ذوو العدد الأكبر ضمن الصور التي حواها كتاب بروتريه. ولما كان العدد كبيرًا فإن من الصعوبة

بمكان أن تقدم كافة الأسماء التي وردت لها لوحات في هذا الكتاب ولكننا نذكر منهم الأستاذ أحمد البشر وعبدالله زكريا الأنصاري وجاسم القطامي وخالد صالح الغنيم وأحمد السقاف والدكتور أحمد الخطيب وعبدالله فضالة وسعود الراشد ومريم الصالح ومريم الغضبان وعلي السبتي وليلى العثمان والدكتور عبدالرزاق العدواني وأحمد يعقوب المحميد ومحمد النشمي.

ومن غير الكويتي عبدالله القصيمي والدكتور عبدالفتاح إسماعيل والشاعر معروف الرصافي والشاعر محمد أحمد الزبيري والشاعر بدر شاكر السياب، ومصطفى وهبي التل الشهير بلقبه: عرار، وشخصيات أخرى غير معروفة الاسم تمثل بعض مواطني سلطنة عمان ومصر ودولة الإمارات المتحدة.

وإلى جانب كل هذه الأسماء أسماء أخرى يزيد عددها على العدد الذي ذكرناه واعتبرناه نماذج لرسوم الفنان بدر القطامي الواردة في كتابة «بورتريه».

هذا وقد تحدث هذا الفنان عن الكتب التي ضمت أعماله في إحدى المقابلات الصحافية معه فقال: «قمت بجمع عدد من لوحاتي في أكثر من كتاب لتوثيقها، منها كتاب يحمل اسم «بورتريه» يضم رسومًا للعديد من الشخصيات الكويتية السياسية والاقتصادية والثقافية والفنية، ولدي كتاب يحمل اسم «حديث الألوان» إضافة إلى كتاب لمعرض شخصي يحمل اسم (٢٠٩ أيام تحت الاحتلال) ولدي كتاب آخر يحمل اسم «ألفي إمرأة».

وكان معرضه الخاص بلوحاته المتعلقة بأيام الاحتلال في سنة ١٩٩١م، قد أقيم في صالة جمعية المعلمين الكويتيين ولكنني لم أستطع الاطلاع على الكتاب الذي أشار إليه.

ولم أطلع كذلك على الكتاب الذي يضم صورًا لألفي إمرأة، ولعل من بيده الأمر يهديني هذين الكتابين حتى أتم بهما مجموعتي الخاصة بالفنان بدر القطامي.

لا بأس من عرض سريع لسيرة فناننا الذاتية على الرغم من أنني ذكرْتُ ذلك في مقال سابق، ولكن ما سوف نذكره هنا إنما هو مزيج مختصر من بعض المحطات في حياته.

ولد في سنة ١٩٤٣م، وتنقل منشأه في عدد من الفرجان الكويتية في القبلة والوسط وهو يذكر دائمًا فريج الغنيم وفريج سعود وفريج السبت، وكلها فرجان متقاربة. وقد درس في المدارس الواقعة في هذه الأماكن التي أشرنا إليها، وكلها مدارس قد زالت من أماكنها القديمة وهي المدرسة الأحمدية والمدرسة المباركية ومدرسة عمر بن الخطاب، وقد درس في القاهرة لمدة أربع سنوات اعتبارًا من سنة ١٩٦٢م، ثم أرسل في بعثة إلى إنجلترا لفترة استغرقت من سنة ١٩٦٦ حتى سنة ١٩٧٢م، وعاد إلى عمله الفني في وطنه بعد ذلك.

ولقد كان طوال عمله مهتمًا بالتراث الكويتي، يعنى برسم الأماكن والأشخاص والسواحل، وهذا ما ذكرناه سلفًا. واعتُبر بذلك من فناني المدرسة الواقعية.

كان صيد الطيور، وتربية بعضها، ومتابعة نشأتها، من الهوايات المهمة التي كان يمارسها الصغار من أبناء الكويت فيما مضى، ولايزال عدد منهم يمارس هذه الهواية حتى بعد أن كبروا سنًا، ولكن وسائلهم تغيرت وطرق عنايتهم تطورت. كان صيد الطيور بواسطة الفخ من أشهر وسائل الصيد قديمًا، وكانت هواية عامة يسعى إليها الجميع وهناك بعض الذين عرفتهم صغارًا وهم يمارسون عادتهم هذه استمروا على طريقهم، وعلى حبهم للصيد حتى بعد أن دخلوا إلى مرحلة الشباب وربما قد تجاوزوها. ولا أستطيع أن أذكر الأسماء، لأنهم سوف يتعرضون للانتقاد من قبل أشخاص لا يفهمون - جيدًا - طبيعة النفس الإنسانية، ورغبتها في العيش على سجيّتها التي تألف كل الكائنات بما في ذلك الطيور.

لا غرابة – إذن – حين نجد الفنان بدر القطامي وهو فنان الديرة حقًا كما أطلق عليه، يهتم بالطيور فهو بلاشك كان أحد أولئك الصغار الذين يزاولون هواية صيد الطيور بشتى وسائل الصيد المتاحة آنذاك، وكان يعرف كل هذه الوسائل، ويعرف أنواع الطيور وأشكالها وألوانها، وعندما شب عن الطوق، وصار فنانًا كبيرًا معروفًا ومشهورًا، وجد لديه خزينة من الذكريات عن هوايته هذه ووجد نفسه متذكرًا لكل ما مر به أثناء صيده للطيور، وأثناء لقاءاته مع زملائه حيث يتبادلون ما يصطادونه، ويستعرض كل منهم ما حصل عليه منها. لقد ظهر كل ذلك جليًا في رسوم فناننا العبقري، فجاءت رسومه في هذا الموضوع رسومًا مبهرة وجميلة وصادقة، وهي في الوقت نفسه تذكرنا بكل تلك الأيام التي مرت بنا ونحن نعيش مثل معيشته السابقة. ولقد وجدت في كتاب الفنان بدر القطامي المسمى «حديث الألوان» ثمانٍ وعشرين لوحة متنوعة كلها تتناول الطيور أو ما يتعلق بها. والعجيب أن من يطلع على هذه المجموعة من اللوحات يجد فيها – إضافة إلى جمالها وإبداع راسمها – دلائل مهمة منها قوة ملاحظة الفنان ومعرفته التامة بالطيور. ويبدو أنه جمع إلى خبراته السابقة التي اكتسبها في مطلع حياته. خبرات أخرى اكتسبها فيما بعد عند تفرغه للرسم، وأعد لنفسه مقرًا ثابتًا ومرسمًا متكاملًا في منطقة الخيران، وكانت الطبيعة أمامه هادئة وكان الربيع فيها يجلب أعدادًا كبيرة من الطيور، فصار له مجال أرحب من أجل التأمل كفل له المزيد من الخبرة، وكفل له عدم نسيان ما حصل عليه من معلومات ترسبت في ذاكرته منذ كان لاهيًا في لعبه مع أقرانه الصغار يصيدون الطيور.

أول رسم من رسوم الطيور يواجهنا في كتابه المذكور هو رسم يمثل دجاجة سوداء تحتها بيضتان، قد باضتهما على بساط تحيط به، ما نسميه (المطارح) وهي جمع مطرح والمطرح نوع من الفرش المصنوع من القطن والإسفنج حاليًا، ويوضع

على البساط للجلوس عليه، أو على السرير للنوم فوقه والفنان يُذَكِّرُ بهذه اللوحة مشاهديه بأهزوجة شعبية قديمة كتبها تحت اللوحة وهي: «دجاجتنا دجاجتنا سودة ومسلمانية، تبيض على مطرح وزولية».

وكرر رسم الدجاجة مرة أخرى في صفحة كاملة من الكتاب وهي لوحة نرى الدجاجة فيها وقد ازدانت بألوان جميلة وكانت اللوحة بالألوان المائية من مقاس ٣٠ × ٢٥ سم.

ثم يأتي بلوحتين تمثلان دجاجًا، وكلاهما بالألوان المائية وبالمقاس السابق، وهما تمثلان الدجاج في البيئة التي يضعه فيها المربي المهتم به.

وآخر لوحة من اللوحات الخاصة بالدجاج هي لوحة: «الدجاجة قبل أم البيضة» والرسم بالألوان المائية من مقاس ٣٠ × ٤٠ سم والفنان يرمز بهذه اللوحة إلى مقولة فلسفية دار عليها حوار طويل؛ من أين تبدأ الحياة: من الدجاجة أم من البيضة؟ الصورة جميلة ومعبّرة، وعلى الرغم من أن التساؤل المطروح جاء من الناس، لكن فناننا جعل الدجاجة في اللوحة وكأنها هي التي تتساءل، ورمز لأبوين من آبائها برأس ديك، ورأس دجاجة كبيرين.

وبعد الدجاج التفت الفنان القطامي إلى الحَمَام، فقدم لوحة جميلة سماها «حَمَام» وهو حمام طائر تراه في جو سماء زرقاء وهو مكون من اللونين الأبيض والأسود، واللوحة مرسومة بالزيت من مقاس كبير نسبيًا فهو من ٦٥ × ١٠٠ سم.

ومن لوحات الحَمَام اللوحة التي أطلق عليها اسم «ألوان من الحمام» تضم حمامتين ملونتين بألوان فاقعة عجيبة، وقد رسم اللوحة بالألوان المائية بحجم ٣٠ × ٤٠ سم.

وتأتي بعد هذه اللوحة مباشرة لوحتان في صفحة واحدة أولاهما تمثل ما كان يطلق عليه اسم «امْحَكر» بفتح الحاء، وفيه تتم تربية الحمام وتعويده على المكان الذي سوف يعيش فيه مستقبلًا من بيت أو مزرعة ونحو ذلك. واللوحة مرسومة بالزيت من مقاس ٣٠ × ٥٠ سم، أما الثانية فهي تمثل الموقع الذي يربِّي فيه الحمام المعد للأكل ويسميه الفنان الحمام «اللاحم» وهو عبارة عن صندوق كبير مكون من عدة طبقات في كل طبقة منه تعيش أسرة من الحمام، ومن هذا الموقع تؤخذ الفراخ من أجل الطهي والأكل.

والحق بلوحات الحمام لوحتين مختلفتين نوعًا ما وهما:

– لوحة سماها «حمام بر» وهو نوع من الحمام البري المعروف في الكويت، لابد وأنه شاهده في الخيران، واللوحة بالألوان المائية الزاهية من مقاس ٢٥ × ٢٥ سم.

– طائر في حجم الطيور العادية وهو أصغر من الحمام قليلًا سماه «أم الحمام» ووضع له اسمًا آخر هو: سكيكة، ولم أعرف عنه شيئًا. وأظهره الفنان وهو ممسك به بيده ولونه يميل إلى الرمادي مع نقط سوداء في صدره وذيل طويل وأجنحة طويلة هي الأخرى. الألوان مائية والقياس ٩٠ × ١٤٥ سم.

وننتقل بعد ذلك إلى الطيور، وأغلب الرسوم التي وردت منها هي رسوم تخص ما يطلق عليه منها: طيور الربيع، وهي التي ذكرنا اهتمام الناشئين من أبناء الكويت بها وبجميع الأنواع (الطيورية). وسوف نلاحظ أولًا بعض وسائل الصيد، ثم طرق الصيد.

فمن ذلك ما نطلق عليه اسم: الشبح، وهو عبارة عن مجموعة متراصة من قطع الأشجار أو من شجيرات العرفج، تضم إلى بعضها وتحزم ويوضع طرفها الأسفل في إناء مناسب وينثر فوقها بعض البرسيم الأخضر ويشبك في أعلاها

عدد مما نسميه الصلابة وهي تتكون من عصاتين مقوستين مربوطتين من الأسفل المغروس في الحزمة التي ذكرنا، أما أعلاها ففيه خيط مزدوج على هيئة أنشوطة إذا وقع الطير على مكان منها تلقفته بسرعة مذهلة.

رسم بدر القطامي الشبح وجعل فوقه عددًا من الصلابات ورَمَز للصيد بطيور ترفرف فوقه. اللوحة مرسومة بالزيت، ومقاسها ٦٥ × ١٠٠ سم.

هذا وقد جرت العادة أن يوضع الشبح فوق أسطح المنازل إذا كان صاحبه من سكان المدن، أما في أوقات الربيع حين يخرج الناس للبر فإنهم يضعونه فوق مرتفع أو فوق شجرة من الأشجار المنفردة، وأحيانًا توضع الصلابات بدون الشبح على الشجرة البرية المذكورة.

واستكمل الفنان هذه اللوحة بلوحة أخرى عنوانها «قحافي على الصلابة» والقحافي نوع من الطيور الجارحة التي نطلق عليها اسم «الجرّح». واللوحة تبيّن هذا الطائر الجميل الذي يتميز بألوان رائعة وهو واقع فوقه الصلابة المشتبكة بالشبح، والصورة بالألوان المائية وقياسها ٢٥ × ٣٥ سم.

ونجد في لوحة أخرى بعض طيور الهدهد، وقد علقها بحيث تكون رؤوسها إلى أسفل، وذلك بعد أن قام باصطيادها واللوحة معبرة تمامًا عن ألوان طائر الهدهد، وسماها «صيد الهداهد» وهي مرسومة بالزيت على مقاس ٦٥ × ١٠٠ سم.

وله فيما يتعلق بالصيد وأدواته لوحة سماها (الزندة) واللفظ له معنى في اللهجة يدل على ربط الحشرة التي توضع في الفخ من أجل إغراء الطائر حتى يتقدم إليها فتتلقفه لكي يسهل للصائد إمساكه، واللوحة تمثل الفخ وهي على أرض معشبة وحولها طائر ينظر إلى (الزندة) ويتردد في الإطباق عليها خوفًا من أن تطبق الفخ عليه. اللوحة بالألوان المائية، ومقاسها ٣٠ × ٥٠ سم.

وأخيرًا، وبعد اصطياد الطيور، وبيان أدوات صيدها يقدم لنا نمطًا من أنماط المآل الذي يؤول إليه الطائر بعد صيده، وهذا نمط يتمثل في المكان الذي يجلس فيه بائع الطيور. وبائع الطيور هذا شخصية يعرفها ويحبها الصغار فهم يشترون منه ما يعرضه، ويبيعون عليه - أحيانًا - ما يصطادون. والصورة مرسومة بالزيت، وهي على مقاس ٦٥ × ١٠٠ سم.

والآن.. ما هي طيور الفنان بدر القطامي؟

إنه يهتم بتصوير الطيور الغريبة عن المنطقة وقد أشرنا إلى اللوحة التي تمثل عنده «أم الحمام - سكيكه» وهذا طائر نادر كتب عند الأستاذ خالد صالح النصر الله في كتابه: «الطيور في محمية صباح الأحمد الطبيعية» ص١٦٤ وما بعدها. وأطلق عليه اسم، الواق، أم الحمام، سمساح. وصورته في الكتاب تشبه كثيرًا الصورة التي رسمها القطامي. وذكر المؤلف أن هذا الطائر مرّ بالمحمية عدة مرات وشوهد في منطقة أشجار الطلح. وهو بطبعه يألف الأشجار والمناطق الزراعية.

ومن هذا النوع من الطيور نوع أطلق عليه اسم: درجه واللوحة المعبرة عنه مرسومة بالألوان المائية. بمقاس ٣٠×٤٠ سم، وهذا الاسم وارد على نمطين في الكتاب الذي أشرنا إليه فهو وارد في ص١٣٦ وص١٣٧ باسم الدرجه الصغيرة (الرهيز) وهو من طيورنا المهاجرة.

وذكر الكتاب في ص ١٤٢-١٤٣، الدراج، وهو من الطيور المعروفة عند العرب قديمًا وكانت تقدم على موائد كبار القوم في عهد الدولة العباسية، وذكر الكتاب أنه من النوع المهاجر الشائع. وما رسمه الفنان بدر القطامي هو أقرب ما يكون إلى النوع الأول.

ومنها - أيضًا - طائر العقعق، وقد رسمه وهو واقف على عمود يمتد فوقه سلك شائك. ولون الطائر جميل أخضر الرأس والرقبة والصدر والذيل، أحمر الجناحين. والصورة بالألوان المائية بمقاس ٣٠×٤٠ سم.

ولطائر العقعق اسم آخر هو الشقراق، وقد ذكره الكتاب الذي أشرنا إليه فقال إنه مهاجر عابر قليل العدد يشاهد في الكويت وقت الربيع ووقت الخريف.

وننتقل من هذه الطيور غير المألوفة في بيئتنا لأن مرورها مهاجرة مرور خاطف لا يبقيها بيننا وقتًا كافيًا إلى طائرٍ كثير الوجود في الكويت بل هو كثير الوجود في كل مكان في الدنيا، وهو طائر «الزرزور» تراه في لوحة جميلة وقد وقف على أحد الأسيجة، ورفع رأسه إلى السماء. رسمه الفنان بألوان مائية من مقاس ٣٠ × ٤٠ سم. في لوحة بديعة رائعة.

ثم نأتي إلى ذكره ورسمه للطيور التي نسميها طيور الربيع ومنها: القحافية. وهي جمع قحافي، والطائر من هذا النوع أحد الطيور الجارحة وسمي بهذا الاسم لأن رأسه يتميز بلون محدد يشبه الطاقية التي نسميها في لهجتنا: قحفية. في اللوحة طائران من هذا النوع يحطان فوق شجرة برية تزدان بالخضرة رسمها بألوان مائية على مقاس ٣٠ × ٤٠ سم.

والهدهد من الطيور الجميلة التي عُني القطامي برسمها وهو ينتشر عندنا في أيام الربيع بألوانه الزاهية وتاجه الذي يعلو رأسه من الريش. وهو صعب الاصطياد ولكنه يمكن أن يألف صاحبه بعد ذلك كما نرى في اللوحة حيث إن صاحبه يضعه على يده دون أن يبتعد طائرًا.

اللوحة بالألوان المائية ومقاسها ٣٠ × ٤٠ سم.

والطائر المسمى سويده راس هو من الطيور الربيعية الصغيرة التي تأكل بذور الشجر والحشرات، وهو طائر مألوف رسمه الفنان بألوان جميلة يغلب اللون الأصفر منها على خلفية اللوحة، وظهر الطائر وقد أمسك به شخص قد يكون هو الفنان نفسه، وقد أتم رسم اللوحة بالألوان المائية بمقاس ٣٠ × ٤٠ سم.

وطائر «الخضيري» من الطيور التي تأتي في موسمها ويحط على الأشجار التي يراها أمامه فور وصوله في المساء حيث يأتي بزرافات عالية الصوت. رسم الفنان اللوحة بالألوان المائية بمقاس ٣٠ × ٤٠ سم.

ورسم بدر القطامي طائر «الفقاقة» في لوحتين وذلك لأن له نوعين مختلفين من حيث اللون ولذا فإن الناس عندنا يسمون ذات الألوان الفاقعة منه فقاقة زيانية أما النوع الباهت اللون فيسمى فقاقة شيانية وطائر الفقاقة من طيور الربيع المحبوبة. وقد جعل الفنان أحدهما على شجيرة، ورسمه بالألوان المائية من مقاس ٣٠ × ٤٠ سم، وأما الثاني فاختار له وضعًا مختلفًا، ذلك لأنه رسمه وهو يتدلى من الصلابة. بألوان مائية وبمقاس ٣٠ × ٤٠ سم أيضًا.

هذا وقد أورد كتاب «طيور في محمية صباح الأحمد الطبيعية» للفقاقة أكثر من نوع، وذكر تردد هذا الطائر على المحمية وأوقات ذلك.

أما الطائر المسمى الحمامي فهو ملك الطيور عندنا، وكل هواة الصيد بالفخ أو الشبك يحاولون صيده ثم تربيته وقد رسم الفنان في لوحة واحدة نوعين من هذا الطائر هما: حمامي عُربي، وحمّامي حساوي. اللوحة ذات ألوان باهتة نوعًا ما مما يجعلنا نظن أنه قد رسمها قديمًا، وبخاصة أنه أوضح أن الرسم تم بالقلم الرصاص، وقد جاءت اللوحة على مقاس ٣٠ × ٤٥ سم.

هذا هو الفنان بدر القطامي وهذه هي طيوره، وليس ما تقدم هو كل ما يمكن أن يقال عن هذا الفنان القدير، فإن له من الإبداع في عدد من المجالات ما يجعل أي حديث عنه قليلًا مهما طال.

****

رجال لن ينساهم الوطن:
نايف حمد الدبوس[(١)]

أعرف هذا الرجل جيدًا، فهو من أهل الكويت البارزين الذين عملوا بكل طاقتهم في سبيل خدمة الوطن وإعلاء شأنه، وكانت صلتي به صلة الأخ بأخيه نتبادل الود والاحترام. كنت أراه في بعض الأماكن التي يرتادها، ثم توثقت صلتي به بعد أن صار عضوًا في المجلس التأسيسي، ثم مجلس الأمة، فكانت عضويته في هذين المجلسين سببًا من أسباب كثرة تلاقينا فهو من ناحيته بصفته عضوًا يتابع مسؤولياته التي يتحتم عليه متابعتها رغبة في أداء الرسالة الملقاة على عاتقه، وأنا بصفتي مسؤولًا في إحدى الوزارات ذات الاتصال بخدمة الجمهور. كان يزورني باحثًا عن معلومة أو موجهًا إلى نقص ينبغي تلافيه، وأحيانًا يأتي لتقديم الشكر على التجاوب الذي وجده من الوزارة تجاه ما يقدمه من مقترحات كلها مفيدة، وكلها يؤدي إلى مصلحة منطقته الانتخابية خاصة والكويت بعامة.

كان نايف الدبوس من أشهر العاملين في مجال الخدمة العامة في الوقت الذي كان فيه هذا المجال مجهولًا من الأكثرية الساحقة من المواطنين. وقد برز في مجال الإحسان بكل وسائله من إعمار المساجد ودعم طالبي العلم، وكان محافظًا على حقوق الناس لا يبخسهم شيئًا، وكان محافظًا على العادات الطيبة، رقيق القلب محبًا للخير باذلًا له، وكان يهتم بإكرام الضيف وإطعام الطعام ومساعدة المحتاجين.

---

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١١/٨/٣١م.

وكان يوصي المسؤول عن أعماله الصناعية بالعناية بالعمال وعدم ظلمهم، وإعطائهم حقوقهم كاملة فيقول له: «إياك أن تبخس حق أحد، فأنا لا أريد أن يكون في ذمتي شيء من حقوق الناس» وهذا في حد ذاته دليل على شخصية الرجل الذي كان يدور مع الحق حيث دار، ويحرص على طهارة يده وجيبه، وهو الأمر الذي أكسبه محبة الناس وإعجابهم، ومنحه الفرصة للنجاح في حياته العملية كما سوف نرى.

لقد بدأ هذا الرجل الكريم حياته عندما نزل إلى ميدان العمل بممارسة المهنة التي كان أقرانه من أبناء الكويت يمارسونها في ذلك الوقت وهي مهنة الغوص على اللؤلؤ، فقد رحل في صباه مع جده النوخذة جاسم الدبوس لهذا الغرض، وتمت له رحلات متعددة أكسبته خبرة في أعمال البحر، وأعمال التجارة باللؤلؤ الذي كان مصدر الرزق الوحيد في بلادنا آنذاك.

ثم اتجه إلى العمل التجاري، وأدى به هذا العمل إلى القيام برحلات متعددة لجلب ما يحتاج إليه من سلع فكان اتجاهه أولًا إلى الشام، ثم حول هذا الاتجاه إلى الهند وأفريقيا وكانت السفن الشراعية الكويتية تجوب موانئ تلك البلاد وتدعم التجارة في الكويت الأمر الذي يسر له سبل العمل التجاري الذي كان يطمح إلى اختراقه والعمل فيه.

ومن الواضح أنه كون لنفسه مكانة مرموقة في مجاله هذا، وكان سلوكه الحسن وأمانته وصدقه مع الناس من أهم الأمور التي فتحت أمامه طرق التقدم في حياته العامة، ولقد انتحى ناحية أخرى في هذه الفترة عندما دعاه الشيخ صباح السالم الصباح عندما كان رئيسًا لدائرة الشرطة العامة، فانخرط في هذا السلك الذي كان في بدايات عمله ولكنه ما أن نشأت غرفة تجارة وصناعة الكويت في سنة ١٩٥٩م حتى تقدم لانتخابات مجلس إدارتها، وقد شفع له ماضيه الكريم وتعاملاته

الصادقة التي أصبحت في ذلك الوقت على كل لسان فنجح في هذه الانتخابات وأصبح عضوًا. ولقد استقيت هذه المعلومة من موقعين من مواقع الإنترنت، ولكني للأسف الشديد لم أجد بيانات تؤيدها لدى غرفة تجارة وصناعة الكويت. على الرغم من ورود عدد من أسماء أبناء أسرة الدبوس الكريمة ضمن أعضاء مجالس الغرفة على فترات متعددة، ولايزال منهم من يشارك حتى هذا اليوم في مجلس إدارتها وهما وليد خالد حمود الدبوس، ودبوس فيصل الدبوس، وهذا يدلنا على أن أبناء أسرة الدبوس الكرام مستمرون في مساهماتهم في الأعمال الوطنية وسائرون على النهج الذي بدأه أبوفهد رحمه الله.

ولم يكتف أبوفهد بهذا النوع من النشاط فانطلق في مجالات متعددة منها رئاستهُ الفخرية لنادي الفحيحيل الرياضي، وكان يشجع هذا النادي ويسعى إلى تقدمه، ويبذل له كل ما يقدر عليه من دعم ومساندة، وكان يعتبر لاعبي هذا النادي بمثابة أبناءٍ له عليه الحرص على استمرارية نشاطهم، وهو يعلم أن ذلك لا يكون إلا بتبني طموحاتهم، ورغباتهم في استكمال المسيرة الرياضة التي ارتوضوها لأنفسهم.

وإلى جانب هذا النوع من النشاط فقد تم اختياره عضوًا في مجلس التخطيط وهو من المجالس المهمة في البلاد، وله دور مهم في دراسة المشروعات التنموية على اختلاف أنواعها.

وعندما نشأت لجنة تنقيح الدستور في سنة ١٩٨٠م تم اختياره عضوًا فيها، وبادر بنشاطه المعهود إلى العمل فور تشكيل هذه اللجنة، وقدم لها تصوراته ومقترحاته، وشارك في التوصل - مع زملائه الأعضاء - إلى التوصيات التي قدمتها إلى الحكومة فور الانتهاء من أعمالها، وذلك بوصولها إلى نهاية الفترة المقررة لها. وكانت أعمال هذه اللجنة مهمة في ذلك الحين، وكان الناس ينتظرون

ما تسفر عنه اجتماعاتها من أمور تتعلق بأهم ما يعني المواطنين وهو دستور البلاد. وكانت الحكومة - هي الأخرى - بانتظار الشيء نفسه، ويكفي هذا الاحساس عند المواطنين وعند حكومتهم للدلالة على أهمية لجنة تنقيح الدستور وأهمية ما توصلت إليه.

كان اليوم التاسع عشر من شهر يونيو لسنة ١٩٦١م هو يوم إلغاء الاتفاق التعاقدي بين الكويت وبريطانيا وكان الناس سعداء بهذه المناسبة الوطنية المهمة، وقد بدأت الكويت مسيرتها منذ ذلك اليوم وهي تنظر إلى الأمام متجهة إلى مستقبل باهر ينتظرها وينتظر شعبها. وكان من أهم الخطوات التي تقرر أن تتم بهذه المناسبة خطوة يحتمها النهج الذي ارتضته الحكومة وسعد به الجمهور، وهو النهج الدستوري والنظام الديموقراطي. وقد بدأت خطوات السير في هذا الطريق حثيثة ودون تردد، فكان أن صدر الأمر بإجراء الانتخابات العامة التي تكوّن من نتاجها المجلس التأسيسي، وكان هذا المجلس مهمًا في انطلاق المسيرة، فهو الذي أنيط به أمر صياغة الدستور بعد دراسة مواده، وعرضها على البحث بين الأعضاء، ولاشك في أن الدستور هو الذي تبنى من خلاله المجلس التأسيسي وحكومة الكويت ما سارت عليه البلاد فيما بعد، فقد اختار الطرفان الديموقراطية، وكان من علاماتها المواد الخاصة - من الدستور - بإنشاء مجلس الأمة، وصياغة نظامه وطرق العمل فيه. وهو الأمر الذي تسير عليه البلاد منذ ذلك الوقت. وتتمسك به كافة الأطراف وعلى رأسها صاحب السمو الأمير حفظه الله.

ومن هنا وجد نايف حمد الدبوس أن الفرصة الآن متاحة له لكي يخدم وطنه من أوسع الأبواب، وأن يخدم المنطقة التي يعيش فيها من هذا الوطن بطريقة أفضل فبادر إلى المشاركة في الانتخابات التي جرت للمجلسين، وكانت البداية بفوزه ومجيئه عضوًا للمجلس التأسيسي، ثم لحقه مجلس الأمة، وقد نجح في المحاولتين، وصار عضوًا كما أراد.

كان نايف حمد جاسم الدبوس مشاركًا في جلسات المجلس التأسيسي منذ جلسته الأولى التي عقدت في الساعة العاشرة من صباح يوم السبت الموافق ٢٠/١/١٩٦٢م. وكانت فرحة الكويت غامرة بهذا الافتتاح الذي حضره أمير البلاد - آنذاك - الشيخ عبدالله السالم الصباح. وكان من أعضاء المجلس فيما عدا الوزراء أحمد الفوزان وحمود الزيد الخالد وخليفة طلال الجرى وسليمان الحداد ومحمد وسمي السديران ويعقوب يوسف الحميضي والدكتور أحمد الخطيب وسعود العبدالرزاق وعبدالعزيز الصقر ومحمد النصف وغيرهم من الأعضاء الذين بدأ بهم المجلس واختتموا أعمالهم بإصدار دستور دولة الكويت.

وشارك أبو فهد منذ البداية في تشكيل اللجان، وكانت من نصيبه لجنة إعداد اللائحة الداخلية للمجلس وهي نفسها تتولى النظر في الطعون والاقتراحات. ولقد انشغل المجلس بالأعمال الإجرائية طيلة خمس جلسات، وعندما جاء موعد الجلسة السادسة كان قد قطع شوطًا بعيدًا في عمله، ووجد الأعضاء أنه بات من المهم الالتفات إلى تشكيل باقي لجان المجلس، فجرت في هذه الجلسة التي عقدت في ٣/٣/١٩٦٢م انتخابات لاختيار أعضاء لجنة الشؤون الثقافية والاجتماعية. فكان نايف الدبوس أحد الفائزين في هذه الانتخابات وصار عضوًا في اللجنة المذكورة، وصار في الوقت نفسه عضوًا في لجنة المرافق بانتخابه لذلك من قبل أعضاء المجلس. ثم مضى يمارس مستلزمات عضويته في المجلس فيحضر الجلسات دون تأخير، ويناقش مختلف القضايا المثارة، ويقدم رأيه عندما يجد نفسه وقد كوّن رأيًا ينبغي أن يطرحه في إحدى المسائل. وكانت مداخلاته ومناقشاته محل تقدير الأعضاء الذين وجدوا فيما يقدمه حديثًا يتصف بالخبرة وبالفهم. وبالاطلاع على الكتاب الذي أصدره مجلس الأمة في سنة ٢٠٠٩ تحت عنوان «محاضر جلسات» المجلس التأسيسي (يناير ١٩٦٢، يناير ١٩٦٣) سوف يجد القارئ نماذج كثيرة للأمور التي أثارت اهتمام نايف الدبوس وجعلته يدلي بدلوه في ما كان يعرض في المجلس من مقترحات وقوانين إضافة إلى ما كان يتم بحثه من مواد الدستور.

تمت أعمال المجلس التأسيسي وفق المخطط الذي رسم له، وأدى الغرض من إنشائه، وبخاصة عندما صدر دستور دولة الكويت الذي قدمه هذا المجلس إلى أمير البلاد فأقرّه وأمر بالسير على النظام الذي ارتضاه ممثلو الشعب وورد في هذا الدستور. وكانت من نتيجة ذلك الدعوة إلى الانتخابات العامة لاختيار أعضاء مجلس الأمة الذي بدأ عمله فور انتهاء انتخاب أعضائه وبدأت جلساته الأولى في سنة ١٩٦٣.

كان نايف حمد الدبوس من الأعضاء الذين كتب لهم الفوز في انتخابات مجلس الأمة، وقد بدأ عمله في العضوية نشيطًا كما كان في المجلس التأسيسي، فهو رجل يتميز دائمًا بالحيوية، ومتابعة الأعمال ويعرف أن عضويته رسالة يتحملها خدمة لوطنه ولأبناء وطنه على حد سواء.

وإذا نحن تابعنا محاضر جلسات مجلس الأمة في دور انعقاده الأول حين كان صاحبنا عضوًا فيه فإننا سوف نلاحظ مقدار الجهود التي يبذلها هو وزملاؤه في سبيل توطين العمل الديموقراطي، وكان عملهم جميعًا ينم عن الوعي بمتطلبات المرحلة التي بدأتها الكويت من حيث انفتاحها على الدنيا، ورغبتها في تطوير كافة نواحي الحياة.

وإلى جانب ما كان يشارك فيه نايف الدبوس من لجان تصب نتائج أعمالها في جلسات المجلس العامة، ويؤدي الأخذ بما فيها إلى الارتفاع بمستوى العمل في البلاد بكافة السبل، فإنه كان يحرص على أن يكون فعالًا في جوانب أخرى هي تقديم الأسئلة والتعليق على إجابات المسؤولين في الحكومة على ما جاء فيها، وتقديم الاقتراحات النافعة التي لم يقصد بتقديمها سوى المصلحة العامة، وكان يشترك معه في تقديم الاقتراحات بعض زملائه الأعضاء مما يدفع بقية أعضاء المجلس إلى المساندة والدعم.

إن مجموع ما قدمه من أسئلة واقتراحات وفق ما ورد في المحاضر ليدل على تنوع اهتماماته، وحرصه على أداء واجبه ولابد لنا هنا من عرض شيء من ذلك على الرغم من أن البعض منها قد تعداه الزمن بحكم تطور الحياة، وتطور العمل الحكومي في الكويت بشكل عام. ولذا فإننا نختار من ذلك ما يلي:

١ - تعرض المزارعون الكويتيون في سنة ١٩٦٥ إلى خسائر كبيرة بسبب موجة البرد التي حلت على مزروعاتهم وأفسدتها، فقام صاحبنا متعاونًا مع بعض زملائه من أعضاء مجلس الأمة بتقديم الاقتراح التالي:

«نظرًا لما أصاب المزارعين بالكويت من أضرار نتيجة لموجة البرد التي اجتاحت البلاد هذه الأيام نرجو أن تشكل الحكومة لجنة للنظر في حال هؤلاء ومساندتهم».

وقّع على الاقتراح كل من خليفة الجري، وعبدالعزيز الخالد، ونايف الدبوس، ومحمد البراك، وحمد المشاري.

٢ - لاحظ عدد من الأعضاء عدم قدرة بعض المواطنين من محدودي الدخل على الوفاء بالمبالغ المستحقة على ما يستهلكونه من كهرباء وماء، ولذلك فقد تقدم الأعضاء بالاقتراح التالي:

«نرجو تقديم هذا الاقتراح بسرعة إلى الحكومة لإعفاء المواطنين ومحدودي الدخل، الذين يدفعون إيجارات بيوتهم من محدودي الدخل ما هو مدرج أدناه:

أولًا: إعفاؤهم من ثمن استهلاك الحد الأدنى من الوحدات الكهربائية.

ثانيًا: إعفاؤهم من ثمن استهلاك الحد الأدنى من المياه».

وقد وقع على هذا الاقتراح كل من الأعضاء: أحمد سيد عابد الموسوي، وسليمان خالد المطوع، ونايف الدبوس، وعلي ثنيان الأذنية، وحمد العبدالمحسن المشاري.

وقد وقع على الاقتراح كلٌ من: خالد صالح الغنيم، ونايف الدبوس، ومبارك الدبوس، وعلي الدبوس، وحزام الميع.

كان هذا الاقتراح قد قُدم في اليوم السابع عشر من شهر نوفمبر للسنة ١٩٦٥م. وفي اليوم الرابع عشر من شهر نوفمبر للسنة ذاتها قدم العضو حمد الحميدة بصفته رئيس لجنة شؤون التعليم والثقافة والإرشاد تقرير اللجنة عنه إلى رئيس مجلس الأمة وكانت اللجنة قد تدارست الاقتراح، وقدمت التقرير الذي جاء نصه كما يلي:

«أحال سعادة رئيس مجلس الأمة بتاريخ ١٩٦٥/١٠/١٨م إلى اللجنة الاقتراح المرافق، وقد بحثته في جلستيها الأولى والثانية بتاريخ ٢ - ١٩٦٥/١١/١١ حضر الأخيرة منهما السيد يعقوب يوسف الغنيم وكيل وزارة التربية.

وعند مناقشة اللجنة لهذا الاقتراح أفاد السيد وكيل وزارة التربية أن عدد طالبات المرحلة الثانوية الحاليات هو كالآتي:

- **الأحمدي: ٤٢ طالبة.**
- **الفحيحيل: ٤٠ طالبة.**
- **الفنطاس: ١٠ طالبات.**
- **الشعيبة: ٨ طالبات.**

وأما عدد طالبات السنة الرابعة المتوسطة فهو كالآتي:

- **الأحمدي: ٣٩ طالبة.**
- **الفحيحيل: ٢٢ طالبة.**
- **الفنطاس: ٥ طالبات.**
- **الشعيبة: ٧ طالبات.**

كما ذكر أن وزارة التربية لا مانع لديها من إنشاء مدرسة ثانوية البنات في هذه المنطقة خاصة أن عدد الطالبات في العام الدراسي القادم سيكون مناسبًا لإنشاء مدرسة ثانوية.

وبعد المناقشة وتبادل الآراء رأت اللجنة أن توصي المجلس الموقر بإصدار قرار برغبة إلى الحكومة للإسراع في تنفيذ ما جاء في الاقتراح».

وقد جرت الأمور وفق ما طلبه الأعضاء في اقتراحهم ووفق ما اعتمدت اللجنة المذكورة. وتحققت الرغبات، ومضى الزمن لكي نرى في منطقة الأحمدي التعليمية التي تضم الفحيحيل ست عشرة مدرسة ثانوية للبنات، وأن نرى في الفحيحيل وحدها مدرستين من مدارس البنات، لقد خطت الكويت خطوات كبيرة في سبيل نشر التعليم والارتقاء به.

ولد نايف حمد الدبوس في سنة ١٩٠٩م، وذلك في منطقة شرقي العاصمة بالقرب من الفريج المعروف باسم فريج الزهاميل، وهو من فرجان الكويت القديمة المعروفة في هذه الناحية من عاصمة البلاد. كانت أسرة الدبوس الكريمة تسكن في هذا الموقع، وفيه ولد أبو فهد، ثم انتقلت كلها إلى منطقة الفحيحيل التي غدت الآن من المدن الكويتية البارزة بما تحويه من كافة مظاهر التقدم والرقي وما تتمتع به من مبان رائعة وسواحل جميلة وأسواق متنوعة.

وقد شبّ صاحبنا وبدأ أعماله وكافة أنشطته الأخرى هناك، وتوفي - رحمه الله - في سنة ١٩٩٧م.

****

ملحاق خير

في المقال المرافق حديث طويل عن الزراعة في الكويت تناولنا فيه عدة جوانب لها أهميتها فيما يتعلق بمعرفة كل شيء عن الزراعة في وطننا. ولكن ما بقي من حديث حول هذا الموضوع كثير وهذا نموذج مما نومئ إليه:

نحن في سعادة غامرة بوجود عدد من إخواننا الكويتيين، ممن استهواهم الرسم فصاروا فنانين تشكيليين يشار إليهم بالبنان، ولقد تناولت الرسوم التي أبدعوا في إخراجها لنا كثيرًا من نواحي الحياة في البلاد مما حفظ بما رسموه تراثنا، وصور نواحي الحياة عندنا، فقد اهتم بعضهم ومنهم على الأخص الأستاذ الفنان أيوب حسين بتصوير البيئة الكويتية، وتسجيل كل ما مر أمام عينيه، وعلى ذاكرته تسجيلًا وافيًا يحوي كل ما نريد أن نتذكره من صور حياتنا وما مر ببلدنا العزيز وعلى الأخص ما قام به هذا الفنان من تصوير لنواحي الحياة الاجتماعية التي وعاها ذهنه، ورصد لأشكال الطرق والفرجان والمنازل والمساجد، ولن يحتاج دارس التراث، ولا متتبع تاريخ المجتمع إلى مرجع أوفى ولا أكثر دلالة على ما يريد من هذا الكتاب الذي أشرنا إليه، وهو كتاب سوف يُذكر به الفنان القدير الذي رسم كافة لوحاته فقدم من خلالها كل ما نتوق إلى رؤيته أو نتذكره من صور الماضي.

ومن الجوانب التي اهتم بها الفنان أيوب حسين في إنتاجه الفني بصفة عامة؛ الجانب الزراعي فقد أظهر هذا الجانب في عدد من اللوحات، وكان منها ما هو محدد الغرض، ومنها ما تأتي الزراعة ضمن مكملات اللوحة باعتبار هذه المكملات شيئًا لابد منه لها.

وسوف نعرض هنا ثلاثًا من لوحاته التي خصصها للزراعة والمزروعات مكتفين بها بصفتها دليلًا على نشاطه الإنساني في هذا السبيل، وهذه اللوحات هي:

١ - في ص ٢٠٥ من الكتاب المذكور لوحة تكاد تنطق بما فيها، وهي تمثل مزرعة من مزارع الكويت القديمة وتبين البئر التي يتم سقي المزروعات من مائها، ويرى الحمار وهو يجر قربة الماء إلى المزروعات، وقد ذكر الفنان أن هذا المشهد يكثر وجوده في بعض القرى قديمًا كالفنطاس والجهراء.

٢ - وتبدو لنا في ص ٢٥٠ لوحة تمثل مزرعة موقعها في الدسمة وهي بالقرب من سور الكويت الثالث، وترى طريقة تقسيم الأرض للزراعة، ويرى الكوخ الذي يستغله المزارع لسكنه أو لإيداع الحاجات المتعلقة بمزرعته.

٣ - تمثل اللوحة الثالثة عرضًا واسعًا لمزرعة من مزارع منطقة الدسمة التي كانت تغذي سوق الكويت بالمنتجات الزراعية الورقية، ويرى في اللوحة الفلاح وهو يمارس عمله، وظهر على اليمين الكوخ الذي كان لابد منه لكل مزرعة.

وفي ختام هذا الملحاق لابد أن نشير إلى أن كتاب «التراث الكويتي» للأستاذ الفنان أيوب حسين، هو من منشورات مركز البحوث والدراسات الكويتية، وهو متوافر هناك لمن شاء أن يقتنيه.

****

شكر وتقدير

ينبغي علي أن أقدم هنا جزيل الشكر وعظيم التقدير إلى الأخ الفاضل الأستاذ فهد بن محمد الدبوس الذي تكرّم بتقديم المعلومات والصور عن المرحوم جده نايف حمد الدبوس، فكانت مفيدة جدًا لعملي هذا، وإضافة مهمة إلى ما جمعته من معلومات كما أشكر الأخ الكريم ثامر بن محمد نايف الدبوس الذي تكرّم بتقديم عدد من الصور عن طريق الأخ فهد الدبوس، وهي صور لا غنى عنها في المقال المجاور.

وأود أن أنوّه إلى أن الأخ فهد الدبوس من الباحثين الكويتيين الذين برزوا في الفترة الأخيرة، له جهد كبير في اقتناء الكتب وقراءتها وتتبع المعلومات التاريخية للكويت ولغيرها، كما أن له مؤلفات قيمة. فأرجو له التوفيق والمزيد من التقدم.

****

عن الزراعة في الكويت: القديم والحديث[١]

لعل من أهم ما يلفت النظر فيما دعا إليه ديننا الحنيف هو عمارة الكون، وعمارته تكون بعدة وجوه، وقد تكون بالتعمير المادي في البناء، وقد تكون في تحسين النسل ورعاية الأسرة، وقد يكون ذلك في الزراعة، وفي هذا عنصر مهم من عناصر عمارة الكون، فالزراعة هي التي توفر الغذاء للإنسان ولذلك فقد هيأ سبحانه الأرض لكي تكون مهدًا للزروع، وأحياها بذلك حتى تسد حاجة الإنسان الذي ذرأه في الأرض وحرص على أن يهيء له سبل الحياة، وأن يسد له حاجته من المآكل الذي بدونه لا يعيش. وفي القرآن الكريم ما يدل على ذلك، قوله تعالى: ﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون﴾[٢].

قول كريم واضح الدلالة على النعمة التي أفاء بها الله القدير على عباده، ودليل على أن الإنسان في هذه الأرض وقد مكّن له ربه ذلك ويسره له فما عليه إلا الاستمرار بالعناية بما وهبه الله من نعمة الزروع فليس له عذر بعد ذلك إن لم يجد ما يأكله.

واهتم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالزراعة وفي أحاديث كثيرة ورد ما يدل على عنايته بها وتشجيع المسلمين على الامتهان بها. ولعل أهم دليل على ذلك هو قوله وهو الصادق الأمين: «إذا قامت الساعة وفي يدي أحدكم فسيلة فيزرعها»

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١١/٩/٧م.
(٢) سورة يس من الآية ٣٣ إلى الآية ٣٥.

والفسيلة النخلة الصغيرة والرسول الكريم لا يريد من أمته أن تتراجع حتى اللحظة الأخيرة عن العمل الزراعي. وفي هذا الحديث دلالة عظيمة على اهتمام الإسلام بهذا العمل المبارك، الذي يتضاعف إنتاجه كلما تضاعف الاهتمام به.

وتدارس علماء المسلمين هذا الأمر فألفوا الكتب في شؤون الفلاحة والزراعة، وأصناف المزروعات وطرق العناية بها، وذلك مثل كتاب الفلاحة لأبي الخير الأندلسي المطبوع في مدينة فاس سنة ١٣٥٧هـ، وقد تحدث فيه عن طبيعة الأرض الصالحة للزراعة وعن البذور وعن السقي ومكافحة الهوام والوحوش المضرة بالزرع بكافة أنواعه.

وكان اهتمام العرب بالنبات أقدم من ذلك فقد حقق أخي الدكتور عبدالله يوسف الغنيم كتابًا مهمًا للأصمعي عنوانه «النبات» وهناك غير ما ذكرت من المؤلفات، وكله يدل على مدى اهتمام العرب باتباع الوصية النبوية الخاصة بالزراعة وفق ما أشرنا إليه كما ينبغي أن نذكر كتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري الذي توفي سنة ٢٨٢هـ، وهو كتاب ضخم خاص بالنبات وكل ما يتعلق به بما في ذلك أساليب الحرث والغرس، والحماية من الحشرات والقوارض. طبع جزء من هذا الكتاب ضمن سلسلة كتب التراث العربي التي طبعتها وزارة الإرشاد والأنباء «الإعلام» في الكويت في ستينيات القرن الماضي بتحقيق محمد حميد الله، ثم طبع طبعة متكاملة في بيروت بعناية المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، وذلك في سنة ٢٠٠٩م. وهذه الطبعة تمثل بضعة أجزاء من الكتاب، أما باقيه فمفقود.

واهتم علماء الشريعة الإسلامية بكل ما يتعلق بأمور الزراعة والمزارعين، وشؤون العلاقات بين المنتج والمستثمر والبائع والمشتري، فعنيت كتب الفقه الإسلامي بذلك عناية كبيرة واهتمت ببيان ضرورة الاستفادة من الأراضي الزراعية من مشاركة ومساقاة، مع بيان زكاة الزروع وكيفية استخراجها وما هي مقاديرها، مع

تفصيل واسع لكل نواحي العمل الزراعي مما يجعل المتتبع لهذه الكتابات قادرًا على السير في حياته العملية - إن كان مزارعًا - وفقًا للشريعة الإسلامية الغراء.

إذن فلابد وأن يهتم أبناء الكويت منذ نشأة بلادهم بالمرفق الزراعي، وأن يبذلوا جهدهم في تحرّي الاستفادة من كل ما يجلب لهم النجاح زراعيًا على الرغم من الظروف القاسية التي كانت سائدة وهي تتمثل بقلّة المياه، وعدم قابلية التربة للزراعة. ولكنهم ساروا تدريجيًا في هذا الطريق ولم يعقهم عائق إلى أن وصلوا إلى مرحلة لا بأس بها نسبيا بعد مرور زمن على نشأة الكويت.

وهنا نتساءل بهذا الخصوص، وفق ما يلي:

هل كانت في الكويت زراعة؟ هذا سؤال يجيب عليه التاريخ الكويتي. فنحن لا نتحدث عن زراعة اليوم، بل عن زراعة الأمس، والحق أنه كانت هناك زراعة، وكان هناك اهتمام بها، وكانت مورد رزق لعدد كبير من المواطنين.

تتركز الزراعة في مناطق معينة من البلاد عرفت بوجود المياه الملائمة فيها، ومن تلك المناطق (الجهراء) التي عرفت بالزراعة منذ القدم بدليل وجود نخيل يدل على بعد العهد بغرسه، وفيها مياه غزيرة، وهي وإن لم تكن حلوة تمامًا إلا أنها صالحة للزراعة. وكانت المياه تجلب من الآبار بواسطة القرب (الغروب) (جمع غَربٌ وهي كلمة فصيحة، فسرها صاحب لسان العرب بأنها الدلو العظيمة التي تُتخذ من جلد ثور) وكانت تجرها الحمير بواسطة الحبال والمحّالات. وكانت زراعة (الجهراء) تتركز على النخيل والبرسيم إلى حد ما، وكان أصحاب المزارع ينقلون إنتاجهم إلى العاصمة كل صباح على الجمال قديمًا، ثم على السيارات فيما بعد.

أما الموقع الآخر من مواقع الزراعة في الكويت فهو موقع القصور التي تتمثل في الفنطاس وبو حليفة والفحيحيل وغيرها من القرى التي كانت متناثرة

على ساحل الخليج العربي، وكان لوريمر يتحدث في سنة ١٩١٣م عن مزارع في أبي الحصاني، أمّا الفنطاس فهي منطقة غنية بالزراعة وكان الري فيها يعتمد على الحمير كما كان الأمر في (الجهراء)، وقد قال ديكسون عنها: «يزرع أهالي القرية (ويقصد الفنطاس) الشعير والعدس والبطيخ والفجل والبصل»، وتحدث لوريمر – أيضًا – عن أبي حليفة، ووصفها بعده ديكسون ذاكرًا أنه كان فيها ما يقرب من ألف شجرة نخيل مثمرة، وأنه يزرع فيها الشعير والبطيخ وبعض الخضار، وفيها بعض أشجار السدر، أما (المنقف) فآثار زراعتها لا تزال ماثلة للعيان ممثلة في بعض الأشجار القديمة المتناثرة بين ساحاتها، وكان في الفحيحيل نخيل وبعض زراعات القمح والشعير والبطيخ، وكانت الشعيبة تعنى بالزراعة إلى جانب اهتمام أهلها بالبحر، ففيها شيء لا بأس به من النشاط الزراعي، وكان إنتاج هذه المناطق يجلب إلى العاصمة ويباع في ساحة مجاورة لمسجد البحر القائم حاليًا في وسط السوق.

وأما فيلكا فكانت أرضًا زراعية منذ القدم وتمتاز بزراعة عدد من الخضار منها الجزر الذي اشتهرت به بين مناطق الكويت الزراعية، ولكن الأرض القريبة من العاصمة التي تمدها يوميًا بالخضروات الورقية فهي الدسمة التي كانت ملأى بالمزارع الصغيرة التي تسقى يدويًا من الآبار. هذه هي زراعة الكويت قديمًا.

وبدأ الاهتمام الحكومي بالزراعة – بعد ذلك – حين تبنت دائرة معارف الكويت الشأن الزراعي في البلاد، فأنشأت قسمًا يعنى بالمزروعات والتنمية الزراعية، وقد كان اهتمامها أولًا ينصب على تشجير المدارس، ونشر الزراعة فيها وتعويد الطلاب والطالبات على العناية بالزروع من زهور وخضراوات وأشجار، وأنشأت قسمًا يعنى بالزراعة تابعًا لها كان فيه خليل السالم وخالد عيد، وقد بذلا منذ البداية جهودًا كبيرة في هذا المجال وأنشأت دائرة المعارف في كل مدرسة جمعية زراعية من الطلاب خصصت لها بقعة من أرض المدرسة لتعويد أعضاء الجمعية على

العناية بالزراعة ورعاية الزروع، وزادت الدائرة النشطة على ذلك خطوة أخرى بأن أصدرت عددًا من الكتب التي تحتوي على التوعية بالعمل الزراعي ومنها:

١ – زراعة الأزهار في الكويت المطبوع في سنة ١٩٦٠م، وقد ألفه الرجلان اللذان ذكرناهما آنفًا، وهو كتاب يحكي وسائل زراعة الأزهار وأنواعها مع صور ملونة تبين شكل كل نوع منها، وقد طبعته مطبعة حكومة الكويت.

٢ – زراعة الأشجار في الكويت، وهو للمؤلفين السابق ذكرهما، وهو يهدف إلى التوعية بوسائل العناية بالأشجار بمختلف أنواعها، وطرق إكثارها وتنميتها، وفي الكتاب صور ملونة كثيرة لأنواع الأشجار الوارد ذكرها فيه.

٣ – وأصدرت دائرة معارف الكويت في سنة ١٩٥٨م كتابًا طبعته مطبعة حكومة الكويت عنوانه «الزراعة» وهو كتاب صغير، يعطي لمحات سريعة عن الزراعة والعناية بها ويذكر في مقدمته إن اهتمام دائرة معارف الكويت بالزراعة قد بدأ بإنشاء قسم الزراعة بها وذلك في مطلع السنة الدراسية ١٩٥٥-١٩٥٦م، ومنذ ذلك الوقت والقسم يؤدي دوره الذي لفت الأنظار إلى أهمية الزراعة، وإلى دورها في الحياة لا من حيث إنتاجها الغذائي فحسب، بل من حيث الصورة الجمالية للبلاد، والمساعدة على تحسين المناخ بشكل عام، ولمزيد من الاهتمام بهذا المرفق الجديد في البلاد – آنذاك – فقد قامت الوزارة بإنشاء مشاتل لتغطية حاجة المدارس من الشتول المختلفة، وأعدت لها كل ما يكفل أداءها لهذا الغرض المساعد على النمو الزراعي في المدارس أولًا وفي كثير من مرافق البلاد ثانيًا، كما اهتمت دائرة معارف الكويت بتربية الطيور الداجنة، وحيوانات المزرعة فأعد قسم الزراعة حظائر للدواجين في جميع المدارس وزودها بالطيور والحيوانات التي يدرسها الطلاب والطالبات في بعض المناهج المقررة.

وبعد سنة ١٩٦١م انتقل النشاط الزراعي في الكويت من وزارة التربية إلى وزارة الأشغال العامة، ثم تشكلت له الهيئة العامة للزراعة والثروة السمكية. وكانت مبادرة دائرة معارف الكويت هي السبب في كل ما نراه في بلادنا من نهضة زراعية كبيرة.

مما يبهج النفوس عندنا أن يهتم أبناء الكويت قاطبة بالزراعة، وأن يعطوها المزيد من أوقاتهم وأموالهم، ولذلك فقد برزت لدينا مناطق زراعية مهمة تمد سوق البلاد بكثير من المنتجات الزراعية كالوفرة والعبدلي.

إلا أن هناك بعض الرجال ممن دفعهم طموحهم إلى تطوير العمل الزراعي في الكويت بالوصول به إلى مستويات عالية تشبه إلى حد بعيد ما تتمتع به البلدان الأخرى ذات الأساس العميق والدور الفعال والسبق في الزراعة على كافة أنواعها، وإذا كانت الدول التي تتحدث عنها هي زراعية أصلًا فهذا الإنتاج الذي يردنا منها غير مستغرب ولكنه مستغرب حين يتم إنتاجه في الكويت بفضل همة رجال أرادوا لوطنهم أن يتقدم زراعيًا وأن يتخطى بذلك المستحيل.

نتحدث - الآن - عن واحد من هؤلاء الرجال، وهو الشيخ مشعل الأحمد الجابر الصباح نائب رئيس الحرس الوطني.

فهو من المهتمين بالزراعة منذ فترة طويلة، وقد تطور لديه هذا الاهتمام كثيرًا حتى وصل إلى مرحلة راقية جدًا وذلك بإنتاجه في مزرعته التي أطلق عليها اسم «قيروان الوفرة» أنواعًا كثيرة من الفواكه لا يتخيل المرء قبل أن يراها أن كل ذلك من إنتاج الكويت. وقد أحسن حين وصف مزرعته بأنها عروس مزارع الكويت وهذا صحيح، وقد تكرم وأهداني الكتاب الذي يتحدث عنها وعن إنتاجها وهو كتاب مصور جامع لكل ما يحتاج إليه المرء من معلومات عن جهود هذا الرجل الذي صنع المستحيل وأهداني أيضًا شريطًا مصورًا لكافة نواحي الزراعات في هذه المزرعة

وهو شريط يعرض جوانب العمل الزراعي بها ويبين أنواع الأشجار وما عليها من فواكه تلفت النظر وتسر من يراها.

يبدأ الكتاب ببيان موقع الوفراء التي نطلق عليها عندنا اسم (الوفرة) وهي من المواقع القديمة ذات الأثر في كتب العرب وأشعارها، وقد تحدثت عنها في بعض كتاباتي وأوردت كثيرًا من المعلومات القديمة عنها.

ولئن كانت الوفراء (الوفرة) منطقة زراعية وموضع سكن في جنوبي الكويت، فقد كانت في الماضي السحيق خالية، وكانت الوحوش تعيش فيها، ومن تلك الوحوش: الحمار الوحشي. وقد ذكر ذلك بعض الشعراء في شعرهم، ومنهم الأعشى: ميمون بن قيس الذي يقول في وصف الناقة:

عرندسة لا ينقض السير غرْضها

كأحقب بالوفراء جاب مُكَدَّمِ

(العرندسة: هي الناقة الشديدة، والغرض: حزام رحلها، والأحقب: حمار الوحش، والجأب: الغليط، والمكدّم: الذي بجسمه إصابات وكدمات).

ثم يتحدث الكتاب المُهدى إليّ عن القيروان اسمًا ومعنى، ثم يعرض أنواع الفاكهة وهي مصورة على شجرها فيبدأ بالمانجو، ثم التفاح والعنب والتين والخوخ (الدراق) والرمان والعرموط (الأجاص) والسفرجل والأناناس والجوافه والفراولة والأكادنيا. ثم يأتي عرض الحمضيات كالليمون، والجريب فروت، والبرتقال والعناب وغيرها. ويُقدّم صورًا لأشجار الموز وهي مثمرة وأشجار المشمش كذلك إضافة إلى عدد آخر من المنتجات الزراعية الغريبة التي لم نعرف إنتاجها من قبل إلا في مناطق بعيدة حتى إنها لا تباع في الكويت لصعوبة جلبها وعرضها. وبعد ذلك أعطى الكتاب الفرصة للنخيل فتحدث عنها في أربع صفحات.

ولم ينس الكتاب ركنًا من أركان المزرعة إلا وتحدث عنه، فهناك أماكن للنزهة ولعب الأطفال، وأماكن لتربية الحيوانات ومنها الغزلان والماعز إضافة إلى أبراج تربية الحمام، مع مرافق أخرى متعددة تحيط بها الزهور من كل جانب. هذا وما ورد في الشريط المصور إنما هي صورة طبق الأصل لما ورد في الكتاب، فكأنه إحياء للصور الواردة في هذا الأخير وتقديم لها وهو تتحرك.

كل ذلك يشعرك بمدى الجهد الذي بذله الشيخ مشعل الأحمد الجابر الصباح حتى يصل إلى هذه النتيجة المبهرة، أسعدني باطلاعي عليها عن طريق الكتاب والشريط وعن طريق إهدائه لي - مشكورًا - نماذج من إنتاج القيروان علمت بتذوقها أن ما قام به الشيخ أبو أحمد إنما هو عمل جليل عالي المستوى يستحق به الشكر من الجميع فقد قرّبنا كثيرًا من الدول المتقدمة زراعيًا، وأكد لنا أن الجهود الإنسانية إذا تم تكثيفها حول فكرة معينة فإنها لابد وأن تؤدي إلى أفضل النتائج.

فيا أيها العزيز: صاحب قيروان الوفرة، لقد قدمت لنا عجبًا، وفتحت لأبناء وطنك بابًا لو ساروا من خلاله في أعمالهم الزراعية لأتوا بالكثير وأنا واثق من أنك قد قمت بجهودك التي ذكرتها لك هنا لأنك إنما تريد أن تكون قدوة، وقد صرت بالفعل كذلك.

ولقد جمعت القيروان إلى جانب إنتاجها ما يتمتع به زائرها من جمال طبيعي أخاذ، وهذا هو ما قاله الكتاب عن هذه الناحية من نواحيها: «ناهيك عما تتمتع به القيروان من جمال وطبيعة ساحرة، فهي لوحة جمالية قهرت ظروف الطبيعة القاسية؛ فنسائم الأزهار والورود تغمر المكان، والأشجار الخضراء تشعُّ نضرة، والمنظر الخلاب يأخذ العقول وتنتشي معه القلوب والنفوس».

الشيخ مشعل الأحمد من أبرز وجوه آل الصباح، له في كل مجال نشاط، وله آراء يُعتدُّ بها. وهو إلى جانب كل ذلك - وكما ذكرنا آنفًا - نائب رئيس الحرس الوطني.

ولد في الكويت سنة ١٩٤٠م، وتلقى تعليمه في المدرسة المباركية ثم غادر الكويت من أجل الدراسة فالتحق بكلية (هندن) للشرطة في المملكة المتحدة البريطانية وذلك إبان سنة ١٩٦٠م. وعندما تخرج من هناك في تلك الكلية التي كانت لها شهرة في تخريج المتمرسين من الضباط التحق بوزارة الداخلية، وَتَقَلَّبَ في عدة مناصب صار بعدها رئيسًا للمباحث العامة وكان برتبة عقيد منذ سنة ١٩٦٧م وحتى سنة ١٩٨٠م، وتحولت أنشطة هذا القسم في عهده إلى إدارة أمن الدولة، وصار رئيسًا لها فترة من الزمن.

سعى - بتشجيع من سمو الأمير الراحل الشيخ جابر الأحمد الجابر الصباح - إلى تأسيس ديوانية شعراء النبط، وقد عينه الأمير الراحل رئيسًا لهذه الديوانية في سنة ١٩٧٧م، وفي سنة ٢٠٠٤م عيّن بموجب المرسوم الأميري رقم ٢٠٠٤/١٢ الصادر في ١٣ أبريل لسنة ٢٠٠٤م نائبًا لرئيس الحرس الوطني بدرجة وزير.

وكانت له أنشطة كثيرة أخرى، وهوايات متعددة منها أنه الرئيس الفخري لجمعية الطيارين الكويتية منذ سنة ١٩٧٣م، وأحد مؤسسي الجمعية الكويتية لهواة اللاسلكي والرئيس الفخري لها. وهوايته الأولى حاليًا - هي الزراعة إضافة إلى حبه للرّحلات البرية والقنص.

للشيخ مشعل الأحمد علاقات طيبة مع المواطنين بصورة عامة فهو لا يفضل أحدًا على أحد، وهو حريص على إدامة الاتصال بالجميع، وبخاصة في المناسبات التي تقتضي ذلك، وفي كافة اللقاءات التي تتم في الأعياد وفي شهر رمضان المبارك وغيرهما حيث يلقى الناس ويلقونه فيسعد بلقائهم ويسعدون بلقائه فهو أولًا وأخيرًا ابن من أبناء الكويت الأبرار الذين تركوا في قلوب الجميع محبة لا يزيلها الزمن.

****

الصناعات الأولى في الكويت[1]

في الأزمنة الكويتية القديمة، وفي ظل عدم وجود الوسائل الخاصة بالمواصلات مع العالم، ومع الحاجة إلى كثير من المنتجات، بدا للكويتيين أن الصناعة أمر لا بد منه، فبدأت بعض الصناعات ضعيفة وقليلة، ذات إنتاج ليس بالكثير، يقوم بعضها، ويحين أجل البعض الآخر، ولكن الإصرار على خوض غمار الصناعة استمر إلى أيامنا هذه وهو الذي دفع المهتمين إلى إنجاز هذا العدد الذي نراه من المصانع، وإنتاج هذا العدد الوفير من المنتجات الصناعية التي نفخر بأن أنتاجها تم في وطننا، وهي بعد ذلك تعد بمستقبل زاهر لصناعة الكويت وهذا الاهتمام - أيضًا - هو الذي أدى إلى إنشاء البنك الصناعي الذي يمد الصناعيين بتمويل مالي ويشاركهم في أنشطتهم المتعددة رعاية منه لهذا العمل الواعد الذي لا بد من رعايته حتى ينمو ويتكاثر ويعطي النتيجة المطلوبة من قيامه. وهذا هو الذي أدى - كذلك إلى قيام هيئة الصناعة التي تقدم كل ما تستطيع تقديمه من خدمات للصناعي الكويتي بما في ذلك التدريب وتهيئة الفرص المناسبة ومنح الأراضي التي تحتاج إليها المصانع وفق أجور رمزية. ومع ذلك فإننا نرى أن الروح القوية التي تنزع إلى العمل في مجال الصناعة منذ الماضي البعيد هي التي تدفع الأجيال الحالية من أبناء الكويت إلى الاستمرار، وإلى البحث عن السبل التي ينجح بها مسعاهم في هذا المجال.

(1) نشرت في جريدة الكويت بتاريخ ٢٠١١/٩/١٤م.

منذ بداية سكنى الكويتيين في مقرهم المبارك هذا التفتوا إلى البحر المحيط بهم من جهتين إحداهما من الشرق والأخرى من الشمال التي هي جون الكويت المتفرع من خليج العرب. وكان لابد وأن يستفيدوا من هذا المصدر الكريم لاكتساب الرزق فتوجهوا أولًا إلى صيد السمك ثم رأوا أن يستفيدوا منه أكثر فاتجهوا إلى الملاحة، وهذه المهمة تقتضي وجود السفن التي تحملهم إلى الموانئ التي يريدون الوصول إليها من أجل التجارة ونقل الأشخاص والبضائع، ومن هنا دعتهم الحاجة إلى التفكير في بناء السفن، فباشروا بذلك وأنتجوا ما يحتاجون إليه منها.

لا ندري كيف كانت البداية، ولا نعرف الأنواع الأولى من السفن التي تم بناؤها، ولكننا نعرض فيما يلي بعض التفصيل.

منذ سنة ١٨٦٣م حين زار الكولونيل الإنجليزي لويس بيللي الكويت بل وما قبلها، وهذا الوطن معروف بالنشاط البحري، بسفنه التي تجوب البحار، وهو معروف - على الأخص - بصناعة السفن التي تغذي حاجة السوق البحري الكويتي وتمده بما يشاء منها. وظلت هذه الصناعة في تقدمها إلى أن حلت السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، فتم في الكويت تصميم ألبوم الذي حل محل السفينة المستعملة في البحار من قبله وهي البغلة، وقد تطور هذا البوم حجمًا وإتقانًا حتى صار رمزًا وطنيًا بارزًا تذكر به الكويت أينما حل، وفي أي مرفأ توقف، ومع بداية القرن العشرين، قام الشيخ مبارك الصباح حاكم الكويت آنذاك بجهود طيبة في دعم المجهود التجاري الكويتي، ودعم صناعة السفن على حد سواء، ونتيجة لتشجيع الشيخ فقد زاد الاهتمام بالمهنة واكتسبت سمعة طيبة، وجذبت عددًا كبيرًا من العمالة من الكويت وخارجها، وما أن حلت سنة ١٩١٤م حتى صنع رجال الكويت البوم السفار الذي يزيد حجمه على حجم البوم عند بداية إبداعه، كما صنعوا السفن الخاصة بنقل المياه، ودعم الازدهار التجاري البلاد بفضل تشجيع الشيخ مبارك ورعايته لتجارة البلاد ولصناعة السفن فيها.

تنوعت السفن الكويتية وفقًا لتنوع مجال استعمالها، فهناك سفن الغوص على اللؤلؤ ومنها البتيل والجالبوت، ومنها سفن السفر التجاري والنقل البحري ومنها البغلة، والبوم السفار، وسفن صيد السمك مثل الشوعي وغيره، وسفن النقل الساحلي مثل التشاله، وسفن نقل الماء. وقد اشتهر عدد من صناع السفن في الكويت، وأصبح عملهم معروفًا في دول الخليج وفي باقي الموانئ التي تزورها سفنهم، نذكر منهم حجي سلمان الأستاذ وهو من مواليد سنة ١٨٤٠م، وهو أحد صناع السفن المشهورين، وكان من مصنوعاته عدد من السفن المشهورة، ومنهم أخوة ثلاثة هم صالح وعبدالله وجاسم أبناء راشد، وكان صالح قد صنع سفينة (بوم) من أشهر الأبوام الكويتية صنعها للتاجر الكويتي حمد الصقر. وهناك عدد آخر من بناة السفن يضيق المجال عن الحديث عنهم. ومما ينبغي أن يقال أن هؤلاء الرجال قد أنتجوا عددًا كبيرًا وأنواعًا كثيرة من السفن ولم يقتصروا على نوع معين.

وعرفت الكويت صناعة الهردة وهي التي تسمى في بعض البلاد العربية (الطحينة)، وكان الأهالي يقبلون عليها فيأكلون التمر مغموسًا بها، أو يتم مزجها مع الدبس ويمسح بها الخبز فيؤكل ليلًا في حالة عدم قيام الأسرة بالطبخ. رأيت (الكاركه) أي مكان العمل، وكان عبارة عن رحا أسفلها ثابت وأعلاها يدور به حمار هزيل، يوضع السمسم في أعلاها فتتساقط قطرات الهردة على كافة استدارة الرحا، ويكون هذا التساقط في إناء مستدير هو الآخر وذلك لحفظ المنتج ومن ثم إيداعه في خزانات صغيرة خاصة.

تأسس المصنع الأول من نوعه لهذه المادة الغذائية التي كانت مهمة ولاتزال محتفظة بأهميتها خلال سنة ١٨٨٥م، أسسه السيد إبراهيم جمال في منطقة المناخ، وقد اتسع هذا المصنع بعد أن تولى إدارته السيد إسماعيل جمال، وصار ينتج بعض المواد التي تعتبر الهردة من المواد الأساسية في صناعتها مثل الرهش وغيره، وكثر العمال حتى صار عددهم عشرين عاملًا كلهم من أسرة واحدة، وذلك حفاظًا على سر المهنة.

كان أصحاب هذا المصنع يستوردون السمسم من أماكن قريبة، ولكنهم بعد اتساع العمل صاروا يستوردونه من الهند وأفريقيا.

في الكويت اليوم عدد لا بأس به من مصانع إعداد الطحينة أو الهردة، ومن شاء الاطلاع على طريقة العمل فإن بإمكانه الاطلاع عليها إلا أنه سوف لا يرى الحمار القديم فقد حلت الآلة محله.

نشأت في عهد حكم الشيخ مبارك الصباح (١٨٩٦-١٩١٥م) عدة صناعات منها:

أ - مصنع الناmليت، ونكون مبالغين حين نطلق على هذا العمل اسم مصنع، إذ إن هذا المصنع الذي تم إنشاؤه في عهد الشيخ مبارك الصباح له شبيه في وقت متأخر. رأيته في أول الطريق المؤدي إلى السوق من الغرب، وكان ينتج ما لا يزيد عن ثلاث زجاجات في المرة الواحدة لدوران المكينة اليدوية التي يدير بها العامل الزجاجات بعد أن يملأها بالشراب والغاز، وكان الناس يطلقون على هذا النوع اسم (الناmليت) ثم جاءت زجاجات من نوع آخر جلبت من الهند ليس لها أغطية كالسابق لكن بها زجاجة مدورة على هيئة كرة صغيرة وكان هذا النوع يسمى ناmليت بوتيلة، أما الماكينة التي كان البدء بعملها في زمن الشيخ مبارك فلم تكن تنتج أكثر من زجاجة للدورة الواحدة، وقد جلبها أحد الأشخاص ووضعها في كوخ بالقرب من موقع سوق واجف الحالي قبل إنشائه، ولكن الكوخ احترق بما فيه وأحرق المقاهي المجاورة له، ويبدو أن هذا الأمر لم يكرره أحد إلا في الفترة التي رأيت فيها دكان الناmليت كما أشرت آنفًا.

ب - مصنع الثلج؛ يذكر الكثيرون منا مصنع الثلج الذي كان قائمًا بجوار المبنى الذي تستغله حاليًا وزارة الخارجية وكانت في أرض هذا المبنى (شبرة) كبيرة فيها ماكينة الكهرباء التي كانت تغذي بالإضاءة جزءًا من البلاد، ويطلق عليها

الناس مكينة السري (السري: جمع سراي أي سراج). مصنع الثلج المذكور هنا كان ملكًا لعائلة الغانم، وكان كبيرًا بمقاييس تلك الأيام ينتج من قوالب الثلج ما يغطي حاجة البلاد تقريبًا، وكان له موزعون في عدة مناطق من العاصمة.

غير أن ما أردنا الإشارة إليه، هو مصنع صغير أسسه شخص غير كويتي في سنة ١٩١٢م، وكان على ساحل البحر مباشرة في الجهة القريبة من الموقع الذي ذكرنا أن مكينة السري (الكهرباء) كانت فيه. وقد نجح في بداية أمره بتوزيع قدر كبير من إنتاجه على المستهلكين ولكنه سرعان ما تراجع بسبب تدخلات لا قبل له بها، فباعه صاحبه وتخلص من همه.

وفي المجال نفسه يقول الأستاذ عبدالله خالد الحاتم في كتابه من هنا بدأت الكويت: (وصناعة الثلج ليست من الأمور الغريبة على أهل الكويت، فالحاج المرحوم محمد الفوزان، المتوفى في سنة ١٣١٨هـ - ١٩٠٠م كان يصنع الثلج في بيته بواسطة آلة صغيرة تعمل على النفط، وفي كل يوم يبعث منه إلى الشيخ محمد الصباح وأخيه جراح) ولم يذكر الأستاذ شيئًا نعرف به - جيدًا - السيد الفوزان، ولم يذكر المرجع الذي استقى منه هذه المعلومة.

ج - بدأت مشكلة مياه الشرب والحاجة إليها تتفاقم في الكويت منذ زمن الشيخ مبارك الصباح، وقد كان هذا الأمير القوي يسعى إلى إيجاد الحل المناسب لهذه المشكلة من كل الوجوه الممكنة، وقد وجد أن من هذه الحلول شراء ماكينة لتقطير مياه البحر، وسعى في سنة ١٩١٤م إلى شرائها، وكان ذلك من شركة ستريك للملاحة التي باعت هذه الماكينة على الكويت بمبلغ ضخم بمقاييس تلك الأيام وهو مائتان وخمسون ألف روبية. ولم يدفع الشيخ مبارك الصباح هذا المبلغ إلا لشدة حاجة وطنه إلى مياه الشرب، ومشاهدته الأهالي وهم يبحثون عن الماء بكل وسيلة. واطلاعه على المشكلات الصحية التي تترتب على نقص المياه العذبة،

وتفشي الأمراض المصاحبة لذلك، فلم تمنعه ضخامة المبلغ من تقديمه في سبيل إيجاد وسيلة تنقذ شعبه وتساعده على تخطي المصاعب المائية والصحية التي يتعرض لها بين آونة وأخرى، أحضرت الشركة الماكينة المتفق عليها، وبدأ العمل في تشغيلها، وتعاظم الأمل يومًا فيومًا في الحصول على المطلوب منها، ولكن أسف الشيخ مبارك كان كبيرًا حينما أنتجت مياهًا غير عذبة بمعنى أنها لا تصلح للشرب، فلم يحصل الشيخ على النتيجة التي كان ينتظرها، ولذا تم إيقافها، وبدأت مفاوضات إعادتها إلى الشركة البائعة حيث إنها أخلت بعقد البيع، وقد استمرت هذه المفاوضات مدة طويلة، خاضها بعد وفاة الشيخ مبارك في سنة ١٩١٥م الشيخ جابر المبارك الذي ولي الحكم من بعده، ودامت حتى تولى الشيخ أحمد الجابر الصباح الحكم، وقد أصر الشيخ أحمد على إنهاء الموضوع، لأنه قد طالت مدة المفاوضات على أمر ينبغي ألا تطول حوله، ولأن الغبن واضح والخطأ بين، وفي سنة ١٩٢٢م تم نقل الماكينة من الكويت بعد أن دفعت الشركة البائعة ثمنها كاملًا، وانتهت بذلك إحدى التجارب المهمة الخاصة بتوفير المياه العذبة للبلاد.

وفي زمن الشيخ سالم المبارك الصباح (١٩١٧م - ١٩٢١م) وكانت مدة حكمه للبلاد قصيرة جدًا لم تنشأ إلا صناعة واحدة وهي صناعة المطاحن.

كان الأهالي يحصلون على حاجتهم من الطحين عن طريق طحن القمح يدويًا بالرحى، وكان ذلك مُتْعبًا لربات البيوت ويستغرق - في الوقت نفسه - زمنًا طويلًا. وهذا هو الذي دفع أحد المواطنين وهو المرحوم حمد الخالد إلى استيراد مطحنة آلية لطحن القمح وغيره وكان ذلك كما أشرنا آنفًا في فترة حكم الشيخ سالم المبارك الصباح.

وأقبل على الكويت في سنة ١٩٢١م، عهد الشيخ أحمد الجابر الصباح، وفيه ظهرت عدة مصانع على امتداد فترة حكمه التي استمرت حتى سنة ١٩٥٠م، وهي كما يلي:

- في سنة ١٩٣٥م بدأ رائد من رواد الصناعة في الكويت بصناعة الصابون هنا، ذلك هو الأستاذ هاشم العبدالرحمن البدر القناعي، كانت البداية هي أن أسس معملًا صغيرًا في بيته ينتج فيه عند كل دورة عمل واحدة ما مقداره عشرون كيلوجرامًا من الصابون، كان يبيعه على أصحاب الدكاكين وبعض الباعة الجائلين. وكان الإقبال على هذا المنتج ضعيفًا، فتوقف الأستاذ هاشم لأنه لم يجد من يشجعه على الاستمرار في عمله هذا.

وجاءت الحرب العالمية الثانية فانقطعت مواد كثيرة أو قلت ومنها الصابون، فوجد صاحبنا الفرصة سانحة لتحقيق رغبته في صناعة هذه المادة التي صارت مطلوبة فاستأنف عمله السابق، وأنتج كميات جيدة بل وقام بتصدير بعض إنتاجه إلى خارج الكويت. ولكنه توقف مرة أخرى بسبب عدم توافر المواد الأولية الكافية للإنتاج.

- وفي سنة ١٩٣٥م أيضًا بدأ عمل مصنع الكويت لصناعة البلاط (الكاشي) وكانت الكويت في ذلك الوقت قد بدأت في استخدام هذا النوع من مواد البناء ووجد رجلان من أهل الكويت أن الوقت مناسب للبدء في هذا العمل لكي يغطي حاجة البلاد ويدر لهما نفعًا ماديًا.

هذان الرجلان هما السيد عبداللطيف محمد ثنيان الغانم والسيد أحمد الأيوب القناعي. كان المعمل أو المصنع بدائيًا صغيرًا بحكم الحقبة التي أنشئ خلالها. ولم يكن يفي بكل حاجة الكويت، لو نجح النجاح المأمول من حيث إقبال الناس عليه. كان جهاز صنع (الكاشي) الذي نتحدث عنه يدار باليد ويُكبس بها. ويبدو أنه مستورد من مصر لأن أجزاءه قد كتب عليها (صنع في مصر). وكان الرجلان يستوردان الأصباغ من شركة بريطانية بوساطة وكيل لها في المنطقة، أما مدير المصنع فهو لبناني اسمه علي بليبل البعلبكي مع عدد من العمال بعضهم من

أبناء الكويت، وكان مقر المصنع في الشارع المسمى الآن شارع المباركية بالقرب من سوق الخضرة.

- في سنة ١٩٤٢م بدأت في الكويت تجربة صناعة الأحذية ونقول تجربة لأنها كانت بداية ضعيفة، لم تستطع الوقوف أمام الصناعة المستوردة. وكانت النعال التي تسمى (نجدية) قد سبقت بوقت طويل جدًا وكان موسم الصيف الطويل يجعلها تستأثر بالاستعمال دون الأحذية التي كان الناس يطلقون عليها اسم (لندنية) بحكم استيرادها من لندن وحدها في تلك الأيام.

كان صاحب المصنع رجلًا تركيًا اسمه عبدالله، جاء إلى الكويت ومعه الاستعداد لهذا العمل إذ أحضر ضمن متاعه كل مستلزمات هذه الصناعة، فكان يحمل معه الآلات والجلود وغيرها من اللوازم. وبدأ عمله في شارع الأمير المعروف حتى اليوم، وكان محله بالقرب من مسجد الفارس. بدأ عمله سريعًا وأنتج، وعمل على بيع ما ينتج، وحظي بإقبال الناس عليه ولكن البضاعة الأجنبية كانت تنال الإقبال الأكبر، مما جعله يغلق مصنعه ويبيع معداته بالمزاد.

- من الأعمال التي تعتبر تقدمًا كبيرًا في مضمار الصناعة الكويتية القديمة، عمل احتفت به الكويت كثيرًا حيث قام الشيخ أحمد الجابر الصباح بافتتاح مصنع للسجاير في البلاد. كان ذلك في سنة ١٩٤٥، وكان صاحب هذا المصنع هو السيد عبدالله الملا صالح، وجعل مقر عمله في منطقة الشرق الصناعية خلف معرض السيارات القائم باسم أسرته إلى اليوم. يتكون المصنع من خطين إنتاجيين استوردهما صاحبه من إنجلترا، وأطلق على المنتج اسم (كورونيت). بدأ العمل بإشراف مهندس بريطاني، معه عدد من العمال يتقاضى الواحد منهم ستين ربية شهريًا، بينما يتقاضى رئيسهم مائتي ربية. أما حساب المهندس فهو مختلف.

لعملية الإنتاج تفصيل طويل تراه في العدد الخامس عشر من مجلة (رسالة كويت) التي يصدرها مركز البحوث والدراسات الكويتية. وقد حاولت هذه ؤسسة توزيع أكبر قدر ممكن من إنتاجها حتى إنها وزعت على كثير من الناس بًا مجانية لإغرائهم باستعمال هذا الصنف من السجاير وحرصت على الخروج إلى خارج الكويت. ثم استعانت بالشاعر الشعبي فهد بروسلي لكي يقوم بالمهمة علامية على طريقته فقال:

دخنوا يهل الكويت
من سجاير كورونيت
مزته تبري الغليل
وريحته تشفي العليل
فاتك الطعم الجميل
وانت غافل ما دريت

وكما قال شاعرنا فقد فات الطعم الجميل جميع المستهلكين لأن عمل المصنع يستمر لأسباب كثيرة، منها صعوبة التوزيع. وقد شاهدت بقايا المصنع في أواخر عينيات القرن الماضي وقد تآكلت المكائن وتلف الورق.

ورد ذكر إنشاء أول مطبعة في الكويت ضمن أوراق الأستاذ أحمد البشر رومي الخاصة. فقد تحدث أنه قد جرى البحث بينه وبين السيد حمود المقهوي ل ضرورة إنشاء مطبعة في البلاد لأنه لم تكن هناك مطبعة يمكنها أن تطبع تياجات الحكومة والناس، وخلو الكويت في تلك المرحلة غير ملائم لأن وجودها ف يفتح المجالات لمن يرغب في الاتجاه إلى النشر، ويوفر الأموال على الدولة ي كانت تطبع كل ما تحتاج إليه من مطبوعات في الخارج، وقد كان الظن بها يقة واقعة حين تولت طباعة كثير من احتياجات الأهالي والحكومة، وفتحت ال أمام الأستاذ أحمد السقاف لكي ينشر مجلته (كاظمة).

تم بحث إنشاء هذه المطبعة بين الرجلين ودخلت دائرة معارف الكويت شريكًا فيها، وكان بدء البحث في اليوم الثامن من شهر نوفمبر لسنة ١٩٤٦م. ولكن الأمر احتاج إلى وقت طويل حتى بدأت المطبعة أعمالها. والأمر جديد في الكويت، وليست لدى الرجلين خبرة في إنشاء المطابع وإدارتها، ولكن العزم الشديد، والإيمان بالفكرة دفعا بهما إلى التنفيذ، فنشأت مطبعة المعارف واستمرت في عملها زمنًا طويلًا، وانتقلت من مالك إلى آخر، وفتحت المجال لمطابع أخرى برزت بعدها. وسوف تجد تفصيلًا كاملًا لكيفية نشأة هذه المطبعة في كتابنا (أحمد البشر الرومي ... قراءة في أوراقه الخاصة).

لم تعش كل صناعاتنا القديمة طويلًا، لأن الصناعيين يقولون إن الصناعة في حاجة إلى بيئة صناعية، ولم تكن الظروف مهيأة لها بحيث تنمو وتستمر. ولكن الوضع الحالي يبشر بالخير، وكل ما ترجوه صناعتنا اليوم هو المزيد من اهتمام الدولة بها.

هذا وهناك صناعات صغيرة أخرى لم أتطرق لذكرها هنا، لأن القصد مجرد تقديم الأمثلة لا الاستغراق في الموضوع.

****

ملحاق خير

بعد أن جرى حديثنا في المقال المرافق عن الصناعات الكويتية القديمة، فإننا نرى أنه لابد وأن نشير إلى أن ذلك الاهتمام بالصناعة قد امتد في نفوس أبناء البلاد ولم تتوقف العجلة الصناعية عندنا على الرغم من مرور فترة توقف قصيرة في حساب الزمن، ذلك لأن أصحاب الرأي في الكويت كانوا يرون أن قيام الصناعة وتطوير القائم منها ودعمها دعمًا شاملًا هو أمر ضروري لانتعاش اقتصاد الوطن، وللحماية من تدهور الأوضاع المالية في حالة نضوب النفط لا سمح الله. فكان الرأي أن تكون الصناعة – على الأقل- مصدرًا رديفًا له في دعم الدخل، وانتعاش البلاد.

من أجل ذلك سعيت إلى الاستعانة بخبرة رجل له باع طويل في هذا المجال، واستكتبته حديثًا يغطي هذه الناحية المهمة، التي يعتبر ذكرها هنا استكمالًا لما جاء في المقال، فلبّى الطلب مشكورًا وقدم لي ما أضعه أمام أعين القراء هنا.

هذا الرجل هو الدكتور يوسف شهاب البحر، وهو معروف بأعماله في وزارة التجارة والصناعة، وفي الهيئة العامة للصناعة، وهو يساهم الآن في عدة أعمال مهمة لها علاقة كبيرة بما اكتسبه من خبرات سابقة، وأنا إذ أقدم ما كتب لأشكره كثيرًا وأبدي إعجابي الشديد بإلمامه بكل أطراف الشأن الصناعي الكويتي في عهده الجديد.

يقول الأخ الدكتور يوسف شهاب البحر:

«في حديثنا عن الصناعة في الكويت فإننا قد نبالغ في القول إن الكويت بلد صناعي ولكن لا شك في أن في الكويت صناعة متطورة ذات جودة عالية خطت شوطًا طويلًا متقدمًا في هذا المجال وأصبحت تمتلك كل المقومات لنشأة قطاع صناعي قوي يساهم في تنويع مصادر الدخل بهدف خلق قاعدة صناعية قادرة على إنتاج مجموعة من السلع والمنتجات للسوق المحلي والخارجي بأسعار تنافسية وتشجيع الصناعات المستفيدة من الميزة النسبية لتوفر النفط في الكويت مع تبني التكنولوجيا العالية في إقامة المشروعات الصناعية بجميع أحجامها.

لقد أدركت الدولة مبكرًا أهمية القطاع الصناعي في تنويع مصادر الدخل لديها من خلال الاستثمار في الأنشطة التي تزيد من موارد الدخل الوطني فأنشأت الحكومة أول جهة حكومية للشؤون الصناعية عام ١٩٦١م، وقد أصبحت بعد ذلك ضمن وزارة التجارة والصناعة وفي عام ١٩٦٤ صدر مرسوم أميري بإنشاء (الهيئة) الإدارة العامة لمنطقة الشعيبة الصناعية ثم صدر أول قانون للصناعة رقم (١٩٦٥/٦) وفي عام ١٩٧٣ أُنشئ بنك الكويت الصناعي وفي عام ١٩٩٦ توج كل ذلك بإصدار قانون الصناعة الجديد رقم (١٩٩٦/٥٦) الذي كان لي مساهمة في وضعه حيث شكلت لجنة عام ١٩٩١ بعد التحرير مباشرة برئاستي وعضوية مجموعة من الكفاءات الكويتية التي لها خبرة وباع طويل في هذا المجال وكان من أهم مواد هذا القانون إنشاء الهيئة العامة للصناعة (ذات شخصية اعتبارية) هدفها تنمية النشاط الصناعي والحرف في الكويت وبممارسة الهيئة أعمالها بعد صدور القانون عام ١٩٩٦ أصبح هذا التاريخ نقطة تحول مهمة في مسيرة التنمية الصناعية وبداية عهد صناعي جديد في الكويت الحبيبة ومن أهم هذه الأهداف:

- **سد احتياجات السوق المحلي من السلع المصنعة.**
- **تنويع مصادر الدخل الوطني.**

- إيجاد منافذ تصديرية للمنتجات المحلية.

- تنمية وتأهيل القوى العاملة الكويتية.

- الاستخدام الأمثل للموارد الطبيعية وإنتاج مواد وسيطة لخلق أكبر قدر ممكن من التشابك والتكامل الصناعي في إنتاج السلع الإستراتيجية.

- حماية البيئة بمراقبة تطبيق المواصفات الكويتية والخليجية والدولية.

ولا شك في أن الصناعة في الكويت لا تزال تعترضها بعض المشكلات ولكوني أحد المهتمين بشؤون الصناعة أجد أنه على الرغم من مساهمة القطاع الصناعي في الناتج الوطني بنسبة متواضعة إلا أن المؤشرات توضح احتمال تزايد هذه النسبة مستقبلًا في ظل الجهود الداعمة التي تنتهجها الدولة حاليًا ومن هذه المشكلات والصعوبات ندرة الأراضي الصناعية، والمعوقات التي تواجه طلبات التصدير للمنتجات الكويتية بالإضافة إلى ضرورة استمرار الدعم في تسويق المنتج الصناعي في السوق المحلي.

والكل متفق على أن الصناعة أصبحت ضرورة لا غنى عنها وهي رديف مهم للمورد الوحيد للدولة (النفط) وخاصة في ظل الظروف الاقتصادية التي تمر بها المنطقة بل والعالم أجمع.

وأود أن أشير إلى ما لمسته خلال عملي بصفتي مسؤولًا بعد التحرير مباشرة في هذا القطاع الصناعي مدى اهتمام القيادة السياسية العليا بدعم هذا القطاع حيث تم عمل مسح شامل للأضرار والدمار الذي أصاب المصانع (منطقة صبحان نموذجًا) حيث تم تدمير ٩٠٪ منها خلال العدوان العراقي الغاشم ولكن كما هو في كل الميادين وبعون من الله وإرادة المواطن الكويتي تم إعادة إعمار الكويت بما فيها قطاع الصناعة خلال فترة قياسية أذهلت العالم أجمع، وتم تدعيم ذلك كما سبق ذكره بسرعة إصدار القانون الجديد عام ١٩٩٦ وإصدار قرارات كثيرة نحتاج فقط إلى تفصيلها.

إن حرص سمو الأمير الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح حفظه الله على حماية الاقتصاد الوطني من الآثار المترتبة على ما يحدث في هذه الفترة على الاقتصاد العالمي بتشكيله مؤخرًا اللجنة الاستشارية الاقتصادية برئاسة سمو رئيس مجلس الوزراء لهو دليل على اهتمام سموه بنهضة الاقتصاد الوطني لدولة الكويت، ولا شك في أن الصناعة سيكون لها نصيب من هذا الاهتمام للأسباب التي ذكرناها هنا من أهمية دور الصناعة في اقتصاديات الدول وخاصة دولة الكويت لتنوع مصادر الدخل الوطني».

إلى هنا ينتهي ما كتبه الدكتور يوسف شهاب البحر. وهو حديث مسهب ولكنه مفيد، له عليه خالص الشكر والتقدير.

****

من الجُمل العربية في اللهجة الكويتية[1]

أجد في العودة إلى المباحث اللغوية متعة غامرة، كما أجد في إثارة المقارنات بين الألفاظ الواردة في لغتنا العربية الفصيحة وغيرها من ألفاظ اللهجة ما يغري بالمتابعة من أجل مزيد من الاكتشاف للحقائق اللغوية في هذا المجال المهم من مجالات العمل في اللغة وفي الأدب.

هذه - إذن - عودة إلى مثل ما سبق لي أن قدمته من متابعات لما ورد في لهجتنا مما يتعلق باللغة الفصحى التي هي الأم التي تفرعت عنها كل اللهجات العربية المستعملة الآن.

وموضوعنا يرتبط بكتاب من الكتب الأدبية معروف عند كافة الأدباء وهو كتاب «نشوار المحاضرة، وأخبار المحاضرة» ألفه القاضي أبو علي المحسِّن بن علي التنوخي المتوفى في سنة ٣٨٤هـ، والكتاب ضخم ومحتواه كبير، ويكفي أن نعرف أنه قد طبع في ثماني مجلدات. ومع ذلك فإن قارئه لا يمل قراءته ولا يسأم عندما يمر عليه الوقت الطويل وهو مكب عليه ذلك لأنه متنوع الموضوعات، مليء بالمعلومات، فيه النثر وفيه الشعر وفيه الأخبار والتواريخ، وكان مؤلفه قد أمضى في تأليفه عشرين سنة، ويكفي هذا للدلالة على حجم ما فيه من معلومات يحتاج إليها كل من يسأل عن المعرفة.

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢١/٩/٢٠١١م.

عندما قدّم المؤلف لكتابه هذا قال إنه «كتاب يشتمل على ما تناثر من أفواه الرجال، وما دار بينهم في المجالس». وفيما يتعلق بتسمية كتابه فإنه يقول إنه «سماه نشوار المحاضرة لأن النشوار ما يظهر من كلام حسن».

وهو - بالفعل - قد قام بجمع كل ما استمع إليه من أقوال العلماء ومن مشاهداتهم التي قاموا بروايتها له، وقد حرص على أن يجمع كل ذلك بعد أن وجد هذه المعلومات جديرة بالتسجيل وقد صارت في طريقها إلى الضياع بعد وفاة أولئك الشيوخ الذين استمع إليهم، واستمتع بأحاديثهم وكتبها يومًا فيومًا حرصًا عليها. فجاء هذا الكتاب.

كان المؤلف يشعر بالزهو وهو يقدم كتابه هذا إلى القراء، فهو يرى أنه قد جاء بشيء فريد، ينبغي أن تشخص إليه الأبصار، وهو يرى أن كتابه من النوع الذي «لم يُسبق إلى تأليف كتاب مثله، ولم تُخلّدْ بطون الصحف بشيء من جنسه وشكله. وإن كثيرًا مما ورد في الكتاب لا نظير له ولا شكل، وهو وحده جنس وأصل».

ويبدو أن المؤلف عندما انتهى من تأليف كتابه هذا ممضيًا في تأليفه عقدين من الزمان، وجد أنه قد صنع شيئًا جيدًا يستحق أن يفخر به، ويعتز بإنجازه. وعلى الرغم من هذا الزهو الذي يشعر قارئ مقدمة الكتاب أن المؤلف قد اتصف به، نراه في آخرها يعود إلى تواضع العلماء فيقول إنه يرجو ألا يبور ما قد جمعه، ولا يضيع ما قد تعب فيه وكتبه، فلو لم يكن فيه إلا أنه خير من أن يكون موضعه بياضًا، لكانت فائدة.

إذن فإن الكتاب لم يكن خاصًا باللغة بل ولا يحتوي على مباحث منها فقط، ولكنه كتاب أخبار أكثر من أي شيء آخر، ولكن أسلوب التنوخي المؤلف يطرح أمامنا ألفاظًا عدة لها صلة بما هو موضع اهتمامنا من حيث تشابهها مع بعض

ألفاظ لهجتنا الكويتية. وهو ما حدا بنا إلى الاهتمام بعرض شيء منه متابعة منا لموضوعات سبقت في هذا الصدد.

لم يكن المحسِّن بن علي التنوخي رجلًا عاديًا، فقد كان من القضاة وكانت له مكانة بين العلماء والأدباء والشعراء على حد سواء، ولم يتول القضاء فقط فقد زاول عدة أعمال مهمة في وطنه، وهو من مواليد البصرة ولكنه عاش أيامه الأخيرة في بغداد وبها تُوفي. وكانت له مكانة عند فيلسوف المعرّة أبي العلاء المعرّي، الذي أكد صلته بالتنوخي حين أرسل إليه قصيدة من قصائده الجميلة التي مطلعها:

هات الحديثَ عن الزوراءِ أو هيتا
وموقد النار لا تَكْرَى بتكريتا
ليستْ كنار عديّ نارُ عاديةٍ
باتتْ تُشبُّ على أيدي مصاليتا

وقد جاءت القصيدة في واحد وخمسين بيتًا، ولا يمكن قراءتها إلا بالرجوع إلى مصدرها في كتاب سقط الزند للمعري، لأن شعره يحتاج دومًا إلى تتبع معانيه. والكتاب الذي نظرت فيه مطبوع من قبل معهد المخطوطات العربية بالقاهرة سنة ٢٠٠٣م والقصيدة في ص ٦٧٦ منه وهي تدل على عمق الصلة بين الرجلين وتقدير أحدهما للآخر.

وللقاضي التنوخي عدة مؤلفات بخلاف هذا الكتاب الذي أشرنا إليه، منها كتاب «الفرج بعد الشدة» وله ديوان شعر لم أطلع عليه، ولكن ما وجدته من شعره في بعض المراجع الذي كتبت عنه قليل، ولا يدل على شاعرية فذة كما هو متوقع. ومما قاله معرضًا ببعض المشايخ، وقد خرج بالناس لأداء صلاة الاستسقاء إثر انحباس المطر في بلده، وكان السحاب يغطي السماء، ولكنه انزاح سريعًا بعد الصلاة:

خرجنا لنستسقي بيُمن دعائه
وقد كاد هُذْبُ الغيم أن يُلحفَ الأرضا
فلما ابتدا يدعو تكشّفت السّما
فما تم إلا والغمام قد انفضّا

ذلك لأن لصلاة الاستسقاء شروطًا، لابد من توافرها في نفس الإمام والمأموم، وليست تمثيلًا فالله سبحانه هو المطّلع على ما في القلوب.

هذه نبذة لابد من البدء بها قبل أن نتوصل إلى الموضوع الذي قصدنا عرضه هنا، وهو ما ذكره التنوخي في كتابه «نشوار المحاضرة، وأخبار المحاضرة» من ألفاظ وجمل عربية فصيحة ولكنها مما هو دارج في لهجة أبناء الكويت.

١ - من مساوئ الطاغية العراقي صدام حسين التي يتذكرها أبناء الكويت دائمًا، أنه جلس يومًا أمام جهاز التلفزيون في بلده وكانت تحيط به زمرة من زبانيته، والمهللين له، فأراد أن يتحدث بحديث يريد منه بث عداوته وكراهيته للكويتيين بعامة، وذلك رغبة منه في إفشاء روح الكراهية والحقد في نفوس أبناء العراق ضدنا، وهذا التصرف الذي اندفع إليه بجهل فاضح لايجوز أن يصدر عن حاكم كان ينبغي عليه في وقته ذاك أن يمحو الفوارق بين الشعبين إن كان صادقًا في دعواه التي أدت به إلى احتلال الكويت قسرًا، وإيذاء أهلها بتصرفاته الرعناء، وتصرفات أبناء شعبه فور إعلان احتلالها من أجل النهب والسلب. لقد كان دأبه دائمًا هو إثارة العداوة والبغضاء بين أبناء البلدين بأقواله، وبتوجيهاته للعاملين معه، مما لا تزال آثاره عالقة في النفوس إلى يومنا هذا.

أراد الطاغية - كعادته - أن يثير الفتنة فقال:

- أتدرون ماذا يقول الكويتيون عن أي عراقي؟ إنهم يقولون: هذا قطعة عراقي أو عراقي مقطع، فماذا يقصدون بذلك؟ ولماذا يهينونكم بهذا القول؟

ولا يقول الكويتيون هذه العبارة لجميع العراقيين، فنحن نعرف أن منهم أناسًا على خلق ودين، ولكنها تقال عندما يثور التلاحي (المعاياة) بين اثنين فسرعان ما ينفجر أحدهما ليقول هذه العبارة. ولم تكن خاصة بأبناء العراق بل هي تقال لكل من تقع منه المشاحنة من أي بلد كان.

لا يعرف صدام حسين أن هذه العبارة - أصلًا - من البصرة، وقد كانوا يستعملونها قديمًا. وورد ذكرها في كتاب «نشوار المحاضرة» الذي تحدثنا عنه، فقد جاء في الجزء الأول منه ص ١١٣ أن مهاترة تمت بين اثنين جاءت خلالها العبارة المذكورة، يقول التنوخي مؤلف الكتاب: «حدثني عبدالرحمن بن عبدالله بن أحمد بن بكر، قال: حدثني أبو بكر سعيد بن هارون الطبيب، وكان أبوه سيرافيًا، وجيهًا في بلده وفي غيره، وكان موسرًا، قال:

خاصم أبي رَجُلٌ من أهل البصرة، فقال له الرجل:

- تكلِّمُني وأنت قطعة سيرافي؟

فقال له سعيد:

- أنا نجار في بلدي، وأنت عارٍ في بلدك .

(النجار: بكسر النون الأصل والنسب، فهو يقول: أنه ذو أصل عريق ونسب عالٍ في بلده سيراف، ولكن المهاتر لا نسب له في بلده، وليس من الشرف بشيء).

(أما سيراف فهي بلدة قديمة كانت مزدهرة، وكانت ميناء يستقبل السفن المغادرة إلى الهند والعائدة منها، وهي مذكورة في الكتب، وقد ذكرت الكثير عنها ومنها كتاب ياقوت الحموي «معجم البلدان» حيث ذكر أنها على ساحل البحر باتجاه إيران، وأنها فرضة الهند في زمنها. تقع هذه البلدة اليوم في منطقة قريبة من مدينة بندر عباس وتسمى الطاهرية).

إذن فإنها تجارتهم وقد عادت إليهم، والعبارة قالها بصري من أهل العراق مهاترًا هذا الرجل. ولا شك في أن هذا القول الذي أشرنا إليه قد انتشر في المنطقة، ولا يعني قوله التعميم كما أراد أن يوحي بذلك طاغية العراق السابق، فهو كلام يتم تبادله بين أفراد ادعى صدام حسين في جلسته المشار إليها أن جميع الكويتيين يقولون عن جميع أهل العراق عبارة: قطعة عراقي. وقد وجدتم هنا أصلها ودلالتها وتبين أن استدلال صدام حسين كان باطلًا كالعادة. ووجدتم أن من يقولها من أبناء الكويت فكأنما يقول للشخص المشاكس له إذا كان عراقيًا إنني أرد عليك بمثل قولك القديم.

٢ - روى التنوخي حكاية ضمنها لفظًا دارجًا من ألفاظ اللهجة الكويتية هي لفظ «نغصة» والنغصة عندنا نوع من الهدية ولكنها خاصة بالأكل، فإذا قُدِّم لأحدهم أحد الأطباق اللذيذة تمنى أن يبر بهذا الطبق أبويه أو صديقًا له، فإنه يرسل قائلًا: إليك هذه النغصة، عندما وجدتها لذيذة اشتهيتها لك دون كل الناس.

وذكر ابن منظور في كتابه «لسان العرب» أصل كلمة نغص فقال: «نغص لم تتم هناءته». فالرجل لم تتم هناءته إلا بإرسال النغصة إلى من يود. ولهذا اللفظ معنى آخر في اللهجة وفي الفصيح ذكره ابن منظور - أيضًا - فقال: «وقد نَغَّص عيشه تنغيصًا أي كدّره» ونحن نقول في لهجتنا: فلان كدرنا ونغص علينا.

وكانت حكاية التنوخي التي وردت فيها كلمة النغصة هي ما رواه عن رجل يدعى أبو القاسم بن الحواري، له صديق ظريف طيب الحديث، حسن المعشر. وكان يدعوه إلى الجلوس إلى مائدته. يقول التنوخي:

«وكان أبو القاسم، شديد البر بأمه، فكان يتنغَّصُ لها حتى بالماء فضلًا عما سواه، ولا يتهنأ بأكل شيء إلا إذا أكلت منه، وكان من عادته إذا استطاب لونًا، أن يرسله من مائدته إليها.

وعندما أكل عنده صديق في أول يوم له معه، وكان لا يدري شيئًا عن طريقته فوجئ بصاحب المائدة يرسل الطعام من أمامه، ويأمر بإرساله لوالدته». ثم يقول: «وقدم له يومًا طبقًا يسمى (المضيرة) وهو من فراخ الدجاج، ودهن الجوز، والخردل، فما أكلوا منها إلا قليلًا حتى أمر أبو القاسم بإرسالها إلى أمه، فأخذ صاحبه رغيفًا وتبع حامل المضيرة، فقال له ابن الحواري: إلى أين؟ فقال: إلى الوالدة يا سيدي، آكل معها هذه المضيرة، فإن هذه المائدة خراب، والخصب هناك. فضحك أبو القاسم، وأمر برد الإناء إليه».

٣ – وحكى التنوخي حكاية أخرى عن رجلين اسم أحدهما هو عافية الباقلاني واسم الثاني خالد الحذّاء. وقال إنهما تعاهدا على أن يسيرا على صفيحة من الحديد محماة بالنار، وألا يترددا في ذلك، فكأن هذا كان نوعًا من الرهان على القيام بهذا العمل المر الشديد. يقول المؤلف: «فلما صارا فوق الصفيحة وهي بحجم الباب الكبير، حَلّ أحدهما مئزرة، ثم قال لصاحبه:

انطرني أتوزر.

فهاتان لفظتان الأولى هي انطرني بمعنى انتظرني، وهي من ألفاظ اللهجة الكويتية الشائعة التي لا تزال تستعمل في الحديث اليومي. والثانية هي اتوزر بمعنى أضع الإزار حول جسمي (ونحن نقول الوزار) وننطق اللفظ الذي قاله الرجل هكذا: أتويزر. والتحول البسيط الذي جرى على نطق اللفظين ليس بكبير ولا يغير من المعنى (ج١ ص ١٤٩).

٤ – وأورد التنوخي حكاية أخرى في ج١ ص ١٥٣، عثرنا فيها على لفظ من ألفاظ لهجتنا المستعملة إلى اليوم، وهو قولهم عن الشيء: مقطن. إذا كان متعفنًا، ويجري استعمال هذا اللفظ على عدة وجوه فيقال هذا خبز مقطن، ويقال: قطن الخبز، ويقال إن تركت الخبز مدة طويلة قطَّن ... وهكذا. وقد زاد أهلنا في معنى

هذا اللفظ اتساعًا فصاروا يقولون عن الشخص غير النظيف الذي لا يحرص على الاستحمام: مقطن، والمرأة: مقطنة.

أما الحكاية التي ذكرها التنوخي في كتابه «نشوار المحاضرة» فتتعلق بمعركة نشبت أيام ثورة الزنج بالعراق في سنة ٢٧٠هـ وسيأتي ذكر ذلك في آخر هذه الفقرة، ولكن ما يعنينا في هذا المقام أن نذكر ما دار في المعركة لأنه هو ما نريد أن نقوله بشأن اللفظ الذي يهمنا ذكره. يقول المؤلف: تعرض الموفق الذي كان يقود المعركة إلى الإصابة بسهم نافذ في صدره من أحد أعدائه الذين جاء لقتالهم، يقول: «فَحُمِلَ الموفق صريعًا في حد التلف، ونزع السهم. وكان مقطنًا وبقي النصل في جسم المصاب، وجرت بعد ذلك محاولات إلى أن شفي الموفق، ثم ألقى القبض على الفاعل وقتله شر قتله، وقد كان ما حدث لهذا الجاني سببًا من أسباب انتهاء ما كان يسمى ثورة الزنج. ومن عبارات المؤلف عرفنا أن لفظ مقطن هو لفظ عربي من الألفاظ المستعملة في لهجة الكويت.

أما القائد الذي انشغل بحرب الزنج فهو الأمير الناصر لدين الله الموفق طلحة بن المتوكل على الله جعفر بن المعتصم بن هارون الرشيد، وكان الموفق قائدًا لجيوش الدولة العباسية في حينه، وأقوى رجالها، وأحد أبطالها وكان نموذجًا للعسكرية العباسية، وكما رأينا فإنه هو الذي قضى على ثورة الزنج التي أقضت مضاجع رجال الحكم العباسي واستمرت خمس عشرة سنة دون توقف، وقد كان الموفق هو المتصرف في أمور الخلافة في عهد أخيه المعتمد على الله وكان هو الخليفة، وهو إلى جانب ذلك يمتاز بالوقار ورجاحة العقل وحسن التدبير، ولم تكن الشدائد تهزه أبدا، وكان يحسن سياسة الأمور ويحب الادب، ويتابع دراسة الفقه، وبعد أن عاد من الغزو أصيب بداء النقرس فمات بسببه في سنة ٢٧٨هـ.

وأما ثورة الزنج التي أزعجت الخلافة العباسية مدة طويلة وأدخلتها في حروب قاسية، فهي حركة سياسية عسكرية قام بها المسمى «صاحب الزنج»

وهو علي بن محمد العلوي، وقد سمي صاحب الزنج لأن أكثر أتباعه منهم. ظهر في سنة ٢٥٥هـ واستولى على عدد من البلدان منها البصرة والأهواز، ولم تنته فتنته إلا بعد أن قتله الموفق، ووضع بذلك نهاية الأحداث المريرة التي شهدتها الدولة العباسية.

٥ - مما ذكره التنوخي من الألفاظ الكويتية ذات الأصل العربي لفظ (الهيب)، وهو اسم يطلق على حديدة طويلة لها طرفان أحدهما مدبب، والآخر عريض، وهي تستعمل في الحفر بجميع أنواعه، كحفر الآبار، وحفر الأرض لإعدادها للزراعة، وكل ذلك كان في القديم، ولا يخلو بيت في الكويت - قديمًا - من هيب إذ الحاجة إليه ماسة في استعمالات متعددة منها ما ذكرناه وهناك الكثير مما لم نذكر.

يقول التنوخي (١٧٠/١) إن بعضهم قد اجتاز طريقًا مع ولد له في مقتبل حياته (حدث)، فسمعا ضربًا على العود لم يكن الفتى قد سمعه من قبل ولكنه استطابه وأحب أن يعرف سر هذا الصوت المُعْجِب. فسأل أباه قائلًا:

- يا أبت ما هذا؟

فقال له أبوه:

- هذا صوت الهيب في أصول الأشجار.

لقد أحب الأب أن يصرف ذهن ولده، عن العود وما يجر إليه من معازف أخرى ولهو، فقال له إنّ الصوت لم يكن إلا صوت الهيب يحفرون به تحت الأشجار أي في أصولها.

٦ - يمر بنا في كتاب «نشوار المحاضرة» لفظان هما من ألفاظ اللهجة الكويتية، بل هما من الألفاظ المستعملة في أعمال البحر المتعلقة بالسفن وتسييرها. هما:

● لفظ: خطف، وهي عندنا رفع شراع السفينة استعدادًا لمسيرها. وهذا اللفظ معروف لدى كافة من يعمل في البحر عندنا. ذكره الأستاذ أحمد البشر الرومي في كتابه: «معجم المصطلحات البحرية في الكويت» في موضعين من هذا الكتاب القيم هما ما ورد في ص ١٤٦ حيث يقول: «خطفت السفينة أي نشرت أشرعتها وأقلعت. واللفظ فصحيح، فيقال: خطفت السفينة أي سارت». ويقول في ص ١٨٤: «خطفت السفينة أي أقلعت ونشرت أشرعتها للريح».

ونقل ابن منظور في كتابه «لسان العرب» عن أبي الخطاب الأخفش الأكبر وهو أستاذ سيبويه أنه قال: «خَطِفَت السفينة وخَطَفَت، أي سارت، يقال: خَطَفَت اليوم من عمان أي سارت».

● لفظ طرح وسوف يأتي الحديث عنه.

إذن فاللفظان دارجان في اللهجة ولا يوجد غيرهما للدلالة على معنى رفع الأشرعة وإقلاع السفينة عندنا. وهما في الوقت نفسه من الألفاظ العربية الفصيحة قديمة الاستعمال.

أورد أبوعلي المحِّسن بن علي التنوخي ما يؤكد هذا في كتابه «نشوار المحاضرة» وذلك أنه روى لقرائه حكاية أخبر بها عن حادث تم في عمان. وذلك أن «معز الدولة» أرسل رجلًا اسمه «كردك» إلى رجل هناك صار ملكًا على تلك البلاد في فترة من الزمن بعد انقراض حكامها الذين سبقوه إلى حكمها. ولم يكن هذا الرجل من المهتمين بالحكم لأنه كان ثريًا تاجرًا، ولكنه انصاع لإلحاح أهل البلد الذين ملكوه عليهم، وقبل وصول الرجل المنتدب من قبل «معز الدولة» كان هذا قد أرسل رسالة إلى الحاكم واسمه «التوكاني» يطلب منه أن يُسلم الحكم إليه. وعزم هذا على التسليم لأنه في الأصل لم يكن راغبًا في حكم البلاد، ولما علم الأهالي برغبته ثاروا عليه وطالبوه بالرحيل على أن يختار الموضع الذي يريد أن يرحل إليه.

فعزم على ذلك يقول التنوخي: «وجمع متاعه وأمواله وجعلها في مركب وخطف، وكان مركبه يحتوي على مال كثير».

ثم قال: «فلقيه (كردك) في الطريق، فلما رآه طرح إليه» ولفظ (طرح) هذا هو ثاني اللفظين اللذين ذكرنا أن صاحب الكتاب أوردهما، وعندما نعود إلى معجم المصطلحات البحرية المشار إليه نجده يقول: «طرحت وتنطق عندنا بسكون الطاء، يقال طرحت السفينة إذا أنزلت شراعها وتوقفت عن السير».

بهذا نكون قد انتهينا من موضوعنا لهذا المقال، وهو عن الجمل والألفاظ الدارجة في اللهجة الكويتية وهي من أصل عربي فصيح. ومما تجدر بنا الإشارة إليه هنا أن ما قدمناه لم يتجاوز المجلد الأول من ثمانية مجلدات هي كامل كتاب نشوار المحاضرة، ولن يكون هناك مجال للعودة إلى باقي المجلدات ولكن هذا الذي قدمناه يدعو المهتمين إلى الاطلاع على الكتاب فهو إلى جانب ما فيه من ألفاظ لهجتنا يحتوي على الكثير من الفوائد في اللغة والتاريخ والحكايات وأخبار الناس.

****

ملحاق خير

الكلمات التي ذكرت في المقال هي لألفاظ عربية صميمة ورثناها من آبائنا وأجدادنا، لذا فإنه لا ينبغي أن يظن أحد أنها ألفاظ عراقية بدليل أن أول لفظ منها كان رئيسهم شديد التعجب منه مما يدل على أنه لم يسمع به إلا عندما أسر له أحد أزلامه به. أما باقي الألفاظ فوجودها في أمهات المعاجم العربية وعلى رأسها كتاب «لسان العرب» دليل على عربيتها الخاصة، وتأكيد على أننا تلقيناها مباشرة من أصولنا العربية لا غير.

ولا ينبغي أن يغيب عن البال أن هذه الأرض التي نعيش عليها كانت جزءًا من مقاطعة البحرين (إحدى مقاطعات جزيرة العرب) وكانت في ذلك الزمن مقرًا لعدد من القبائل نذكر منها بني تميم وعبدالقيس وبكر بن وائل، وقد تركوا أثرهم ليس في ألفاظ اللهجة الكويتية فحسب، بل في تميز الأصوات والخصائص الصوتية المرتبطة بذلك، ولذا فإننا حين نتصفح المعاجم العربية نجد فيها من ألفاظ اللهجة الكويتية الشيء الكثير، بل إننا نجد إلى جانب الألفاظ بعض الأساليب والأمثال، ويتفق لنا أحيانًا أن نجد من ألفاظ اللغة العربية الفصحى ما لا يستعمل في الوقت الحاضر في كتابة أو مخاطبة واقتصر وجودها على المعاجم، ولكنها تستعمل بشكل يومي في اللهجة الكويتية.

والكويتي بطبعه تسير اللغة العربية على لسانه فهو إذا أقبل عليه شخص قال له: حياك الله، فيرد عليه هذا: الله يحييك، وإذا زلت قدم شخص قال له: اعليت، فيرد عليه بقوله: لا بليت، وعندما يغادر المجلس يقول: في أمان الله، ويرد عليه: في أمان الكريم، وهكذا تتردد ألفاظ اللغة العربية دائمًا على لسانه، فإذا رجعنا إلى العبارات المستعملة وجدنا عبارة: سقط من عيني، أي فقد احترامي له، وفي الحديث: «إني لأرى الرجل يعجبني فأقول هل له حرفة فإن قالوا: لا؛ سقط من عيني». ووجدنا عبارة: طقت الحلقة البطان أي وصل الأمر إلى نهايته، ومثلها قول العرب: «التقت حلقتا البطان». ووجدنا كلمة قعد في قولهم: «قعد فلان يمدحك» أي طفق يمدحك وهي استعمال عربي، وكذلك «كذبته» بمعنى أخبرت أنه كاذب، وكذلك قولهم: «الحمد لله الذي جاء بك» أي الحمد لله إذ جئت، وفي اللهجة تسقط الهمزة فيقال: الحمد لله اللي جابك، وأحيانًا تقلب الجيم ياء فيقال: يابك.

إذن فإن هذه الكلمات التي قدمناها هنا عن اللهجة الكويتية ما هي إلا إشارات سريعة تدل على قيمة لهجتنا ومدى ارتباطها بلغتنا الفصحى. وهي تدل - أيضًا - على أن وجود ألفاظ مما هو سائد في اللغة العربية في لهجات مختلفة من لهجات الوطن العربي على امتداده لا يمحو الارتباط الذي أشرنا إليه بين لهجتنا ولغتنا الأم ولا يدل على أننا أخذنا من تلك اللهجات في أي مكان كانت بل إننا إنما أخذنا من الأصل ونحن جغرافيًا وتاريخيًا أقرب إليه من غيرنا.

****

الشعر النبطي بين الكويت والبحرين[1]

علاقة دولة الكويت بمملكة البحرين علاقة قديمة وراسخة وهي ذات جوانب متعددة فالأمور التي تجمع أبناء الكويت بأبناء ذلك البلد العربي العريق كثيرة ومتشعبة، ولقد تنبهت أخيرًا إلى واحد من الجوانب التي أشرت إليها ولم أكن على دراية به من قبل، ذلك أنني وجدت أن الشعر النبطي هو واحد من الجوانب ذات الأثر في الترابط يضاف إلى كل الآثار الأخرى المعروفة.

سعدت في الماضي بحضور جلسة من جلسات الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة أمير البحرين السابق، ووالد الملك حمد بن سلمان آل خليفة الذي يقود وطنه في هذه الأيام، لقد كان مجلس الشيخ عيسى مفتوحًا وكان يستقبل عددًا من الزوار من مختلف البلدان وبخاصة من بلدان الخليج العربي، وفي تلك الجلسة المشار إليها كان ضمن الحاضرين عدد من أبناء الكويت وكان بعضهم من الشعراء. وفي ذلك الوقت تبارى هؤلاء في تقديم قصائدهم بين يدي الأمير، كان سعيدًا وهو يستمع إلى الشعر، وكان إنصاته دليلًا على حبه لهذا النوع من القصيد، ولم أكن أعلم السر في اهتمامه بما ألقي أمامه في تلك الأمسية، ولكنني علمت مؤخرًا أنه رحمه الله من محبي الشعر النبطي الذين يحفظون الكثير منه، ويقربون شعراءه، بل هو يقول شعرًا جميلًا على ذلك المنوال الذي سمعناه ليلتذاك.

ولد الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة سنة ١٩٣٣م، وتعلم على أيدي مدرسين لهم باع طويل في مجال التعليم أحضرهم والده إلى داره من أجل تعليم ولده. وبعد

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١١/٩/٢٨م.

أن استعد لمزيد من الدراسة التحق بمدارس بلاده، فشارك زملاءه الحياة الدراسية وتعرف على عدد كبير منهم بحيث صار بعيدًا عن العزلة، وفور إنهاء حصته من الدراسة في البحرين أرسله والده إلى أوروبا من أجل اكتساب المزيد من المعرفة، وقد تمكن في هذه المرحلة من حياته من صقل معارفه.

وقد تمكن من الانفتاح على العالم الأوروبي وفهم أسس الحضارة الغربية، ولذا فإنه لم يكن - في مستقبل حياته - بمعزل عن العالم ولا عن أحداثه المهمة التي تجري في مختلف الدول كما هو ظاهر في حياة اليوم والأمس.

لقد عاش الشيخ عيسى في كنف والده الذي حرص على تربيته أفضل تربية، وأشرف على إعداده الإعداد السليم بصفته وليًا للعهد وأميرًا للمستقبل في البحرين، ولذا فقد كان يكلفه بأعمال رسمية متنوعة، ويسند إليه مناصب يكتسب من وراء العمل من خلالها الخبرة التي سوف تنفعه عندما يتولى المهمة الكبرى. ولذلك فإن والده قد عينه في مجلس الوصاية على الحكم في البحرين في فترة غيابه لحضور احتفالات تتويج الملكة إليزابيث ملكة بريطانيا، وكانت سن الشيخ عيسى آنذاك في حدود العشرين سنة من عمره.

وفي سنة ١٩٥٦م قرر والده أن يعينه رئيسًا لمجلس بلدية المنامة، وقد بقي في هذا المنصب إلى أن تولى إمارة البحرين إثر انتقال والده الشيخ سلمان إلى رحمة ربه. وقد كان هذا العمل الذي تولاه وبقي على رأسه عدة سنوات سببًا مهمًا من أسباب اكتسابه المزيد من الخبرات في السياسة وفي الإدارة وأساليب الحكم.

وكان اليوم السادس عشر من شهر ديسمبر لسنة ١٩٥٦م يومًا مهمًا في حياة الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة، ففيه تولى مقاليد الحكم في دولة البحرين، حيث توفي والده آنذاك، وصار بذلك هو الأمير الحاكم العاشر ضمن سلسلة الحكام الذين تعاقبوا على السلطة هناك منذ أن افتتح آل خليفة البحرين في سنة ١٧٨٢م، وساروا بها في طريق التقدم.

حمل الشيخ عيسى بن سلمان الأمانة وسار وفق ما يراه يَنْصَبُّ في مصلحة وطنه، وكان له من خبرات سابقة زاد وفير أعانه على العمل، وعلى النهوض بالبلاد وكانت همته العالية سببًا في ازدهار البحرين وتقدمها وكان من أوائل أعماله إصدار العملة الوطنية في شهر أكتوبر لسنة ١٩٦٥م.

وفي سنة ١٩٦٧م افتتح الشيخ ميناء سلمان العميق الذي سماه باسم والده، وابتدأ العمل في إبراز مشروع مدينة عيسى الإسكاني إلى الوجود، وهو مشروع تبرع له بالأرض التي أنشئ عليها. وأسس في عهده مجلس الدولة ثم طوره بحيث صار في موقعه: مجلس الوزراء، وذلك في سنة ١٩٧١م.

أعلن في عهده استقلال البحرين وذلك في اليوم الرابع عشر من شهر أغسطس لسنة ١٩٧١م. واتخذ يوم السادس عشر من شهر ديسمبر ليكون عيدًا وطنيًا سنويًا للبلاد بمناسبة الاستقلال وبمناسبة تولي الشيخ عيسى بن سلمان مقاليد الحكم.

وحرص الأمير على أن يوالي العمل على تقدم البلاد فعمل على افتتاح مزيد من المدارس، وافتتح الجامعة، وأرسل عددًا كبيرًا من أبناء وطنه إلى الخارج من أجل الدراسة وعادوا وهم مزودون بالعلم من شتى فروعه وكان منهم الطلاب والطالبات وقد أتيحت الفرص الدراسية للجميع على حد سواء ودون تفرقة في الجنس.

كانت سياسة الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة الخارجية سياسة واقعية ثابتة، ولذا فقد مكنت بلاده صلاتها مع دول العالم، واهتم الشيخ اهتمامًا كثيرًا بصلاته مع دول الخليج وتمكن من افتتاح صفحات منيرة لهذه العلاقات ويكفي أن نذكر منها ما وصل إليه التعاون بين البحرين والمملكة العربية السعودية وهو تعاون تمثل ضمن أشياء أخرى بافتتاح جسر الملك فهد في سنة ١٩٨٦م الذي ربط بين الدولتين ويسر الانتقال بينهما أمام المواطنين من الجانبين في الزيارة والتجارة.

لم أحظ بالاطلاع على شيء وافر من الأشعار التي نظمها الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة غفر الله له، ولكني اطلعت على قصيدة لم أرله غيرها وهي صورة لما يمكن أن يكون عليه شعره، فقائل هذه القصيدة لا بد وأن يكون له إنتاج شعري غزير لأنها ذات دلالة على تمكنه في مجال الشعر، وقدرته على إبداع القصيد الجيد.

تحمل الشيخ عيسى بن سلمان هم الكويت أيام الغزو الفاجر لها من قبل النظام العراقي الذي كان يقوده الطاغية صدام حسين، وبذل جهده في سبيل الوصول إلى الحل الذي يكفل للكويت حريتها واستقلالها وفتح بلاده لاستقبال الكويتيين الذين أطاحت بهم المحنة من كل جانب وشارك في كافة اللقاءات الرسمية الأقليمية التي عقدت من أجل تحرير الكويت، وكانت البحرين من الدول المشاركة في التحالف الذي هجم على جنود الاحتلال وحطم أنف الطاغية.

لذلك كله فإنه عندما تسلم في ذلك الوقت قصيدة نبطية من الشاعر الشيخ عبدالعزيز سعود الصباح يشكو فيها ما آل إليه أمر وطنه الكويت؛ تألم كثيرًا لما عرضه الشيخ عبدالعزيز في قصيدته من أمور تحز في نفس كل غيور، فقام أمير دولة البحرين – آنذاك – الشيخ عيسى بن خليفة بالرد على القصيدة بأخرى لها وزنها معنويًا وعروضيًا وسوف يأتي الحديث عن القصيدتين بعد أن نورد شيئًا عن الشاعر الشيخ عبدالعزيز سعود الصباح.

الشيخ عبدالعزيز الصباح من أبرز شعراء الشعر النبطي في الكويت. له قصائد كثيرة منوعة تدل على تمكنه من فنه وعلى قدرة فائقة على الإبداع الشعري. وكان ينتهز المناسبات للمشاركة بإحياء الذكريات الوطنية، والدعوة إلى التكاتف والتآزر بين أبناء الشعب، وكانت مناجاته لوطنه وأحاديثه الشعرية عن هوايات الصيد التي كان يحبها تشرح الصدر لأنها تعبر عن صدق الشاعر مع نفسه، وتعطي القارئ صورة ناصعة عن حياة الشيخ وطيب نفسه وكرم عنصره.

الشيخ الشاعر الذي فقده ميدان الشعر، ولم يجد بعده شاعرًا يحتل الموقع الذي كان يحتله في الوقت الذي كان يعيش بيننا، ويمتعنا فيه بشعره الجميل بين آونة وأخرى ولد في سنة ١٩١٩م، وكان جده لأبيه هو الشيخ محمد بن صباح بن جابر حاكم الكويت السادس الذي تولى الحكم في الفترة ما بين سنتي ١٨٩٢ و ١٨٩٦م. وكان الشيخ مبارك الصباح حاكم الكويت السابع في الفترة ما بين سنتي ١٨٩٦ و ١٩١٥م جده لأمه.

كان شعر الشيخ عبدالعزيز الصباح – كما ألمحنا – متنوع الأغراض، ولكنه يمتاز بمستوى واحد من علو القيمة الشعرية، وقد ظل الشاعر محتفظًا بهذا المستوى الرائع حتى أيامه الأخيرة. له أوصاف جميلة للربيع والأمطار ولرحلات الصيد ولكثير من الأمور التي يشاهدها، ويعبر عن مشاعره تجاهها، ففي شعره المتعلق بالربيع وأجوائه ورحلاته البرية خلال ذلك الزمن الذي كانت صحراؤنا تزدهر فيه بالأعشاب الجميلة على عكس يومنا هذا؛ يقول:

يا من لقلب هيضه شوف بَرّاق
إليا بداله كاشف زاد شوقه
شفته ونا له باول الوسم مشتاق
سامر من الجبله تلاعج ابروقه
إليا انكشف نوّه تشوفه له اطباق
مترادم واقدار ربي تسوقه

إلى أن يتابع الوصف قائلًا:

عشرين يومْ وعرفجه له تزرناق
تلقى خضاره غامج به ازروقه
تباتلت طيلة اشتاها على ساق
سيل على سيل تتابع اطروقه
عشبه تشوفه جامع كل الارناق
يزهى ومايه ناقع في عروقه

وصف رائع، وتعبير في غاية الدقة وحسن تناول الموضوع، والقصيدة طويلة لا مجال لنشرها كاملة لضيق موقع مقالنا هذا.

ومن جميل شعره هذه القصيدة التي ذكر فيها التقدم في السن، وهل هو مؤثر في تراجع الأشواق عند الإنسان بحيث ينسيه ذلك صورة الحب التي كان يحس بها وهو شاب. القصيدة طويلة لكننا نقدم شيئًا من بدايتها، يقول الشاعر:

الراس شابْ ولكن القلب ما شابْ
توّه على اوّل زمته في شبابه
عمر الفتى ما ناخذه عَدْ وخسابْ
كثر السنين وقلها مالنا به
العمر كله ساعة بين الأحبابْ
واذا انقضت ما عاد للعمر ثابه
بالك تصير بْتالي العمر هيّابْ
اضرب على درب الهوى لاتهابه
راعي الهوى ماتمنعه كل الاسبابْ
يمشي على جمر الغضى ما درا به

هذا الشعر الجميل يدعوني إلى التساؤل عن كامل شعر الشيخ عبدالعزيز الصباح. فهل هو موجود بكامله؟ ثم هل هو مطبوع نستطيع الحصول على نسخة منه لدراسته والاستمتاع بما فيه من إبداع؟ وإذا لم يكن الأمر كما تصورت والشعر محفوظ ولكنه غير مطبوع فهل يسعني أن أتمنى على أبنائه الكرام أن يقوموا بهذه المهمة إحياءً لذكرى والدهم، ووفاء لكل المآثر الطيبة التي كان يتصف بها، ورصدًا لنتاج أدبي مهم في عالم الشعر النبطي؟.

هذه أمنية أرجو أن تتحقق.

نعود الآن إلى بداية حديثنا. فنذكر القصيدتين اللتين تحدثنا عنهما فيما سبق وهما:

أولًا: قصيدة الشيخ عبدالعزيز سعود الصباح، وقد ذكرنا سبب إنشاده لها، وزمن ذلك، ومكان الإنشاد، كما ذكرنا أنه قدمها إلى الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة.

كان في البحرين في أثناء فترة احتلال الكويت بعد غزوها من قبل العراق، وقد عبر عن مشاعره تجاه هذا الحدث الذي أَلَمَّ بوطنه، وشتت أهله ومواطنيه. فكانت منه هذه القصيدة التي نوهنا عنها قبل ذلك ووجهها إلى سمو أمير دولة البحرين الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة.

حكى الشيخ عبدالعزيز ما يحس به من ألم وحسرة، وما اعتبره من الأمور التي لا يستطيع المرء كتمان ما يشعر به إذا ما حلت به، وليس أشد على الإنسان من تعرض وطنه لكارثة:

الله من شَيٍّ جرى بيّج السّد
شيٍّ يْولّغ جمرته بالفوادِ
حاولت بَصبْر ساعة واتجلّدْ
وازريت عنّه ما يجي بالمرادِ
جاسيت مما ينذر الحيل بالهَدْ
مر الشراب وما أذوقه يْزادِ

ثم يتحدث عن انفراج ضيقه عندما حل في البحرين دار آل خليفة الذين وجدهم على ما هم عليه من عناية بالضيف وحماية للمستجير:

والضيق في دار الخليفه تبدّدْ
أهل الكرم والجود بيض المبادي

للشيخ عيسى كامل الفضل ينعَدْ

في موقفه ساد الحضر والبوادي

وآل الخليفة ما لهم جار ينضَدْ

نالوا شرف آبائهم والأجداد

يلوذ فيهم من شكى الضيم وانحدْ

أكرم بهم والله طيور الهدادِ

ثم يصف المأساة التي حلت بالكويت فيقول:

هذا حصل، والكل منّا تشرّدْ

عن دارنا هل كيف نوقي البعاد

دار لنا بالحق جدٍّ بعد جدْ

ياما حموها بالسيوف الهنادي

تكاتفوا ما بينهم وأصبحوا سدْ

ناسٍ بنوا أمجادهم بالجهادِ

أحرار ما ناموا على ضيم من حَدْ

وَاعِيْنْ كلٍّ اصبعه والزنادِ

ويشير إلى النتائج المتوقعة لما حدث، مؤكدًا أن المعتدي سوف ينال أشد العقاب جزاء ما قام به من اعتداء:

كِلْ واحدٍ له رادعٍ لو تمرّدْ

مهما بلغ في قوته له امدادي

لابد للمغرور حدٍّ وينْفَذْ

سوقه مَرَدّه للفلس والكسادِ

ما كل جار جاورك فيه تسعَدْ

جارٍ عدو وجار عِدّه اسنادِ

لابد في يوم لهم يجزر المدْ

نجمه يغيب ومطلع الفجر بادي

وهكذا يتبين لنا موقف الشاعر في آخر قصيدته وهو يعبر بهذا على الرغم من المأساة، والظلام الدامس آنذاك فهو ينظر إلى الأمور بصورة أخرى لأنه ينهي القصيدة بروح تفاؤلية تدل على يقينه بأن الظلم لا يمكن أن يدوم، وأن هذا الظلام سوف يعقبه فجر ساطع يبدد كل الديجور، ويقتلع الظلم والظالمين، وقد تحققت هذه النُّبوءة، وتم تحرير الكويت بإذن الله وحده.

هذه قصيدة من عيون قصائد الشعر النبطي، ولو كان بالإمكان إيرادها كاملة لأوردتها، ولكنني ألجأ هنا إلى الحجة التي طالما لجأت إليها وهي ضيق المجال.

اطلع الشيخ عيسى بن سلمان رحمه الله على قصيدة الشيخ عبدالعزيز وأعجب بها، وراقه أن يجد فيها ذكرًا له ولآل خليفة وللبحرين، وثناء على كل ما يقومون به تجاه ضيوفهم وآلمه أن يقرأ فيها ما أورده الشيخ عن مأساة احتلال الكويت، ولكنه ارتاح إلى الآمال التي اطلقها الشاعر فيما يتعلق بالتحرير وجلاء المحتل. وقد حرك كل ذلك شاعرية الشيخ عيسى ووجد عناصر الإلهام تتقافز أمامه لكي يعبر عن مشاعره هذه في مقابل القصيدة التي قرأها، ولا نحتاج إلى الإشادة بالقيمة الشعرية العالية التي يتمتع بها شعر الشيخ عيسى، وبخاصة ونحن قد نوهنا عن ذلك فيما سبق، ولكنني اكتفي بعرض ما يتسع له المجال من قصيدته التي رد بها على الشيخ عبدالعزيز الصباح ففيها الدليل على ما نريد الدلالة عليه من مستوى شعري رفيع، وكم كان مهمًا جدًا فيما لو كان بين يدينا شيء آخر من قصائده التي لم يتح لنا حظ الاطلاع عليها، وهو الأمر الذي نأمل في أن يتحقق بعد ذلك إن شاء الله.

بدأ الشيخ عيسى قصيدته بقوله:

الله من وقت غدا للعرب ضِدْ
ضد يساقيهم سمومه ركادِ
والعرب تفعل ما يريده ويقصدْ
منقادة مستسلمه للقيادِ
شب الفتن بين الاقطار اتوقدْ
ورضيوا وزادوها حطب للوقادِ

هذا هو ما فعله صدام حسين طاغية العراق، فقد كان في أعماله ضدًا للعرب، يسقيهم سمومه شيئًا فشيئًا، وكان هؤلاء يفعلون ما يريد دون تردد، ينقادون لمقاصده ويستسلمون لقياده. أثار بينهم الفتن وأوقد نارها، وهم قد رضوا بأن يكونوا حطب هذه النار التي يشعلها الحاقد الذي لا يرضيه شيء حتى يحطم جيرانه ويقضي على كل ما لديهم من وسائل الرقي والتقدم التي لم يستطع أن يوفرها لوطنه.

وتحدث الشيخ عن جار السوء، وكيف خان حقوق الجيرة التي كانت العرب تعدها من أهم الحقوق، وتنكر لكل الذمم، وسعى إلى التخريب والتدمير دون أن يحركه ضمير لأنه كان معدوم الضمير:

يا حيف يا ماضي العرب كيف ينهَدْ
وامجادهم هل كيف راحت بدادِ
وذيك الفعايل والشيم ليت تِرِدْ
خصايل ترثة اقروم الاجدادِ

وهذا هو ما أثار أشجانه، وأرقه:

البارحه جفن الخطا بات مسهدْ
سَهر، وعيا يهتني بالرقاد
والجنب كنه فوق نار توقَدْ
كنى على ملّه وشوكٍ وْسادي

والقلب به هم ثقيل ومجلدْ
وانقضْ اجروحه ما لقى من مْنادي

ومن هنا وصل بالقصيدة إلى الموضع الذي يخاطب فيه الشيخ عبدالعزيز سعود الصباح فيقول:

إغليت يا شيخ شكى لي من الضدْ
واسْلِفْت من جملة جميع الأعادي
عبدالعزيز الضيغمي طيِّب الجدْ
نسل الصباح اكرام بيض الايادي
هم عزوتي ربعى على اللين والشدْ
وهم زندي اللي يشد الايادي
وحنا لهم درع حصين عن الضدْ
نرخص لهم بالروح يوم الجلادِ
ولا خير في عيش عقبهم لو امتدْ
ودنيا بلاهم جعلها للنفادْ

ثم يتحدث عن الصلات العميقة التي تربط آل خليفة بآل صباح وبين مدى تكاتفهم وتعاونهم، وموقفهم الموحّد من الأعداء الذين تحركهم نفوسهم السقيمة للعمل على إلحاق الأذى بالبلدين الشقيقين: الكويت والبحرين. ويسفّه المعتدي المغتر بجيشه، وما يمتلكه من عتاد:

حتيش لو عندك جيوش تَحَشَّدْ
ومْجَمَّع القوات هي والعتادِ
لكن ما عندك اخلاق اتمجَدْ
ويسرى ذكرها في الحضر والبوادي

ولا ينسى الشيخ عيسى بن سلمان أن يوجه التحية في ختام قصيدته إلى الشيخ جابر الأحمد الجابر الصباح والشيخ سعد العبدالله السالم الصباح، فيقول عن الأول:

شيخ الكويت اليومُ والأمس والغدْ

رغمٍ على أنف الضِّديد المعادي

ويقول عن الثاني:

وسعدٍ عضيده كلهم للعدو ضدْ

يحميهم المولى إله العبادِ

هذه هي الروح التي يتمتع بها أبناء الكويت وأبناء البحرين مجتمعين مَثّلها رجلان أحدهما الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة حاكم البحرين الذي توفي سنة ١٩٩٩م والثاني هو الشيخ عبدالعزيز سعود الصباح الذي توفي سنة ٢٠٠٦م رحمهما الله تعالى وأدام الود والوفاء بين الوطنين الشقيقين.

****

ملحاق خير

من الدلائل على عمق الصلات بين الكويت والبحرين تلك الزيارات المتكررة بين قيادتي البلدين، وهي زيارات استمرت منذ القدم ولا تزال مستمرة إلى يومنا هذا. وكان أقدم ما نذكره من تلك الزيارات هي التي تمت في عهد الشيخ أحمد الجابر الصباح والشيخ سلمان بن حمد آل خليفة. وتدليلًا على ذلك فقد اهتمت مجلة البعثة بالإشادة بهذه العلاقات الأخوية فقامت في شهر أبريل لسنة ١٩٥٣م بتخصيص عدد من أعدادها للحديث عن مملكة البحرين الشقيقة. وقد بدأت هذا العدد بصورة تمثل استقبال الشيخ عبدالله السالم الصباح للشيخ سلمان بن حمد آل خليفة عندما زار الكويت في تلك السنة ثم وضعت له صورة كبيرة في بداية العدد المشار إليه، ثم خريطة تبين موقع البحرين وأجزائها، وبعدها كلمة العدد التي أوضحت الداعي إلى صدوره بهذه الصفة.

وبدأت المقالات بمقال كتبه الأستاذ أحمد العمران مدير معارف البحرين - آنذاك - تحدث فيه عن تاريخ التعليم في بلاده ثم عن وضعه الحالي وأنظمته السائدة وقت كتابته المقال، والمقال التالي للشيخ أحمد الشرباصي وقد تناول فيه التاريخ الإسلامي للبحرين. ثم مقال للأستاذ وديع فلسطين تحت عنوان «ولاية عربية في فجر التاريخ» ومقال لخالد محمد الفرج، وحكاية تاريخية كتبها الشاعر إبراهيم العريض، عنوانها «أخت شيرين» أما الأستاذ أحمد طه السنوسي وهو من كُتّاب مجلة البعثة الدائمين فقد كتب مقالًا عنوانه: «البحرين والأوضاع الاقتصادية»،

وكتب الأستاذ عبدالرحمن المعاودة مقالًا عنوانه: «البحرين بين الماضي والحاضر» وقام ابن الكويت الدارس في القاهرة - آنذاك - خالد علي الخرافي بكتابة مقال عن النهضة التعليمية في البحرين وكأنه إيضاح لما جاء في المقال الذي كتبه الأستاذ أحمد العمران. وكان للنشاط الثقافي في البحرين ذكر ضمن مقال كتبه الأستاذ عبدالله الطائي، وكتب الأستاذ علي السيار مقالًا عن المرأة هناك.

وتوالت بعد ذلك المقالات المتعددة وكلها تتحدث عن البحرين وأهلها. وكان مما نشر في «البعثة» قصيدة كتبها الأستاذ الشاعر محمود شوقي الأيوبي بعنوان «تحية البحرين» فيها تعبير صادق عن محبة الشاعر لهذا البلد العربي الشقيق يقول فيها:

أمرابع البحرين جئتك منشدا
لحنا يشفُّ عن الولاء مُسدَّدا
لحنا يُترجم للإخاء تحيةً
تسري كضوع المسك تغشى الموعدا

ويختمها بقوله:

صوت من البحرين قد أسمعتُهُ
عذبًا وقفت لجرسه مُتعبّدا
فسكبت آمالي العذاب قصيدة
ألهمتُها بين الظلام مسهّدا
وبعثت من روحي الشجيِّ تحية
تحكي من الفردوس غُصنًا أملَدا

امتلأ العدد الخاص بالبحرين من مجلة البعثة بصور كثيرة تمثل كافة نواحي النشاط هناك، واحتوى بيانات حكومية إحصائية فيما يتعلق بكافة الأعمال، وعلى الأخص ما ورد في النشرة الرسمية لحكومة البحرين، ومنه كشف إيرادات ومصروفات الحكومة.

وعلى العموم فإن هذا العدد مع أنه يعبِّر تعبيرًا صادقًا عن المحبة التي يُكنُّها أبناء الكويت لأشقائهم في البحرين، فإنه عدد جامع، فيه كثير من المعلومات المفيدة، ويعتبر في هذا اليوم تاريخًا لتلك الحقبة التي مرت بهذا البلد الشقيق الذي تقدم كثيرًا بعد ذلك الزمان الذي كتبت عنه البعثة وذلك بفضل قيادتها الحكيمة التي أثبت التاريخ قدرتها على السير بالبلاد نحو التقدم والرقي.

****

متابعة

في مقالنا السابق عن نادي المعلمين في الكويت ضمن «الأزمنة والأمكنة» ذكرنا عددًا من أسماء أعضاء النادي العاملين، وقلنا إن هذا العدد المذكور هو ما جادت به ذاكرة الأخ الكريم الأستاذ عبدالله الجاسم العبيد، وطلبنا ممن يتذكر أسماء أخرى أن يخبرنا بها حتى ندرجها في وقت لاحق، لأن تسجيل أسماء الجميع إن عرفناهم أمر واجب.

ولقد تكرم الأخ الفاضل الأستاذ جمعة محمد علي ياسين (أبو وائل) بإرسال رسالة تضمنت بعض الأسماء وهذا هو نص رسالته كما ورد:

صديقي العزيز الأخ الدكتور يعقوب يوسف الغنيم

تحية طيبة وبعد،،

لقد أحسنت صنعًا عندما نشرتَ بجريدة «الوطن» العدد ١٢٨٠٢ بتاريخ ١٧ من رمضان المبارك سنة ١٤٣٢ هـ الموافق ١٧ من أغسطس سنة ٢٠١١ مقالتك المعنونة «الأزمنة والأمكنة» حول نادي المعلمين.

وقد طلبت من قرائك أن يستكملوا الأسماء الناقصة من المعلمين القدماء الذين لم تسعفك ذاكرة الأستاذ العزيز عبدالله الجاسم العبيد بذكرهم، ويسعدني أن أزودك ببعض الأسماء من رواد التعليم الذين لهم الفضل كل الفضل في تعليمي وتدريسي سواء عندما كنت طالبًا بالمدرسة الأحمدية أو عندما التحقت بمعهد الكويت الديني.

وإليك بعض هذه الأسماء ممن لم تكن نشرت أسماءهم في مقالتك وهم:

١ - أحمد ياسين **٢ - محمد العتيقي**

٣ - عيسى اللوغاني **٤ - أحمد الخميس**

٥ - عثمان عبداللطيف العثمان **٦ - محمد الفوزان**

٧ - عبدالعزيز الشاهين

راجيًا لك دوام التوفيق والاستمرار في تسجيل رواد التعليم والأدب والشعر والسياسة.

مع خالص شكري وتقديري

أخـــوك

أبو وائل جمعة محمد الياسين

وأنا إذ أشكر أبا وائل على رسالته، أود أن أبين أن ما جاء في المقال يخص النشيطين في النادي المذكور ولا يعم جميع المدرسين، ومن ذكرهم أبو وائل مدرسون أفاضل نعرفهم ولكنهم لا ينطبق عليهم ما ذكرناه، أما الأستاذ عبدالعزيز الشاهين وهو ممن ورد في رسالة الأستاذ جمعة ياسين فهو مذكور في الصفحة الثانية من المقال مع صورة كبيرة له يقدم فيها هدية تذكارية للشيخ عبدالله الجابر الصباح.

إضافة إلى ذلك فإن (أبا رائد) الأستاذ عبدالله الجاسم العبيد قد أضاف اسم الأستاذ محمد الجسار الذي كان من أعضاء نادي المعلمين البارزين فوجب التنويه.

فإلى الأخوين جمعة محمد علي ياسين، وعبدالله الجاسم العبيد خالص الشكر والتقدير على ما أوضحناه.

****

من تاريخ شارع كويتي: شارع فهد السالم (١)[١]

هذا شارع من شوارع الكويت المهمة، معروف لدى الجميع، له امتداد طويل يبدأ شرقًا من طرف ساحة الصفاة الغربي، وينتهي غربًا عند بوابة الشامية. ولهذا الشارع ذكريات جميلة عندي وعند عدد كبير من أبناء الوطن الذين كانوا يعيشون في محيطه وذلك قبل أن يأخذ صفته الحالية ويتحول إلى الشكل الجميل الذي صار إليه في أواخر خمسينيات القرن الماضي ثم ما جرى له من تجديد في هذه الأيام. أذكر هذا الشارع عندما كان أرضًا ترابية لم تصل إليها يد التعبيد والرصف، وأذكر أن المنطقة الوسطى منه كانت تسمى: الصيهد، وكان الموقع الذي يطلق عليه الآن اسم: الصالحية هو فريج الصيهد وكان في المنطقة على جانبي الطريق سكان، وفي طرفه الغربي مزارع. كان يطلق على بعضها اسم: كوت.

كان المبنى الأهم في هذا الشارع الذي أتحدث عن تاريخه القديم هنا هو مبنى مدرسة المثنى المعروف موضعها حاليًا، وإن تحولت إلى مجمع تجاري كبير.

وقد ابتدأت الدراسة فيها في السنة الدراسية ١٩٤٨ - ١٩٤٩م فكانت موضعًا مريحًا وقريبًا لأطفال المنطقة الذين كانوا ينتقلون قبل افتتاحها إلى أماكن بعيدة عن منازلهم من أجل الدراسة. أذكر أنني تحدثت عن هذه المدرسة منذ انتقلت إليها من مدرستي الأولى وهي المدرسة الأحمدية. وقد ذكرت - يومذاك - أنه مما أسعدنا «في هذه المدرسة مجاورتها لمزرعة تخص آل عدساني الكرام، وكانت هذه

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١١/١٠/٥م.

المزرعة مليئة بالأشجار والأزهار البرية التي نراها في فصلي الربيع والخريف، بالإضافة إلى ما يرد إلى أسماعنا من أصوات العصافير والطيور المهاجرة التي كانت تعبر البلاد حينذاك».

كانت نشأة مدرسة المثنى بداية لدخول الشارع في طور جديد. وكانت المساكن تبنى على جانبيه، ولكن ما أسفر عنه التطور هو افتتاح عدد من المحلات التجارية الكبرى بمقياس ذلك الوقت، وهي محلات متنوعة الأغراض أذكر منها في البداية الشرقية للشارع، المحل الذي أنشأه المرحوم خالد نصار الشريعان وإخوانه، وكان معرضًا للبضائع يشتمل على أصناف متعددة راقية من منشأ أوروبي. وكان هذا المحل محط أنظار الناس، وعندما جاء إلى الكويت - زائرًا - الفنان فريد الأطرش، وهو علم من أعلام الفن في ذلك الوقت زار هذا المعرض وتزاحم الناس لرؤيته فهو معروف عند الجميع ولكنهم يريدون أن يروه شخصيًا، ولقد شهدت ذلك التزاحم، وعجبت للرغبة العارمة التي كانت تسود الجميع في ذلك اليوم، من أجل رؤية هذا الفنان الشهير.

وإلى اليسار بعد محل الشريعان الذي ذكرناه آنفًا تقع محطة لتزويد السيارات بالوقود، وهي أول محطة من نوعها في البلاد، وكان شكلها ملفتًا للنظر آنذاك وعلى هيئتها تم افتتاح محطات أخرى في أماكن متعددة.

وإلى جانب هذا المحل ومحطة الوقود محلات أخرى تجدها على اليمين، فمنها ما هو مخصص لبيع الملابس، وآخر لأدوات التصوير ومحل آخر لا زال أذكره جيدًا فهو الوحيد عندنا الذي كان من المتخصصين في تحميض وطباعة الأفلام الفوتوغرافية. وكثيرٌ من الصور التي عرضتها في الأزمنة والأماكن مرت على يدي صاحبه.

ومدرسة المثنى التي تحدثت عنها آنفًا تقبل طلاب السنة الأولى الدراسية وتنتهي بالسنة الثالثة، وكان يطلق على هذا النوع من المدارس اسم: الروضة. وناظر مدرستنا هو الأستاذ القدير عقاب الخطيب، وكان من أبرع نظار المدارس وأكثرهم ارتباطًا بمهنته وإبداعًا فيها، حتى لقد صارت مدرسته موضع تقدير أولياء الأمور.

كنت أتجه يوميًا إلى مدرستي هذه فأخرج من فريج الشاوي مخترقًا الطريق إلى شارع الصهيد (فهد السالم حاليًا)، عندما أصل إلى هذه المرحلة أكون قد وصلت إلى منتصف الشارع الطويل الذي وصفته فيما مضى، وتكون أمامي ورشة بناء بدا لي أنها لمبنى فخم بمقاييس تلك الأيام، وقد كان الأمر كذلك فعلًا فهذا المبنى هو مبنى دائرة معارف الكويت الذي قرر مجلس المعارف إنشاءه في سنة ١٩٤٨م بعد أن ضاق به مكانه السابق الذي استقر به منذ سنة ١٩٤٧م، وهو بالقرب من براحة بن بحر، وصاحبه عبدالرحمن البحر وقد استأجرته دائرة معارف الكويت منه إلى أن أتمت بناء مقرها الجديد في شارع فهد السالم، وقد استقرت في هذا المبنى طويلًا حتى بعد أن تحولت الدائرة إلى وزارة في عهد الاستقلال وكثرت مدارسها وطلابها ومدرسوها وموظفوها، ولم تنتقل منه إلا في سبعينيات القرن الماضي. ليس هذا مجال الحديث عن معارف الكويت فقد تحدثت عن هذا الموضوع في مجالات أخرى متعددة، ولكنني أردت أن أبين الطريق الذي كنت أسلكه إلى مدرسة المثنى يوميًا فكان هذا المبنى أول شيء أشاهده في الطريق.

من هذه النقطة اتجه إلى اليمين فأرى بعض المساكن وبعض المحلات التجارية التي بدأت العمل أخيرًا في هذا الموقع الذي كان يوحي بمستقبل تجاري زاهر لأصحابها وقد صار الأمر كذلك فيما بعد كما سوف نرى.

يكون مبنى المعارف على يساري ثم يأتي مسجد الملا صالح، وهو مسجد كبير سوف أتحدث عنه فيما بعد. ويُرى بين هذا المسجد والمبنى الجديد لدائرة معارف الكويت درب طويل متعرج تقع في بدايته المدرسة القبلية الابتدائية للبنين وهي

مدرسة شهيرة في ذلك الوقت كان فيها عدد من المدرسين الكويتيين المشهورين منهم الأستاذ الشاعر أحمد العدواني والأستاذ صالح شهاب.

وفي نهاية الطريق تقع المقبرة المجاورة حاليًا لقصر نايف وكنا نسميها فيما مضى: المقبرة الجديدة. بخلاف المقبرة القديمة التي صارت الآن على شارع فهد السالم وأصبحت حديقة عامة. وكانت في أيامنا مقبرة قد توقف الناس عن استعمالها لامتلائها. وأذكر أنه يقع في كتف المقبرة الجديدة مسجد مبني على الطراز القديم كان قد سعى إلى بنائه الحاج محمد العجيري والد أخي وأستاذي الدكتور صالح إمام الفلكيين عندنا. وكانت تربط خالي الشيخ محمد سليمان الجراح علاقة وطيدة بالحاج محمد الذي كان - في الوقت نفسه - إمامًا لذلك المسجد، ولذا فقد كانت للخال عادة لم ينقطع عنها إلا بعد أن تغيرت ظروف المسجد وهي الزيارة الأسبوعية في صباح كل يوم جمعة. وكان الخال يأخذني معه كلما ذهب. وقد استمتعت بذلك المجلس الذي يَضُمُّهُما لأنهما كانا يتبادلان فيه الكثير من الأحاديث المهمة، ويتداولان ما يقرآنه في الكتب المتيسرة لهما آنذاك.

أعود مرة أخرى إلى الطريق فأجد بعد مروري بالمسجد بيتًا جميلًا تطل منه أشجار وارفة الظلال، وكانت الخضرة تسترعي انتباهنا في تلك الأيام لعدم كفاية التشجير في البلاد، لدرجة أنهم كانوا عند الاحتفالات يقطعون سعف النخيل الأخضر ويجلبونه من الجهراء لكي يُزَيِّنوا به المداخل الرئيسية وبعض الممرات المهمة لما يجدونه في المنظر الأخضر من جمال، وتأثير مفرح كنا نبحث عنه.

وقد تحوّل البيت حاليًا إلى مبنى تجاري متعدد الأدوار، وهو من أملاك المرحوم علي محمد البسام، وقد آل إلى ورثته.

ثم تأتي المدرسة وقد تحدثت عنها في هذا المقال بما فيه الكفاية، وتحدثت عن المزرعة المجاورة لها غربًا عنها، ومن المهم أن أشير إلى أن هذه الحديقة قد

صارت فيما بعد روضة من رياض الأطفال اسمها روضة الأندلس، وقد تم ذلك عندما غادرت المثنى.

بعد المدرسة على يسار المتجه في الشارع غربًا يأتي ملعب كبير ترابي له سور مكون من مبنى منخفض تعلوه مواسير حديدية متشابكة تمنع الدخول إلى الملعب وله عدة أبواب. تقام في هذا المكان مباريات في كرة القدم، وكانت في بداياتها. كما تقام فيه المهرجانات التي تقيمُها دائرة معارف الكويت في كل سنة ويحضرها أعداد كبيرة من المسؤولين والمشاهدين الآخرين وأولياء أمور التلاميذ المشاركين في كل مهرجان.

كنا نطلق على هذا الملعب اسم: شُبّان الوطن. وقد أزيل لاحقًا ثم بنيت على الشارع في موقعه عدة بنايات سميت: أنوار الصباح. وفي الخلف منها أنشئ مجمع ضخم أطلق عليه اسم: مجمع الصالحية.

بعد ذلك يأتي المخفر الذي لا يزال معروفًا ولكنه نقل بعد هدمه إلى مكان آخر يقع إلى الشمال من شارع فهد السالم، وتقع خلف المبنى القديم للمخفر آبار مياه عذبة يستقي منها الناس تعرف باسم: غميضة وهذا اسم مغاص من مغاصات اللؤلؤ قديمًا، وقد زالت هذه الآبار فيما بعد.

وإلى اليسار في مقابل المخفر تقريبًا يقع مبنى البريد العام، وقد تم افتتاح هذا المبنى في اليوم الأول من شهر فبراير لسنة ١٩٥٨م، باحتفال كبير حضره عدد كبير من المسؤولين بالإضافة إلى رجال القنصلية البريطانية التي كانت بلادها مسؤولة عن البريد قبل ذلك اليوم، وكان سر الاهتمام بهذه المناسبة أن هذا المبنى كان يضم أول مكتب بريد كويتي، وقد صدرت في الوقت نفسه أول مجموعة طوابع كويتية، واهتمت جريدة الكويت اليوم بهذا الحدث، فخصصت بعض صفحاتها للحديث عنه، واضعة صور طوابع البريد التي صدرت آنذاك.

ومما يذكر أن هذا المبنى لايزال في خدمة بريد الكويت، وكان في يومٍ ما مقرًا لدائرة البريد والبرق والهاتف ثم وزارة المواصلات.

وبعد المرور بالموقع الذي فيه مبنى البريد يمينًا، والمخفر شمالًا يبدأ الشارع بالاتساع، وفي وسط هذا الاتساع وعلى جانبيه قامت دائرة بلدية الكويت بزراعة عدد من شجر الأثل لتجميل الموقع، وإدخال شيء من الخضرة إليه، وكان ذلك باهتمام خاص من مدير البلدية - آنذاك - المرحوم سلطان إبراهيم الكليب، وهو رجل مشهور بالمبادرات الطيبة في عدة مجالات، وذلك في أثناء عمله في البلدية، وفي خارج مجال العمل الرسمي كذلك.

من هنا نصل إلى نهاية شارع فهد السالم الذي كان اسمه حتى خمسينيات القرن الماضي: شارع الجهراء، ولذا فإن بوابة السور الثالث التي ينتهي إليها صارت تسمى بوابة الجهراء، وهي بوابة رئيسية تمر منها السيارات والأفراد والإبل والحمير، ويعودون إلى الدخول منها عند عودتهم. وكانت الشامية آنذاك موردًا من موارد الماء يمد البلاد بجزء من حاجتها إليه، وكانت قبل ذلك موقعًا للقوافل التي كانت تستعد للرحيل إلى الشام، وذلك في وقت بعيد من هذا الزمن الذي نتحدث عنه، وقد مر بنا حديث هذه القوافل في مقال سابق. وإذا اجتاز المرء بسيارته هذه البوابة واتجه بعد اجتيازها بقليل إلى اليمين وجد الطريق المؤدي إلى الجهراء، وهو طريق مهم حتى اليوم، وله ميزة ربط البلاد بالإضافة إلى قرية الجهراء القديمة ببلدين مجاورين كان لا بد من السفر إليهما بالطريق البري.

وإذا اتجه إلى اليسار وجد الشامية وآبارها وهي منطقة محصورة بين هذه البوابة وبوابة الشامية التي تسمى أحيانًا بوابة نايف.

في نهاية الشارع وقبل البوابة نلاحظ إلى اليسار مبنًى كبيرًا هلالي الشكل، كان له أهمية عندما بني وكان من المباني التي ترد صورها في الدعاية للبلاد

وهو مبنى ثنيان الغانم الذي لايزال قائمًا في موقعه، ولا تزال صفته التي كان عليها لم تتغير.

نعود الآن – مرة أخرى – إلى البداية، وهي مدخل الشارع من ناحية الصفاة، وذلك كما بدأنا. فيواجهنا مبنى صغير الحجم ولكنه كبير الأهمية في ذلك الوقت هو مبنى دائرة الشرطة العامة التي كان يرأسها المرحوم الشيخ صباح السالم الصباح، وكان من أوائل المسؤولين في هذا الموقع وقد تدرجت معه أعداد الشرطة ومسؤولياتهم إلى أن انتقل إلى دائرة الصحة العامة وتم دمج هذه الدائرة مع دائرة الأمن العام، فصارتا نواة لوزارة الداخلية.

بعد مبنى دائرة الشرطة العامة يأتي مبنى جميل له شكل مميز في المنطقة المحيطة به كلها هو ما يسمى: مبنى المحاكم وهو مقر دائرة المحاكم وكان مقرًا لعدد من المجالس الحكومية مثل مجلس الإنشاء، ومجلس الشورى وغيرهما، وهو الآن مستغل من قبل معهد الدراسات القضائية والقانونية، وذلك بعد تجديده مع الحفاظ على هيئته السابقة وعدم التغيير فيه وهو الذي يزيد ما يتصف به من جمال الشكل. وكانت الساحة المقابلة له على شارع فهد السالم خالية إلى أن نأتي إلى المحلات الواقعة على اليمين وأولها المحل الذي أشرت إليه وهو الخاص بتحميض الأفلام الفوتوغرافية. ثم يأتي إلى اليمين أيضًا – محلان شهيران في ذلك الوقت هما محل يطلق عليه اسم: حَسو، وهو مليء بأنواع البضائع وبخاصة الألبسة، وقد صار اسمه فيما بعد: الاتحاد وانتقل إلى موضع آخر. والثاني هو محلٌ يسمى: أشرف وهو متخصص ببيع الكاميرات وأفلامها، ومنه اشتريت أول كاميرا امتلكتها وكان ذلك في سنة ١٩٥٢م. وأمام هذين المحلين عدة محلات مخصصة لخياطة الملابس الرجالية يقوم بها عدد من أبناء الهند والباكستان بعضهم صار ممن حصل على الجنسية الكويتية لطول إقامته معنا. وبعد محلاتهم هذه يأتي مبنى دائرة المعارف الذي تحدثنا عنه فيما سبق.

تخترق هذا الشارع على امتداده عدة شوارع تأتيه من الجنوب إلى الشمال وبالعكس، وهي تشكل طرقًا مهمة تكفل حركة الناس بين المنطقة القبلية ومنطقة الصيهد (الصالحية حاليًا) وهذه كانت منطقة سكنية تعجُّ بالسكان، وأول هذه الشوارع ما يمتد من منطقة الدهلة المعروفة إلى أن يفيض على الشارع الرئيسي، ومنها ما يأتي من فريج الشاوي وفريج الزنطة فيخترق الشارع المذكور مجتازًا إياه إلى المساكن القائمة جنوبًا عنه. ومنها ما يمتد مارًا بالطرف الغربي لمدرسة المثنى منحدرًا إلى البحر حيث المستشفى الأمريكي.

هذا بالإضافة إلى طرق فرعية صغيرة ذات جانب واحد كالطريق الذي تحدثنا عنه ونحن نصف موقع المدرسة القبلية فهو طريق لا يمتد شمالاً عبر شارع فهد السالم، ولكنه طريق يمتد إلى الجنوب منه فقط.

وعدنا بالحديث عن مسجد ملا صالح الذي هو من أبرز علامات شارع فهد السالم وهذا المسجد الكبير كان يكتظ بالمصلين من كل مكان، وتتم فيه الاحتفالات بالمناسبات الدينية، وتلقى فيه المحاضرات التي يشارك فيها عدد من أبناء الكويت وضيوفها.

أسسه الشيخ سالم المبارك الصباح سنة ١٩١٩م. بمبلغ كبير بمقاييس تلك الأيام، وأشرف على البناء الملا صالح الملا.

جرت على مبنى المسجد عدة تجديدات كان آخرها هو التجديد الذي قام به أبناء ملا صالح في سنة ١٩٨٤م.

هذا وفي منتصف الطريق إلى نهاية الشارع الغربية يقع مبنى بارز من المباني التي استجدت على يمين السائر في هذا الطريق. هذا المبنى يمتلكه المرحوم عبدالعزيز محمد العتيبي، وقد استأجره منه المرحوم عبدالعزيز المساعيد، وجعله فندقًا، كان في ذلك الوقت أحدث وأفضل فندق في الكويت. وفي سنة ١٩٦١م

بعد ادعاءات قاسم العراق جاءت وفود إعلامية كثيرة فكان هذا الفندق هو المكان الوحيد لاستضافتهم، ولو لم يتم إنشاؤه في ذلك الوقت لكان الأمر محرجًا.

ولقد نشأ في هذا الشارع – فيما بعد – فندقان آخران، لهما المستوى نفسه وهما فندق بريستول القريب من مبنى دائرة معارف الكويت شرقًا عنها، وفندق فينيقيا الواقع في مقابل مدرسة المثنى (مجمع المثنى حاليًا).

وكان في هذا الشارع محل تجاري على مستوى عالٍ من حسن العرض وجودة البضائع هو مخزن الجميل، ومطعم جيد المستوى كان من أصحابه الفنان الكبير توفيق الألايلي وهو مطعم هارون الرشيد الذي كانت له شهرة كبيرة لجودة ما يقدمه من أطعمة، ولما صاحب افتتاحه من ضجة إعلامية، وقد كان على رأس الاحتفال بافتتاحه سمو الشيخ سعد العبدالله السالم الصباح.

هذا وقد لحقه في النشأة مطعم آخر له مستوى جيد كذلك هو مطعم أبو نواس وموقعه قريب جدًا من بوابة السور.

ولتوضيح صورة موقع الشارع وما فيه فإن المرحوم الشاعر عبداللطيف عبدالرزاق الدين قد قام بعمل خريطة كاملة للعاصمة، وكان من الأجزاء التي أشار إليها في عمله هذا: شارع فهد السالم (الصيهد سابقًا) ثم: شارع الجهراء إلى أن اطلقت عليه بلدية الكويت اسمه الذي نعرفه به الآن، وقد أفادتنا هذه الخريطة كثيرًا في عملنا هذا وفي أعمال سابقة غير ما تطرقنا إليه من حديث عن هذا الشارع.

ولقد كانت أولى ملامح التطوير لهذا الشارع يوم التفتت الحكومة إلى تبليطه بعد أن كانت أرضه ترابية، وعندما تم ذلك بدأت صورته تتغير، وبدأت المباني البسيطة تظهر على جانبيه، وفيها بعض المتاجر التي وصفناها، ولكن التطوير

الكبير والمهم لهذا الشارع لم يتم إلا في منتصف الخمسينيات من القرن الماضي بعد أن فرغت بلدية الكويت من إنجاز مشروع شارع عبدالله السالم في وسط البلد. وقد جرى العمل في شارع فهد السالم ابتداءً من تثمين وهدم المباني الواقعة على جانبيه من أجل إعطائه الدرجة القصوى من الاتساع، ثم صدر الطلب إلى أصحاب الأراضي التي صارت مُطِلَّةً بالمسارعة إلى بناء المباني التي نشاهد بعضًا منها الآن، وكانت بلدية الكويت قد حددت شكلًا يتميز به البناء على جانبي الطريق الواسع والزمت أصحاب العقارات بذلك الشكل المميّز.

هذه هي نهاية القسم الأول من مقالنا: من تاريخ شارع كويتي شارع فهد السالم حاولنا فيه بقدر الإمكان إحاطة القارئ علمًا بكل ما حوله وبخاصة في الزمن الماضي. وسوف يكون لهذا المقال تكملة لابد منها، وهي ما سوف نعرضه في القسم الثاني الذي سوف ينشر بعد هذا الجزء بأسبوع.

****

ملحاق خير

هذا ما يجب أن نعرفه عن بدايات خدمة البريد عندنا:

في شهر يناير لسنة ١٩٣٤م تقدم عدد من تجار الكويت بالتماس إلى الشيخ أحمد الجابر الصباح يتعلق بمسألة تعثر وصول البريد إلى الكويت بسبب انقطاع وصول الطائرة الوحيدة التي كانت تصل إلى البلاد في كل أسبوع مرة. وقد وقع على الالتماس كل من عبدالله الساير، وجاسم بودي، وأحمد محمد صالح الحميضي، وخالد العبداللطيف الحمد وغيرهم، وقد أشارت الرسالة المحتوية على الالتماس إلى الضرر الذي ينال أعمالهم التجارية من جَرّاء تأخير وصول الرسائل إلى الأماكن التي ترسل إليها، وفي ختامها: «لذا نرجو ونلتمس من سعادتكم ان تنظروا في مساعدتنا بذلك، والله يحفظكم لمحبيكم».

وقد اهتم الشيخ أحمد الجابر - كعادته - بالالتماس وسعى إلى وضع حل لهذه المشكلة التي تُؤَثِّرُ على استمرار الحركة التجارية في الكويت فأرسل في يوم الخامس والعشرين من شهر يناير لسنة ١٩٣٤م رسالة إلى الوكيل السياسي البريطاني في الكويت طالبًا منه أن يتصل بشركة الطيران البريطانية صاحبة الامتياز لخط الكويت حتى تعود الأمور إلى مجراها الطبيعي، ويتم وصول الرسائل وخروجها في الوقت المناسب.

وقد بادر الوكيل السياسي البريطاني إلى هذه المهمة وأرسل إلى فرع شركة الطيران المعنية الكائن في القاهرة طالبًا إليهم وضع جدول طيران لا يتغير، وذلك من أجل انتظام العمل البريدي بين الكويت والخارج، وفي السادس والعشرين من شهر مايو لسنة ١٩٣٤م كتب الوكيل رده إلى الشيخ أحمد مبلغًا عن اتصالاته بهذا الخصوص، مشيرًا إلى أن الشركة المعنية تعزو سبب التوقف إلى الأحوال الجوية الرديئة التي تسببت في إحداث ضرر بإحدى طائراتها، وأن الشركة سوف تسعى إلى رصد الأحوال الجوية في الكويت بحيث يتم التحقق من احتمال حدوث الزوابع قبل أن تصل إلى البلاد، وأنها قد تقلل من عدد الرحلات ولكنها لن توقفها نهائيًا.

وقد رد الشيخ أحمد برسالة مقابلة على الوكيل السياسي البريطاني يشكره على اهتمامه بالموضوع، ونقله لوجهة نظر الكويت، ومتابعته ما يتعلق بالأعمال التي تهم البلاد.

****

من تاريخ شارع كويتي: شارع فهد السالم (٢)(١)

كلما ظننت أن الحديث عن شارع فهد السالم قد تكامل وأوشك أن ينتهي، برزت لي معلومات ينبغي أن أذكرها حتى لا يكون العمل ناقصًا.

وأنا في ذلك معذور فإن هذا الشارع لم يكتب عنه شيء حتى أعود إليه لإيضاح ما أريد، ولكنني اعتمد هنا على الذاكرة، وعلى الأسئلة التي أوجهها لبعض قدامى الأصدقاء، ثم على إجابة هذه الأسئلة.

وها أنا أسير في الطريق نفسه، فأكتب ما توافر من معلومات حول موضوع هذا الشارع المهم من شوارع الكويت، ولقد كانت البيانات التي وردت في الجزء الأول من هذا المقال بيانات مسهبة ومتشعبة، ولكنّ كل ما ورد فيها لا يغني عما نحن بصدده الآن.

وبتتبعنا لما مضى في المقال السابق (ج١) من حديث عن شارع فهد السالم نجد أن هذا الشارع ينقسم إلى عدة أقسام على الرغم من أن السائر فيه من الصفاة شرقًا إلى بوابة الجهراء غربًا لا يجد فروقًا واضحة، ولكننا نستطيع أن نذكر ما يدل على أقسامه التي نجملها فيما يلي:

أولًا: الجانب القريب من الصفاة، وكان أول ما بني فيه مبنى دائرة الشرطة العامة ومبنى دائرة المحاكم ومجلس الشورى، وكانت الأرض قبل هذا البناء أرضًا خالية تعمها الحفر وكانت النساء الراغبات في الذهاب إلى ساحل البحر من

---

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ١٢/١٠/٢٠١١م.

أجل غسل ملابسهن وملابس أهاليهن يأخذن من الطين المتوافر في هذه الحفر لاستعماله في الغسيل كما جرت العادة في مثل هذه الحالات. روى لي ذلك عن مشاهدة ومعرفة الأخ الكريم محمد الصقر المعوشرجي.. وكل ذلك يقع على يسار السالك لشارع فهد السالم المتجه إلى الغرب.

ثانيًا: وفي الاتجاه نفسه تأتي بعد ذلك محطة الوقود وكانت كما ذكرنا سالفًا أولى المحطات من نوعها في الكويت، ولم تظهر الحاجة إلى غيرها منذ إنشائها في سنة ١٩٤٨م إلا فيما بعد، وذلك لقلة أعداد السيارات التي كانت تأتي إليها من أجل التزود بالوقود.

وبعد المحل الذي أشرنا إليه فيما مضى وهو محل الشريعان والمحلات الأخرى التي أمامه ثم بعض المساكن ينتهي هذا الجزء عند إشارة المرور الأولى ويلاحظ المرء حاليًا أن جهة الشمال من هذا الجزء كله تشغله حديقة البلدية، وهي في الأصل مقبرة كنا نسميها المقبرة العتيقة كما أشرنا إلى ذلك من قبل وقد ظهرت الحديقة على الشارع بعد إزالة ما أمامها من دكاكين ومساكن.

ثالثًا: يبدأ القسم الثالث على اليسار بمبنى دائرة معارف الكويت الذي تحدثنا عنه، وهو مبنى جميل التصميم قوي البنيان وقد بقي على حاله إلى أن تم الاستغناء عنه في سنة ١٩٦٦م، وقد أسعدني أنني عملت فيه فترة من الزمن على فترتين أهمها بدأت في سنة ١٩٦٥م.

وبعد هذا المبنى يأتي الطريق المؤدي إلى المدرسة القبلية ثم يأتي مسجد ملا صالح وكنا قد تحدثنا عنه فيما سبق.

رابعًا: ينتهي هذا الجزء عند إشارة المرور الثانية القائمة حاليًا، وفي آخر الجزء نرى مدرسة المثنى ثم روضة الأندلس التي جاء إنشاؤها متأخرًا عن إنشاء هذه المدرسة.

وبعد المدرسة إلى اليسار يأتي ملعب شبان الوطن الذي مر بنا ذكره.

وبعده المخفر المسمى الآن: مخفر الصالحية وتم نقله من موقعه هذا، وخلفه مورد المياه الذي تحدثنا عنه سابقًا وهو المعروف باسم: غميضة، واسمه هذا مشابه لاسم أحد هيرات الغوص في ذلك الوقت وبعده ينتهي الشارع عند البناية الكبرى التي لا تزال قائمة تشهد على جهد الذي قام بالإشراف على إنشائها وهو ابن العم المرحوم خالد صالح الغنيم، وهي من أملاك المرحوم شيان الغانم. وفي نهاية الشارع تأتي البوابة.

أما إلى اليمين في مقابل القسم الرابع كله فتأتي عدة مساكن ويأتي مبنى البريد.

وبعده بناء يحيط به جدار من الطين يطلق عليه اسم الكوت، وهو وارد في الخريطة التي رسمها الشاعر عبداللطيف الديين، ولقد أنشئت في هذا المكان بعد التطوير بناية كبيرة اسمها بناية الكرنك تميزت بوجود سوق مركزي كبير فيها هو الأول من نوعه عندنا، وكان اسمه: السوبر ماركت.

وفي الخلف من هذا القسم الذي تحدثنا عنه هنا نجد عدة أماكن لابد لنا من الحديث عنها على الرغم من أنها ليست على الشارع الرئيسي موضوع المقال ولكننا نفضل ذكرها لأنها ملتصقة بهذا القسم وبعضها له اتصال بما أمامه. ونقطة البدء في ذلك هي في الزاوية الغربية الشمالية التي تقع أمام الإشارة الثانية ومن هنا يمتد الطريق المؤدي إلى البحر، وما نريده هو الامتداد الذي يبدأ على يسار هذا الطريق وينتهي عند أول طريق إلى اليسار وفي أوله مدرسة عائشة للبنات التي لم تعد مدرسة منذ عهد بعيد بسبب خلو المنطقة من السكان، وعدم وجود طالبات يتلقين دراستهن فيها، وقد استفادت وزارة التربية من هذا المبنى فحولته لأعمال النشاط الموسيقي، وفي مقابل هذه المدرسة شمالاً تقع مزرعة سليمان العبدالله الجراح، وكان يطلق عليها قديمًا: كوت الجراح، ثم يمتد الشارع بينهما غربًا حتى يأتي إلى نهايته المرتبطة بطريق السور، وفي هذا الطريق إلى اليمين مزرعة أخرى

ثم مسجد البدر وهو مسجد مرزوق الداوود البدر، وقد تم بناؤه في سنة ١٩٢٢م، ومؤسس هذا المسجد رجل صالح كريم الخلق، كريم ذات اليد يحنو على المحتاجين ويوقر العلماء، كان من أعضاء مجلس الشورى عندما تأسس في سنة ١٩٢١م، وساهم في السنة ذاتها في تأسيس المدرسة الأحمدية.

جددت دائرة الأوقاف العامة مسجد البدر في سنة ١٩٥١م.

ثم تأتي إشارة للمرور وضعت حديثًا وبعدها عن اليمين وعن الشمال مبانٍ متعددة، ينتهي القسم الشمالي منها عند طريق يفصل هذه المجموعة التي وصفناها عن مبنى المستشفى الأمريكي ممتدًا حتى سور الكويت الثالث. وينتهي القسم الجنوبي منها عند شارع الجهراء (فهد السالم). وهذا الجزء يضم عددًا من المباني التي تخص سكن بعض الجاليات الأجنبية ذات العلاقة بمنشآت النفط وما يتعلق بها. كما تضم مبنى تم تخصيصه للمعهد الثقافي البريطاني عندما افتتح في الكويت لأول مرة. ومبنى آخر له تصميم خاص يبدو أنه كان مقرًا لأحد المسؤولين في شركة نفط الكويت. أتذكر هذه الأماكن جيدًا، وقد مررت بها كثيرًا، ولا أنسى يوم مررت بها وأنا صغير السن عندما أعلن انتهاء الحرب العالمية الأولى وقد كتبتُ - فيما مضى - عن هذا الموقف فقلت: «تنفست الكويت الصعداء في شهر مايو سنة ١٩٤٥م، إثر الإعلان عن انتهاء الحرب العالمية الثانية، وأقيمت الزينات على بعض الأماكن، وبخاصة تلك التي يقيم فيها الإنجليز الذين يعملون في الشركات المختلفة ومنها شركة نفط الكويت».

كانت هذه المباني التي ذكرتها هنا مبنية على الطراز الكويتي القديم، وكانت مادة البناء هي الطين، وقد تم لنا إيضاح ذلك في مقال من مقالات الأزمنة والأمكنة، مما لا نحتاج معه إلى مزيد من التفصيل. وقد تحدث زوار الكويت القدماء من الأجانب عن ملاحظاتهم الكثيرة فيما يتعلق بمجتمع البلاد وأعمال أهله، ومساكن

الناس ونمط البناء السائد عندهم، وهذا هو باركلي رونكيير الدانماركي الجنسية يزور الكويت في سنة ١٩١٢م في إطار بعثة تم تمويلها من قبل الجمعية الملكية الدانماركية، بقصد الاطلاع على أحوال الكويت وما حولها من البلدان، وقد حظي هذا الرجل بلقاء الشيخ مبارك الصباح بعد محاولات بذلها، ولم يتم له نيل ثقة الشيخ الحذر الحريص على أمن وطنه وإبعاده عن أنواع المؤامرات التي قد يقوم بها الأجانب إلا بعد استجواب طويل وَمُضنٍ وشهادة شهد له بها القنصل البريطاني في الكويت آنذاك وليام شكسبير، وقد وصف رونكيير الشيخ عندما رآه لأول مرة فقال: هنا في موقع مطل على البحر، مقر الشيخ مبارك حاكم الكويت، والموقع يحميه حراس شخصيون مسلحون يقارب عددهم ستين رجلًا.

والحاكم رجل ممتلئ حيوية، وإن كان في السبعين من عمره، وقد كان جالسًا على كرسي له مسندان، ولاحظت أنه يُنعم فيّ النظر بحرص».

ثم يضيف قائلًا: «كان استقبال الشيخ لي رسميًا ومؤدّبًا، وإن كانت أسئلته الموجهة إليّ يشوبها عدم الثقة بي، والتحفظ تجاهي».

أمضى باركلي رونكيير وقتًا لا بأس به بانتظار حصوله على فرصة يزور خلالها عددًا من الأماكن عبر الجزيرة العربية، وجاس الرجل في هذا الوقت خلال العاصمة، ورأى كل شيء فيها، ووصف قصر السيف وصفًا دقيقًا من الداخل والخارج، ثم وصف المساكن والطرقات والأسواق معطيًا صورة شاملة عن العمل التجاري، وكيف يتم التعامل بين أبناء البلاد. كما وصف المسجد الذي رآه في طريقه. أما عن طرق البناء التي يهمنا أن نذكر ما أورده عنها هنا فقد قال: «... فالبيوت عادة من طابق واحد شُيِّدت من الطابوق المجفف، وفتحات للنوافذ، أو ثقوب الحائط لتمرير الهواء والدخان، ونادرًا ما تطِلُّ على الشارع. وأبواب المنازل التي يضم البيت الواحد أقل عدد ممكن منها تظل مغلقة. والطين الذي تبنى منه

المنازل يُجلب من جنوب المدينة وشرقيِّها مما يؤدي إلى أن تصبح الأرض غير مستوية، وتملؤها الحفر. فالطين يتم الحفر للحصول عليه من أي مكان يراه الشخص. وإذا امتلأ الخُرْجُ الموضوع على ظهر الحمار بالطين يعود به صاحبه إلى المدينة حيث يُبَلُّ بالماء...».

كان لابد من الاستطراد في الحديث عن هذا الموقع الذي يعتبر واسعًا. وذلك لأهميته من جهة، ولأنه مرتبط بالشارع الذي نتحدث عنه من جهة أخرى فمن غير الملائم أن نكتب عن شارع فهد السالم دون أن نعرض لما حوله، وبخاصة وأن هذا المكان كان موقعًا من المواقع التي كانت لها أهميتها في إدارة شؤون النفط الذي كان قد بدأ تصديره في سنة ١٩٤٦م، وهذه السنة هي التي لحقت السنة التي أشرت إليها حين عبرت هذا المكان وشاهدته في سنة ١٩٤٥م وهو يكتسي بالأعلام الملونة ابتهاجًا بنهاية الحرب العالمية الثانية، وذلك هو ما نبّهت إليه في هذا المقال.

وعند هذا الحد فإنه سوف تكون لنا مراجعة لبعض ما نشر قديمًا حول شارع فهد السالم. وقد اطلعت على شيء من ذلك في موضعين أحدهما: مجلة البعثة التي صدرت في سنة ١٩٤٦م، والثاني: مجلة الرائد التي أصدرها نادي المعلمين في الكويت في بداية خمسينيات القرن الماضي. وقد وجدت فيهما ما يلي:

أ- وصفت مجلة «البعثة» في عددها الصادر في اليوم الأول من شهر مارس لسنة ١٩٥٠م هذا الشارع فقالت: «وتقود إلى الصفاة أهم بوابتين من بوابات المدينة الخمس، وهما بوابتا الجهراء ونايف، وعندما تدخل المدينة من البوابة الأولى مارًّا بميناء الشويخ (تقصد المجلة أن تقول: قادمًا من ميناء الشويخ)، فهنا تستقبل شارعًا واسعًا مرصوفًا هو شارع الجهراء، وقبل أن تصل إلى الميدان ذاته (الصفاة) ينفرج هذا الشارع فيكون جزءًا من الصفاة، ويستقبلك في آخر الشارع مبنى حكومي هو دائرة المعارف بمبناها الأنيق الجديد (الواقع أنه في وسط الشارع)،

ثم تسير قليلاً لكي ترى مبنى مجلس الشوري، ثم مبنى المحاكم، وبعده مبنى دائرة الشرطة العامة، في سلسلة متناسقة من العمران الحديث في الكويت الحديثة».

ومن هنا يتبين لنا أنه في سنة ١٩٥٠م كان شارع فهد السالم قد تم رصفه الرصف الأول. وكانت دائرة معارف الكويت، والدوائر الأخرى التي ذكرتها مجلة البعثة قائمة . أما المبنى المستطيل الذي تم تجديده بالكامل بجوار مبنى دائرة الشرطة العامة فقد كان قسم منه يضم مجلس الشورى، ويضم القسم الثاني دائرة المحاكم وهذا هو ما يوحي به النص.

وأما التبليط فقد كانت بدايته من عند ميناء الشويخ، وسار العمل به إلى أن دخل العمال بآلاتهم من بوابة الجهراء فأكملوا طريقهم بتبليط الشارع، وكان كل ما فيه - آنذاك - على وضعه القديم.

ب - وكانت مجلة «البعثة» قد ذكرت في عددها الصادر في اليوم الأول من شهر مايو لسنة ١٩٤٧م شيئًا عن مبنى دائرة معارف الكويت، وقالت إن بناءه قد أوشك على الانتهاء، وإنه من المباني الأولى التي يتم إنشاؤها على أساس من الهندسة والتنظيم في الكويت.

وذكرت أنه يتكون من طابقين، وأنه يحتوي على ست عشرة غرفة، منها قاعة اجتماعات مجلس المعارف . والمبنى مؤسس بالإسمنت المسلح، وقد نفذ بناءه السيد عبدالعزيز المقهوي وفق تصميم أعده أحد المهندسين.

ويقع المبنى قبلي مجلس الشورى في طريق الجهراء.

هذا وقد وضعت المجلة صورة له وهو قيد الإنشاء كما نشرت البعثة - أيضًا - في العدد نفسه صورة لمبنى دائرة الشرطة العامة الواقع في أول شارع فهد السالم من جهة الصفاة (شرقًا) وقد تحدثنا عنه فيما مضى، ولكن المجلة تدلنا بذكره هنا على تاريخ بنائه وهو سنة ١٩٤٧م.

جـ - في اليوم الأول من شهر مارس لسنة ١٩٥٣م، نشرت مجلة «الرائد» التي تصدر عن نادي المعلمين في الكويت آنذاك، شيئًا عن شارع فهد السالم فقالت: «ستقوم دائرة الأشغال العامة بتعبيد الجانب الشرقي من شارع الجهراء، ومما يجدر ذكره أن هذا الشارع سوف يتم توسيعه قريبًا، وسيكون من الشوارع التجارية المهمة في المدينة».

وهذا يدلنا على أن التبليط الذي أشارت إليه مجلة البعثة لم يصل إلى النهاية الشرقية لهذا الشارع، ومن هنا عزمت دائرة الأشغال العامة عندنا على إكماله. ويدلنا - أيضًا - على أن التطوير الكبير الذي تم على شارع فهد السالم قد بدأ التفكير فيه منذ سنة ١٩٥٣م واستمر البحث فيه وثمنت المساكن المتاخمة للطريق خلال ما يقرب من ثلاث إلى أربع سنوات، ثم تغير وضعه وصار إلى ما كان عليه مما تبرزه لنا الصور المرافقة.

أما الآن فهو يدخل في طور جديد بعد أن تغيرت أشكال مبانيه وتحولت إلى ما يشبه ناطحات السحاب بعد أن كانت ارتفاعاتها محددة بأمر بلدية الكويت.

ويلاحظ المتتبع لمقالنا هذا بقسميه أننا ذكرنا المواقع المهمة فيه، ثم عدنا مرة أخرى إلى ذكرها . وقد عمدنا إلى ذلك لأن العرض الأول كان للحديث التفصيلي عن كل موقع، أما العرض الثاني فكان القصد منه تبيان أجزاء الشارع التي باتت تحكمها اليوم - إلى حد كبير - إشارات المرور، وذلك هو ما يتبين من هذا العرض. إذن فليس في الأمر تكرار ولا إعادة بدون إفادة ولكن الأمر مقصود والفائدة موجودة.

وأخيرًا فهذا هو شارع فهد السالم، فمن هو هذا الذي أطلق اسمه عليه؟ وما هي سيرته الذاتية؟

إنه فهد السالم الصباح ابن أمير الكويت الأسبق الشيخ سالم المبارك الصباح وشقيق الأميرين السابقين عبدالله السالم الصباح وصباح السالم الصباح، رجل من رجال الحكم المعدودين، تولى عددًا من المناصب، وأنشأ دوائر حكومية لاتزال بصماته عليها إلى اليوم، وكانت نواة طيبة لوزارات العهد الحاضر.

ولد الشيخ فهد السالم المبارك الصباح في سنة ١٩٠٦م، ودرس في بدايته الدراسية في المدرسة الأحمدية، وكان شابًا ذكيًا لامع الذكاء، وقد درس في هذه المدرسة مبادئ الفقه والعقيدة، والنحو والصرف، والجغرافيا وغيرها من العلوم، وعندما سافرت أول بعثة لطلب العلم من أبناء الكويت، كان هو أحد أعضائها وقد درس في المدرسة الرحمانية في البصرة، ثم انتقل للحاق بزملائه في الكلية الأعظمية ببغداد، ولم تكن هذه المدرسة كافية لإشباع رغبته في العلم، ولم يجد فيها المستوى الذي يتطلع إليه فانتقل إلى بيروت والتحق بالجامعة الأمريكية هناك، وأنهى دراسته في سنة ١٩٤٢م، وعاد شابًا متعلمًا متفهمًا لأمور الحياة، مطلعًا على كل ما يحتاج إلى الاطلاع عليه من الشؤون العامة.

ذكر عبدالعزيز الرشيد فهد السالم الصباح في كتابه تاريخ الكويت، وأثنى عليه كثيرًا، فقال عنه: «ويعجبني من هذا الشاب طموح نفسه للرحلة في طلب العلم إلى البلاد القصيّة، فعسى الله أن يحقق أمنيته، فالشوق وحده يكفي لتذليل الصعاب، فكيف إذا انضم معه استعداد وذكاء؟».

وقد تحقق للشيخ فهد ما أراد وعاد إلى وطنه لكي يبدأ مسيرته في العمل الحكومي الذي قدّم للكويت من خلاله أَجَلّ الخدمات، ولقد كانت من أعماله القيام برئاسة بلدية الكويت، ورئاسة دائرة الإسكان، ثم رئاسة دائرة الأشغال العامة، ودائرة الصحة العامة، وذلك في المدة من الثامن والعشرين من شهر نوفمبر لسنة ١٩٥١م إلى يوم السادس عشر من شهر يونيو لسنة ١٩٥٩م. ولقد كانت أعباء

كثيرة، ولكنه قام بها خير قيام، وكان خلال ذلك حريصًا على راحة المواطنين قوي العلاقة بهم، لا يتردد في تقديم العون والمساعدة ماديًا ومعنويًا لكل محتاج، وكان قبل وفاته رئيسًا لمجلس الإنشاء والإسكان، وهو المجلس الذي وضع الخطط العمرانية التي سارت عليها الكويت فيما بعد، توفي في البحرين في سنة ١٩٥٩م.

كان لابد لنا من هذا الحديث عن شارع فهد السالم فهو من شوارع الكويت المهمة، وهو ثاني شارع كويتي طرأ عليه التغيير إلى الأفضل بعد شارع عبدالله السالم وما قدمناه إنما هو تسجيل لما فيه إحياء لذكرى تلك الصورة الجميلة التي عشنا ونحن نشاهدها.

****

ملحاق خير

أصدرت دائرة المعارف في يوم الحادي والثلاثين من شهر ديسمبر لسنة ١٩٤٧م كشف حسابها السنوي، وقد طبع في كتيب صغير قامت بطباعته مطبعة المعارف بالكويت، ويحتوي الكتيب على شرح لميزانية الدائرة خلال السنة المالية ١٩٤٦ – ١٩٤٧م، ويتصدر كشف الحساب هذا بيان عن موارد المعارف عن ١٦ شهرًا اعتبارًا من شهر يونيو لسنة ١٩٤٦م، ويتضمن المبالغ المالية المدورة من سنة سابقة، ثم ما تقدمه دائرة المالية ومقداره ستمائة وعشرون ألف ربية، ثم الوارد من دائرة الجمارك وقدره خمسمائة وواحد وثمانون ألف وثمانمائة وخمس وخمسون ربية، يضاف إليها بعض البنود بحصيلة إجمالية قدرها مليون وأربعمائة وثمانية وعشرون ألف، وثمانمائة وخمس وتسعون ربية، وإذا عرفنا أن الربية تعادل في ذلك الوقت مبلغ خمسة وسبعين فلسًا، وجدنا أن ميزانية دائرة المعارف في ذلك الوقت كانت تساوي في زمننا هذا (مائة وسبعة آلاف ومائة وسبعين وستين دينارًا ومائة وخمسة وعشرين فلسًا).

وكانت هذه الميزانية تصرف على رواتب الموظفين الإداريين والمدرسين، كما يصرف منها على الإنشاءات، وقد جاء في الصفحة الثانية من الكتيب أن الدائرة قد صرفت مبلغ ثلاثمائة وسبعة وثمانين ألف وثلاثمائة وستين ربية ثمن إنشاء المدرسة الشرقية مع ثمن عمارة اشتريت لاستغلال أرضها بإقامة المدرسة عليها، وعلى ثمن أرض ومصروفات إنشاء المدرسة الوسطى وبعض الإنشاءات الأخرى

اللازمة لعمل الدائرة، أما الصفحة الثالثة فقد تناولت شؤون صيانة المدارس، ثم متفرقات تحتوي على مصروفات بيت الكويت بالقاهرة، وبعثة بيروت، وأجور سفر أعضاء البعثة، والمصروفات التي تقدم للكشافة وتنشيط الألعاب الرياضية، وتناولت الصفحة الرابعة مصروفات القرطاسية والأثاث والنثريات، وأثمان السيارات، ومصروفات أخرى متنوعة، واختصت الصفحة الأخيرة بالمطلوبات، ثم ذيلت الميزانية بتوقيع الشيخ عبدالله الجابر الصباح رئيس المعارف، وعبدالعزيز العثمان كاتب الإدارة وأمين الصندوق، وعبدالله الزيد الخالد مدير مالية المعارف.

هذه ميزانية إدارة المعارف في سنة من سنوات تأسيس العمل التربوي في الكويت، وهي تدل على الرغم من ضآلة المبالغ المخصصة على جهد يبذل في سبيل تقديم خدمة تربوية نافعة، وعلى أمل بالمستقبل ينمو مع الأيام.

وهذه السنة هي التي سبقت – مباشرة – انتقال الدائرة إلى مبناها الجديد في شارع فهد السالم.

(ملاحظة: العمارة التي تم شراؤها من أجل بناء المدرسة الشرقية، لم تكن بالمعنى المتعارف عليه الآن، بل كانت مخزنًا على ساحل البحر يستعمل لتخزين وبيع الأدوات البحرية والإنشائية. وهناك على الساحل الشرقي كثير من هذا النوع ويجمع عندنا على: عماير).

****

رجال لن ينساهم الوطن: سليمان خالد المطوع[1]

لن ينسى الوطن هذا الرجل، لن ينسى الأستاذ المحامي، ولا عضو مجلس الأمة، ولا الصحافي الكاتب ولا الإنسان بكافة صفات الإنسان المحب للناس الحريص على مصالحهم، الباحث في كافة مجالات تخصصه، لم يمنعه عمله في المحاماة أو في مجلس الأمة من البحث والكتابة، وبخاصة في الموضوعات التي سوف نعرضها فيما بعد.

ولد في سنة ١٩٣٠م وتوفي في سنة ١٩٨٥م، فمر بوطنه مرور النسمة العطرة، لم يسمع منه أحد من الناس كلمة مسيئة، ولم ير منه عملًا لا يرضاه، فهو لا يريد لنفسه إلا الظهور بالصورة الكريمة التي نشأ عليها منذ صغره، كان هادئ الطباع، يمتاز بذوق كريم، وحسن استماع لمن يريد أن يتحدث إليه، وقد عاش على هذه الطباع السليمة طيلة حياته.

ولقد شهدت له ذلك حين واتتني الفرصة فزاملته في رحلة الحج خلال سنة ١٩٧٤م. فقد كنّا ضمن حملة حَجّ واحدة، وكنت أراه يوميًا وأتحدث إليه وأسمع منه. ولقد كان حديثه شيقًا، وصوته رقيقًا لا يجرح السمع، وتوجّهُهُ إلى تأدية الفريضة كان خالصًا لله تعالى، ولم يكن مثل بعض الناس الذين يرهقون قائد الحملة بالشكوى والطلبات، فقد ترك كل ذلك وراءه واتجه إلى طاعة ربه.

كان رئيسًا لتحرير مجلة المحامي في فترة من الفترات التي مضت من حياته. وكان عضوًا في مجلس الأمة في دور انعقاده الأول (١٩٦١م - ١٩٦٧م) واستقال

(1) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ١٩/١٠/٢٠١١م.

منه في سنة ١٩٦٥م، ثم انتخب في دور الانعقاد الثاني للمجلس (١٩٦٧م - ١٩٧٠م) ولكنه انسحب عقب فوزه.

وسوف نتحدث عن هذه الفترة فيما بعد.

كانت دراسة الأستاذ سليمان خالد المطوع في القاهرة وكان من زملائه هناك الأخ عبدالله محمد النيباري، والمرحوم فجحان هلال المطيري. وكانت دراسته هناك قد بدأت منذ المرحلة الثانوية لأن هذا المستوى من الدراسة لم يكن مكتملًا في الكويت آنذاك. وفور انتهائه من هذه المرحلة التحق بكلية الحقوق في جامعة القاهرة وتخرج فيها سنة ١٩٥٣م. وقد كتبت مجلة البعثة عنه في الشهر الذي تخرج فيه ما يلي: «أنهى الزميل سليمان خالد المطوع دراسة الحقوق هذا العام حيث نال شهادة «الليسانس»، من كلية الحقوق بجامعة القاهرة، وهو أول طالب كويتي يتحصل على هذه الشهادة من الجامعة المصرية، وقد غادرنا إلى الكويت».

وأضافت مجلة البعثة أن هذا الخريج النشط سوف يغادر الكويت إلى باريس لإكمال دراسته العالية بها. وتمنت له المجلة دوام النجاح والتوفيق، وقدمت له التهنئة بهذه المناسبة المهمة في حياته، آملة أن يعود إلى الوطن لكي يقدم له الخدمة المطلوبة فوطننا في حاجة ماسة إلى جهود أبنائه المخلصين، وبخاصة المتعلمين منهم.

ولقد سافر إلى فرنسا كما ذكرت مجلة البعثة، ودرس هناك ثم عاد إلى الوطن وهو يحمل دبلومًا في الحقوق، وكان يجيد اللغة الفرنسية إجادة تامة قراءة وكتابة ومحادثة.

وكما أشرنا من قبل فإن الأستاذ سليمان خالد المطوع كان محبًا للقراءة والاطلاع على كل جديد في عالم الكتب وكان يحب الكتابة والبحث، ومما يدلنا على ذلك ما نلحظه في شدة اهتمامه بتزويد مجلة «البعثة» بكتاباته المتعددة التي

بدأها في وقت مبكر من حياته الدراسية، فقد وجدنا أول مقال له في مجلة البعثة (العدد الثاني، سنة ١٩٤٦م) وهو مقال قصير، ولكنه مفيد، وكان بعنوان: «من أدوائنا»، تحدث فيه عن الأمراض الاجتماعية، وركز على موضوع العلاقة بين الزوجين، مؤكدًا أن السعادة والاستقرار بينهما من ضروريات الحياة، والزوج والزوجة – كما يرى – مسؤولان مسؤولية تامة عن استمرار الحياة الزوجية بينهما، وذلك بالعشرة الطيبة، والمحبة الصادقة، والتضحية من الطرفين.

أما المقال الذي نشره في المجلة المذكورة بالعدد الصادر في شهر يناير لسنة ١٩٥٠م فكان موضوعه عن المولد النبوي الشريف، وقد أبان في هذا المقال عن اهتمامه الكبير بسيرة النبي الكريم، وأوضح الكثير من مواقف الإسلام في الحكم، وتحقيق المساواة، واحترام مكانة المرأة. وقد بدأ المقال بقوله: قال الحكيم الفرنسي الشهير (غوستاف لوبون): «ما عرف التاريخ حاكمًا أعدل ولا أرحم من العرب» وفي المقال يقول أبو مروان: «وهذه الخاصية التي تفرد بها العرب في ذلك العصر إنما كانت نفحة من رسالة الإسلام التي اختار الله لها صفوة عباده، وأكرم مخلوقاته: محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامة عليه».

وهذا مقال آخر يبدو فيه ميله إلى إيضاح رأي الدين الإسلامي الحنيف في بعض المسائل المتعلقة بالصلات السائرة بين الناس، نشره في مجلة «البعثة» ضمن عددها الصادر في شهر أبريل لسنة ١٩٥١م. وكان موضوعه: «بين الخير والشر». تحدث في المقال عن الشر وعن الخير حديث الفلاسفة، وبَيّن وجهة النظر الدينية. وأكد في الختام أن هذا الموضوع يحتاج إلى أكثر من مقال لأهميته في حياة الناس. وقد وعد بالاستمرار في بحثه، ولكنه لأمر ما لم يتمكن من المواصلة، وهو معذور في ذلك، فدراسته كانت تأخذ كثيرًا من وقته.

وفي السنة السابعة لمجلة «البعثة» صدر العددان الأول والثاني معًا عن شهري يناير وفبراير لسنة ١٩٥٣م، وفي هذين العددين المندمجين في عدد واحد مقال للأستاذ سليمان خالد المطوع تحت عنوان: «الأمة العربية ضحية الوعود والمواثيق، يُعبّر فيه عن المواقف المعادية للأمة العربية من قبل دول العالم الخارجي، وعلى الأخص دول أوروبا التي تستعمر بعض بلاد العرب في ذلك الوقت، وقد قدم لذلك بما حدث في ألمانيا في زمن هتلر الذي دخل الحرب العالمية الثانية بسبب جزءه من مواقف من هذا النوع.

استعرض المقال مواقف الدول المستعمرة، وكافة القضايا المتعلقة بمطالب الاستقلال والحرية التي تنادي بها شعوب الأمة العربية. وبَيّن كيف كانت الدول المعادية تقف حجر عثرة في الطريق العربي حتى عند المحافل الدولية كالأمم المتحدة مثلًا...

وفي الختام ذكر أن ما بيننا وبين أولئك إنما هو «صراع هائل بين الحق والباطل، يشتدُّ تارة، ويلين أخرى، وهو مع ذلك سوف يظل تجربة قاسية يمر بها أولئك الذين يؤمنون بالوعود الخلابة التي صارت حبرًا على ورق، وبالمواثيق التي أضحت قبض الريح».

وفي السنة ذاتها صدر العدد الخامس من المجلة المذكورة وذلك في شهر مايو من السنة السابعة لصدور المجلة. جاء لصاحبنا مقال آخر بعنوان: «الدولة الحديثة الراقية» وقد وضع تحت هذا العنوان عبارة أخرى هي: «الدرس الثاني» وقد ذكر في بداية مقاله هذا أن هذه تكملة للمقال الذي سبق نشره في عدد سابق من «البعثة» ولم أتمكن – أنا – من العثور عليه في مجلدات المجلة السابقة للمجلد السابع، وهو يقول في بداية مقاله الذي أشرنا إليه وإلى موضوعه: «أجملنا في الدرس الأسبق من «البعثة» بعض العناصر المميزة للدولة الحديثة، ووعدنا

في آخر ذلك الدرس أن نتكلم بكل اختصار عن القوانين التي ذكرناها». وقد تكلم في الدرس الثاني - فعلًا - عن القانون الجنائي، والقانون المدني، وعدد آخر من القوانين، وكان المقال بقسميه مفيدًا وشاملًا لقضايا مهمة.

هذا ومن الواضح أن كل ما نشر له في هذه المجلة إنما كتبه وهو طالب، وبعض كتاباته نشرت وهو في المرحلة الثانوية من دراسته. وهذا يدل على استعداد فطري عجيب، ومتابعة للقراءة والبحث، منذ بداية حياته، وهذا أمر يحسب له عندما نتحدث عنه وعن قدراته المتعددة.

ولسليمان خالد المطوع أنشطة أخرى ربما جهل عدد كبير من الناس مدى اهتمامه بها، ومن ذلك متابعته لنشاط الرياضة في البلاد، وقد كان أحد مؤسسي نادي السالمية الرياضية، وقد تم تأسيس هذا النادي في سنة ١٩٦٤م، وصدر قرار إشهاره في جريدة «الكويت اليوم» الرسمية بعددها الصادر في اليوم الحادي والعشرين من شهر يونيو للسنة المذكورة، وكان رقم إشهاره هو (٢٦).

وقد أعادت الهيئة العامة للشباب والرياضة في سنة ١٩٥٥م قرار إشهار نظامه الأساسي.

ونشرت هيئة النادي قائمة تضم أسماء كافة الأعضاء المؤسسين وكان على رأس القائمة الأستاذ سليمان خالد المطوع، ومعه خمسة عشر مؤسسًا آخر بدأ بهم النادي، وسار في طريقه المرسوم حتى صار عضوًا عاملًا في جميع الاتحادات الرياضية.

أما مجلة المحامي التي ذكرناها وقلنا إن الأستاذ سليمان المطوع قد ترأس تحريرها فترة من الزمن فهي مجلة تعنى بالشؤون القانونية وتصدر عن جمعية

المحامين في الكويت وقد صدر العدد الأول منها في شهر مايو لسنة ١٩٦٩م، واستمر صدورها حتى شهر مارس لسنة ١٩٨٢م، ثم توقفت لأسباب قانونية، وكانت هذه المجلة تضم عددًا لا بأس به من البحوث ذات العلاقة بالقانون، وتنشر الوعي القانوني بين قرائها.

على الرغم من أن الفترة التي مكث فيها عضوًا في مجلس الأمة لم تكن طويلة بالقياس إلى زملائه، فإنه أنجز أمورًا كثيرة أكثرها له علاقة بتخصصه وهو الشؤون القانونية.

تتكون مساهماته في المجلس بخلاف أعماله في اللجان البرلمانية وحضور المؤتمرات الخارجية من الأسئلة، ومن الاقتراحات، واقتراحات القوانين برغبة.

فيما يتعلق بالأسئلة البرلمانية عثرت له على خمسة منها وهي:

١ - سؤال وجهه في اليوم الخامس والعشرين من شهر مارس لسنة ١٩٦٤م إلى رئيس مجلس الأمة طالبًا تقديمه إلى رئيس الوزراء وفحواه كالتالي:

هل في نية الحكومة معاودة تنظيم منطقة حولي والنقرة في السنة المالية الجديدة؟ علمًا بأن مجلس الأمة قد اتخذ عديدًا من التوصيات بوجوب تنظيم المنطقة المذكورة.

٢ - وقدم في اليوم الرابع عشر من شهر نوفمبر لسنة ١٩٦٤م سؤالين في يوم واحد، كان الأول منهما موجهًا عن طريق رئيس مجلس الأمة إلى رئيس الوزراء، وموضوع السؤال هو: ما هو مصير القانون الخاص بتعديل بعض مواد قانون المرافعات؟ وكان السؤال الثاني هو: «أرجو توجيه السؤال الآتي إلى سمو رئيس مجلس الوزراء الموقر: ما هو مصير القانون الخاص باعتماد ميزانية مؤسسة

الخطوط الجوية الكويتية عن السنة المالية ٦٥/٦٤، حيث وافق عليه المجلس خلال شهر أبريل ١٩٦٤، ولم يتم نشره في الجريدة الرسمية حتى الآن طبقًا للدستور؟

٣ - وفي اليوم الأول من شهر أبريل لسنة ١٩٦٥م قدم سليمان خالد المطوع سؤالين في يوم واحد كما فعل في السؤالين السابقين. كان السؤال الأول موجهًا إلى وزير العدل عن طريق رئيس مجلس الأمة كما هو المعتاد في مثل هذه الأمور، وهو يسأل هنا عن عدد الجنايات التي وقعت منذ تاريخ تولي النيابة العامة مباشرة اختصاصها في هذا الشأن حتى يوم تقديم السؤال، ولم يكتف بهذا بل طلب أن تكون البيانات على أساس كل سنة، مع بيان نوع الجنايات، والإشارة إلى ما تم فيها من تقديم إلى المحكمة أو حفظ للتحقيق لعدم معرفة الفاعل مع ذكر جنسية مرتكبي تلك الجنايات.

أما السؤال الثاني فكان يتألف من شعبتين وكان موجهًا إلى وزير الداخلية والدفاع القسم الأول من السؤال كان طبق الأصل من السؤال الموجه لوزير العدل الذي أشرنا إليها آنفًا، أما القسم الثاني فكان كما يلي:

كم عدد حوادث المرور التي وقعت منذ سنة ١٩٥٠م حتى اليوم الأول من شهر أبريل لسنة ١٩٦٥م (وهو يوم تقديم السؤال؟) وقد طلب أن تكون الإجابة على أساس كل سنة، مع بيان أسباب تلك الحوادث، وما هو عدد الأرواح التي أزهقت بسببها خلال تلك الفترة؟

٤ - وسأل في اليوم العاشر من شهر فبراير لسنة ١٩٦٤م عن محتويات صحيفة السوابق، وما هو مفهوم السابقة.

٥ - وكان السؤال الأخير له عن الركود الاقتصادي في البلاد ودور الحكومة في القضاء عليه، وما هي الإجراءات التي اتخذتها.

ومن الجدير بالذكر أنه تلقى إجابات وافية عن كل أسئلته التي كان من الواضح أنها تهدف للمصلحة العامة، وتعالج بصورة مباشرة بعض القضايا التي تهم المواطنين، وهذه المسارعة في الرد من قبل الجهات الحكومية دليل على تقدير موقفه من هذه القضايا، ودليل على أنه يمتاز بخلق كريم فلا يتجاوز في أسلوبه الخطابي ولا الكتابي ما يجب أن يتحلى به الشخص الذي عاش في بيئة سليمة، وشهد تربية صالحة على عكس ما نراه من بعض الناس في هذه الأيام من غلظة في الحديث وتشنج لا داعي له مما يضفي على أحاديثهم صفة الرغبة الشخصية في الوصول إلى شيء ما نحن نعرفه ولكننا لا نريد أن نخوض فيه تاركين نواياهم لهم.

وهذا الأسلوب الذي كان يسير عليه سليمان خالد المطوع وجميع زملائه في ذلك الأوان هو الذي اكسب التجربة الديموقراطية عندنا نجاحها في ذلك الوقت وحفظها من النزول إلى الهوة التي هي فيها إبان وقتنا الحاضر.

ولم يقتصر جهده على الأسئلة ومتابعة الحصول على الإجابة عنها، ثم التعليق على ما ورد إليه من ردود، بل قدم عددًا من الاقتراحات المهمة والمفيدة، وأغلبها كانت اقتراحات بقوانين، ومنها ما يلي:

في اليوم الرابع عشر من شهر مارس لسنة ١٩٦٤م، قدم إلى مجلس الامة اقتراحًا بمشروع قانون خاص بتعديل بعض نصوص قانون المرافعات المدنية والتجارية. ثم قدم مشروعًا آخر بقانون ينص على إنشاء محاكم الصلح في البلاد. وقد قدم مشروع هذا القانون متكاملًا، ومعه مذكرته التفسيرية، وهذا هو دأبه في كل ما يقدمه من مشروعات القوانين.

ثم قدم مشروعًا آخر متكاملًا يتناول شؤون الوقف، مع مذكرة تفسيرية شارحة، وكان قد حرص في هذا القانون على أن يتسع في معالجة كافة أحوال الوقف، وعالج من خلاله كافة الجوانب التي تهم الواقفين، وتكفل الاستفادة من الأوقاف التي يوقفها المحسنون.

وفي اليوم الرابع عشر من شهر مارس لسنة ١٩٦٤م قدم أيضًا اقتراحًا بمشروع قانون يتناول تعديل بعض أحكام المرور. كما يتناول تنظيم محكمة المرور. وفي اليوم الرابع عشر من شهر يوليو للسنة ذاتها قدم اقتراحًا بمشروع قانون خاص بإنشاء مؤسسة اقتصادية وتجارية مشتركة، وكان هذا المشروع شاملًا لكل ما يتعلق بإنشاء هذه المؤسسة من الناحية المالية والإدارية مع بيان أهدافها ونظم العمل بها، وهي تشبه إلى حد كبير هيئة الاستثمار العاملة في هذه الأيام على الرغم من أن هذه الهيئة قد نشأت في وقت متأخر عن وقت تقديم هذا الاقتراح.

كان مشروع القانون الذي قدمه الأستاذ سليمان خالد المطوع بهذا الخصوص شاملًا لمذكرته التفسيرية كالمعتاد.

ومن المشروعات بقوانين التي قدمها أبو مروان المشروع الخاص بتنفيذ أحكام القضايا التي يبت بها القضاء، وقد قدمه في اليوم الثالث من شهر يونيو لسنة ١٩٦٤م، وقد شرحت المذكرة التفسيرية اللاحقة له وهي التي أعدها الأستاذ سليمان لتكون مع القانون حين صدوره كل ما يتعلق بالجدوى التي تعود على المتقاضين عند تطبيقه، وتضفي مظلة العدالة على الجميع.

ومن الملاحظ أنه نتيجة لاهتمام هذا الرجل بعمله الذي كلفته الأمة بالقيام به، وحرصه على القيام بواجب التمثيل البرلماني الصحيح خير قيام، فإنه على الرغم من الحجم الكبير الذي نراه لهذه المشروعات القانونية مع كل مذكراتها التفسيرية كان يقوم بإعدادها وتقديمها ومتابعتها والدفاع عنها في الجلسات بنفسه دون أن يشترك معه أحد من زملائه أعضاء مجلس الأمة.

وهذا لا يعني أنه لم يكن مشاركًا لغيره في تقديم ما يراه صالحًا من المقترحات العامة أو المقترحات بقوانين. وذلك وفق قناعته الخاصة، وذلك مثل:

١ - الاقتراح الخاص بتشكيل لجنة من سبعة أعضاء من مجلس الأمة لدراسة أوضاع أجهزة الدولة، وإصلاح الخلل الموجود بها، ووضع التوصيات الكفيلة بعدم تكراره وكان معه في تقديم هذا الاقتراح اثنا عشر عضوًا منهم عبدالباقي النوري، وسامي المنيس، وأحمد الخطيب، ويعقوب الحميضي. وقد أخذ بهذا الاقتراح وشُكِّلَت اللجنة المقترحة.

٢ - الاشتراك مع أربعة آخرين من زملائه في تقديم طلب مناقشة تخفيض رسوم التسجيل العقاري، وذلك لأهمية هذا في ذلك الوقت. وقد كان تقديم هذا الطلب في اليوم الثالث عشر من شهر يونيو لسنة ١٩٦٣م.

٣ - اقتراح برغبة قدمه أبو مروان، ومعه ستة من زملائه أعضاء مجلس الأمة بشأن الطلب من وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل تعميم خدمة مراكز المجتمع على كافة مناطق الكويت المختلفة.

٤ - اشترك مع أحمد سيد عابد الموسوي، ونايف الدبوس، وعلي ثنيان الأذينة، وحمد العبدالمحسن المشاري، وذلك في تقديم اقتراح بشأن إعفاء الموظفين، ومحدودي الدخل والذين يدفعون أجور مساكن ذوي الدخل المحدود، من قدر مُعيَّن من المبالغ المستحقة عليهم شهريًا نظير استهلاكهم من الكهرباء والماء.

٥ - اقتراح بقانون بشأن إنشاء مجلس الدولة وقد قدمه صاحبنا هو مع ثلاثة آخرين من زملائه الأعضاء.

٦ - وقدم سليمان المطوع مع الدكتور أحمد الخطيب، وسامي المنيس، وأحمد السرحان، مشروع قرار برغبة بشأن تنظيم مناطق حولي والنقرة والجابرية.

٧ – وشارك مع خمسة من زملائه الأعضاء في تقديم مشروع بقانون يتضمن تعديل بعض مواد قانون الجزاء، وقد تضمن بشكل عام تشديد بعض العقوبات على المتجاوزين للقانون، وذلك درءًا للمفاسد التي شاعت – آنذاك – نتيجة لعدم تَشَدُّد القانون المطبق.

وبعد، فهذا هو ما استطعت الحصول عليه من معلومات لها اتصال بنشاط الأستاذ سليمان خالد المطوع، وأنا أظن أن هناك من الأعمال البرلمانية الشيء الكثير مما لم يصل إليّ، ولكن ما تقدم فيه دلالة واضحة على كل ما قلته خلال هذا المقال.

بقي أمران لابد في نهاية هذا الحديث من الإشارة إليهما: الأمر الأول يتعلق بوالده، والأمر الثاني يتعلق بابنه الدكتور مروان. وهذه الأسطر التالية تشير إلى ذلك باختصار شديد:

١ – كان والده مذكورًا بالخير، ولقد أسعدني الحظ بمعرفته ولقائه عدة مرات والاستماع إلى حديثه الطيب، ولد في سنة ١٩١٢م، وكان أول مدير لدائرة الأيتام عند تأسيسها. وصار في يوم ما عضوًا من أعضاء المجلس البلدي وفي سنة ١٩٥١م صار عضوًا من أعضاء مجلس دائرة الأوقاف العامة. يمتاز بخلق كريم، يحب أصدقاءه ويحبونه، ويجدون فيه الوفاء والإخلاص وحسن التعامل. انتقل إلى رحمة الله في سنة ١٩٩٠م.

٢ – الابن: مروان سليمان خالد المطوع، طبيب متخصص في الطب النفسي، له نشاط في الكتابة ينشر مقالات كثيرة في الصحف ويشارك أحيانًا في برامج الإذاعة والتلفزيون تتشابه شخصيته مع شخصية والده من حيث حسن الخلق،

وحب الناس والرغبة في مساعدتهم. له فضل كبير عليّ حين أمدّني بعدد كبير من الصور التي تمثل تحركات والده خلال حياته، ومنها ما التقط له ضمن نشاط مجلس الأمة أو جمعية المحامين، وأنا انتهز هذه الفرصة لكي أشكر الدكتور مروان على كل ما قدم.

وفي الختام فإنني أرجو أن أكون قد تحدثت عن الأستاذ سليمان خالد المطوع الحديث الذي يصور حياته ويعبر عن أعماله، ويحفظ ذكره للأجيال.

****

شكر

ينبغي أن أذكر هنا بالشكر والتقدير الأخ الكريم عبدالعزيز عبدالرزاق المطوع، فقد أمدني بمعلومات أثرت معلومات المقال. وزودني بصورة المرحوم خالد اليوسف المطوع.

أبو صافي – كما أراه – كنز من المعلومات عن الكويت وتاريخها وتراثها ورجالها تنبغي الاستفادة منه.

****

لمحات من تاريخنا[1]

كلمة كررناها هنا، ووردت أكثر من مرة في «الأزمنة والأمكنة» وهي أن تاريخ الكويت لم يكتب تفصيلاً في كتاب حتى يومنا هذا على الرغم من صدور عدد من الكتب في هذا المجال منذ سنة ١٩٢٦م حين أصدر الشيخ عبدالعزيز الرشيد كتابه الشهير «تاريخ الكويت».

وذكرت - أيضًا - أننا الآن نلتقط المعلومات واحدة بعد أخرى، ونجمعها إلى بعضها حتى ندرك الصورة التاريخية الصحيحة التي ينبغي أن تكون متوافرة بين أيدينا، ومنها يتكون كتاب جامع لتاريخ الكويت. على أن كتاب التاريخ المرجو ليس من عملنا هنا، ولكننا نسعى إلى تهيئة ظروف إنجازه عن طريق تجميع المعلومات الملتقطة وتقديمها إلى من يريد أن يعمل. ولقد قدمنا عدة مقالات كلها قريبة من هذا الشأن بحيث لو جمعت هي وما سوف يأتي بعدها لحصلنا على كثير مما نريد.

في هذا المقال متابعة لموضوع تاريخ الكويت عن طريق التقاط المعلومات من بعض المصادر، وبخاصة إن كانت هذه المعلومات لم ترد من قبل أو أنها وردت ولكن دون تفسير لحركة التاريخ في وقتها. وليس ما نقدمه هنا إلا نوعًا من الإسهام في إحياء تاريخ الكويت، وتقريب الأحداث التي مرت بهذا الوطن على مدار السنين.

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٦/١٠/٢٠١١م.

هذا وسوف نتناول هنا عدة مراحل تبدأ منذ سنة ١٨٣٩م وتنتهي في سنة ١٨٩٢م، ولا يغيب عن البال أن هذه الفترة كانت شبه غامضة في تاريخنا، وإن كانت الحياة في الكويت تنم عن كثير من الأحداث.

كان لابد لنا من إيراد هذه البداية حتى نتوصل إلى ما نحن بسبيله من تقديم جزء من الصورة التي تمثل تاريخ الكويت القديم. مع الأمل في استمرار عملنا هذا حتى نستطيع أن نقدم أكبر قدر من الصورة المطلوبة.

وهذا الأمر وإن كان صعبًا إلا أنه يمكن أن يتحقق بمزيد من الجهد والمطالعة والبحث، وبتآزر الراغبين في السير إلى تحقيق هذا الأمل. وبكل ذلك فإننا سوف نحصل - قريبًا أو فيما بعد - على سجل وافٍ لكل ما حدث منذ نشأة وطننا إلى أن صار لدينا تسجيل لما حدث فيه. وقد جاء هذا التسجيل الذي نشير إليه عن طريقين أولهما صدور كتاب تاريخ الكويت للشيخ عبدالعزيز الرشيد في سنة ١٩٢٦م، وصدور مجلة البعثة في سنة ١٩٤٦م وهي تسجيل دقيق ومستمر منذ صدورها في هذه السنة التي ذكرناها إلى أن توقفت عن الصدور في سنة ١٩٥٤م.

حملة محمد علي الذي شنها على الجزيرة العربية معروفة، وصدرت حولها مطبوعات كثيرة وكان من تلك المطبوعات مجلدان كبيران يضمان الوثائق الخاصة بالحملة وبعض التفصيلات الأخرى، ولا يهمنا هنا الحديث عن هذا الحدث الذي يستطيع من شاء أن يطلع عليه في مظانه، ولكننا نشير إلى أمرين يتعلقان بالكويت في هذه الفترة.

كان الشيخ جابر بن عبدالله بن صباح قد حكم الكويت في الفترة من سنة ١٨١٤م حتى سنة ١٨٥٩م.

وفي فترة حكمه جرى النصف الأول من الأحداث التي ألمحنا إليها، أما الجزء الباقي فقد حدث في عهد الشيخ صباح بن جابر (١٨٥٩م - ١٨٦٦م) وفي عهد الشيخ عبدالله بن صباح (١٨٦٦م - ١٨٩٢م).

وفي الجزء الأول من الأحداث نرى أثر حملة محمد علي بالنسبة للكويت. ففي سنة ١٨٣٨م عند وصول الحملة إلى الأحساء أرسل الجيش القائم بها مندوبًا عنه ليقيم في الكويت باعتباره وكيلًا عنها فيما يتعلق بشراء الإمدادات والأغذية، وقد تكون لهذا الوكيل أغراض أخرى ولكن ذلك يصعب التكهن به دون دليل من الوثائق. ولكنه استطاع أن يقوم ببعض الأعمال الظاهرة مثل شحن كميات من الأغذية إلى ميناء القطيف. أما ما يتعلق بالأسلحة فقد ورد أن الشحنة الوحيدة التي وصلت إلى الأحساء في تلك الفترة لم تكن من الكويت بل كانت من ميناء عدن، ولكن السفينة التي حملتها في شهر نوفمبر لسنة ١٨٣٩م كانت سفينة كويتية. وقد وصف أسطول الكويت - أنذاك - بأنه أسطول كبير مجهز تجهيزًا جيدًا.

كان الشيخ جابر يعامل هذا المندوب معاملة طيبة إذ ربما كان ذلك بهدف تجنب شر الحملة حتى لا تصل إلى بلاده، أو أنه نكاية بالإنجليز الذين لم يحاولوا تطوير علاقاتهم مع الشيخ وبالتالي مع الكويت، وكانوا في هذا الأمر مهملين غاية الإهمال، ولذلك فقد جرت الأمور المتعلقة بالصلات الكويتية البريطانية كما يلي:

«في يوم ٣٠ من شهر أكتوبر لسنة ١٨٣٩م وصل الملازم أدموندز، مساعد المقيم السياسي البريطاني في بوشهر مبعوثًا عن المقيم المذكور ليقابل الشيخ ويتباحث معه بشأن إنشاء خط بريدي بريطاني عبر الصحراء من الكويت إلى البحر الأبيض المتوسط، ووصل أدموندز إلى الميناء على سفينة حربية بريطانية أطلقت مدافعها بالتحية لشيخ الكويت كالمعتاد، ولم يرد الشيخ على هذه التحية، وحين أرسلت إليه

رسالة مكتوبة من المقيم رد شفاهًا واعدًا برد مكتوب في الصباح التالي، ولم يحدث منه ما كان يحدث دائمًا حين يرحب الشيوخ بزيارة مسؤول بريطاني، فيصعد أنصارهم وأقاربهم إلى متن السفينة للتحية، وظل الملازم أدموندز في سفينته التي أقلته إلى الكويت، دون أن يتم أي اتصال به من قبل الشيخ وبعد انقضاء ثلاثة أيام، تقدم الملازم بطلب لمقابلة الشيخ جابر، وقد سمح له بذلك.

كان الشيخ وقت المقابلة محاطًا بقوم كثيرين، ولم يقف للتحية بل هم بالقيام للضيف ولم يقم عن مقعده كما هو متوقع، وكان في فمه الغليون يشد منه الأنفاس لم يرفعه لحظة ورد على مسألة المدفعية أن الكويت لم تكن ترد على مثلها. ثم حصل أدموندز على الرد المكتوب في آخر المقابلة حيث عاد أدراجه إلى مقر عمله.

كان المقيم السياسي في بوشهر هو الكابتن هينل وقد تدارس مع مندوبه إلى الكويت باستفاضة عما حدث هناك، وقد اتفقا على غض النظر عن كل ذلك ووجدا إجابة استندا إليها من أجل اتخاذ هذا القرار وإن كانت إجابة غير شافية إذ ظنا أن الشيخ قد تظاهر بكل ذلك حتى لا يلفت أنظار مندوب جيش محمد علي في الكويت إلى العلاقة التي تربطه بالإنجليز مع أنه في الواقع لم تكن هناك علاقة بالمعنى الحقيقي الذي ترتبط بها الدول مع بعضها كما بينا في بداية سرد أخبار هذه الحادثة التي لفتت أنظار البريطانيين إلى وجوب الانتباه إلى موقع الكويت مستقبلًا. وأيدت الحكومة البريطانية في الهند موقف الرجلين، فلم توجه إلى الكويت أية ملاحظات بهذا الخصوص. ورغبة في الاستفادة من هذه التجربة فقد مر الملازم ادموندز في طريق عودته على جزيرة فيلكا، وكتب تقريرًا عنها يؤكد عدم صلاحيتها لاستيعاب قاعدة عسكرية بريطانية، ولكنه أبدى إعجابه الشديد بميناء الكويت، وذكر أنه يصلح لكافة الأغراض التي تنشدها السلطات الحكومية

لبلده. وفي السنة ذاتها وصل إلى الكويت مندوب آخر هو الملازم فيلكس جونز وكتب تقريرًا مشابهًا».

وفيما يتعلق بالسبب الذي استُند إليه في تبرير موقف الشيخ من البريطانيين، فإنه ليس سببًا بالمعنى الصحيح لأن الشيخ غير مرتبط مع جيش محمد علي بعقد يمنعه من الاتصال بغيرهم ولكن الكابتن هينل والملازم أدمونز اكتسبا راحة نفسية حين توصلا إلى هذا الرأي.

تولى صباح بن جابر الحكم بعد أبيه الذي توفي في سنة ١٨٥٩م. وقد ورد وصف للشيخ صباح في سنة ١٨٦٣م، بعد أن شاهده أحد المارين بالكويت من الأجانب الذين اعتادت أقلامهم على كتابة مشاهداتهم وانطباعاتهم، ولما كنا لم نحصل على تصوير له فإننا سوف نجد في الوصف الوارد ما يقرب مظهره إلينا، فقد قيل إنه نحيل، طويل القامة، تجاوز عمره الثمانين، حسن المظهر، شفوق رحيم، كان يحكم الكويت بصفته والدًا للجميع، وكان يجلس في كل يوم عند باب بيته ينتظر من يتقدم إليه بطلب أو شكوى فهو ينظر شؤون أبنائه بصفة مستمرة ولم يكن هناك تدخل منه أو ممن سبقه في شؤون الرعايا ما لم يتقدم هؤلاء بشكاية أوْ طَلَب عون أو نصح، وكانت السلطات الإدارية والسياسية بيد الشيخ، أمّا السلطة القضائية فقد كانت في يد القاضي وحده.

ولم تكن هذه الفترة التي حكم البلاد فيها الشيخ صباح بن جابر قد فرضت رسومًا أو غيرها من الضرائب، وكان المبلغ المخصص للصرف العام في حدود عشرين ألف ربية سنويًا تدفع من قبل التجار وغيرهم والكل يدفعها طواعية دون ضغط أو تشديد.

وحرصًا على استتباب الأمن وإزالة الأسباب التي تؤدي إلى المشكلات الأمنية فقد كان الدخول إلى العاصمة ممنوعًا على من يحمل السلاح، وكل من جاء إليها

حاملًا سلاحه فإنه يضطر إلى العودة دون أن يرى البلد أو أن يقضي حاجته التي جاء من أجلها.

توفي الشيخ صباح في سنة ١٨٦٦م، وتولى الحكم من بعده أكبر أبنائه وهو الشيخ عبدالله.

ولم يكن الشيخ الجديد متأثرًا بوالده من حيث طريقة الحكم؛ فهو لا يجلس أمام باب مسكنه منتظرًا من يحتاج إليه في أمر من الأمور أيًا كانت، ولم يكن قليل الاتصال بما حوله من دول الجوار، إذ أن السن له تأثير كبير على أسلوب الشيخ صباح الذي توفي كما ذكر وهو في السنة الثانية والثمانين أو تجاوزها بقليل.

على العكس من والده فإننا نرى الشيخ عبدالله بن صباح يقيم صلات كثيرة مع من حوله، ويستقبل ضيوفًا كثيرين لأسباب متعددة حتى لقد وجدنا بعضهم من اللاجئين إليه، بعد أن تعرضوا لمشكلات في بلدانهم، وكان الشيخ يحميهم ويفسح لهم المجال في بلاده إلى أن تنجلي غمتهم ثم يعودون إلى أوطانهم.

وفيما يتعلق باتصال الكويت مع بريطانيا فقد كانت هي والطرف البريطاني يحتفظان لبعضهما بعلاقات طيبة مبنية على أساس متين، وإن كانت المراسلات بينهما في هذه الفترة غير منتظمة.

وفجأة أطل على الكويت زائر بريطاني مهم هو الكولونيل بيللي المقيم السياسي العام لبريطانيا في الخليج، وقد وصل في اليوم الثالث من شهر مارس لسنة ١٨٦٣م، وكانت أول محطة له هي الجهراء حيث وجد الشيخ مبارك الصباح في استقباله، ومن ثم توجه معه إلى العاصمة حيث قدمه إلى والده الذي كان في سنوات عمره الأخيرة، ولكنه استقبل الضيف واحتفى به، بل وأعد له ترتيبات

العودة، وكانت للمقيم السياسي رحلة شهيرة إلى الكويت في سنة ١٩٦٥م، ذكرنا عنها الشيء الكثير في أحد مقالات الأزمنة والأمكنة، وكان في هذه الرحلة يُزمع السفر إلى الرياض. وفي الرحلة نفسها أمضى عدة أسابيع في الجهراء انتظارًا ليوم الرحيل. وقد ورد عن إقامته هذه تحليل يبين كيف أمضى وقته الطويل في الجهراء فكان مما جاء في ذلك التحليل أن بيللي أمضى وقتًا استطاع فيه أن يتعرف بوضوح مستقبل الكويت المحتمل بصفتها ميناءً تجاريًا، ونقطة التقاء لتجارة البحر وسواها، إلى جانب صلاحيتها كي تكون قاعدة لمحطة تلغراف بريطانية أو مستودعًا للفحم. وإضافة إلى ذلك فإنه أكد على ضرورة أن تصل البواخر عن طريق خور عبدالله إلى العاصمة التجارية للعراق التركي (كما كان يسمى) على أن يرتبط هذا الخط بخط حديدي يصل إلى البحر الأبيض المتوسط وكان من نتيجة ذلك أن بدأت بواخر شركة الهند البريطانية للملاحة الخارجية في التردد على ميناء الكويت، وذلك إلى حين.

في السنة الأخيرة من فترة حكم الشيخ صباح بن جابر وهي سنة ١٨٦٦م بدأت المشكلات تظهر من الجانب العثماني ضد الكويت وقد اتخذ موقف العثمانيين شكلًا يرونه قانونيًا وهو في الواقع غير ذلك. كان الشيخ صباح قد اشترى قبل ثلاثين سنة من ذلك التاريخ أرضًا في الزبير كان يُطلق عليها الصوفية، ولكن أسرة البائع تظلمت إلى سلطات العثمانيين في البصرة بدعوى أن البائع لم يكن يملك إلا جزءًا يسيرًا من الأرض، وقد تجاوب والي البصرة معهم وكادت تحدث مشكلة كبيرة بين الكويت والزبير لولا تدخل والي بغداد الذي حكم لصالح الكويت.

وفي السنة ذاتها حاول ناطق باشا الحاكم العثماني في العراق أن يفرض هيمنة الدولة العثمانية على الكويت، وكل ذلك لأن العراق كان ينظر بنظرة حسد

إلى مجيء السفن البريطانية التجارية إلى الكويت، وكان يرى أن النمو الحادث في الكويت والبحرين إنما هو من نتيجة حرمان البصرة من هذه السفن وتجاراتها، ولم يهدأ بال الحاكم العثماني إلا بعد أن طلب أمير الكويت من السلطات البريطانية وقف مجيء السفن التي سببت كل هذه الإثارة.

واستمر الشيخ عبدالله بن صباح، في إقامة علاقاته المتشعبة، واتصل بعدد كبير من مسؤولي المنطقة، واستقبل عددًا منهم في زيارات أو في لجوء سياسي إليه، وقد توثقت صلاته بالدولة العثمانية، وقام بإعانتها سياسيًا وعسكريًا في مناسبات عدة، وكان يقوم لها بذلك إضافة إلى نظرته إليها باعتبارها دولة إسلامية كبرى؛ اتقاء لشرها لأنه وجد من تعدياتها منذ يوم ما جرى بشأن أرض الصوفية الزراعية ما يوجب اتخاذ الحيطة في التعاون معها، والابتعاد عن أي مثير لها، وبخاصة وأنه يشعر بالفرق في القوة بين بلاده وهذه الدولة.

أما البريطانيون فلم تكن تربطهم بالكويت آنذاك رابطة سياسية أو اتفاق مكتوب حول أي أمر من الأمور التي تجري بين البلدان، وكانت هذه الدولة العظمى تنظر إلى المنطقة بشكل عام أنها منطقة خارج النفوذ، ولكنها تعتبر الكويت بلدًا مستقلًا. على الرغم من أنها لم تبلغ الدولة العثمانية برأيها هذا، ربما لأنها لم تجد داعيًا لذلك بسبب عدم اعترافها بوجود سلطة من نوع ما للعثمانيين هنا.

هيأت هذه الفترة التي تحدثنا عنها منذ بداية مقالنا هذا لأعمال كثيرة ومتنوعة، انتقلت بها الكويت إلى مدارج من التقدم كان أثرها واضحًا في الحياة على مختلف نواحيها.

وكانت صورة مبارك الصباح بارزة منذ عهد والده صباح، وكان يقوم ببعض المهمات التي يكلف بها، واستمر يؤدي ما يطلب منه في عهد حكم أخيه الشيخ عبدالله الصباح.

لقد كانت قدرات الشيخ مبارك الصباح تبرز يومًا بعد يوم، وشخصيته الطاغية تلفت الأنظار إليه في وقت مبكر من حياته.

كنا قد تحدثنا عن الشيخ مبارك الصباح في عدة مقالات من الأزمنة والأمكنة ولكن حديثنا هنا في مسار آخر يختلف عن المسارات السابقة للحديث في هذا الموضوع.

لقد حدثت بعض الأحداث منذ سنة ١٨٦٣م حتى تولي الشيخ مبارك لحكم البلاد في سنة ١٨٩٦م، وذلك كما يلي:

١ - ذكرنا أن الشيخ مبارك الصباح كان في انتظار الكولونيل بيللي في الجهراء سنة ١٨٦٣م حيث استقبله، وانتقل معه إلى العاصمة حيث التقى الشيخ صباح، وتصدى الشيخ مبارك لهذه المهمة كان أمرًا طيبًا باعتبار أن الضيف ذو مكانة مرموقة في الحكومة البريطانية حيث كان بيللي يشغل منصب المقيم السياسي البريطاني في الخليج.

٢ - في سنة ١٨٩٢م توفي الشيخ عبدالله فتولى الحكم من بعده أخوه الشيخ محمد وعلى الرغم من عدم بقائه على رأس البلاد مدة طويلة إلا أنه قد حدثت في عهده حادثة تجلى فيها دور الشيخ مبارك، وذلك أن العثمانيين قد طلبوا من الشيخ محمد مساعدتهم على إقرار الأمن في منطقة الحسا فأرسل حملة برئاسة أخيه مبارك لهذا الغرض.

٣ - في السنة ١٨٩٥م حدثت حادثة قرصنة ضد سفينة اسمها (هاريباسا) في شط العرب، وكانت هذه السفينة تحت الحماية البريطانية. ولم يكن البريطانيون يظنون أن أحدًا من الكويت يستطيع أن يقوم بمثل هذا العمل مراعاة منهم للدولة

العثمانية. ولكن هذا الحادث غَيَّرَ مفهوم الحكومة البريطانية لموقف الكويت من العثمانيين، وكان الظن أنها قد تخضع لهم في الوقت الذي أظهر هذا الحادث أمرًا لم يكن متوقعًا، وقد أفاد هذا الانقلاب في الرأي البريطاني الكويت كثيرًا فيما بعد، وصارت الصلة بين البلدين في المجرى العادي، وكان ذلك أثناء حياة الشيخ محمد الصباح.

٤ - في السنة ١٨٩٨م اكتشفت بريطانيا أنها لابد وأن تعيد النظر في موقفها من عقد اتفاق حماية مع الكويت، وكانت رافضة لعقد مثل هذا الاتفاق منذ عرض عليها من قبل الشيخ مبارك الصباح في سنة ١٨٩٧م.

وكان الذي أسهم في تغيير الموقف البريطاني هو الاتجاه إلى إبعاد أي نفوذ أجنبي عن المنطقة فقد لاحظ مندوبو الحكومة البريطانية وجود ما يدعو إلى الظن بأن الحكومة الروسية تفكر في إقامة مستودع للفحم في الكويت، كما كانت هناك جهود مبذولة من أجل الحصول على حق امتياز يخول مواطنًا روسيًا مد خط حديدي من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج. مع ما يجره هذا من الحصول على امتيازات على الأرض تتطلبها عملية إنشاء الخط وإدارته.

ما كان من بريطانيا بعد هذه المعلومات التي كان من المتوقع أن تتحول إلى حقائق. إلا أن قبلت بعقد الاتفاق الشهير مع الشيخ مبارك الصباح في سنة ١٨٩٩م.

وللشيخ مبارك الصباح أثر كبير في تاريخ الكويت، وله محبة خالصة في قلوب الكويتيين جميعًا، كان لهم بمثابة الوالد، وكانوا يكنون له إلى جانب المحبة التقدير والاحترام، وكان يحرص - دائمًا - على أن يحتفظ لنفسه ولوطنه بمكانة سامية؛ فلا يفرط في المكانة التي وضعته فيها شخصيته الجذابة، ولا بتقدير

الناس له في داخل الكويت وفي خارجها، ومما يدل على المكانة التي كان عليها، ووضع على أساسها نظام حكمه ما قاله السير أرنولد ويلسون قنصل عام بريطانيا في منطقة الخليج في كتابه المسمى «الخليج العربي» عن مقدرة الشيخ الخارقة التي كان من نتائجها «أن المقيم السياسي في الكويت لم يدع مرة واحدة ليقدم لحاكم الكويت أي توجيه فيما يختص بالإدارة الداخلية لإمارته»، وكان يستفيد في أداء عمله الخاص بحماية الكويت بالمعلومات التي كانت تأتيه من الخارج، ويستند إليها في اتخاذ الكثير من القرارات، وكانت الأخبار لا تنقطع عنه لأن إدارة حكمه ينبغي أن تكون واعية لكل ما يدور حول بلاده، وكانت مخابراته الخاصة هي الأولى في الجزيرة العربية، فلم يكن هناك ما يمكن إخفاؤه عنه.

كان للشيخ مبارك الصباح نظام دقيق يسير عليه بصفة ثابتة ففي الصباح بعد أن يتناول إفطاره يتجه إلى قصر السيف يرافقه خادمان يثق بهما جيدًا مع مجموعة من الحراس، يسير في البداية عبر قنطرة مسقوفة إلى وسط القصر، ومن هناك يبدأ سيره عبر قناطر خشبية أخرى إلى وجهته، وفي هذه الأثناء ينضم إلى موكبه عدد من الرجال المسلحين الذين لا يقل عددهم عن الخمسين رجلًا، وكان غالبًا ما يجلس في شرفة القصر المطلة على البحر كي يستمع إلى تلاوة الرسائل الواردة إليه، ثم يملي إجاباته عليها، وإذا انتهى من ذلك ركب عربة سوداء يجرها حصانان أسودان واتجه بها إلى وسط السوق حيث يستقبل المواطنين ويبت في قضايا الناس الذين لا يستقبلهم في مجلسه الخاص في قصره. ثم يركب عربته عائدًا يسير أمامه بعض الحراس الخاصين، وخلف العربة حارس ضخم يرتدي حلة رسمية زرقاء مشهرًا بندقيته، وهو راكب على حصان أبيض.

وعندما يسير الشيخ في الطريق الطويل المؤدي إلى قصره كانت الأعمال تتوقف في السوق كي تتاح للناس فرصة السلام على أميرهم. وبعد الظهيرة

يجلس الشيخ مبارك في مجلسه الخاص حيث يتناول القهوة مع مجموعة محدودة من خلصائه، ومع تبادل الأحاديث كان الشيخ يقدم للمقربين من الجالسين بعض السجاير، وبعد أن يمضي ساعة في هذا المجلس يتجه مرة أخرى إلى السوق حيث يجلس في الكشك الذي لا تزال أطلاله قائمة اليوم في ساحة المباركية، ولا يعود إلا قرب غياب الشمس، حيث يصلي ثم يتناول وجبة العشاء التي كانت هي وجبة الطعام الرئيسية في الكويت في تلك الأيام.

هكذا عاش الشيخ مبارك الصباح أيامه الجميلة بين أبنائه الكويتيين.

ويعرف الجميع أن الشيخ مبارك الصباح كان حريصًا أشد الحرص على حماية وطنه، وكان من دلائل حرصه قيامه بصد السلطات العثمانية التي كانت مجاورة له في العراق، وعدم إتاحة الفرصة لرجال هذه السلطات للتأثير على استقلال الكويت وكرامتها. وإذا كانت قد مرت بنا نماذج كثيرة تدل على مواقف الشيخ مبارك الصباح الوطنية؛ فإن ما ورد في الوثيقة التي نعرضها هنا يدل بكل وضوح على ذلك؛ فقد صدرت رسالة عنوانها: (من الكويت إلى البحرين في الثامن والعشرين من جمادي الأولى لسنة ١٣١٩م) وهو يوافق الحادي عشر من شهر سبتمبر لسنة ١٩٠١م كان قد أصدرها علي بن غلوم رضا الموظف في مكتب الوكيل السياسي البريطاني في الكويت، ووجهها إلى القنصل البريطاني الذي يتضح من طبيعة المراسلة أن الوكيل السياسي البريطاني في الكويت كان غائبًا فيه عن البلاد، ولذلك تولى هذا الكاتب العمل في هذا الشأن.

تتضمن الرسالة معلومات عن الحالة العامة في الكويت وما حولها في ذلك الزمان، ولكن ما يعنينا من ذلك هو الإشارة إلى أن مدير منطقة الفاو العثمانية جاء إلى الكويت مع عدد من رجاله مستفيدًا من رحلة كان يقوم بها يوم الشيخ من

هناك وحضر إلى لقاء الشيخ مبارك الصباح، الذي لقيه بعد الظهر ولم يمهله حتى سأله: ما هي حاجتكم هنا، ولماذا قَدِمْتُم إلى هذه الجهة، ولما كان رد المدير غير ملائم لأنه ذكر أن سبب حضوره هو الكشف عن صحة معلومات وردته عن سفن حربية بريطانية قد وصلت إلى الكويت، وبالذات إلى جزيرة فيلكا وجزيرة بوبيان، كان رد الشيخ مبارك حازمًا حيث قال له: ما دام هذا مرادكم فإنه عليك المغادرة فورًا فلا تبقى في بلادنا دقيقة واحدة، وبالفعل عاد المدير مع رجاله خائبًا دون أن يحصل على المعلومات التي يريدها.

وفي نص الرسالة يقول كاتبها: «... بعد الظهر الشيخ مبارك سأل المدير ما حاجتكم عندنا على هذه الجيّة، قال المدير: أنا جاي حتى أكشف أخبارات الكويت، سمعنا أن جايين مناور السركار طارحين بعض في فيلكا وبعض في بوبيان، جينا نكشف على هذه الأخبار، قال الشيخ مبارك: إذا هذا مرامكم عندنا يكون لازم ما تبقى عندنا دقيقة، وفورًا تلك الليلة (٢٧ جمادى الأولى) ركب المدير ورجاجيله البوم إلى الفاو».

هكذا لم يتح الشيخ مبارك الصباح الفرصة للدولة العثمانية كي تتدخل في شأن من شؤون وطنه، حرصًا على استقلال هذا الوطن، وإثباتًا لعدم تبعيته لأحد.

لعل فيما قدمناه في هذا المقال الكفاية من حيث الإلمام ببعض الجوانب. ولكن الأمر لابد له من استكمال، وسوف يأتي ذلك مستقبلًا إن شاء الله.

****

من قصائد عبدالله محمد فرج[1]

لا أظن أن هذا الشاعر الكبير يحتاج إلى تعريف فإنه - لايزال - منذ مرور أكثر من قرن على وفاته وهو يملأ أسماعنا شعرًا وألحانًا، فنجد في شعره جمال التعبير وقوة الشاعرية، ونجد في ألحانه الطرب الجميل الذي يأخذ بالألباب، ويكفيه أن نقول إن ألحانه التي مضى على إبداعها زمن طويل لا تزال حية تنطق عن موهبة عالية، وتمكن بديع في فن الموسيقى على الرغم من أن الأيام التي أبدعت فيها كانت خالية من الوسائل المعينة في مجال الفن الغنائي، فهي أيام على غير ما نحن عليه الآن من توافر الآلات، والفنانين المبدعين والنقاد، ومع كل ذلك فقد ظهرت ألحان عبدالله الفرج وعاشت إلى يومنا هذا يهواها كل محبي الفن ويرددها كبار المطربين من أبناء الكويت وغيرهم.

ناهيك عن شعره الذي جاء في ديوان كبير، يضم عددًا كبيرًا من القصائد متنوعة الأغراض، متعددة البحور، ولجمال شعره فإن الفنانين صاروا يغنون حتى الأغاني التي لم يلحنها الشاعر من شعره، وأقرب مثال لذلك هو قيام الفنان القدير سعود الراشد بتلحين عدد من الأبيات التي ابتدأ بها الفرج قصيدته الرثائية التي يقول في مطلعها:

مـرت بـي الـقـدرة ضحـى يـوم الاثـنـين
بـذيـار خـلّـي بـالـلـوى والحـبـايـب

(1) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢/١١/٢٠١١م.

وارفض من عيني كما فايض العين

دمع بمثله ما تجود السحايب

وهي أبيات جميلة ذات لحن جميل رنان على الرغم من أن موضوعها ليس من الموضوعات التي تُغنّى، ولعلها المرة الأولى التي استمع فيها إلى قصيدة من قصائد النبط الرثائية فأجد أن ملحنًا كبيرًا استساغ عباراتها فلحنها وغناها فأبدع في اللحن وفي الغناء.

هذا الذي نذكره هنا يعتبر من الدلالات الواضحة على عبقرية عبدالله محمد الفرج، ورقي فنه، وقدرته على التعبير الصادق.

للشاعر عبدالله محمد الفرج قصائد جميلة كثيرة، متنوعة الأغراض والأوزان فيها قصائد العرضة والصوت والسامري وفيها الغزل والمديح والهجاء والوصف، وله إضافة إلى الأوزان المعتادة أنواع من الزهيريات وإن كانت أقل من حيث الكم مما أنتجه في باقي أوزان الشعر.

ومن قصائده الغزلية الجميلة هذه التي مطلعها:

جرى الدمع من عيني على الخدِ وانتثرْ

وبَيِّح بْسدِّي يا علي مدمعي الجاري

شجاني حمام ناح بالمورق الخضرْ

وهيَّض غرامي تالِي الليل وأفكاري

والقصيدة في ثمانية عشر بيتًا. وقد غناها الفنان سعود الراشد مُغيرًا لحن عبدالله الفرج لها، ثم غنتها الفنانة حورية سامي في إحدى الحفلات فأجادت على الرغم من اختلاف لهجتها عن لهجة الأغنية. وغنتها كذلك المطربة وطفة، ولها تسجيل في إذاعة الكويت. وسوف يأتي بيان ذلك.

استهلال جميل، وتعبير واضح عما سوف يأتي في القصيدة من ملامح فنية جميلة، سوف نعرضها فيما بعد.

فهذا شاعر كويتي جميل الشعر، مشهور لدى محبي القصائد النبطية، ومعروفٌ بأنه من الملحنين المشهورين فقد انتقلت إلينا منه ألحان كثيرة ولا تزال تتردد على أسماعنا، لم يغير من قيمتها مرور الزمن بل هي تزداد جمالًا لأنها ذات أصالة، ولأنها صادرة من فنان عريق. ولقد كان من حسن حظنا أن أحاط به عدد من الفنانين منهم الفنان خالد البكر الذي حفظ ألحانه كلها، ثم قام بتحفيظها إلى أخيه يوسف البكر، وهذا الأخير كان له الفضل في إيصال هذه الألحان إلينا دون أنْ يلحقها أي تشويه، وكما أن الفضل له في ذلك فإن الأستاذ أحمد البشر الرومي صاحب فضل كذلك لأنه هو الذي سعى إلى تسجيل صوت الفنان يوسف البكر، وقام يحفظ كل ما غناه. مما يجعلنا نؤكد أنه لولا قيام الأستاذ أحمد البشر بهذه المهمة لما وصل إلينا نتاج هذا الفنان العريق الأصيل.

ومهما كتبنا عن فنان الكويت وشاعرها عبدالله محمد الفرج فإن ما قدمناه قليل إذا ما قارناه بحجم إنتاجه في كلا الجانبين اللذين خاض غمارهما: الشعر والموسيقى.

كان تعبير الفرج عن الحب تعبيرًا باكيًا، جرت له دموع عينيه، وانتثرت على خديه، فكان دمعه دليلًا على عشقه، وكشفًا عن سريرته. ولقد تسبب في إثارة شجونه ما سمعه من الحمام النائح على أغصان الأشجار المورقة الخضراء. كان وقت ذلك في أواخر الليل مما أفزعه وأثار أشواقه، وشغل فكره بالمحبوب الغائب.

ثم استأنف حديثه شارحًا وضعه بعد هذا الاستهلال الذي ورد في أول بيتين من قصيدته، فعبر عن شقائه وشقاء قلبه لكثرة الويل الذي يحس به عند ذكر المحبوب الذي جفاه على الرغم من أنه مغرم به يردد اسمه في شعره (رنت به أشعار).

ثم يقول: إن هذا الحبيب قد جفاني، وَعَرَّضَ روحي للتلف، وسلك بها المسالك الوعرة، وترك جسمي ناحلًا عاريًا من اللحم سقيمًا. وسبب ذلك أن هجره ما كان يخطر على بالي، وكان المنتظر منه أن يرأف بي ويراعي حالتي، كما أرأف به وأداريه.

ألا واشقا قلبي من الويل لي ذكرْ
حبيب جفاني يوم رَنت بِه أشعاري
جفاني وعرّض بالجفا روحي الوعرْ
وجسمي دعاه مِنِ اللّحم ناحل عاري
نحل حالتي هجره ويا ليت ما هجرْ
مِحِبٍّ يروفْ بحالته دوم ويداري

لقد أجاد الشاعر في أبياته الخمسة التي تقدمت، وأحسن تصوير حالته بعد فراق من يهواه، فهو يتحسر على أيام مضت حين كان لقاؤهما ممكنًا، وكان الزمان مواتيًا لهما، وهو يردد بسبب ما يشعر به من هموم الفراق ذكر الدموع المنهمرة من عينيه على خديه، فجعلته كما باح بمكنون نفسه بائسًا حزينًا.

وهذه معاني الكلمات الواردة في البيتين الأولين:

مرت بي القدر: مرّ بي الأمر المقدر الذي لا أستطيع له دفعًا.

اللوى: موضع رمال في الصحراء، بقربها منازل من يحب.

ارفض: تفجّر سائلًا.

العين الفائضة: هي النبع الذي ينبعث منه الماء.

أما الأبيات الخمسة التي تلت ذلك فمعاني كلماتها كالآتي:

بيح: باح. **بْسَدِّى:** بسرِّي.

شجاني: هي من قولهم شجاه الهم أي: أحزنه وهي فصيحة.

المورق الخضر: الشجر المورق الأخضر.

هيّض: أثار. **واشقا:** ما أشقى.

رَنّتْ: سمع صوتها في كل مكان.

الوعر: الأماكن الوعرة: أي الصعبة المسالك، وهي فصيحة.

دَعَاهُ: جعله. **يروف:** يرأف.

يداري: يراعي ويهتم.

كانت تلك هي الفقرة الأولى من القصيدة، وهذه هي الفقرة الثانية التي استأنف بها شكايته وبث الآمه؛ ولكنه ابتدأها بوصف صاحبته التي كانت ذوائب شعرها طيبة الرائحة، زكيّة وعطره، ثم قال لصاحبه علي: أنه كلما مر على بالي ذكر هذا الحبيب أذهل التذكار فكري، وأخذني الوجد كل مأخذ.

خنين الذوايب يا علي كل ما خطرْ
على البال ذكره سَبّة البال باذكاري
أنا كيف باسلا عنه واصبر كما صبر
وأنا اللي بحبّه للملا شاعت اخباري
تلفني على فرقاه وجدي مع السّهر
فهل - يا علي - عن حالتي متلفي داري؟

هكذا نراه في تساؤله الموجه إلى صاحبه عليّ فهو تَسَاؤُلُ مُسْتَنكِر، وكان صديقه علي قد طلب منه أن يصبر وهو يقول: كيف أسلو عنه، وأصبر كما صبر عنّي، وأنا الذي أحبه محبة شاعت أخبارها بين الناس. وهو فوق ذلك قد أوردني موارد التلف بسبب فراقه لي، لأنني صرت أعاني الوجد والسهر الطويل، وكل ذلك يحدث لي ومن أهواه لا يدري عن حالي شيئًا. ثم عاد إلى وصفه قائلًا:

ضحوك اللمى لـه غرة كنها القمر

إلى شعشعت يسري على نورها الساري

حسين سواته ما حدٍ شاف أو نظر

غزال بزينه يخجل البيض ويماري

يقول الشاعر: إنه ضحوك اللّمى، واللمى لون جميل في اللثة يظهر عند الضحك أو الكلام، وله غُرّة كأنها غرة القمر إذا انتشر نورها سار عليها الساري ليلًا، والمحبوب مضيء بسبب ذلك النور المشع من محيّاه، وهو جميل لم ير الشاعر أحدًا مثله في جماله، وهو شبيه بالغزال، بل إنه ليُخْجِل الحسان حين يفاخر بحسنه بينهن.

ثم ماذا؟ يقول إن سبب ما حل به هو:

أنا من سبب شوف الغضي في شهر صفر

نطحني عصيرٍ ساطع نورها واري

نطحني وحيرني بها صافي النحر

وسبّه دليلي عقبما تَيّه أفكاري

إذن فمشاهدته لمن يحب بصورة مباغتة (نطحني) هو سبب إثارة الكوامن، فهو يقول إنني رأيت المحبوب في شهر صفر، وقد قابلني في عصر يوم مشرق

من ذلك الشهر العربي فحيّرني بنحره الصافي الجميل، وتاهت لمرآة أفكاري، ولم أتمالك نفسي ذلك اليوم.

ولفظة نطحني لها معنى لقيني فجأة وهي من ألفاظ اللهجة التي كانت تستعمل فيما مضى من الزمان. وَصَغّر لفظ العصر فقال عصير، وهو يقصد (عصرية) وهذا اللفظ مستعمل في اللهجة وهو يشابه قولهم صبحية وظهرية ولذا فإن الشطر الثاني من البيت الذي نتحدث عنه هنا يقول: «قابلني فجأة في عصرية نورها ساطع، وكأنه يشتعل لقوة نوره. وفي كلمة صبحية يقول الفنان عواد سالم:

صوت السهاري يوم مرّوا عليه

صبحية العيد

وهي أغنية مشهورة غناها الفنان عوض دوخي بكلمات أخرى ولحن آخر.

وهذه معاني بعض ما مر في الأبيات من كلمات:

خنين: طيب الرائحة.

الذوائب: خصلات الشعر.

سَبَّهَ: أذهل.

الملا: الناس. **اللّمى**: لون محبب في اللثة، وهي فصيحة.

غرة: غرة الشهر أوله، وغرة المحبوب هنا: جبهته.

شعشعت: ظهر شعاعها. **الساري**: الماشي ليلًا.

سواته: مثله.

شاف: رأى. **يماري:** يفاخر.

الغضي: المحبوب. **نطحني:** قابلني ولقيني على غير تَوَقُّع.

واري: أصلها مُتّقد. ويقصد بها هنا: ساطع.

صافي النحر: ناعم الرقبة وأعلى الصدر. عقبما: بعدما.

ويستمر الشاعر عبدالله الفرج في شكواه، معبرًا مرة بعد مرة عن حالته البائسة مع من يحب. وعن أمله الخائب في إعادة العلاقة التي انقطعت بينهما إلى ما كانت عليه. إنه يتمنى أن لو عرف حبيبه عن حاله وأخذ الخبر عن شكواه التي زادت على كل شكوى مرت به في حياته. إنه يردد في شعره قائلًا: ليته يعلم بحالي (خذ الخبر) إذن لادركني وسعى إلى أن يزيل عني هذا الهول والجزع اللذين جعلا الهموم تنتثر عليَّ كأنها الرمال التي تذروها الرياح (الذراي). ثم يتساءل: ما شأنه كلما راني مقبلًا صدّ عني، ونفر من ملاقاتي، أما إذا كلمته فإنه سرعان ما يرد عليَّ بقوله: إنك طويل اللسان، كثير الكلام (بيعاري):

ألا ليت عن حالي حبيبي خذ الخبز
ولا هال من تذري همومه كما الذاري
علامة إلى من شافني مقبل نفَرْ
وإلى قلت قول قال: والله بيعاري

ثم يختم القصيدة بالتوجه إلى أهل المعروف قائلًا لهم: أنتم تحاولون الإصلاح بيننا، وتسعون إلى إعادة المياه إلى مجاريها بيني وبين من أهوى، ولكني علمت أن

ذلك لا يفيد، وأن الحذر لا يقرب البعيد. وأن الله قد قضى عليّ بما قضاه من أمره الجاري، وتحقق قضاؤه سبحانه، وبليت بحب هذا الجميل الأعفر. ولقد تأكد في يقيني أن هذه البلوى إنما جاءت بإرادة الله وبحكمته تعالى.

لقد صار هذا المحبوب الذي اهتم به، وأرعاه طوال عمري، نافرًا عني، يصدني عنه ولا يسأل عن أخباري، بل ولا يهتم بشأن من شؤوني وهو يعلم ما أعاني، كما يعلم سبب معاناتي وهو جفاؤه وبعده.

إنني يا أهل الهوى قد أيقنت أن روحي بسببه في خطر، فإذا ما مت فعليكم أن تأخذوا منه بثأري:

ألا يا أهل المعروف ما ينفع الحذر
قضى الله ربي ما قضى بامره الجاري
بلاني الهوى وأبليت بالجادل العفر
وهذا المقدر - يا علي - حكمة الباري
هواي الذي عنه اتحقى مدى الدهر
وهو ما يسل عني ولا هوب في كاري
أرى منه روحي يا هل الغي في خطر
إذا مت فاخذوا منه يا اهل الهوى ثاري

أما معاني كلمات هذه الفقرة من القصيدة فهي:

الذاري: الرمل الذي تذروه الرياح أي تنشره وتدفعه.

علامَه: ما شأنه. نفر: صد وابتعد.

بيعاري: سليط اللسان كثير الكلام.

الجادل: الجميلة، وهذه من صفات الظباء.

العفر: الأعفر، ذو اللون الأبيض المشوب بحمرة، وهذا من صفات الظباء.

ابليت: بسكون الباء وكسر اللام: بُليت، من البلاء.

اتحفّى: اهتم به وأرعاه وأسأل عن حاله.

ولا هوب في كاري: ولا هو في شأني أي لا يهتم بشأني. وفي اللهجة إذا أردت أن تقول لشخص: لا شأن لك بهذا قلت: ما كارك.

اهل الغي: هم أهل الهوى، وهي معادة في البيت بهذا اللفظ.

انتشرت هذه القصيدة، وأحبها عشاق الشعر النبطي وتداولوا إنشادها في مجالسهم، وأصبحت في فترة وجيزة على كل لسان. كما صار للحنها الجميل الذي وضعه الشاعر نفسه وهو: عبدالله محمد الفرج؛ دور كبير في نجاحها وانتشارها فغناها عدد من المطربين ذكرنا منهم الفنان سعود الراشد، والفنانة حورية سامي، وما لم يأت ذكره هنا أكثر من ذلك بكثير بحيث لا نجد مجالًا لسرد أسماء الجميع.

ولم يكن غريبًا أن ينحو بعض الشعراء نحو شاعرنا الفرج فيقولوا شعرًا على منوال قصيدته، وقد جاء من ذلك ما قاله الشاعر أحمد مبارك العصفور برواية السيد عبدالله الدويش في كتابه: «الفن والسامري» وإذا اطلعنا على الأبيات التي قالها أحمد العصفور وجدناها متشابهة إلى حد كبير مع أبيات عبدالله الفرج في المعاني والألفاظ ناهيك عن الوزن والقافية فهو يقول فيها:

أحب الخضر من حيث لي صاحب خضر

وماري بزينه جملة البيض ومارى

نطحني اضْحيّ العيد وأحدث معي الكدرَ

ومن شوفته - يا حمود- أنا ضاعت أفكاري

نطحني اضْحيّ العيد بمْشَجّر خَضَر

يتل الردليف تلّة الحصن للقاري

أبو لبة عفرا كما دورة القمرْ

إلى شعشعت يسري على نورها الساري

فهذه أبيات جميلة لا يخفى على من يقرؤها مدى تأثر هذا الشاعر بمن سبقه وهو عبدالله الفرج. وبخاصة استعماله لبعض الألفاظ مثل (نطحني)، مثل ما جاء في البيت الرابع الذي غيّر فيه كلمات في الشطر الأول فبدلا من كلمة (غُرّة) عند الأول، نجد كلمة لبّه عند العصفور. واللبّة هي موضع النحر من الرقبة. ويقصد بها الشاعر أعلى الصدر، وهي فصيحة، هذا وفي هذه الأبيات عدد من الكلمات التي لابد من شرحها وهي:

نطحني: قابلني وقد شرحناها آنفًا.

اضْحيّ: تصغير ضحى. مْشجّر خَضَر: ثوب عليه ألوان الشجر الأخضر فهو بكامله أخضر اللون.

الراديف: الأرداف. الحصن: جمع حصان، وقوله جرة الحصن للقاري، مع نطق القاف جيمًا قاهرية معناه يجر أردافه كما تجر الجياد القاري وهو العربة.

ولا أريد أن أشير هنا إلى ما أشرت إليه في كتابي «دروس في اللهجة الكويتية من خلال الشعر النبطي الكويتي» حيث ذكرت فيه خطأ فادحًا ارتكبه أحد الكتاب

عند تفسيره لهذه العبارة. ولم يأت خطأه إلا لأنه اعتمد على رأيه الخاص دون بحث أو مراجعة أحد.

وفي الختام فإننا نود أن نضيف في النهاية ما لابد من إضافته هنا وهو أن بعض الأبيات قد تداخلت بين القصيدتين أثناء الغناء، فنجد الأغنية الواحدة قد اشتملت على أبيات واردة في كل منهما. ولكن الذي يؤكد لنا صحة الأبيات التي ذكرناها منسوبة إلى عبدالله الفرج هو أنها موثقة في ديوانه الذي طبع لأول مرة بالهند في سنة ١٩١٩م برعاية خالد محمد الفرج الذي كان حريصًا على العناية بشعر عبدالله واتقان طبعه، وتحقيق نسبة القصائد إليه.

ولا يفوتنا أن نذكر أنه للشاعر ضويحي بن رميح قصيدة مشابهة للقصيدة التي عرضناها نقلًا عن عبدالله الدويش، مع وجود اختلافات بسيطة، وزيادات واضحة بين الجانبين. وإذا كانت قصيدة العصفور قد وصلتنا وهي أربعة أبيات فقط، فإن قصيدة ابن رميح جاءت في أربعة عشر بيتًا كما وردت في الكتاب الذي أصدره عنه الأستاذ الشاعر عبدالرزاق محمد صالح العدساني.

وأخيرًا فإن هذه المصادر الثلاثة كافية، وهي تنفي ما زعمه أحدهم من نسبة بعض الأبيات إلى شخص آخر وهذا أمر تعودناه من الجماعة فقد اعتادوا نسبة كثير من القصائد إلى أصحابهم.

وهناك إضافة أخرى تنبغي الإشارة إليها في هذا الختام، وهي أن نسبة اللحن إلى الشاعر الفرج ليست مؤكدة، وإن كانت الأبيات من إنشاده بالتأكيد، وقد اختلف في مسألة اللحن فهناك من قال إن اللحن لعبدالله الفرج، وجاء سعود الراشد فطوره وأدخل عليه الآلات الحديثة، وقيل إنه هو الذي لحن هذا الغناء منفردًا، ولم يكن قد جرى تلحينه من قبله، ولا نعلم على وجه اليقين حقيقة الأمر.

ولكننا بالرجوع إلى مكتبة الأغاني في إذاعة الكويت، والاستماع إلى التسجيلين المتاحين فيها نستطيع أن نستخلص ما يلي:

١ - لا يوجد تسجيل محفوظ لهذه الأغنية بصوت المطربة حورية سامي وإن كانت غنتها في حفلة.

٢ - هناك تسجيل للأغنية بصوت الفنانة وطفة على إيقاع السامري، وهو الذي نظن أنه من ألحان عبدالله الفرج.

٣ - وهناك تسجيل آخر للأغنية بصوت الفنان سعود الراشد على الإيقاع النقازي، وذلك من تلحينه.

بدأت الفنانة حورية سامي مشوارها الفني في وطنها: مصر، وكانت تغني الأغاني الخفيفة في ملهى كوبانا، ثم التحقت بالمسرح العسكري - قسم التوجيه المعنوي، وسافرت - بعد ذلك إلى لبنان، فعملت هناك في بعض الملاهي، وتزوجت لبنانيًا، وبعد زواجهما حضرا إلى الكويت، وعند ذلك التحقت حورية سامي بالإذاعة الكويتية - قسم الموسيقى وكانت ضمن أعضاء المجموعة الغنائية (الكورس) ولقد عرض عليها الغناء لموهبتها فيه، ولما كانت ذات صوت جميل، ولأنها صارت تجيد اللهجة الكويتية، فقد تهافت عليها الملحنون لعدم وجود أصوات نسائية آنذاك.

ولقد لحن لها أكثر من عشرين ملحنا منهم الأستاذ إبراهيم الصولة، والمايسترو سعيد البنا، والفنان سعود الراشد ومحمود الكويتي وعبدالله فضالة وأحمد علي وخالد الزايد وعبدالحميد السيد ويوسف المهنا. وآخرون.

وقد سُجّلت لها أغانٍ كثيرة منها هذه الأغنية التي تحدثنا عنها في مقالنا هذا. ومنها:

سامرية: يا روح روحي، وصوت: والله والله ما دريت، وأغنية تاج حسنك علمك... ويا بو فهد مني غدا الشوق، ويا فرحتي مهري ربع دينار وغيرها من الأغاني.

توفيت هذه الفنانة المبدعة قبل أن تكْمِلَ طريقها مع الأغاني الكويتية، ولكنها تركت ذكرى طيبة ومستمعين لا يزالون ينتظرون إذاعة أغنياتها.

هذه إشارات لابد من ذكرها حول أغنية من الأغنيات الكويتية الشهيرة اشترك في تقديمها لنا الفنان الشاعر عبدالله الفرج والفنان الموسيقار سعود الراشد والفنانة القديرة حورية سامي، رحمهم الله.

****

ملحاق خير

مما يلفت النظر أن اسم شهر صفر قد تردد في عدد من القصائد، منها قصيدتان سبق أن أوردناهما في مقال سابق من مقالات: «الأزمنة والأمكنة» إحدى هاتين القصيدتين للشاعر القديم الراعي النميري الذي عاش في العصر الأموي مترددًا على أرضنا، وذكر منطقة الرحية (الرحا) في شعره كما بينا سالفًا، والقصيدة الثانية لشاعر آخر معاصر لنا هو فهد العسكر الذي لا يحتاج إلى تعريف لكثرة ما كُتب عنه.

ولقد قال الراعي النميري في مطلع قصيدته:

يا أهلُ ما بال هذا الليل في صفر
يزداد طولا ولا يزداد من قصر
في إثر من قُطِّعت مني قرينته
يوم الحدالى بأسباب من القدر

(الحدالى: موضع في بادية الشام).

ومعنى البيتين اللذين ذكرناهما هنا أن الشاعر يدعو أهله ثم يسألهم عن ذلك الليل من شهر صفر، ويقول إنه ليل طويل يزداد طوله ولا يقصر، وهذا بسبب سهره وانشغال فكره بمن انقطعت صلته به منذ اليوم الذي لقيه فيه آخر مرة في منطقة (الحدالى) وكان ما حدث مقدرًا عليه بأسباب من القدر لا يستطيع تجاوزها.

أما فهد العسكر فقد قال في بداية قصيدة له:

يا ميُّ ناب السمع عن بصري

في الليلة الظلماء من صفرِ

ذهبت فلا رَجَعَتْ مُخَلِّفَة

في غور روحي أسوأ الأثر

يُبلغ مَيًّا بأنه لم يعد يرى شيئًا في ذلك الظلام الدامس الذي خيّم عليه في شهر صفر، وقد ناب سمعه عن بصره آنذاك، ويقول: لقد ذهبت تلك الأيام التي أسهرني تذكرها فلا رجعت، وقد خلفت في أعماق روحي أسوأ الأثر، وأصعب ما يشعر به المرء في حالة مثل هذه الحالة.

وكلا الشاعرين أورد اسم الشهر، تحدث الأول منهما عن طول الليل فيه، ولعله صادف – يومذاك – شهرًا من شهور الشتاء. وأما الثاني – فهد العسكر – فلم يذكر إلا ظلام الليل في هذا الشهر، وهو ظلام يأتي خلال كل شهر من شهور السنة الهجرية وقت أفول القمر، ولم يذكر العسكر أية علاقة لمعاناته مع طول الليل، بل كانت تلك المعاناة بسبب الظلام الذي خيم عليه، وقد تكون لذلك صلة بما حدث لعينيه إذ فقد البصر بهما كما نستوحي من بعض أبيات هذه القصيدة، وبخاصة ما جاء في آخرها حيث يقول:

حسناءُ والأجفانُ قد ثقلت

هاتي الدواءَ وكحّلي بصري

والعجيب في الأمر أن الشاعر عبدالله محمد الفرج قد ذكر في قصيدته التي أوردناها مع المقال المرافق لهذا الملحاق شهر صفر فقال:

أنا من سِبَبْ شوق الغضي في شهر صفر

نطحني عصيرٍ ساطعٍ نورها ساري

وقد يكون هذا اللقاء الذي يصفه شاعرنا الفرج مصادفة، أي أن حصوله صادف مرور هذا الشهر.

إذن فما هو السر في تكرار اسم (صفر) عند هؤلاء الشعراء الثلاثة؟ إن المبرر الوحيد لذكره عند الراعي النميري هو ما أشار إليه من أن العناء الذي ألمّ به في ذلك الليل الطويل؛ ذلك الليل الشتائي الشديد البرودة كان ليلًا من ليالي شهر صفر.

ومع ذلك فلا يزال السؤال قائمًا عن سبب ذكر الشهر لدى فهد العسكر، ولدى عبدالله الفرج إلا أن يكون ذلك بسبب المصادفة عند الأخير كما سبق أن ذكرنا، وبسبب شدة الظلام عند غياب القمر في اللحظة التي كان يتكلم فيها إلى (ميّ) عند الأول، وأيضًا فإن المصادفة تلعب هنا فتضع الحادثة ضمن أحداث شهر صفر بالنسبة للشاعر

****

طرق الكويت القديمة(١)

هذا موضوع من الموضوعات المهمة، سبق لي أن قدمته منذ أمد طويل، ولكني أعدت النظر فيه فوجدت أنه لم يفقد شيئًا من قيمته، ولم تطرأ على المعلومات التي وردت فيه أية إضافات. وقد وجدت أن أقدمه لقراء «الوطن» ضمن «الأزمنة والأمكنة» لما فيه من فائدة دون أن أغير فيه إلا أمورًا طفيفة رأيت أنه لابد من تغييرها وذلك بحكم طبيعة الإنسان الذي لا يقرأ شيئًا كتبه قبل فترة من الزمن إلا وجد فيه ما يحتاج إلى تبديل قلّ ذلك أو كثر.

وهذا هو الموضوع الذي أشرت إليه، أقدمه على الصفة التي ذكرتها:

منذ القدم، والكويت مركز انطلاق للقوافل التي تغادرها لأغراض متعددة سالكة عددًا من الطرق شمالًا وجنوبًا وعرضًا، وكانت كذلك مركز استقبال للقوافل التي تمر بها، ولكل من هذه القوافل القادمة أصلًا إلى الكويت، أو العابرة من خلالها إلى بلدان أخرى ما تحمله من سلع، أو احتياجات أو بريد كما سوف يبدو لنا عندما نستفيض في حديثنا هذا عن «طرق الكويت القديمة».

في تاريخ الكويت الحديث إشارات عديدة إلى أهمية العمل بالنقل التجاري والبريدي من خلال الصحراء. ومن ذلك ما ورد عن مساهمة الكويت في نقل البريد عبرها، في عهد الشيخ عبدالله بن صباح بن جابر (١٧٦٢-١٨١٤م) حيث صارت الكويت نقطة انطلاق للبريد الهندي، وتم ذلك اعتبارًا من سنة ١٧٧٥م،

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١١/١١/٩م.

فكان البريد ينقل من الكويت على الجمال السريعة إلى حلب بمرافقة حراسة كبيرة من رجال الشيخ عبدالله الصباح المتوفى سنة ١٨١٤م، وقد حقق ذلك للكويت منافع اقتصادية وسياسية كبيرة، وجعل ذكرها منتشرًا في كل مكان.

ومن الرحلات الصحراوية المشهورة رحلة العقيد لويس بيللي الذي كتب في مذكراته يقول: «وفي يناير لسنة ١٨٦٥م غادرت فارس إلى الكويت حيث قابلت شيوخها، وأبلغتهم عن نيتي في زيارة الرياض متخذًا اتجاه الجنوب الغربي»، ويضيف: «وقد ابتدأت دون تأخير رحلتي المقصودة، وقد ودعني شيخ الكويت قائلًا: «خذ الجمال والله معاك»».

وفي كتاب بيللي المسمى «رحلة إلى الرياض» جاء ذكر سفرة هذا المسؤول البريطاني التي قام بها من الكويت في الثامن عشر من شهر فبراير لسنة ١٨٦٥م. وقد وصف هذه الرحلة وصفًا دقيقًا، قائلًا: «اتجهنا إلى الصفاة حيث تتجمع القوافل قبل الانطلاق»، ثم ذكر وصوله إلى منطقة ملح الواقعة بالقرب من المقوع إلى الجنوب الغربي عنها، وقد وصف هذه المنطقة ذاكرًا أنها قلعة، وأن حولها بعض الآبار وبعض المزروعات، وأن بجوارها طريقًا مهدته الجمال بسيرها، وأن هذا الطريق يوصل إلى القلعة.

ثم اتجه بيللي إلى وارة في الجنوب الغربي مارًا بعد ذلك بالصبيحية. واستمر في وصف رحلته قائلًا: «وتوقفنا عند منخفض من الأرض معروف باسم «اللقيط» مضيفًا أنه قد توقف عند هذه المنطقة ليرتاح، ثم اتخذ سبيله إلى الزلفي في المملكة العربية السعودية.

وهكذا نرى أن القوافل الكويتية كانت مشهورة، ويعتمد عليها في كثير من الأعمال. أما تجارة الجمال - التي كانت تعتمد عليها هذه القوافل - فهي أيضًا - قائمة في الكويت، وكان التجار يقومون بتصدير هذه الحيوانات إلى بلاد عدة، حتى

وصلوا بها إلى مصر. ومما يوضح ذلك تلك الرسالة التي وجهها الشيخ مبارك الصباح إلى الوكيل السياسي البريطاني في الكويت بتاريخ السابع والعشرين من شهر جمادى الأولى لسنة ١٣٣٠هـ الموافق الثالث عشر من شهر مايو لسنة ١٩١٢م يتحدث فيها عن حاجة الأهالي إلى السلاح من أجل الدفاع عن أنفسهم، وبخاصة حينما يكونون خارج البلاد، ويذكر الشيخ بعضًا ممن تعرض للأذى في الخارج، ولم يتمكن من الدفاع عن نفسه بسبب عدم توافر السلاح لدى قائد القافلة، وجاء في الرسالة المذكورة ما يقوله الشيخ مبارك الصباح عن سلب «جملة أباعر (عائدة) إلى تجار أهل الكويت؛ أحمد الحميضي وغيره، تبلغ ستمائة بعير مرسلينها بيد عمالهم إلى مصر للتجارة».

يضاف إلى ذلك ما ورد في حديث المرحوم عبدالله الحميدي لتلفزيون الكويت عن قيامه برحلات عديدة إلى مصر والشام من أجل المتاجرة بالإبل، وقد وصف عددًا من رحلاته، كما وصف الأسواق التي تباع فيها الجمال في تلك البلاد، ولقد سار بنا في حديث شيق في أعقاب إحدى تلك الرحلات مبتدئًا بالكويت، مطوفًا بكثير من البلدان، وعبر فلسطين استطاع الوصول إلى مصر، وفي إمبابة (إحدى ضواحي مدينة القاهرة) باع ما معه من جمال ثم عاد راجعًا إلى وطنه.

ولم تكن هذه هي الرحلات الوحيدة، فما أشرنا إليه إنما هو ما يتعلق بالرحلات الكبرى التي تعبر بها القوافل الكويتية مسافات طويلة كما جرى وصف ذلك. ولكن الجمال كانت تقوم بمهمات أخرى منها ما هو داخل الكويت عند القيام بالنقل بالعاصمة. ومنها ما هو خاص برحلات النقل إلى البلدان المتاخمة، إضافة إلى رحلات الحج، مما يعطي انطباعًا واضحًا عن قيام قوافل الإبل بدور لا يقل عن الدور الذي كانت تقوم به السفن الشراعية آنذاك.

وقد ذُكِرت بهذه المناسبة مراكز كثيرة كانت مقر وصول وانطلاق سفن الصحراء القادمة إلى الكويت (العاصمة) والخارجة منها؛ منها مراكز الوصول والانطلاق، في سوق المناخ والصفاة، حيث تأتي القوافل الناقلة للتجارات المختلفة، وكذلك الشامية محطة الورود والخروج للقوافل ذات الرحلات الطويلة، التي تصل في مسيرها إلى أماكن مثل حلب والشام ومصر وغيرها. ومنها الجهراء التي هي إحدى مراحل هذه الرحلات، ومنها - أيضًا - ينطلق الحجاج وقاصدو المملكة العربية السعودية. كما ورد ذكر موقعين مهمين في طريق الرحلة إلى مواضع في المملكة السعودية هما:

١ - **اللقيط**: وهي منطقة تقع على بعد ٣٢ كيلو مترًا من الساحل في الجنوب الشرقي من الكويت (العاصمة). وتبعد ١٠ كيلو مترات في اتجاه الجنوب الغربي للشعيبة، وكان هذا الموقع يحتوي على ٥٠ بئرًا مياهها تميل إلى الملوحة. تعيش حوله عدد من الأسر وفيه مزرعة للبطيخ ذات مساحة كبيرة. وتبدأ منه الطريق التي تعبر الصحراء - قديمًا - إلى الزلفي في نجد. وكل هذه الأشياء قد زالت الآن إلا أن الموقع مذكور في خرائط الكويت.

٢ - **الشدادية**: وهي موضع في جنوب غربي الكويت على مسافة ٢١ كيلو مترًا من العاصمة، وتسمى أحيانًا الجدادية بكاف مكشكشة، وكان يطلق عليها قديمًا (كُدَد) وتحول مع الاستعمال إلى الشدادية، وقد ورد ذكرها في الأدب العربي القديم. وكان الأهالي يخرجون لاستقبال حجاجهم العائدين بعد قضاء مناسكهم إلى هذا المكان، إذ هو محطة من محطات السفر إلى الحج.

ومما يجدر بنا ذكره هنا أن عددًا من الشعراء قد قاموا بإنشاد قصائد وأراجيز تصف طريق الحج منهم وهب بن جرير الذي أنشأ أرجوزته التي بينت طريق الحج من البصرة إلى مكة مارًا بغربي الكويت، ومنهم أحمد بن عيسى الرادعي الذي أنشأ أرجوزة تحكي طريق الحج القادم من جنوب جزيرة العرب.

وفي عصرنا الحاضر نظم المرحوم الشيخ عبدالله الخلف الدحيان قصيدة وصف فيها طريق الحج من الكويت، وقال في مطلعها:

لنيل العلا والمجد سيرُ الرّواحل

يحثحثها بالجدِّ كل حُلاحل

ويسعى يطوف البيد لا متوانيا

ويرمى حصى التسويف رمي التكاسل

كان ذلك في سنة ١٣٢٤هـ التي توافق ١٩٠٦م، وقد تحدث فيها عن الطريق، وعن أصحابه الذين رافقوه في رحلته هذه، وعن المواقع التي مرّ بها أثناء مسيره.

أما الشيخ عبدالله بن حسن الكوهجي، فقد قام بالحج عن طريق الكويت في سنة ١٩٥٠م، وكتب قصيدة مطولة ذكر فيها خروجه قائلًا في مطلعها:

بربِّ الورى خلاقنا الواحد العلي

أقول مقالا منبئا عن ترحُلي

ووصف الطريق ثم مناسك الحج، وعودته من تلك الأراضي الكريمة.

وبعد، فإنني أعتبر ما تقدم مدخلًا لحديث أود أن أقدمه هنا حول الموضوع الذي ورد في العنوان الرئيسي وهو الطرق القديمة في الكويت. والواقع أن هذا الموضوع مما يعد من الموضوعات المهمة للدلالة على تاريخ البلاد، وامتداد الحياة على ثراها بكافة الجوانب التي تظهر في أي بلد له أصوله، وله سكانه الذين يعيشون فيه، وتنطبع فيه صورة حياتهم وسبل عيشهم.

ومن الملاحظ أن الطرق التي نتحدث عنها كانت من الطرق العامرة في فترة قيام الدولة الإسلامية منذ بدايتها، وكانت هناك ممرات مهمة يمر بها التجار والحجاج والمسافرون، ولم تكن هذه الممرات صالحة لعبور هؤلاء لولا أن المناطق التي تكتنفها مليئة بالمواقع التي يسكنها الناس، وموارد المياه التي يجدون فيها حاجتهم

من هذه المادة الحيوية بحيث لا يحس المسافر بالانقطاع، ولا يشعر بالاغتراب والضيق، أو يتعرض للضياع، أو العطش في رحلته الطويلة التي تنقله من بلد إلى بلد. ولعل من أبرز الأماكن المعمورة في الوقت الذي أشرنا إليه كاظمة، وكانت كما وصفها الهمداني صاحب كتاب جزيرة العرب: «من أفضل البلاد المعمورة» وأقدم من هذا فإن رجلًا أرسله الأسود بن يعفر الشاعر الجاهلي ليستطلع الوضع في هذا الموقع فقال بعد أن اطلع على ما في كاظمة: «جوف كاظمة ملآن من حجاج وتجار».

ولذا فليس من المستغرب أن تكون كاظمة ممرًا للقوافل من حجاج وتجار، وقد ورد ذكرها في بيان طريق الحج في كتاب «بلاد العرب» للأصفهاني، وفي كتاب «خزانة الأدب» للبغدادي، وهو كتاب جليل القدر حققه أستاذي عبدالسلام محمد هارون رحمه الله.

وبعد ما ذكرت هذا المثال يجدر بي أن أعود إلى ذكر الطرق المارة بالكويت قديما لكي أوضح مساراتها وفقًا لما ورد في المصادر المعروفة التي تناولت هذا الموضوع:

أولًا: طريق كاظمة الأول

هذا طريق مشهور تقطعه الإبل باستمرار، وحول هذه الإبل يقول الراجز:

قل لجِمال محرز بن ذَرّ

لا نوم في الليلة فاسبطرِّي

أوتردي ثنيّة المجرِّ

الجوَّ من كاظمة المغبَرّ

وأهل ماء خلقوا للشرِّ

مجاوري البحر بها المخْضَرّ

وقد ذكر لغدة الأصفهاني طريقين يؤديان إلى كاظمة، ومنها إلى البصرة فباقي مدن العراق، وأول هذين الطريقين هو الطريق الذي يأتي من غربي الكويت متماشيًا مع طريق السالمي المعروف لنا اليوم، وحول هذا الطريق يقول الأصفهاني: «فإذا اجتزت الوريعة استقبلت الدو (وهو الدبدبة)» ثم يقول: «والدو أرض مستوية، مفازة، لا ماء به ولا شجر ولا جبال، مسيرة أربعة أيام، قيعان، وهي لأفناء تميم، وليس به ماء ولا شجر ولا ينبت إلا النصي والسخبر وما أشبههما، لا ترى فيه شجرة مرتفعة رأسًا، لا عرفجة ولا غيرها، إنما تراه مبياضًا كله، فإذا فصلت من الدو إلى كفة العرفج، وفي منقطع الدو حين تجوزه وأنت تريد البصرة واد يقال له: وادي السيدان به ماء لا فناء تميم».

ثم يقول: «ثم تجوز منحدرًا تريد البصرة، فعن يمينك مياه من ثماد، منها ثمد الرقاعي».

فهذا الطريق يمتد من وراء حدود الكويت غربًا حتى يدخل الدبدبة والسيدان الذي يسمّى اليوم: السادة وحوله الجهراء والرحية، عابرًا الرقاعي إلى كاظمة فما وراءها إلى ما وراء حدود الكويت الشمالية.

ثانيًا: طريق كاظمة الثاني

يأتي هذا الطريق من حدود الكويت الجنوبية، وعنه يقول لغدة الأصفهاني في كتابه: «بلاد العرب» .. «وعن يمينك حين تجوز النحيحية (خارج حدود الكويت) منحدرًا إلى البصرة جبل يقال له: تياس، وقريبًا منه ثمد يقال له: الفارسي، عليه قبتان مبنيتان لبني الحرماز (من تميم) وعن يمين ذاك جبل يقال له: الرحا. وعن يمين الطريق إذا جزت هذا كله الرقاعي».

والفارسي معروف اليوم باسم الفوارس، والرحا أيضًا معروف في الجنوب باسم الرحية وهو غير الرحية القريبة من الجهراء في الغرب. وتياس الذي ذكره موقع إلى الغرب قليلًا من الوفراء، وهو الذي دفن فيه الصحابي الجليل العلاء ابن الحضرمي رضي الله عنه، وكان أميرًا لمنطقة البحرين بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم. وسوف يجد قارئ كتابي: «كاظمة في الأدب والتاريخ» أن منطقة البحرين قديمًا تمثل جزءًا كبيرًا من أجزاء جزيرة العرب، والكويت تقع ضمن هذا الجزء.

ثالثًا: ملتقى الطريقين

يبدو أن الرقاعي هو مجتمع الطريقين في الجنوب، ومنه يصل السالك إلى مخارم كاظمة ثم يهبط من هذه المخارم إلى موضع كاظمة المعروف، فيسير باتجاه الصبية ومن عندها يضع البحر على يمينه متجهًا إلى الشمال وقبل انقطاع الطريق يميل إلى الشمال الغربي حيث مزارع العبدلي وكان موضعها يسمى - فيما سبق - الحزيز ثم يقطع هذه البقعة إلى سفوان.

أما السيدان فهو موقع متسع جدًا بالنسبة لما هو معروف عن السادة اليوم. وقد ذكر لغدة الأصفهاني بني ربيع بن الحارث التميميين، وقال إن سكناهم الربيعية، وهم مختلطون بالصعاب والصعاب أسفل من الدو والسيدان.

والصعاب بحسب ظني هو المنطقة التي يطلق عليها اليوم كبد والصليبية وأمغرة. ولم يكن هذا الظن إلا بعد بحث ومتابعة.

رابعًا: طريق ذي الرمة الشاعر

ذكر هذا الشاعر طريقًا مختلفًا هو الذي وصفه في قصيدته التي أنشدها وهو في طريقه إلى بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري راغبًا في مدحه.

حيث أتاه من الغرب ثم اتجه إلى الشمال قليلًا، وفي منطقة سوف نذكرها فيما بعد؛ اتجه إلى الشرق مارًا بكاظمة متابعًا سيره إلى ما سار عليه الطريقان اللذان ذكرناهما، فهو يقول في قصيدته:

فأصبحن بالحومان يجعلن وجهَةً
لأعناقهن الجديَ أو مطلعَ النسرِ
فصمّمن في دوِّية الدوِّ بعدما
لقين التي بعد اللُّتيا من الضُّمْر
فَرغْن أبا عمرو بما بين أهلنا
وبينك من أطراقهن ومن شهر
فأصبحن يجعلن الكواظم يمنة
وقد قلقت أجوازهن من الضفر

ويمكن أن نتصور جمال ذي الرمة وهي تسير من الغرب إلى الشرق عابرة حومة المعروفة اليوم، وهي التي ورد اسمها في شعره باسم الحومان، متجهة إلى الشرق واضعة كاظمة على اليمين، سائرة في الطريق المتجه إلى الصبية فما بعدها إلى سفوان فالبصرة.

وهو في هذه الأبيات يصف حال إبله قائلًا: لقد صرن في الحومان، وهن متجهات إلى الشرق قبالة الجدي والنسر، وهما كوكبان يطلعان من المشرق، لقد سرن إليك يا أبا عمرو منذ شهر، وقد فرغن من شحومهن خلال الرحلة، وجالت الحبال المربوطة في أجوازهن (أو أوساطهن) لفرط هزالهن.

خامسًا: طريق الشقايا

والشقايا موضع آبار مياه غزيرة ومزارع، تقع في طرف الموقع الحدودي الغربي عند السالمي والرقعي اللذين تجتمع عندهما الحدود الكويتية السعودية.

والشقايا هي ما كان يسمى قديمًا: الشجي. قال ياقوت: «الشجي بكسر الجيم، يقال: الشجا، مقصور، ما ينشب في الحلق، وهو رَبْوٌ من الأرض دخل في بطن فلج فشجي به الوادي، قال السّكُوني: والطريق من المدينة إلى البصرة يسلك الشجي والرُّحَيل والقف، ثم يأخذ في الحزن على الوقباء» والوادي المذكور هو وادي الباطن المعروف. والرُّحيل موقع يراه المطّلع على خريطة الكويت إلى اليوم غربيًا وقد استقر جزء منه في الكويت، والآخر في خارجها.

ويُكملُ ياقوت قائلًا: «ومات قوم بالشجي عَطَشا في أيام الحجاج، والشجي منزل من منازل طريق مكة من ناحية البصرة، فاتصل خبرهم بالحجاج، فقال: إني أظن أنهم دعوا الله حين بلغ بهم الجَهْد، فاحفروا في مكانهم الذي كانوا فيه لعل الله أن يسقي الناس، فقال رجل من جلسائه: وقد قال الشاعر:

تراءت له بين اللّوى وعنيزة
وبين الشجي مما أحال على الوادي

وما تراءت له إلا على ماء. فأمر الحجاج عُبيدة السُّلَمي أن يحفر بالشجي بئرًا. فحفر بالشجي بئرًا فأنبط ماء لا يُنْزَح».

هذا وعنيزة المذكورة تقع في الموقع المحيط بالشجي والرحيل، وهي غير عنيزة المشهورة في بلاد نجد.

خلاصة:

إذن فإن الطرق القديمة التي كانت تمر بالكويت متجهة من خارجها إلى محطات أخرى فيما يقابل ذلك هي:

١ - طريق يمر بالسيدان والجهراء.

٢ - طريق يمر بتياس ثم الصعاب.

٣ - طريق ذي الرمة العُلوي.

٤ - طريق الشقايا.

هذا بخلاف الطرق الأحدث التي أوردنا ذكرها في بداية حديثنا هذا. وقد حاولت إجمال ما ورد حول طرق الكويت القديمة بشقيها آملًا أن أكون قد وفِّقْتُ إلى تقديم شيء يفيد القارئ، ويقرب إليه جزءًا من ماضي الكويت.

****

تعبير الشاعر عن سنِّ الثمانين[١]

لفت انتباهي قصيدة جميلة كتبها الأستاذ فاضل خلف، وهي بعنوان: «الثمانون»، ولا شك في أن هذا الاسم يوحي بما وراءه، فالشاعر يعبِّر من خلال قصيدته هذه عن مشاعره تجاه المرحلة العمرية التي وصل إليها عندما كتبها. وسوف تكون لنا وقفات كثيرة حول هذا الموضوع وما دار حوله من أشعار مبتدئين بما قاله أبو محمد.

جرت العادة أن نُعرّفَ بالشاعر الذي نقدم شعره في أي مقال من مقالاتنا ضمن الأزمنة والأمكنة ولكن أستاذنا فاضل خلف لا يحتاج إلى تعريف فهو معروف لدى الجميع يحرص كل قارئ متتبع على قراءة ما يكتبه من شعر أو نثر، سواء أكان ذلك في الصحف أم في مؤلفاته العديدة من الكتب.

ولكننا نجد أنه على الرغم من ذلك، وعلى الرغم من أننا قد كتبنا عنه كثيرًا مما لا نشك معه في أن القارئ قد اطلع عليه فإننا نجد أنه ممّا لابد منه أن نقدم إشارة سريعة نذكر فيها شيئًا من سيرته الذاتية، خشية أن يقول أحد إنه لم يطلع عليها من قبل.

ولد أبو محمد في وطنه الكويت سنة ١٩٢٧م، وسط أسرة تحب الأدب، ولها نشاط في مختلف فروعه، ودرس في المدرسة الشرقية والمدرسة المباركية، ثم زاول مهنة التدريس في ثلاث مدارس هي على التوالي:

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١١/١١/١٦م.

المباركية والشرقية والصباح وقد أمضى في هذه المهنة الشريفة ثماني سنوات دراسية.

كان اهتمامه الأول في كتابة القصة القصيرة، وقد جمع ما كتبه منها في كتاب أصدره في سنة ١٩٥٥م، تحت عنوان: «أحلام الشباب». وجمع - إبّان مطلع حياته - ما كتبه من مقالات في كتاب عنوانه «في الأدب والحياة».

وكان عمله بعد ذلك في دائرة معارف الكويت لمدة سنتين انتقل بعدهما إلى دائرة المطبوعات والنشر لسنتين أخريين انتهتا في سنة ١٩٥٦م. وسافر إلى بريطانيا في سنة ١٩٥٨م، واستقر في مدينة كيمبرج، التي بقي فيها حتى سنة ١٩٦١م، ثم عاد إلى الكويت ليعمل في السلك الدبلوماسي في سنة ١٩٦٢م، وقد عين في السنة ذاتها ملحقًا صحافيًا للكويت في تونس وأمضى هناك فترة امتدَّتْ حتى سنة ١٩٧٦م، وأصدر وهو هناك ديوانه الأول: «على ضفاف مجردة».

تعددت كتبه، وتعددت موضوعاتها، وصار من أبرز أدباء الكويت بقراءاته وكتاباته ومشاركاته الكثيرة في الندوات الأدبية في الكويت، وفي خارجها، ولا يزال يمارس نشاطه الأدبي شعرًا ونثرًا حتى يومنا هذا، ولا نزال نراه في مشاركاته الأخرى ضمن المجالس الأدبية فهو دؤوب على عمله هذا حريص على الاستمرار فيه، ونحن نتمنى له دوام الصحة والعافية، ونرجوه أن يبقى على نشاطه هذا ودأبه لما نجد في أعماله المختلفة من فوائد تعود على الحركة الثقافية في الكويت بكل خير.

يتحدث الأستاذ فاضل خلف في القصيدة، التي أشرت إليها، عن وضعه عندما بلغ الثمانين من عمره المبارك. وكان جالسًا في منطقة ذات تلال يشرف منها الشاعر على ساحل البحر وهي منطقة العقيلة قبل أن تأتي إليها يد التعمير والتغيير. كان ذلك حوالي سنة ٢٠٠٦م وكان جلوسه منفردًا في ذلك الموقع يجعله

يفكر في أمور كثيرة سجلها في قصيدته: «الثمانون» وهي قصيدة جميلة نشرتها له مجلة العربي في عددها رقم ٥٩٩ الصادر في شهر أكتوبر لسنة ٢٠٠٨م، وحسنًا فعلت هذه المجلة العريقة فقد قربت لنا أفكار الشاعر وأرتنا كيف يأتيه الإلهام.

يبدأ القصيدة بكلمة هي: (جاءت). ثم يتركنا لكي نتخيل هذه التي جاءت لأنه انطلق في وصف المكان وما فيه من تلال، وفي الحديث عن البحر وهو يداعب الساحل بأمواجه التي كانت هادئة يوم كان أبو محمد جالسًا إلى جواره، وتمثل له البحر وهو يرتدي حلة زرقاء جميلة زادت من بهاء المنظر، وشاهد السفن بأعلامها العالية الخفاقة وكأنها لؤلؤ مصفوف.

كان - آنذاك - منعزلًا عن الناس راغبًا في الخلوة إلى نفسه يحيط به الصمت بل ويملأ جوانحه. ولا ينسى وهو في هذه الحال أن يتوجه إلى رب العباد الرؤوف بهم، لاجئًا إلى عزلته بعيدًا عن العالم المتأجج عديم الجدوى، وهو مع رأيه هذا لايزال يرى في الدنيا أملًا يرجوه، ولذا فقد قال عن العالم: لم يبق من جدواه غير طفيف، وهذا (الطفيف) هو الأمل الباقي عند شاعرنا:

جاءت، وكنت على روابي الريف
أتأمل الدنيا بشط مصيفِ

وبعد الأبيات الخمسة الأولى تحدثت تلك التي جاءت إليه، وهو قابع في مكانه ذاك، وأخذت تسأله عن شعره وتستحثه على عدم التوقف عن الإنشاد، فهي ترى في شعره ما يسر النفس، وتراه شعرًا صادقًا:

هاتِ القصيد منمقًا متناسقًا
من خافق - مثل النسيم - رهيف

كان وصفها لشعره يدل على تعلق بهذا الإنشاد الذي طالما اتحفنا به أبو محمد. وهو إنشاد جدير بالإشادة، ولشدة تعلقها به فإنها صارت تهتف قائلة:

واهتف كما عوّدتنا مترنمًا
بالطيّبات بلحنك المعروفِ
واعزف على وترِ القريضِ مُغردًا
دنياكَ لا تحلو بغيرِ عزيفِ

ولقد أمضت وقتًا طويلًا وهي تخاطبه آملة في أن يستجيب لها ويعود إلى وتيرة الشعر التي اعتادتها منه، وبخاصة أنه - كما قال لي فيما بعد - قد مرت به فترة قبل لقائه بها وهو متوقف عن القريض.

ولقد جاءها الرد منه سريعًا، وكان يعبر في رده عليها أنه كان مرتهنًا لصروف الدهر التي شغلته عن الإبداع، وأن قلبه المتعب لم يعد يخفق ذلك الخفقان الذي يحسه الشاعر عندما يحركه داعي الشعر.

ثم يضيف قوله: كيف لي أن أنشد الشعر، وقد ولّى الشباب، وأتى زمان الخريف، ويضيف: إن نشاط الشباب المحرك لنفسه ولجسمه قد فتر، وأصبحت حركاته واهنة، وحلّ محلها ضعف يصارعه ويتعبه، ومن أجله طال توقفه عن الإبداع الشعري، ثم يزيد الأمر وضوحًا فيأتي إلى ذكر الثمانين وهي السن التي اعتبرها سببًا في ضعف جسمه وتراجع قواه:

ولظى الثمانين استطار أوارها
فغدت تُجَرِّحني بكل مخيفِ
هل يزدهي الشعر الجميل بخافق
أضحى بدون تألقٍ ورفيف
جفت سواقيه فأصبح نبته
في جوف صحراء بدون حفيف

وهذه الأبيات الثلاثة تدلنا على الحالة التي كان عليها الأستاذ فاضل خلف مما دفعه إلى القسوة على نفسه بهذ الحديث الجاف الذي اثبتت الأيام أنه ما كان

ينبغي لصاحبنا أن يقوله لتلك السائلة، فما جاء من شعره في السنوات اللاحقة كان غزيرًا وجميلًا، ومؤكدًا أن الفترة التي ذكرها في قصيدته (الثمانون) إنما هي فترة عابرة، وما جاء بعدها هو أفضل منها.

ويستمر الشاعر في قصيدته، فيتمادى أكثر مما تمادى، إذ يطلب من هذه المرأة أن تترك الخيال وأن تطلب الشعر من أهله الشباب الذين يتطلعون إلى غدهم، ويضيف: أما أنا فغير ذلك ومن أجله أقول:

فدعي الليالي تستهين بخافقي
وأضالعي في هجمة ووجيف
هذي هي الدنيا وتلك ندوبها
فاقت بشدتها ندوب سيوف
ودعي القريض لأهله وشبابه
من كل فذٍّ مبدعٍ وحصيف

وأخيرًا:

هذا جوابي قد أتاكَ مفصلاً
بلسان صدق من وراء سجوفِ

ولم تملك السائلة بعد ذلك التفصيل إلا أن تسكت فلم يدع لها صاحبنا مجالاً لحديث آخر. ولكنه - كما قلنا - قد قسا على نفسه، واثبتت الأيام اللاحقة بما أنجز خلالها من شعر بديع أنه ينبغي أن يكون متفائلًا على عكس ما لاحظناه في قصيدته هذه. وأنا أكتب هذا الذي أكتبه الآن وأنا سعيد لأن الأيام لم تجرِ على ما كان فاضل خلف يراه بشأنها، فقد جاءنا بعد هذا الذي قاله عن شعره، وعن توقفه عن الإبداع، شعر غزير أسعدنا جميعًا، وأظهر لنا أن الثمانين ليست هي نهاية المطاف للشاعر.

ألم يقل أنس بن زنيم وقد عمر طويلًا:

ألا ليتَ شعري هل يرى الناس ما أرى
من الأمر، أو يبدو لهم ما بدا ليا
بدا لي أنّي عشت تسعين حِجةً
وعشرًا وتسعًا بعدها وثمانيا
فلم ألْفها لمّا مضت وعددتها
بحسبتها في الدهر إلا لياليا

هذه السنوات الطويلة التي بدا له أنه عاشها لم تكن عنده في حساب الدهر غير ليالٍ قليلة. وهكذا يكون الأمل عند الناس من أمثاله.

تذكرني قصيدة أستاذنا فاضل خلف بأبيات قالها شاعر قديم هو عوف بن مُحَلِّم الخزاعي، يذكر فيها بلوغه الثمانين وأثر هذا السن المتقدم عليه وعلى قدراته الجسمانية. ولقوله هذه الأبيات قصة نرويها فيما بعد ولكن مطلعها يقول:

يا ابن الذي دانَ له المشرقان
وألبس الأمنَ به المغربانِ
إن الثمانين - وبُلغْتَها -
قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

كان هذا الرجل أحد علماء عصره، وهو بعدُ شاعر وراوية، وكان نديمًا للأمراء في عصره، ومنهم طاهر بن الحسين الذي مكث عنده ثلاثين سنة، وعندما توفي طاهر بقي أبو المنهال وهذه هي كنية عوف بن محلم إلى أن بلغ الثمانين فاشتكى للأمير عجزه إلى أن أعفاه، وقد توفي في سنة ٨٣٥ م. هذا وكان طاهر بن الحسين نائبًا للمأمون على خراسان، وبقي بها إلى حين وفاته.

وأراد عبدالله بن طاهر الرحيل فصحب عوفًا معه، وكانا يتحدثان في الطريق إلى أن بدر من أبي المنهال ما يدل على شوقه إلى أهله، ويشير إلى كبر سنه وصعوبة الرحلة على مثله، فأهداه صاحبه ثلاثين ألف درهم وسمح له بمغادرته

إلى حيث يشاء، وهنا قال الرجل تلك القصيدة التي أشرنا إليها، وهي قوله:

يا ابن الذي دان له المشرقان
وأُلبس الأمنَ به المغربانِ
ان الثمانين وبُلِّغتها
قد أحوجت سمعي إلى ترجُمان
وبَدّلتني بالشطاط انحنا
وكنت كالصَّعْدة تحت السنان
وقاربت مني خُطًى لم تكن
مقارباتٍ وثنت من عنان
فانشأت بيني وبين الورى
عنانة من غير نسج العنان
ولم تدعْ فيّ لمستمتعٍ
إلا لساني وبحسبي اللسان
ادعو به الله وأثني على
صنع الأمير المُصْعبيِّ الهجان
وهمت بالأوطان وجدا بها
لا بالغواني أين مني الغوان؟
فقرباني بأبي أنتما
من وطني قبل اصفرار البنان
وقبل منعاي إلى نسوة
أوطانها حَرّان والرَّقتان
سقى قُصُورَ الشاذياخ الحيا
من بعد عهدي وقصور الميان

فكم وكم من دعوة لي بها
أن تتخطاها صروف الزمانِ

ولم يتمكن عوف بن محلم من الوصول إلى أهله فقد توفي وهو في الطريق إليهم.

وفي الأبيات ما يوحي بأنه قالها وهو ابن ثمانين سنة. ولكنه لكثرة رحلاته، ومثابرته على متابعة طاهر بن الحسين وابنه فإن جسمه قد كَلَّ، وضعف ولم يعد قادرًا على متابعة العيش وفق الحياة التي كان يحياها بمعية هذين الأميرين، ولذا فإنه اشتكى ذلك مما جعل عبدالله بن طاهر يرق له ويعفيه من مصاحبته على الرغم من أنه كان حريصًا على بقائه معه، ضنينًا به لما يجده عنده من استقامة، ومن إدراك، ومعرفة بالشعر والأدب عامة وبأخبار العرب وتراثهم. وفي الأبيات ذِكْرٌ للأمير وجماعته وذكر لقصورهم التي سماها: قصور الشاذياخ، وهي لآل طاهر في خرسان من ناحية نيسابور.

وردت الأبيات النونية هذه في كتاب «معاهد التنصيص على شواهد التلخيص» وهو شرح للشواهد الشعرية التي أوردها علماء البلاغة، وكان ورودها عندما جاء ذكر الاعتراض بمعنى وجود جملة معترضه في الكلام وهي قوله في البيت الأول: «وَبُلِّغْتَهَا» في وسط مطلع الأبيات:

إن الثمانين - وَبُلِّغْتَهَا -
قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

ولقد ورد في الكتاب المذكور سبب إنشاد الشاعر لهذه الأبيات فذكر أنه: قالها لعبدالله بن طاهر، وكان قد دخل عليه فسلّم عليه عبدالله، فلم يجب لأنه لم يسمعه، وقد أعلمه الجالسون بذلك، فدنا من الأمير، وارتجل هذه الأبيات التي قدمناها فيما سبق.

ومما ذكر أن هذه الأبيات قد سار بها رواة الشعر، واستمع إليها محبوه. وحاول بعض الشعراء النسج على منوالها أو تضمين شيء منه في الأبيات التي قالوها وقد جاء من ذلك قول شاعر اسمه الشهاب المنصوري:

نحو ثمانين من العمر قد
قطعتها مثل عقود الجُمانْ
ما أحوجت يومًا يميني إلى
عصا، ولا سمعي إلى تُرجُمَانْ

ممن تحدث عن عمره من شعراء النبط شاعر الكويت الكبير زيد الحرب الذي قال:

بن حرب شاب وتاب عن بدع الامثال
قلبه ضعيف والقوافي صعيبه
امن اول من قوة الحيل والحال
سيم الحديد إلى عتا ما يجيبه
واليوم من ضيم الليالي والاهوال
ليشِدْ في عنقه تقوده السبيبه

لكنه وهو يشكو شكاته هذه، لم يكن قد بلغ الثمانين من العمر وإنما كان في السبعين، يقول:

سبعين عام عشت بسنين الامحال
ثلثينها ملحه وثلث خصيبه
ودنيا تهددنا بْهَمٍّ او ولوال
اما بمحيط الهند ولا بْحطبه
وحنا نْجُولِنْها يمين بلا شمال
وناخذ مطامعها بْكِرْه وغصيبه

القصيدة طويلة، وفيها يشكو الشاعر قسوة الزمن عليه، وتبدل حاله من يسر إلى عسر، ويتحدث عن حالة الناس قبل النفط، وكيف كانوا يعانون المصاعب في أسفارهم (بمحيط الهند) وفي غوصهم (بحطيبه) ولكنهم كانوا يبذلون كل ما في إمكانهم من جهد حتى ينالوا حاجتهم من مطامع الدنيا ولن ينالوا ذلك إلا بإكراه أنفسهم على خوض المصاعب وتحمل الرزايا.

وعلى الرغم من ذلك فإنه يقول في موضع آخر من قصيدته إن هذا البؤس الذي مر بنا لم يكن يمنعنا من مواجهة أعداء وطننا، والثأر ممن اعتدى علينا، فنحن نحمي هذا الوطن ونذود عن حياضه، ونحرص على صون أعراض نسائنا، وتراب بلادنا.

وكما استمر فاضل خلف في قرض الشعر حتى يومنا هذا منذ وقف ذات يوم على تلك الضفاف وناجاها وحدث نفسه حديث الشاعر المحيط بما حوله، المفكر بما ينتظره من أحداث. فإن زيد الحرب - كذلك - لم يتوقف بعد هذه القصيدة التي كانت عبارة عن نفثة مصدور عبّر بها عن إحساس تراكم أثره في نفسه، ووجد من خلاله فرصته في تصوير ما أحاط به من عنت ومن هموم. ولقد قال قصيدته هذه في سنة ١٩٤٧م، وقال مثلها في سنة ١٩٥٤، وأخرى في سنة ١٩٧١م، وهكذا...

اهتم علماء العرب القدماء بأخبار المسنين وأشعارهم، ومن هؤلاء أبو حاتم السجستاني الذي ألّف كتابًا سماه: المعمرون والوصايا. وقد أورد فيه بعض الأحاديث الشيقة عن هؤلاء ومن ذلك ما نقله عن الشاعر زهير بن جناب وهو من أعلام قبيلته، وله شهرة في معارك قومه وبطولاتهم، وكان قد كبر وعجز عن ممارسة نشاطه. وقال أبو حاتم أن زهيرًا سمع بعض نسائه تتكلم بما لا ينبغي لأمرأة أن تتكلم به عند زوجها فنهاها، فقالت له: اسكت، وإلا ضربتك بهذا العمود، فو الله ما كنت أراك تسمع شيئًا، ولا تعقله.

فقال:

ألا يا لقوم لا أرى النجم طالعًا
من الليل إلا حاجبي بيمني
معزبتي عند القفا بعمودها
يكون نكيرًا أن أقول ذريني

ويقصد بقوله: حاجبي بيميني إن حاجبه تهدل لطول عمره، فأصبح يرفعه بيده حتى يرى النجم. وأما قوله: «معزبتي» فهو يقصد زوجته لأنها هي التي تعتني به وتطعمه. وفي اللهجة يقول الرجل عن زوجته: المعزبة، وذلك تحببًا إليها.

وممن ذكرهم السجستاني الشاعر زهير بن أبي سلمى الذي قال حين بلغ الثمانين:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش
ثمانين حولا لا أبالك يَسْأمِ

وفي الكتاب المذكور أشعار كثيرة من هذا النوع الجيد المعبّر عن مرور السنين على الشعراء.

الدافع الأول إلى كتابة هذا المقال هو ما وجدته في قصيدة أستاذي فاضل خلف من جمال أدبي، وإيحاء فني يعبر عن صادق المشاعر، وما جاء على جانبي حديثي عنها إنما هو استطراد لابد منه، وأرجو أن يكون مفيدًا، كما أرجو المعذرة بسبب الإطالة.

****

ملحاق خير

من أجمل القصائد ذات العلاقة بكبر السن، وتردّي حالة جسم الإنسان نتيجة لذلك هذه القصيدة التي قالها الشاعر تميم بن مقبل، نتيجة لتجربة مر بها بعد أن طعن في السن، وضعف بصره إثر فقده لإحدى عينيه، وهي (القصيدة) في ديوانه الذي حققه الدكتور عزة حسن، ونشرته دار الشرق العربي بحلب في سنة ١٩٩٥م.

وللقصيدة حكاية لابد لنا من روايتها هنا، وكان قد ذكر ابن قتيبة في كتابه «الشعر والشعراء» ابن مقبل وحكايته التي أسفرت عن هذه القصيدة فقال: «خرج ابن مقبل في بعض أسفاره، فمرّ بمنزل عَصَر العقيلي، وكان قد جَهَدَه العطش، فاستقى من أهل المنزل، فخرجت ابنتا عصر بإناء فيه لبن، فرأتاه أعورًا كبيرًا في السن، فأبدتا له بعض الجفوة، وذكرتا ما به من كبر وعور، فغضب لذلك، ومر بالمنزل دون أن يشرب من اللبن شيئًا، وعندما جاء أبوهما علم بما حدث، فلحق به لكي يرده فلم يعد، فقد كان الذي أَلّم به منهما إهانة كبيرة له، ولكن الرجل قال له: ارجع ولك أعجبهما وإليك. فرجع وقال هذه القصيدة، وهي التي يقول في مطلعها:

يا حُرَ امسيتُ شيخًا قد وهَىَ بصري

والتاث ما دون يوم الوعد من عمري

يا حُرَّ من يعتذر من أن يُلمَّ به

رَيبُ الزمان فإني غير معتذر

ويقول:

قد كنت أهْدِي ولا أُهدى، فعلمني

حسن المقادة أني فَاتَني بصري

كان الشباب لحاجات، وكُنَّ له

فقد فرغت إلى حاجاتيَ الأخرِ

والقصيدة طويلة جاءت في ثمان وسبعين بيتًا، ذكر النقاد القدماء أنها أجمل وأكمل قصيدة قالها تميم بن مقبل، وقد جرى حولها حديث طويل من حيث نسبة بعض أبياتها إلى تميم، أو من حيث اختلاف بعض العبارات في النسخ الموجودة من الديوان أو في كتب المختارات الشعرية القديمة التي يحرص جامعوها على مثل هذه القصائد.

إنه يخاطب في هذه القصيدة من يستمع إليه فيقول لقد ضعف بصري وصرت شيخًا هرمًا، واختلطت عليّ الأمور فيما بقي من عمري، ثم يقول: «يا حُرّة إن كان هناك من يعتذر إذا ألّم به المشيب وحلّ به ريب الزمان فإنني لا أعتذر كما يفعل غيري ممن هو في مثل سني.

لقد كنت أهدى إلى الطريق ولا يهديني أحد، والآن صرت لا أستطيع المشي إلا ومعي من يدلني، حتى تعودت حسن الانقياد لمن معي بعد أن ضعف بصري. لقد كان الشباب لحاجات أدركتها، وكانت الحاجات هي للشباب الغارب عني، والآن قد فرغت إلى حاجات أخرى غير تلك التي كنت أسعى إليها وأنا في صدر شبابي.

ولقد ذكر الشاعر مقدار عمره في البيت الذي تلا البيتين الأخيرين فقال إنه بلغ الستين من عمره:

رامـيـت شـيـبـي كـلانـا قـائـم حِـجـجًـا

سـتِّـين، ثـم ارتـمـيـنـا أقـرب الـفُـقَـر

إنه يقول عن الشيب إنه يراميه بمعنى أن كلًا منهما يرمي الآخر (وهذا مجاز وتمثيل)، ويقول: «إنّه عندما وصل إلى الستين من عمره ضعف فتغلب عليه المشيب وتمكن منه.

وقوله راميت شيبي معناه أن الشيب يرميه بالبياض وهو يرمي شيبه بالخضاب، حتى تمت الرمِيّة الأخيرة لصالح الشيب عندما وجده صيدًا سهلًا قريبًا منه (أقرب الفِقَر).

كان لابد من تقديم جزء يسير من هذه القصيدة الجميلة المعبرة من حيث معانيها وألفاظها وسبب إنشادها، وسوف نجدها تفي بكل ذلك حين نطلع عليها كاملة في ديوان تميم بن مقبل.

****

من زوار الكويت في ثمانينيات القرن الماضي[١]

كانت الكويت في سنة ١٩٨٣م في أوج نشاطها على كافة المستويات، وفي جميع المجالات. وإذا أمعنّا النظر في الأحداث التي رافقت هذه السنة وجدناها كثيرة ومتنوعة. ووجدناها تدل على استقرار الأمور في البلاد، وهذا الاستقرار هو الذي أنجز كل ما شهدناه من أعمال مهمة برزت آنذاك.

سوف نعرض هنا نماذج لبعض ما حدث في ذلك الوقت دون أن نعنى بترتيب تقديمه وفق الشهور التي تصادف حدوثه فيها، فمن ذلك:

١ - تخرجت في هذه السنة أول دفعة من طلاب كلية الطب، فغمرت الكويت فرحة بالخريجين الذين تحقق بهم الأمل في بداية عهد جديد من تكوين الكفاءات الطبية الكويتية.

٢ - في اليوم الثامن من شهر ديسمبر وَقَّعت كلّ من الكويت وفرنسا على اتفاقية تهدف إلى التعاون الفني فيما يتعلق بخدمات البريد والمواصلات.

٣ - وخلال شهر أغسطس أنشأت مؤسسة البترول الكويتية شركة تابعة لها أطلقت عليها اسم: «الشركة الدولية الكويتية للبترول وتقرر أن يكون مقر إدارتها وعملها في مدينة لندن».

ومؤسسة البترول الكويتية مؤسسة عامة مملوكة بالكامل لحكومة الكويت، وقد تم إنشاؤها بموجب المرسوم بقانون رقم ٦ لسنة ١٩٨٠م، وتم تنفيذه منذ

---

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١١/١١/٢٣م.

اليوم السابع والعشرين من شهر يناير لسنة ١٩٨٠م، وكان المرسوم ينص على أن هذه المؤسسة تتولى القيام بكافة الأعمال المتعلقة بصناعات البترول والمواد الهيدروكربونية.

٤ - في اليوم الرابع من شهر أغسطس قامت الحكومة بتأسيس شركة تعنى بشؤون التموين تحت اسم: الشركة الكويتية للتموين، وذلك بهدف توفير المنتجات الغذائية للمستهلكين من المواطنين بأسعار متهاودة تقوم الحكومة بمساندتها بالدعم المادي.

٥ - في اليوم العاشر من شهر أكتوبر وقعت الكويت مع هولندا على اتفاقية تهدف إلى التعاون الاقتصادي والتجاري بين البلدين.

٦ - جرت بعض الأنشطة المتعلقة بالسياحة والرياضة، وحفظ التراث الوطني فتم افتتاح دار الآثار الإسلامية في اليوم الثالث من شهر فبراير. وتم افتتاح المبنى الجديد الخاص بمتحف الكويت الوطني في اليوم الرابع والعشرين من شهر فبراير، وافتتحت النافورة الموسيقية في شهر مارس من السنة ذاتها. وافتتحت حديقة الصباحية.

وأقيمت على أرض الوطن في اليوم الخامس من شهر نوفمبر البطولة الآسيوية الخامسة لألعاب القوى.

٧ - وفي اليوم الأول من شهر يوليو أنشأت الحكومة محطة الكويت الأرضية للاتصالات البحرية، وجرى استخدامها في الغرض الذي أنشأت من أجله منذ ذلك اليوم. وساعدت على نمو حركة الملاحة في البلاد.

هذا وهناك الكثير من الأمور لا يمكن الإلمام بها هنا لضيق المجال، وإن كنا نتمنى أن تتاح الفرصة الملائمة لعرض كل ما جرى.

على أن ما ذكرناه من أمور مفرحة قد صاحبتها بعض الأمور المكدرة التي ما كنا نتوقع حدوثها في ذلك الوقت الذي كانت الأمور فيه على ما يرام، ومن ذلك:

١ - فوجئت السلطات المختصة هنا بحادث مؤسف هو اختطاف طائرة ركاب يمنية. وكان الخاطف من أبناء اليمن. وقد تم الحوار معه في مطار الكويت مما نتج عنه استسلامه وتقديم نفسه للسلطات الكويتية وذلك في اليوم الخامس والعشرين من شهر أغسطس.

٢ - حدثت بعض التفجيرات الفاشلة التي لم تؤد إلى شيء يذكر، وذلك في اليوم الثاني عشر من شهر ديسمبر، وكانت ضد السفارة الامريكية والسفارة الفرنسية كما كان أحد هذه الانفجارات موجها إلى برج المراقبة في مطار الكويت الدولي. وآخر ضد مصفاة شركة نفط الكويت، والمركز الرئيسي للتحكم، ومنطقة الشعيبة الصناعية. وعلى الرغم من تعدد هذه التفجيرات وانتشار مواقعها في البلاد إلا أن الله سلم من أذاها ومن أذى القائمين بها، ولذلك نعتناها في بداية هذه الفقرة بأنها تفجيرات فاشلة.

مضت سنة ١٩٨٣م على الكويت بما لها وما عليها، وكما أشرنا أن ما مرّ بنا هنا لا يغطي جميع الأحداث التي شهدتها البلاد آنذاك. ولكن ما جاء في الكلمات الماضية إنما هو دليل على ذلك. ونحن الآن ينبغي أن نعود إلى موضوعنا الذي يدل عليه عنوان هذا المقال وهو:

«من زوار الكويت في ثمانينيات القرن الماضي».

ولا شك في أن زوار الكويت في ذلك العقد من الزمان كانوا كثيرين بحيث يصعب الحديث عن زياراتهم لوطننا في مجال ضيق كهذا، ولكنا سوف نختار من الزوار من له مكانة في وطنه، ثم نتحدث عن زيارته لنا خلال سنة ١٩٨٣م.

وأول من نشير إليه هنا هو خادم الحرمين الملك عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود، وقد زار الكويت في وقت كان فيه وليًّا للعهد في وطنه.

ولم تكن الزيارات المتبادلة والمستمرة بين قيادتي البلدين الشقيقين مستغربة، فإن الرباط القوي الذي يربط الطرفين ببعضهما هو الذي يدعو إلى المزيد من الاتصال، ولا تقتصر الزيارات على المسؤولين بل تتعداها إلى الأفراد الذين تربط بينهم المحبة والعلاقات الدائمة بل والمصاهرات.

كانت الزيارة الكريمة المشار إليها في يوم السبت التاسع عشر من شهر نوفمبر لسنة ١٩٨٣م، وكانت تلبية لدعوة من سمو ولي العهد رئيس مجلس الوزراء في الكويت. وقد سعد الجميع يومذاك بهذه الزيارة وكانت لها نتائجها المهمة.

والملك عبدالله هو الابن العاشر للملك عبدالعزيز آل سعود وقد ولد في الرياض سنة ١٩٢٤م.

تلقى في بداية حياته تعليمًا دينيًا على أيدي عدد من العلماء، ثم تلقى تعليمًا عسكريًا بسببه تم اختياره مسؤولاً عن إدارة الحرس الوطني، ثم تزايدت أعباؤه في إدارة شؤون البلاد بحيث صار نائبًا ثانيًا لرئيس الوزراء في اليوم التاسع والعشرين من شهر مارس لسنة ١٩٧٥م. واختاره الملك فهد بن عبدالعزيز بأمر ملكي منه وليًّا للعهد، ونائبًا لرئيس مجلس الوزراء في اليوم التاسع والعشرين من شهر مارس لسنة ١٩٧٥م.

وفي اليوم الأول من شهر أغسطس لسنة ٢٠٠٥م تولى الملك عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود الحكم في المملكة العربية السعودية خلفًا لأخيه الملك فهد بن عبدالعزيز.

قدم الملك عبدالله إلى الكويت زائرًا لإخوانه في اليوم التاسع عشر من شهر نوفمبر لسنة ١٩٨٣م، وذلك قبل أن يُنادى به ملكًا على وطنه. وهذا هو ما أشرنا إليه قبل قليل. وقد أصدرت وكالة كونا للأنباء بيانًا بهذه المناسبة جاء فيه: «تجيء زيارة سمو ولي العهد السعودي للكويت امتدادًا للتلاحم الأخوي بين البلدين الشقيقين اللذين ينضويان تحت راية تضامن وتعاون دول مجلس التعاون الخليجي. ولقد أعرب سمو الشيخ سعد العبدالله السالم الصباح عن خالص الترحيب بأخيه صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز في زيارته الكريمة لبلده الكويت تعبيرًا عن المودة الصادقة، وإدراكًا لما تُكنّه الكويت أميرًا وحكومةً وشعبًا من عميق الودّ، وعظيم التقدير الأخوي للشقيقة العزيزة المملكة العربية السعودية ملكًا وحكومةً وشعبًا.

وتأتي هذه الزيارة الكريمة تأكيدًا وترسيخًا للروابط التاريخية الوثيقة بين البلدين والشعبين الشقيقين، وتعزيزًا لمسيرة مجلس التعاون الخليجي، ودعمًا للعمل العربي المشترك.

ولقد كان استقبال الملك عبدالله في مطار الكويت استقبالاً يليق بمقامه، وكان على رأس المستقبلين سمو ولي العهد، رئيس مجلس الوزراء والوزراء وكبار موظفي الدولة وعدد من الأهالي، وأعدّ للضيف العزيز برنامجًا حافلًا شاهد خلاله بعض الفعاليات التي ذكرت في برنامج الزيارة، ثم غادر مصحوبًا بالسلامة مودعًا بمثل ما استقبل به من حفاوة وتكريم.

وكانت هذه الزيارة تتويجًا لزيارات أخرى متبادلة بين قيادتي البلدين الشقيقين، وامتدادًا للعمل الدائب على تقوية أواصر الأخوة بينهما.

وممن زار البلاد في ذلك الوقت السيد خافيير بيريز دي كويلار أمين عام الأمم المتحدة – آنذاك –، وقد جاء إلى الكويت في اليوم الثامن والعشرين من شهر فبراير لسنة ١٩٨٣م.

كان هذا الزائر الدولي متجهًا إلى نيودلهي (عاصمة الهند) من أجل حضور مؤتمر القمة السابع الذي تعقده دول عدم الانحياز. وكانت الكويت قبل ذلك التاريخ الذي صادف الزيارة بعشرين سنة قد انضمت إلى هذه المنظمة المهمة في حياة الدول والشعوب. ولقد أمضى دي كويلار في الكويت مدة أربعة أيام حافلة بالنشاط.

ولد خافيير بيريز دي كويلا في بيرو في اليوم التاسع عشر من شهر يناير لسنة ١٩٢٠م. وبعد حصوله على دراسته، وإعداد نفسه للعمل اتجه في بداية حياته إلى الانخراط في القسم الدبلوماسي في وزارة خارجية بلاده، وكان - آنذاك - قد حصل على شهادة الليسانس في الحقوق من جامعة سان ماركوس سنة ١٩٤٠م.

ولقد عمل الرجل في سفارات بلده مدة طويلة بدأت في سنة ١٩٤٤م وانتهت في سنة ١٩٦٠م وشهدت سفارات بيرو في كل من فرنسا وبريطانيا وبوليفيا والبرازيل نشاطه القوي، وبعد ذلك كله انتقل إلى وزارة الخارجية في العاصمة (ليما) حيث تولى عددًا من المهام المتعلقة بالشؤون القانونية والسياسية والبروتوكول إلى سنة ١٩٦٤م وتنقل بعد ذلك في الأعمال الدبلوماسية الخارجية حتى صار سكرتيرًا عامًا لوزارة خارجية بيرو. على أن العمل المهم الذي أسند إليه فيما عقب ذلك من أعمال هو تمثيله لوطنه لدى الأمم المتحدة التي بقي فيها منذ سنة ١٩٧١م حتى سنة ١٩٨١م، وخلال ذلك صار ممثلًا للأمين العام للمنظمة في بعض المهمات ثم مساعدًا له.

كان أمين عام الأمم المتحدة إلى نهاية سنة ١٩٨١م هو النمساوي كورت فالدهايم. وعند انتهاء مدة عمله جرت انتخابات لاختيار خليفة له، فوقع الاختيار على دي كويلار بسبب خبراته الطويلة، وشخصيته المرموقة وأفكاره المتوازنة.

كان هذا الرجل هو خامس من تولى الأمانة العامة للأمم المتحدة. وقد رشحه لذلك مجلس الأمن ووافقت على ترشيحه الجمعية العامة، وكان اللذان ترشحا معًا للانتخاب قد انسحبا فخلا له الجو.

جاء دي كويلار من بيرو كما ذكرنا وهي جمهورية في أمريكا الجنوبية عاصمتها ليما تمتد البلاد إلى القرب من المحيط الهادي عبر جبال الإنديز الشهيرة، وتنحدر من قمم عالية شرقًا إلى الغابات الممطرة غربي حوض الأمازون. وليس البلد غنيًا بما فيه الكفاية، ولكن أهله يبذلون جهدهم للنهوض به. وأغلب ما يعيش عليه الناس هو الزراعة والتعدين والرعي، ويستخرج في بيرو شيء من البترول أنشأت الحكومة من أجله مصفاة وفي منطقة المصفاة في الشمال الغربي توجد صناعات الحديد الخام، ومصانع المنسوجات القطنية والصوفية.

والتعليم هناك مجاني، ولكن نسبة الأمية عالية، مع بذل كثير من الجهد للقضاء عليها، على الرغم من أن جامعة ليما المسماة جامعة القديس بطرس كانت قد تأسست في سنة ١٥٥١م، وهي من أقدم جامعات أمريكا.

ذكرنا أن أفكار دي كويلار كانت متوازنة، وأن نظرته إلى الأمور الدولية نظرة صائبة. ولذا فإنه كان يؤمن بأن ازدهار بلدان العالم الثالث هو الضمان لازدهار وتقدم العالم كله، وهو من أشد المعارضين لسباق التسلح، واستخدام العنف في العلاقات الدولية، ولقد أعلن في شهر أبريل لسنة ١٩٨٢م أمام أحد أعلى المعاهد السياسية عن ضرورة بذل الجهود لحل مشكلة الشرق الأوسط، وإقرار الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني. وأعلن في شهر مايو للسنة ذاتها عن قلقه الشديد لممارسات إسرائيل ضد السكان الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة.

كانت زيارة الأمين العام للأمم المتحدة ذات معنى خاص بالنسبة لنا، فهو - بحكم منصبه - لا يقوم بزيارة دولة ما إلا إذا كان ذلك بسبب مشكلات إقليمية يريد أن يجد لها حلًا، أو من أجل حضور مؤتمر عالمي كبير يعقد في هذه الدولة أو تلك. ولكنه زار الكويت في لفتة تكريم لها وتقدير لمواقفها. ولقد جاء في أحد التقارير الأخبارية: «إن دولة الكويت وإن كانت صغيرة في مساحتها، إلا إنها

التزمت وبشكل كامل على مدى تاريخها بالخطوط العريضة التي وضعها المجتمع البشري لعلاقات الدول في ميثاق الأمم المتحدة. وعلى مر الزمن فإنه لم تسجل في وثائق هذه الهيئة العالمية الكبرى ملاحظة تتضمن انتقادًا للسياسة الكويتية، ولم يصدر ضدها من الجمعية العامة أو مجلس الأمن أو أية هيئات أخرى ضمن المنظمة الدولية ما يفيد أنها خرقت القانون الدولي».

من أجل ذلك جاء هذا الرجل إلى دولة الكويت زائرًا ومقدرًا وكانت وكالات الأنباء قد ذكرت أن زيارته هذه ترمي إلى بحث مسائل تتعلق بالقضية الفلسطينية وأمور دولية أخرى من بينها بل في مقدمتها الحوار بين الشمال والجنوب.

كان تاريخ الكويت في الأمم المتحدة ناصعًا، ولذلك فهي موضع اهتمام من الأمين العام، دي كويلار الذي قام بزيارتها، كما كانت موضع اهتمام الأمين العام السابق الدكتور كورت فالدهايم الذي زارها في شهر فبراير لسنة ١٩٨١م، وذلك من أجل مناقشة قضايا متنوعة لا تخص منطقة الخليج العربي فحسب، وإنما المجتمع الدولي بكافة.

وكما شهدنا تعاقب الزيارات من كبار رجال الأمم المتحدة على الكويت فإننا نلاحظ - أيضًا - النشاط الكبير الذي يقوم به رجال الكويت هناك، من مشاركة في جميع الأنشطة والمؤتمرات واللقاءات السياسية، ومن دفاع عن الحقوق العربية، وتوجيه إلى ضرورة قيام هذه المنظمة بواجباتها كاملة وفق نظام إنشائها.

كانت زيارة دي كويلار للكويت مثمرة، زار فيها عددًا من المؤسسات المهمة في البلاد، واستقبله صاحب السمو الأمير وكبار رجال الدولة، وغادر الكويت وهو سعيد بأولئك الذين لقيهم واستمع إلى أحاديثهم، وعرف المستوى العالي الذي يتعامل به السياسيون الكويتيون والقادة بصفة عامة مع المسائل الدولية والقضايا الإنسانية، ولقد غادر شاكرًا كل من يسّر له زيارته، وأعانه على الوصول

إلى المعلومات التي كان يريد أن يعرفها عن الكويت وأهلها وعن الأفكار السائدة بين قادتها.

ولقد غادر الكويت بعد أربعة أيام من بداية زيارته متجهًا إلى نيودلهي لحضور مؤتمر القمة السابع لدول عدم الانحياز.

وموضوع عدم الانحياز بمؤتمراته المتعددة وأنشطة الدول الملتزمة بعقيدته صار مهمًا على مستوى العالم، وصار الناس في كل مكان يترقبون انعقاد مؤتمرات القمة المنبثقة عنه، رغبة في معرفة النتائج المستخلصة من اجتماعاتها.

بدأت هذه الحركة تحت اسم «الحياد الإيجابي» ولكنها في سنة ١٩٦١م غيّرت اسمها إلى مصطلح «عدم الانحياز» وكان ذلك خلال المؤتمر الذي عقد في بلغراد في يوغوسلافيا السابقة، وكان الاعتراض على الاسم القديم أنه يفترض وجود صراع مسلح، بينما لا يفترض الاسم الجديد شيئًا من ذلك.

وهكذا بدأ الاسم الجديد يأخذ طريقه إلى المحافل الدولية وصار رؤساء الدول المنضمة إلى هذه الحركة يحرصون على حضور مؤتمراته، ولم يكن مستغربًا أن يحرص الأمين العام للأمم المتحدة أيًّا كان شخصه على حضور مثل هذه المؤتمرات لما تمثله من أهمية، فهذه الدول إنما هي كتلة كبيرة من العالم، وسكانها يمثلون عددًا كبيرًا من سكان الأرض، ومن هذا المنطلق ذهب دي كويلار إلى نيودلهي.

زائر الكويت في اليوم العشرين من شهر فبراير لسنة ١٩٨٣م هو الرئيس اريستيدس ماريا بيريرا، رئيس جمهورية جزر الرأس الأخضر.

ولقد كانت هذه الزيارة هي الثانية له إلى الكويت، وقام المسؤولون كالعادة بالاحتفاء بهذا الضيف، وهم يفتحون له قلوبهم، ويشرحون له مجالات التعاون الممكن اقتحامها بين البلدين لما فيه مصلحة الشعبين الصديقين.

جمهورية جزر الرأس الأخضر مكونة من عشر جزر تقع في المحيط الأطلنطي، وهي تبعد عن شواطئ السنغال وغينيا بمسافة مائة وسبعين كيلومترًا. وأغلبها ذات طبيعة بركانية ومناخها تابع للمناخ المداري، ولكنها تتعرض لكثير من العواصف الرملية والترابية التي تندفع إليها من أراضي القارة الأفريقية المواجهة لها.

كانت هذه الجمهورية مستعمرة برتغالية، ولكنها استقلت نتيجة لكفاح مرير ضد المحتلين وتم تنفيذ اتفاق الاستقلال في اليوم الخامس من شهر يونيو لسنة ١٩٧٥م، ومنذ تلك السنة والرئيس الذي زارنا هو رئيسها. ولم أبحث فيما تم بعد ذلك.

تعاني هذه البلاد من مشكلات اقتصادية كثيرة أهمها أن عددًا كبيرًا من السكان يعملون في قطاع الزراعة، وأن الأرض الصالحة للاستثمار الزراعي لا تزيد عن ١٠٪ من مساحة البلاد. إضافة إلى ما يعتري الأراضي من جفاف نتيجة لانحباس الأمطار، ولكن مصائد الأسماك الغنية تعوض السكان عن كل ذلك.

ومن الناحية السياسية فإن جمهورية جزر الرأس الأخضر تقف مواقف مشرفة بالنسبة للقضايا العربية وبخاصة قضية فلسطين، التي تجد من هذه البلاد مناصرًا دائمًا.

كانت زيارة الرئيس اريستيدس هذه هي الأولى للكويت في اليوم السادس من شهر ديسمبر لسنة ١٩٧٧م، وقد أجرى خلالها مباحثات مع الأمير الراحل الشيخ صباح السالم الصباح والشيخ جابر الأحمد الجابر وكان يومذاك وليًا للعهد. وكانت المباحثات شاملة لكثير من القضايا المهمة على المستوى السياسي والاقتصادي.

ووصل إلى الكويت في يوم السبت الموافق لليوم الثالث من شهر ديسمبر لسنة ١٩٨٣م. السيد بيير أليوت ترودو، وهو رئيس وزراء كندا.

وكانت زيارة رسمية قام بها ضمن جولة في عدد من الأقطار، هادفًا إلى كسب تأييد الدول التي يزورها لحظة قدمها بشأن تجميد الأسلحة النووية. وقد استُقبل استقبالًا يليق به فهو رجل دولة ذائع الصيت بسبب مواقفه الإنسانية التي يعبر عنها دائمًا، ومنها موقفه من الأسلحة النووية الفتاكة.

لا نحتاج إلى التعريف بكندا فهي بلد معروف لدى الجميع ولا يكاد يمر يوم دون أن نسمع من أخباره شيئًا، وقد كانت - ولا تزال - علاقة كندا بهذه المنطقة وبخاصة الكويت علاقة متينة سياسيًا واقتصاديًا، وهي ترسل بين وقت وآخر عددًا من رجالها لمتابعة الاتصال وكان من هؤلاء وزير خارجيتها الذي زار دول الخليج ومنها الكويت في شهر يناير لسنة ١٩٨٣م.

كانت زيارة رئيس الوزراء الكندي للكويت زيارة مهمة، وقد غادرنا وهو سعيد لأنه وجد مناصرين لفكرته الداعية إلى تجميد السلاح النووي، إضافة إلى ما قام به من تقوية الصلات بين البلدين الصديقين.

هذه نماذج من زيارات كبار المسؤولين ممن زار الكويت خلال سنة ١٩٨٣م، وهناك زوار آخرون على مستوى الوزراء كل بحسب اختصاصه، وهناك من حضر إلينا لشهود بعض اللقاءات والمؤتمرات، وهذه الزيارات مع ما تدل عليه من اهتمام دولي بوطننا تحتاج إلى مزيد من الدراسة، قد نقدمها يومًا ما.

****

صورة لها تاريخ[1]

لهذه الصورة علاقة متينة بتاريخ الكويت وبخاصة ما جرى عندنا في السنوات الثلاث الأولى من ستينيات القرن الماضي، كان يوم التاسع عشر من شهر يونيو لسنة ١٩٦١م يومًا مهمًا من أيام بلادنا فيه تحققت أحلامها بالاستقلال، والتحرر من العقد الذي كان يربطها ببريطانيا منذ سنة ١٨٩٩م ويحرمها من بعض التصرفات وبخاصة فيما يخص العلاقات مع الدول الأخرى، إضافة إلى بعض المسائل الاقتصادية المهمة.

في تلك المناسبة التي ذكرناها أطل علينا أمير البلاد آنذاك الشيخ عبدالله السالم الصباح لكي يزف إلينا الخبر السعيد، فقد وَقعَ مع السير وليام لوس المقيم السياسي البريطاني في الخليج على رسالتين متبادلتين تم بموجبهما إلغاء الاتفاق القديم. وبهذه المناسبة قال الشيخ عبدالله السالم ما يلي:

شعبي العزيز إخواني وأولادي

في هذا اليوم الأغر من أيام وطننا المحبوب، في هذا اليوم الذي ننتقل فيه من مرحلة إلى مرحلة أخرى من مراحل التاريخ ونطوي مع انبلاج صبحه صفحة من الماضي بكل ما تحمله وما انطوت عليه لنفتح صفحة جديدة تتمثل في هذه الاتفاقية التي تقرأونها الآن، والتي نالت بموجبها الكويت استقلالها التام وسيادتها الكاملة.

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١١/١١/٣٠م.

في هذا اليوم والسرور يملأ الجوانح، والابتسامات المشرقة تعلو الوجوه نرفع أبصارنا بخشوع إلى المولى عز وجل لنحمده سبحانه ونشكره على ما وفقنا إليه، وأنعم علينا به. ولقد كان للتعاون الوثيق بين الحكومة ممثلة في المسؤولين من أبناء الأسرة الحاكمة وبين الشعب المخلص من المغزى الجميل ما أشاع الغبطة والاستحسان في نفسي، وجعلني أتمنى استمرار مثل هذا التعاون لخير البلد ودوام تقدمه وازدهاره.

ولا يفوتني هنا أن أنوّه بالروح الطيبة التي سادت المباحثات وأن أسجل للجانب البريطاني الصديق ما تحلى به من رحابة الصدر، وحسن التفهم للأمور والرغبة الصادقة في التفاهم مما جعل الوصول إلى الغاية المنشودة - في سهولة ويسر - مؤكدًا مضمونًا منذ البداية.

وختامًا فإننا نرجو ونحن على أبواب عهد جديد أن تبدأ الكويت انطلاقها بتقوية أواصر الصداقة والأخوة مع شقيقاتها الدول العربية للعمل بتكاتف وتآزر على ما فيه خير العرب وتحقيق أماني الأمة العربية. كما أن الوضع الجديد يتطلب منا العمل على الانتماء للجامعة العربية وهيئة الأمم المتحدة وغيرهما من المنظمات التي تعمل لخير العالم وأمنه وسلامه كل ما كان ذلك في الإمكان والله ولي التوفيق.

هذا وقد لخصت سكرتارية حكومة الكويت يومذاك ما جرى وقت التوقيع المتبادل بين الرجلين وذكرت أن ما ورد في الرسالتين اللتين تم اعتمادهما ينص على ما يلي:

١ - تلغى اتفاقية الثالث والعشرين من يناير لسنة ١٨٩٩م لكونها تتنافى مع سيادة واستقلال الكويت.

٢ - تستمر العلاقات بين البلدين مُسيّرة بروح الصداقة الوثيقة.

٣ - عندما يكون ذلك مناسبًا فإن الحكومتين سوف تتشاوران مع بعضهما في الأمور التي تهم الطرفين.

٤ - لا شيء في هذه النتائج (المواد) السابقة يؤثر في استعداد حكومة المملكة المتحدة في مساعدة حكومة الكويت إذا طلبت حكومة الكويت مثل هذه المساعدة.

وجاء في التلخيص المشار إليه إن الاتفاق الجديد الذي سوف يسجل لدى الأمم المتحدة قد تم التوصل إليه بين طرفين متساويين، بعد أن اعترفت بريطانيا اعترافًا قانونيًا باستقلال الكويت، وسيادتها الكاملة. ويضيف النص أنه بهذا الذي حدث مؤخرًا فقد أصبح السبيل ممهدًا أمام الكويت لدخول جامعة الدول العربية، وللانتساب للأمم المتحدة، وسوف تكون الكويت بهذا دولة تنتمي إلى أسرة الدول المستقلة وسوف تكون بإمكاناتها المادية والمعنوية عونًا وسندًا للدول العربية الشقيقة، وفي طليعة الأمم المحبة للأمن والسلام.

اتخذت حكومة الكويت إجراءات سريعة، فور صدور بيان الاستقلال، وسعت بسرعة إلى تقديم أوراق الانضمام إلى كل من جامعة الدول العربية وهيئة الأمم، وعندما نعق الغراب العراقي عبدالكريم قاسم بعد اليوم التاسع عشر من شهر يونيو ببضعة أيام كان لحكومتنا دور مهم في تثبيت الاستقلال وإقامة أركان الدولة وسعى عدد من الرجال الذين أخذوا على عواتقهم عبء ذلك العمل إلى تحقيق ما يرجوه منهم الوطن في ذلك اليوم فسار كل منهم في طريق يكفل للوطن تحقيق ما يريد من أولئك كان الشيخ جابر الأحمد الجابر الصباح والشيخ سعد العبدالله السالم الصباح وسمو الأمير الشيخ صباح الأحمد الصباح الذي قاد المعركة الإعلامية - يومذاك - بكل حرفية واجتهاد، وأوصل صوت الكويت إلى كل مكان، وقدّم البراهين على كذب ادعاءات قاسم وافتراءاته على الكويت. وشارك في

ذلك التحرك كل من عبدالرحمن العتيقي وعبدالعزيز حسين وباقة طيبة من أبناء الكويت تم اختيارهم على عجل لكي يقوموا بمهمة السفراء في عدد من البلدان.

وهكذا دارت العجلة، واستتب الأمر، مما جعل الشيخ عبدالله السالم الصباح يفكر في الخطوات اللاحقة، وصار يسابق الزمن في سبيل تحقيق الأهداف التي كان يرجو لوطنه أن يبلغها أسوة بالدول المتقدمة الأخرى.

وكانت الخطوة الأولى من خطوات العمل الوطني الذي بدأت به حكومة الكويت بقيادة الشيخ عبدالله السالم الصباح هي الدعوة إلى انتخابات عامة لتأليف مجلس تأسيسي يضع دستورًا للدولة ويحقق أماني الشعب، ويعكس آماله وطموحاته، وما يتطلع إليه في المرحلة التاريخية القادمة من تطور حضاري ومجاراة للنهضة التي تسود العالم.

ولقد صدر في ذلك الوقت المرسوم الأميري رقم ١٢ بإجراء الانتخابات، كما صدر نظام انتخاب أعضاء المجلس التأسيسي مع ما أدخل عليه من تعديلات، ثم المرسوم الأميري الخاص بدعوة المجلس التأسيسي إلى الانعقاد.

ثم كانت الخطوة الثانية وهي التي استهلت بها الكويت سنة ١٩٦٢م إذ تم إعلان نظام أساسي للحكم في فترة الانتقال، وهذا النظام هو عبارة عن دستور مؤقت للبلاد تسير عليه إلى أن ينتهي المجلس التأسيسي من وضع الدستور. وكان نظامًا لابد من إصداره في ذلك الوقت حتى لا تسير الكويت في تلك الفترة بلا طريق يحدده الدستور المؤقت الذي أطلق عليه اسم: «النظام الأساسي للحكم في فترة الانتقال».

ولقد سعت الحكومة إلى الإعلان عن هاتين الخطوتين بشتى وسائل الإعلان، وحرصت على أن يعرف الناس كل شيء عنهما لارتباطهما بحياة الإنسان الكويتي ومستقبله، ولذا فنحن الآن نجدهما في عدد من المطبوعات التي صدرت في ذلك الوقت.

وكانت هناك خطوة لابد منها وهي التي صدرت في اليوم السابع من شهر يناير لسنة ١٩٦٢م بموجب المرسوم الأميري رقم (٢) وتتعلق بإعادة تنظيم الوزارات في دولة الكويت.

ولحقت بها خطوة أخرى بدأت في التاريخ نفسه، وهي التي صدر بها المرسوم الأميري رقم (٢) لسنة ١٩٦٢م، وبه الأمر الأميري بتعيين الوزراء، وكان الشيخ عبدالله السالم الصباح هو رئيس الوزراء في ذلك الوقت.

وقد سبقت هذه الخطوات خطوة موفقة أخرى هي التي نص عليها المرسوم الأميري بالقانون رقم (٢٦) لسنة ١٩٦١م وهي اختيار علم جديد هو الذي لايزال يرفرف على بلادنا منذ تم اختياره. وإن كنا لم ننس حتى الآن ذلك العلم الذي شهد طفولتنا وبدايات حياتنا وهو العلم الأحمر الذي كتبت في وسطه كلمة: الكويت.

جرت انتخابات المجلس التأسيسي، وبموجب نظامه فقد اختار الشعب عشرين شخصًا لكي يقوموا بتمثيله في هذا المحفل المهم.

وفي يوم السبت الموافق للعشرين من شهر يناير لسنة ١٩٦٢م بدأت أولى جلسات هذا المجلس، وقد كتب في المحضر المتضمن لما دار فيها ما يلي:

«في الساعة العاشرة تمامًا شرف حضرة صاحب السمو الشيخ عبدالله السالم الصباح أمير دولة الكويت المعظم قاعة الاجتماع وكان في استقبال سموه لجنة الاستقبال من المجلس المكونة من سعادة الشيخ محمد الأحمد الجابر الصباح والعضوين المحترمين عبداللطيف ثنيان وسعود العبدالرزاق، وتوجه سموه إلى المنصة الرئيسية بين التصفيق والهتاف والدعاء له بطول العمر ودوام الصحة.

وقد تفضل سموه فألقى خطاب الافتتاح الآتي نصه:

حضرات الأعضاء المحترمين

السلام عليكم ورحمة الله،

باسم الله العلي القدير نفتتح الآن أعمال المجلس التأسيسي لدولة الكويت المستقلة هذا المجلس الذي تقع على عاتقه مهمة وضع أساس الحكم في المستقبل.

لقد كان إعلان استقلال الكويت في التاسع عشر من شهر يونيو الماضي فاتحة عهد جديد للكويت التي ما عرفت منذ وجدت إلا الحرية والكرامة، وهذا مجلسكم يمثل دورًا من أدوار الرقي والتقدم المطرد في تاريخ هذه البلاد.

لقد كانت مصلحة شعب الكويت هي هدف الحكومة دائمًا تسعى إليه بمختلف وسائل الإصلاح في جميع الشؤون العمرانية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها - وهذا التطور في حياة الكويت في هذه الحقبة القصيرة من الزمن لأكبر شاهد على ذلك.

وستستمر الكويت دائمًا - بإذن الله - في طريقها الذي اختطته لنفسها.

دولة عربية تتضامن مع شقيقاتها الدول العربية في كل ما يعود بالخير على الأمة العربية، وتسعى جهدها إلى تدعيم الجامعة العربية.

دولة مستقلة تؤيد حق كل بلد في نيل حريته واستقلاله.

دولة محبة للسلام تسعى إلى إقراره وتؤيد كل من يسعى إليه، متمسكة في كل ذلك بميثاق الأمم المتحدة.

وإني لأدعو الله سبحانه وتعالى – أن يحفظ هذه الأمة من كل سوء، وأن يسدد خطاكم ويعينكم على كل ما فيه مصلحة البلاد وأمنها ورخائها.

وأختم كلمتي بالنصح لكم – كوالد لأولاده – أن تحافظوا على وحدة الصف وجمع الكلمة حتى تؤدوا رسالتكم الجليلة في خدمة هذا الشعب على أكمل وجه وأحسنه.

والله ولي التوفيق.

وقد قوبل خطاب سموه بالتصفيق المتواصل».

كانت الكلمة التي ألقاها الشيخ عبدالله السالم كلمة جامعة تحدث فيها عما يعنيه استقلال الكويت للمواطنين، وذكر أن مصلحة الشعب هي الهاجس الذي يدور في أذهان المسؤولين الذين قادوا العمل في هذه الفترة الحرجة من تاريخ البلاد، وأن هذا المجلس سوف يكون أمينًا على ما كلفه به أبناء الوطن من حرص على المصالح العليا للبلاد باعتباره يمثل دورًا من أدوار الرقي والتقدم هنا في هذا البلد الذي يحتفي اليوم بممثليه.

ويعرج الشيخ بعد ذلك على حديث أشبه ما يكون بالوعد الصادق لما سوف يكون عليه مستقبلنا ذاكرًا أن الكويت سوف تحرص على التضامن مع شقيقاتها العربيات وسوف تؤيد حق كل دولة في نيل استقلالها وحريتها. وأن الكويت دولة محبة للسلام تدعو إليه وتسعى إلى إقراره، وهي متمسكة في كل ذلك بميثاق الأمم المتحدة.

إذن فهذا هو ملخص الصورة التي يرى الشيخ عبدالله السالم الصباح بلاده عليها وهي تسلك طريقها الجديد في أعقاب استقلالها ونيلها لحريتها.

وهي بداية المنهج الذي اختطه لها وهو المنهج الديموقراطي الذي بدأت طلائع السير فيه بافتتاح المجلس التأسيسي.

وانتهى المجلس التأسيسي من أداء مهمته، وأشرق الدستور حين استقبل الشيخ عبدالله السالم الصباح رئيس المجلس عبداللطيف ثنيان الغانم يوم الثامن من شهر نوفمبر لسنة ١٩٦٢م، وحضر مع الرئيس كل من حمود الزيد الخالد، وسعود العبدالرزاق، ويعقوب الحميضي وعدد آخر من أعضاء لجنة الدستور بالمجلس.

وكان الشيخ عبدالله السالم – يومذاك – سعيدًا بتوصل المجلس التأسيسي إلى هذه النتيجة التي كان يرجوها، وقد عبر عن سعادته بقوله: «نحمد الله القدير الذي أتاح لنا في هذه المرحلة التاريخية من حياة شعبنا العزيز تحقيق أمنياتنا في وضع دستور للبلاد يقوم على أسس ديموقراطية سليمة، ويتفق وتقاليدنا، ويتجاوب وآمال أمتنا.

ونحن إذ نبارك اليوم هذه الخطوة، ونصدر الدستور، نشكر لكم جميعًا ما بذلتم من جهود مخلصة، وما أظهرتم من روح الأخوة الصادقة أثناء عملكم».

وجاءت – بعد ذلك – الخطوة التي لابد وأن تخطوها البلاد، وهي الانتخابات التي سوف يتم عن طريقها اختيار أعضاء مجلس الأمة. وتم ذلك وفق ما هو معروف وبدأ الفصل التشريعي الأول ودور الانعقاد الأول، وكان ذلك في اليوم التاسع والعشرين من شهر يناير لسنة ١٩٦٣م. وفي هذا اليوم تم التقاط الصورة ذات التاريخ التي ألمح إليها عنوان مقالنا هذا. وهي صورة تمثل الشيخ عبدالله السالم الصباح وهو يتحدث في افتتاح مجلس الأمة عندما ابتدأ عمله ويقسم اليمين الدستورية بصفته أميرًا للبلاد وفق ما نص عليه الدستور. وقد كان قيام الأمير بأداء القسم مستغربًا إلى حد ما، فهو كما يعرف الجميع أمير البلاد فعلًا

منذ ثلاث عشرة سنة سابقة ليوم الافتتاح، ولكنه وجد أن القسم لابد منه استكمالاً لما تتطلبه المسيرة الجديدة للبلاد، وامتثالاً لما ورد في الدستور.

وفي الصورة يبدو الشيخ عبدالله السالم، وهو واقف على منصة المجلس يؤدي اليمين الدستورية وإلى جواره الشيخ صباح السالم الصباح. وقد قال يومذاك:

«بسم الله الرحمن الرحيم. نفتتح الدورة الأولى لمجلس الأمة الذي نبدأ بانعقاده مرحلة العهد الدستوري في دولة الكويت المستقلة، في هذه المرحلة التي تعتبر حلقة من حلقات سير دولتنا الصاعدة نحو هدفها الأعلى يسعدني أن أهنئكم بثقة الشعب بكم حين اختاركم لتحملوا أمانة تمثيله وأن أكرر وصيتي لكم (كوالد لأبنائه) أن تحرصوا على وحدة الصف في هذه الدولة العربية المتمسكة بدينها وتقاليدها وأنه ليسعدني في هذا اليوم الأغر من تاريخ بلادنا أن أقسم بالله العظيم أن أحترم الدستور وقوانين الدولة وأذود عن حريات الشعب ومصالحه وأمواله وأصون استقلال الوطن وسلامة أراضيه. والله ولي التوفيق».

ومن الملاحظ أن الشيخ عبدالله السالم كان يتعهد أعضاء المجلس التأسيسي ومجلس الأمة بالنصح والإرشاد ويحثهم دائمًا على التعاون والتكاتف، ولا ينسى له الناس أنه تمثل ببيت من الشعر في معرض نصيحته لأبنائه الأعضاء حتى صار هذا البيت مشهورًا يتردد على الألسنة إلى يومنا هذا إذ كلما نشب خلاف خشي معه الوصول إلى مرحلة القطيعة اطلّت علينا صورة الشيخ رحمه الله وهو يردد قول الأفوه الأودي وهو:

تهدا الأمورُ بأهل الرأي ما صلحت
وإن تولت فبالأشرارِ تنقادُ

والأفوه الأودي شاعر جاهلي اسمه صلاءة بن عمرو بن مالك، وهو من قبيلة يمانية، ولقب بالأفوه لأنه كان غليظ الشفتين، ظاهر الأسنان، وكانت له مكانة بين الحكماء والشعراء، وبيته هذا من قصيدة له مشهورة منها قوله:

والبيت لا يبتنى إلا على عمد
ولا عماد إذا لم تبن أوتاد
فإن تجمع أوتاد وأعمدة
وساكن بلغوا الأمر الذي كادوا

وكان إلقاء الشيخ عبدالله السالم لهذا البيت في المجلس في الجلسة التي عقدت بتاريخ السابع من شهر أكتوبر لسنة ١٩٦٤م، وقد ألقاه عندما نهض قائمًا مغادرًا المنصة، قاصدًا النصح للأعضاء وللشعب كله، داعيًا إلى ضرورة العودة إلى العقل والابتعاد عن الطيش، ونبذ الفوضى، وإبعاد الأشرار الذين لا يريدون بالبلاد خيرًا، وذلك حتى تهدأ الأمور، وتسير البلاد في طريق التقدم دون معيقات.

وإذا تتبعنا ما كان يقوله الشيخ عبدالله السالم في رسائله الشفهية التي يقدمها لأعضاء مجلس الأمة الأوائل وجدنا الكثير من النصائح والتوجيهات التي كان لا يتردد في وضعها أمام أبصارهم وأسماعهم مقدمًا لها بقوله الذي يكرره دائمًا أن هذه نصيحة أب لأولاده.

ولو أن أعضاء هذا المجلس في أيامنا هذه قد عادوا إلى قراءة ما هو مكتوب في محاضر مجلسهم لجلساته الماضية، ورأوا ما حفظت تلك المحاضر من أحداث وأحاديث ذلك العصر، ثم لو أنهم حرصوا على تطبيق ما فيها من دعوة إلى تحكيم العقل، والاهتمام بمصلحة الوطن، والبعد عن مسببات الفرقة بين المواطنين لما كان هذا حالهم الذي نجد فيه كل يوم شيئًا جديدًا يؤلمنا أن نقرأ عنه في الصحف أو نسمع عنه في المجالس الخاصة.

إن الأكثرية الساحقة من أبناء هذا الشعب ليشعرون بالألم لما يرونه ويسمعونه من بعض النواب. ويعلنون دائمًا عن مدى التنغيص الذي يفيض عليهم من هؤلاء، ويتمنون أن تنتهي دوامة التشتيت التي استمرأ البعض دوراتها وعجز الكثيرون عن إيقافها.

ومن نماذج تلك النصائح الأبوية التي أشرنا إليها، وذكرنا أهميتها بالنسبة لذلك الوقت، وهذا الوقت الذي نعيش فيه على حد سواء؛ نقدم ما يلي:

١ – في دور الانعقاد العادي الثاني من الفصل التشريعي الأول، وفي الجلسة الأولى التي تم فيها افتتاح دور الانعقاد المشار إليه وقف الشيخ عبدالله السالم الصباح ليعلن افتتاح دور الانعقاد هذا، وكان مما قاله:

«باسم الله نفتتح دور الانعقاد الثاني لمجلس الأمة وإني لأرجو أن يكون هذا الدور كسابقه، حافلًا بالأعمال البناءة. كما أرجو أن تسود أعمالكم ومناقشاتكم روح الإخاء وأن يتوطد التعاون الصادق بين المجلس والحكومة لتسيروا بالبلاد قدمًا في طريق الازدهار والعزة والمجد. أسأل الله أن يرعانا ويوفقنا جميعًا لما فيه خير وطننا العزيز وأمتنا العربية المجيدة».

كان لهذه الكلمة وقعها الخاص في نفوس الجالسين في القاعة من أعضاء ومن زوار. وكان الرجل الرشيد يحاول أن يوصل إلى أذهانهم رسالته التي يريد منهم أن يعوها حتى تسود أعمالهم ومناقشاتهم روح الإخاء، وأن يتوطد التعاون الصادق بين المجلس والحكومة على الدوام.

٢ – وفي دور الانعقاد العادي الثالث من الفصل التشريعي الأول حضر الشيخ عبدالله السالم جلسة الافتتاح كالعادة وقال كلمة مهمة فيها نصح وإرشاد، وفيها حضٌّ على التعاون والتآزر، فقال:

«أبنائي أعضاء مجلس الأمة.

أحييكم أطيب تحية، وباسم الله العلي القدير أفتتح دور الانعقاد السنوي

العادي الثالث للمجلس، راجيًا أن يكون كسابقيه حافلًا بكل ما يحقق الخير للبلاد، وإني أناشدكم من جديد أن تكون روح الألفة والزمالة والمصلحة العامة رائدكم، وأن يزداد التفاهم والتعاون الوثيقان بينكم وبين الحكومة سائلًا المولى أن يوفقنا إلى ما فيه الخير والصلاح لوطننا العزيز وأمتنا العربية المجيدة. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

وكما جرت العادة، فقد كان استقبال الأعضاء لهذه الكلمة الصادقة الناصحة التي تهدف إلى مصلحة طرفي العمل في البلاد: المجلس والحكومة؛ استقبالًا يدل على الرضا وعلى تقبل النصح والرغبة في السير على المنهاج الذي رسمه الأمير، ومن الملاحظ أن حرص الأمير على استمرار العملية الديموقراطية ورغبته في تحقيق الآمال الشعبية الهادفة إلى رقي البلاد وإلى استقرارها قد دفعه إلى القول: وإني أناشدكم من جديد أن تكون روح الألفة والزمالة والمصلحة العامة رائدكم، وهذا الأسلوب الذي يُقدمه الشيخ عبدالله السالم هو الذي جمع حوله القلوب، وجعل ذكراه خالدة.

كان هذا هو دأب الشيخ عبدالله السالم في كل مناسبة يقف فيها متحدثًا إلى أعضاء مجلس الأمة. فلقد كان مهتمًا بالتجربة الديموقراطية حريصًا على نجاحها، وهو لا يرى بديلًا عنها للبلاد وبخاصة وهي في مرحلة الاستقلال فلا بد وهذا حالها أن يكون نظام الحكم فيها مسايرًا لأنظمة الحكم الديموقراطية. ولما كانت الكويت في تلك الأيام التي تحدثنا عنها في بداية عهدها بهذا النمط من أنماط العمل في قيادة الدولة وديموقراطية الأداء، فقد كان هم الشيخ هو أن يكفل بالنصح والإرشاد استمرار التجربة حتى لا تتعثر كما تعثرت بعض الديموقراطيات في بلدان أخرى لم تجد قائدًا مثل هذا القائد.

ولذا فإننا نراه يحرصُ على تنفيذ بنود الدستور منذ أول يوم له فيحرص على أداء القسم كما نراه في الصورة، على الرغم من مرور مُدّة على توليه الحكم، وعلى الرغم من إمكان البحث عن حل يعفيه من أداء القسم وفق اجتهاد دستوري معين. لقد كان رحمه الله أبًا للدستور ليس فقط لأنه كان الداعي إلى وضعه، بل لأنه كان حريصًا على تطبيق كافة بنوده، وكان اهتمامه بأعمال المجلس التأسيسي ثم بأعمال مجلس الأمة اهتمامًا كبيرًا، وكل هذا الاهتمام نابع عن رغبته في إنجاح التجربة والبعد عن الزلل المؤدي إلى فشلها. رحمه الله.

****

الشاعر البهاء زهير والغناء الكويتي(١)

أتذكر الأيام الجميلة الماضية، وأتمنى مشاهدة ما فيها من أشياء معجبة. أتذكر خروجي من بيت أهلي في فريج الشاوي مارًا بالطريق المؤدي إلى السوق. وهو طريق ممتد بمحاذاة السور الشمالي للمقبرة القديمة التي صارت اليوم مقرًا لحديقة البلدية وكانت المنطقة التي ينتهي عندها سور هذه الحديقة المذكورة تؤدي يمينًا إلى طريق الدهلة الذي لايزال قائمًا وهو الآن باسم: شارع صلاح الدين، فإذا سرتُ بامتداد الطريق تاركًا الدهلة على يميني سار بي الطريق إلى قرب سوق واجف القائم حاليًا، وعلى امتداد الطريق أجد عددًا من المقاهي الكبيرة المزودة بكراسي متعددة وهي تلفت الأنظار بكثرتها، وكثرة عدد روادها وفوق ذلك بالأغاني الصادرة من أجهزة تشغيل الأسطوانات فيها. فهي تصرخ بصوت عالٍ وكأنها تنادي على بضاعة فتجلب الرواد من كل مكان. ومن خلالها نستمع إلى متنوعات من الأغاني، وبخاصة أغاني الفنانين الكويتيين وهي أغانٍ لا نسمعها في ذلك الوقت إلا من هذه الأجهزة التي صارت الآن قيّمة لا تباع الآن إلا في سوق الجمعة. وذلك لأن إذاعة الكويت لم تكن قد بدأت بَثَّها بعد فصار الاعتماد في السماع على ما تقدمه هذه المقاهي.

يطرب المار من هنا لذلك، يستمع سعيدًا وهو سائر في هذا الطريق إلى أن يأتي «سوق واجف» إلى يمينه ثم يواصل حتى يأتي إلى مكان متسع فيه محلات تجارية متنوعة (دكاكين) ثم يخترق الشارع الجديد (شارع عبدالله السالم حاليًا)

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١١/١٢/٧م.

إلى بداية شارع الغربللي من جهته الغربية فإذا دخل هذا العابر في هذا السوق وجد على يمينه ممرًا قصيرًا كان يطلق عليه اسم سوق المقاصيص تباع فيه بعض الأشياء القديمة التي يستغنى عنها الناس والمقاصيص جمع مقصوص وهو الذي ليس بيده مال يُنفقه على نفسه، فيبيع ما لديه من أغراض بيته في سوق المقاصيص حتى يحصل على حصيلة بيعها نقدًا. صار هذا السوق الآن بالقرب من سوق الغنم بمنطقة الري، وصار مكانه القديم سوقًا للصناديق الحديدية الملونة الجميلة، ثم حلت في محلها أنواع الحقائب، لأن الناس بدأت في النكوص عن استعمال تلك الصناديق فلم يعد لها من يشتريها.

الخلاصة أننا عندما نستمر من هذا الموضع فنسير إلى الجنوب يأتينا سوق عجيب هو سوق (الغوانات) وهي الإسطوانات كما نسميها في اللهجة.

في هذا السوق عدد كبير من الحوانيت التي تبيع أنواع التسجيلات الغنائية.

وتنتشرُ في الأجواء حولها أصوات الأغاني المتعددة من الكويت ومن غيرها. ولهذا السوق جمهور كبير إذْ يرتاده الناس باستمرار. ولقد سرنا في طريقنا الطويل هذا لأنه مرتبط بالحديث عن أغاني المقاهي الذي أوردناه في البداية، والموضعان من أشهر المواضع في العاصمة القديمة، وقد ذكرتهما للدلالة على ميول الناس في ذلك الوقت ورغبتهم في سماع مختلف الأغاني.

ولقد بدأ الملحنون والمطربون الكويتيون في تقديم إنتاجهم منذ زمن طويل يزيد على قرن من الزمان. وكانوا يتنقلون بما أنتجوا إلى البلدان المجاورة وبخاصة في الخليج من أجل تقديم ما لديهم. وفي وقت يسبق نشأة الإذاعة الكويتية بزمن طويل كان هؤلاء يرحلون إلى خارج الكويت لكي يسجلوا أغانيهم على إسطوانات ومنهم على الأخص ثلاثة هم عبداللطيف الكويتي ومحمود الكويتي وعبدالله فضالة. وكان ذلك منذ سنة ١٩٣٣م حين ذهب الأول والثاني إلى القاهرة وسجلا

مجموعة من الأغاني لشركة أوديون للإسطوانات. وكان محمود الكويتي قد بادر قبل هذا التاريخ إلى التسجيل حين ذهب إلى الهند في سنة ١٩٢٩م وسجل هناك عشر إسطوانات، وكلها أغان مشهورة منها البوشبة، ومتى يا كرام الحي، ويا الله تجبر خاطري المكسور، وغيرها... هذا كله متعلق بوسائل سماع الأغاني، ومواضيع سماعها. ولكن الأمر أوسع من ذلك، ففي الكويت - قديمًا - فرق كثيرة تزاول مهنة الغناء في المناسبات وبعض هذه الفرق انقرض حاليًا، وبعضها لايزال يقوم بعمله المتوارث من جيل إلى جيل، فهناك فرق رجالية بحتة، وفرق نسائية بحتة. وهناك فرق للعرضة وأخرى للسامري، وثالثة للفنون الغنائية البحرية بأنواعها المختلفة.

ونسوق هنا على سبيل المثال بعض أسماء الفرق التي أشرنا إلى تنوعها. ففي فن العرضة نذكر فرقة من أقدم الفرق في الكويت وهي فرقة الرندي. أما في الغناء البحري، فهناك فرقة أخرى هي فرقة العميري.

وفي السامري نجد فرقة الفنطاس الشهيرة، وهي فرقة لها نشاط قديم، ولها شعراؤها الذين يكتبون لها ما تنشده من الأغاني. ويطلق اسم السامري على الاحتفال الذي تُغَنّى فيه الأغاني التي تسمّى السامريات، وهي جمع سامرية، وقد جاء هذا الاسم فيما يبدو من السمر حيث تجتمع مجموعات متجانسة من محبي الطرب في إحدى الأمسيات لأداء هذا النوع من الغناء الذي يتميز بأنه غناء جماعي تحتشد حوله فرق متكاملة. وأن أوزانه ذات قافيتين إحداهما للشطر الأول والثانية للشطر الثاني من أبيات القصيدة المغناة. وقد خرج بعض المغنين عن الأداء الجماعي، فصار الواحد منهم يغني الأبيات متتابعة في الوقت الذي ترد عليه مجموعة مصاحبة له بإعادة مطلع الأبيات، وهكذا إلى أن يتم الغناء. وقد برز من هؤلاء الفنان محمود الكويتي والفنان سعود الراشد.

ومن الفرق الجديرة بالذكر فرقة سعادة البريكي، وهي صاحبة فرقة غنائية قديمة، ومغنية في الوقت نفسه كانت لها شهرة كبيرة في البلاد، وغنت مختلف الفنون في الغناء الكويتي، ولم يكن لها حظ في حفظ غنائها لعدم لحاقها بوقت قيام الإذاعة والتلفزيون.

وقد أعجب الشعراء بفنها، فقالوا فيها شعرًا غنته ضمن ما غنت من أغان. ومن ذلك ما قاله الشاعر عبدالله المزيعل، وهو:

يا سعاده شيلي الفن الجديد
قايلةً من خاطري قولٍ ثبات
حِسّكْ جذبني يا سعاده من بعيد
ومِحلى صوتك في وسط كل البنات

وجاءت بعد فرقة هذه الفنانة فرقة لها أثر في أفراح الكويت تشارك فيها كلما دُعيت إلى ذلك، وهي فرقة عودة المهنّا الفنانة الشعبية المشهورة، المحبوبة لدى الناس. وإضافة إلى كونها صاحبة الفرقة فهي مغنية غنت الكثير من الأغاني، ولها تسجيلات للإذاعة والتلفزيون لاتزال محفوظة، ولايزال الناس يستمعون إليها، ولقد طرب لها الشعراء، وقالوا فيها شعرًا ومنهم القائل:

البارحة القلب في غاية ما تمنّى
وسط بستان وبْنيٍّ سفيره
ما حلا الطار في كف المهنا
كفّ عوده إذا قامت تشيله

وكان الفنان عواد سالم كثير المشاركة لهذه الفرقة، يقدم من خلالها أغنياته المتنوعة. وهو من أبرز الفنانين الكويتيين وقد بدأ عمله الفني وهو صغير، عندما شارك عمته سعادة البريكي، ثم غنّى في فرقة عودة المهنا، وغنى للإذاعة وللتلفزيون،

وأدى جميع الفنون الفنائية الشعبية الكويتية، مثل السامري والقادري والخماري وغيرها، وسجل عددًا من الإسطوانات. ولقد كان إنسانًا طيبًا كريم النفس، سخيًا في عطائه الفني.

وهذا الفنان مع الفنانة عودة المهنا هما اللذان حفظا الإيقاعات الكويتية من الضياع. وقد ذكر الأستاذ الموسيقار أحمد علي أنه أخذ عن عودة المهنا ثمانية عشر إيقاعًا كويتيًا لم يأخذها من غيرها.

والخماري الذي أشرنا إليه فن من فنون الغناء الشعبي تقدمه عدة فرق من الفرق المتخصصة في تقديم الفنون الشعبية، وهو ما يطلق عليه اسم: الخماريات أو الفنون، ويكون عادة من الأغاني ذات المستوى الرفيع الذي يصعب أداؤه إلا على المجيدين من المغنين إذ يتطلب - كما يقول الفنان غنام الديكان - المعرفة التامة بأداء النغمات، ومداخل ومخارج الحروف، والتمكُّن من أداء الحليات الغنائية، والتصرف في غناء الجمل في حدود الإيقاع، وذلك لإبراز اللحن، ومعاني الكلام في صورة جمالية تبعث على التطريب.. ويختار المغنون عادة قصائد لكبار الشعراء من أجل غنائها على هذا المنوال.

ومن أشهر أغاني الفنون أو الخمّاري، وأكثرها ترددًا بأصوات عدد من المطربين والمطربات، قصيدة جميلة تنسب إلى المرحوم الشيخ أحمد الجابر الصباح ومطلعها:

يابو بدر وشلون ليل السَّهر
يوم ان قلبي شاف غاية مُناة
شرقي النفود وفوق جال البَحَز
واللي تمنّي من حبيبه لقاه

(وصف المكان ينطبق على منطقة الوطية في حي القبلة)

أسس الفنان الكبير عبدالله محمد الفرج للغناء الفردي في الكويت. وذلك منذ عاد من اغترابه في الهند، وجعل لنفسه مقرًا يلتقي فيه مع أصحابه. كان شاعرًا بالفصحى، وكان شاعرًا نبطيًا، وكان يجيد فن الموسيقى دارسًا له ولذا فقد انطبعت دراسته التي تلقاها في الهند على اهتمامه بالموسيقى مما جعله يلحِّن أعذب الألحان، ويستخرج الكثير من النغمات التي شاعت عند مستمعيه، ولم تكن وسائل التسجيل قد برزت في عهده وبخاصة عندنا في الكويت ولذا فقد كانت جلساته حافلة وكان له عدد من الرواد الذين يحضرون تلك الجلسات ويستمعون إليه، وإلى من تلقى منه الموسيقى من تلاميذه الذين كان أبرزهم خالد البكر. وهذا الفنان كان ملازمًا لعبدالله الفرج ملازمة تامة بحيث استطاع أن يحفظ عنه كافة ألحانه. كما استطاع أن يلقن أخاه يوسف البكر كل تلك الألحان الرائعة التي حفظها من أستاذه، وقام يوسف البكر بإلحاح شديد من الأستاذ أحمد البشر الرومي بتسجيلها على آلة التسجيل وكان مترددًا لأنه قد بلغ وقتذاك مقدارًا من العمر كبيرًا وكان يخشى ألا يتقن إلقاء ما حفظه عن أخيه من ألحان الفنان عبدالله الفرج. ولكنه على الرغم من ذلك أجاد، وقد أجاد هو وأحمد البشر الرومي بقيامهما بهذه المبادرة التي حفظت لنا كنزًا من كنوز الغناء الكويتي القديم. وإذا علمنا أن عبدالله الفرج كان من مواليد سنة ١٨٥٣م، وأنه توفي في سنة ١٩٠١م علمنا القيمة الفنية والتاريخية لما وصلنا منه عن طريق هذين الرجلين اللذين ذكرناهما دون أن ننسى المتلقي الأول وهو: خالد البكر.

كانت الفنون الغنائية تتقدم بفضل الرواد الذين اكتسبوا الفن من عبدالله الفرج. وبسبب الفرق الغنائية التي سادت الساحة الغنائية في الكويت بعد ذلك، ثم بسبب ظهور بعض المغنين الذين تحدثنا عنهم وذكرنا منهم عبداللطيف الكويتي ومحمود الكويتي وعبدالله فضالة.

وقد اهتم هؤلاء بغناء ألحان رائد الغناء في الكويت عبدالله محمد الفرج. وهو إضافة إلى ما كان يلحنه من قصائده التي ينظمها لنفسه، فقد كان يلجأ إلى الاختيار من كتب المجموعات الشعرية، ودواوين بعض الشعراء، ومن ذلك ديوان المتنبي، وديوان البهاء زهير، وديوان الحاجري، وكتاب مناجاة الحبيب وكتاب نفحة اليمن وغيرهما.

وسار من بعده عدد من الملحنين في طريق الاختيار من الأشعار المأثورة عن الشعراء العرب. ولقد كانت غالبية ألحان عبدالله الفرج من النوع الذي يُطلق عليه اسم: الصوت. وهو اسم ذائع في الكويت والبحرين على الأخص. ولتوضيح صورة هذا الفن أنقل مما سبق أن كتبته هذه الكلمات:

«الصوت أداء خاص للغناء، اشتهر في هذه المنطقة، وقد بدأه الفنان عبدالله الفرج، ثم سار على منواله عدد من الفنانين في الكويت والخليج، ويتغنى المطرب عادة بعدد من الأبيات الفصيحة أو العامية، وينفرد بالغناء مصحوبًا بآلة العودة والمرواس الذي يشبه الطبل ولكنه صغير يحمل باليد اليسرى، ويضرب عليه باليد اليمنى، ويكون المطرب في أثناء غنائه محاطًا بعدد من المصاحبين يتولون التصفيق بصفته نوعًا من أنواع الإيقاع، كما يتولون ترديد بعض المقاطع إذا لزم الأمر، وفن الصوت من الفنون المحبوبة، له عدد كبير من العشاق، وقد أداه مطربون لهم وزنهم في عالم الفن، يضيق المقام عن ذكر أسمائهم، يطلق على مجموعة أغاني الصوت: الأصوات».

من أكثر من لحن له عبدالله الفرج من الشعراء الشاعر المصري القديم البهاء زهير. ويعرف ببهاء الدين زهير وكان مولده في مكة المكرمة في اليوم الخامس من شهر ذي الحجة سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، (١١٨٥م)، ورحل إلى مصر وأقام بها بعد أن شب، وصار قادرًا على العمل، والتحق هناك بخدمة السلطان

الملك الصالح: نجم الدين أيوب، وبقي في خدمته ينتقل معه إلى أي مكان يحل فيه.
وعندما استولى الملك على دمشق انتقل البهاء زهير معه واستمر في خدمته. وقد حلت ظروف سيئة بمخدومه أدت إلى عزله عن الحكم، فاعتزل البهاء زهير العمل لمن حل محل وليّ نعمته. ولكنه عاد إليه بعد أنْ استرد ملكه وأقام في مصر معه، وكانت له عند الملك مكانة عالية سببها الوفاء الذي تميز به حين لم يقبل العمل مع غريمه.

وكما حدث من قبل فإن الشاعر عاد إلى الاعتزال بعد وفاة الملك الصالح، ولكن بقاءه في معتزله لم يدم إذ سرعان ما انتقل إلى رحمة الله تعالى في سنة ست وخمسين وستمائة، (١٢٥٨م).

كان البهاء زهير من فضلاء عصره، وكان موصوفًا بدماثة الأخلاق، وكرم النفس، ولطف العشرة، وكان أكثر شعره في الغزل، وأقله في المديح والرثاء والهجاء والوصف، هذا وشعره يعبر عن عاطفة قوية صادقة وفيه رقة وعذوبة.

ويبدو أن حظ هذ الشاعر كان كبيرًا فقد أقبل الناس على شعره قراءة وحفظًا. وتغنى به المغنون على مرّ الزمان ولم يكن المغنون عندنا بأقل اهتمامًا من غيرهم بغناء شيء من قصائد البهاء زهير فهي تستحق ذلك لجمالها الشعري.

وكان أول المهتمين من هؤلاء هو الفنان الكبير عبدالله الفرج.

وقبل أن ندخل إلى موضوعنا فإنه لابد لنا وأن نشير إلى مجموع قصائد الشاعر فللبهاء زهير ديوان يجمع جل قصائده وهو من أقدم المطبوعات البريطانية فقد صدر خلال سنة ١٨٧٦م، وكان ذلك بتحقيق مستشرق مشهور هو ادوارد هنري بالمر، ولم يكتف هذا المستشرق بذلك فقد حرص على نقل الديوان نصًا إلى اللغة الإنجليزية ثم طبعه، وهذا يكفي للدلالة على مدى اهتمامه بالشاعر. وطبع الديوان مرة أخرى

في بيروت سنة ١٩٨٠ وهي طبعة لا بأس بها من حيث العناية والتحقيق وإن لم يذكر على غلافها اسم المحقق. ولكن الاهتمام بها واضح.

هذا وللديوان طبعات أخرى في عدة بلدان منها طبعة مصرية قديمة ولكنها جيدة.

أما ما تم غناؤه عندنا من قصائد البهاء زهير فهي بحسب متابعتي الخاصة كما يلي:

١ - يعاهدني لا خانني ثم ينكث
وأحلف لا كلمته ثم أحنث
٢ - وقائلة لما أردت وداعها
حبيبي أحقًا أنت بالبين فاجعي
٣ - لعل الله يجمعنا قريبًا
فنصبح في التئام واتفاق
٤ - يا من لعبت به الشمولُ
ما ألطف هذه الشمائل
٥ - دعوا الوشاة وما قالوا وما نقلوا
بيني وبينكم ما ليس ينفصلُ
٦ - ما له عنِّيَ مالا
وتجنَّى فأطالا
٧ - ملك الغرام عنانية
فاليوم طال عنائيه
٨ - عرف الحبيب مكانه فتدللا
وقنعت منه بموعد فتعللا

فالقصيدة الأولى من غناء الفنان سعود الراشد بصوته المميز. وقد طور لحنها بأسلوبه الخاص الذي يعتني فيه بإدخال تحسينات على الألحان الأصيلة فتأتي كأنها جديدة دون أن تخرج عن قالبها الذي كانت عليه.

وهذا اللحن منسوب إلى عبدالله الفرج، وقد غناه يوسف البكر بالصورة القديمة، وكذلك عبدالله فضالة ومحمود الكويتي وشادي الخليج وعبداللطيف الكويتي. ولم يغن هؤلاء الفنانون من ذوي الأصوات الجميلة هذا اللحن إلا لأنه من أجود الألحان التي وردتنا عن عبدالله المفرج.

أما القصيدة الثانية من قصائد البهاء زهير فهي من ألحان عبدالله الفرج وغناء عبدالله فضالة.

والقصيدة الثالثة هي - أيضًا - من ألحان عبدالله الفرج وقد غناها كل من عبدالله فضالة وسعود الراشد.

وتختلف الأغنية الرابعة عن ذلك إذ لم يغنها في الكويت مطرب مفرد، ولكنها جاءت على ألسنة مجموعات منها تلك التي كانت تقوم بالمشاركة في حفلات وزارة التربية، وكان المغنون عددًا من مدرسي ومدرسات الوزارة يؤدون هذه الأغنية على نمط الموشحات الأندلسية التي نالت شهرة كبيرة في كافة بلاد العرب.

أما الأغنية الخامسة وهي:

دعوا الوشاة بما قالوا وما فعلوا

بيني وبينكم ما ليس ينفصل

فقد غناها الفنان عوض دوخي على نغمة الصوت، وهي - أيضًا - من الأغنيات التي اشتهرت لعبداللطيف الكويتي وقد سجلها منذ زمن طويل، وغناها في عدة مناسبات.

وغنى الفنان عبداللطيف الكويتي الأغنية السادسة وهي:

ماله عنّيَ مالا

وتجنّى فأطَالا

وأما الأغنية السابعة فهي من أشهر القصائد التي تم غناؤها عندنا للبهاء زهير. رددها المغنون ورددها الناس من ورائهم . ولم ينل صوت ما نالته هذه القصيدة من الشهرة والذيوع. لحنها عبدالله الفرج على لحن الصوت الردادي.

وآخر قصيدة تم غناؤها لهذا الشاعر هي التي مطلعها:

عرف الحبيب مكانه فتدللا

وقنعت منه بموعد فَتَعلّلا

وأتى الرسول ولم أجد في وجهه

بشرًا كما قد كنت أعهد أولا

وهذه الأبيات من تلحين وغناء الفنان سعود الراشد الذي عودنا على غناء كل جميل من قصائد الشعر.

هكذا وجدنا اهتمام الفنانين الكويتيين بأشعار البهاء زهير منذ الزمن الذي كان عبدالله الفرج يزاول فيه هوايته التي بقيت خالدة إلى يومنا هذا. وكلها تدل على أن الفن الجميل لا يموت، ذلك لأننا لا نزال نستمع إلى ألحان عبدالله الفرج وغناء كافة الفنانين الذين غنوا ألحانه وهم كثيرون.

****

ملحاق خير

لما كانت إشارتنا في المقال المرافق لهذا الملحاق للقصيدة السابعة من قصائد الشاعر البهاء زهير إشارة قصيرة لا تغني ولا تفيد القارئ كثيرًا فإن من الأفضل العودة إليها هنا.

كتب عن هذه القصيدة إضافة إلى ورودها في الديوان عدد من الكتاب المهتمين بالأشعار المغناة أخص منهم الأستاذين غنام الديكان وأحمد علي. فقد تناولاها من الزاوية الموسيقية فذكر الأول أنها من ألحان عبدالله الفرج وشعر البهاء زهير وأنها قد تم غناؤها على نغمة الصوت العربي السداسي رقم (٥) وهو مصطلح موسيقى معروف عند الموسيقيين وعند محبي الموسيقى. ولقد قام الأستاذ أحمد علي بكتابة النص الموسيقي، وتحليل اللحن في كتابه «الموسيقى والغناء في الكويت» وعلّق على طبيعة الجمل الموسيقية التي تنتظم اللحن العام لهذا الصوت.

أما الفنان غنام الديكان فقد كتب عن القصيدة كتابة وافية في كتابه «الإيقاعات الكويتية» ج٢، وذكر الشاعر الذي قالها والملحن الذي لحنها، كما ذكر من الذين غنوها الفنان الكبير عبداللطيف الكويتي الذي غناها كما جاء في الكتاب على طريقة الصوت الردادي الذي مثل له الكاتب على الشكل التالي:

المغني: ملك الغرام

المجموعة: عنانية

المغني: فاليوم طال

المجموعة: عنائية

وهكذا...

ثم علق على ذلك اللحن بقوله: «ويغني باللحن نفسه نص: «لي شادنٌ أضنى الحشا» تتخلله بعض الكلمات الهندية وهذا يؤكد أنه من شعر عبدالله الفرج، وقد سجل صوت «ملك الغرام» المطرب عبداللطيف الكويتي بصوته على إسطوانة الحجر القديمة، وغناه الأستاذ سعود الراشد، كما غناه بشكل حديث مطور شادي الخليج، وقد طوره مؤلف هذا الكتاب».

ومن الجليّ أن ما ذكره الأستاذ غنام عن الذين غنوا الصوت إنما يقصد بذلك صوت: «ملك الغرام عنانيه»، أما ما ذكره عن الصوت الآخر الذي جاء على نمطه الغنائي وهو: «لي شادن أضنى الحشا» فلم أسمع له تسجيلًا حتى الآن، ولكنه كما قال الفنان الديكان مشابه في لحنه للصوت الذي تم غناؤه من قصيدة البهاء زهير وهذا يكفي.

إشارة أخرى لابد منها وهي أنه كان يطلق على هذا الصوت مسمى: صوت هندي. وقد علق الفنان الديكان في كتابه الذي تم لنا ذكره على هذه التسمية فقال: «ربما كان المقصود بهذه التسمية هو المقام الموسيقى «العجم»، الذي لم يستخدم من قبل في الأصوات الأخرى».

يقول البهاء زهير: إن الغرام ملك عنانه واستولى عليه حتى طال عناؤه واشتد تعبه. وأصبح يتلفت إلى من يبيعه قلبًا من القلوب القاسية التي تتحمل هذه الصعاب ثم يتجه إلى المحبوب فيناديه قائلًا: لقد وقفت أشكو حالي إليك يا ملك الملاح، يا مولاي العزيز، ويا حياتي الغالية، إنني أطلب إليك حاجة هي عندك يسيرة وليست

بغالية إنني أريد منك أن تُنعم عليَّ بقبلة. ثم يتحدث عن هذه القبلة وكيف يحتسبها المحبوب، وكيف يجازيه المحب على إنعامه بها. إنه يتمني في نهاية القصيدة أن يتم الاتصال بينهما لكي يطمئن قلبه بذلك، ويسعد بعد ذلك بلقائه والحديث معه.

ملاحظة

قبل أن يتم نشر المقال والملحاق اتحفني الأخ الكريم الفنان غنام الديكان بنسخة فريدة من الإسطوانة التي سجل عليها الفنان الكويتي عبداللطيف الكويتي أغنية «لي شادن أضنى الحشا» وقد سعدت بسماعها، وشكرت لأبي خالد هذه الهدية القيمة.

****

عهد يتجدد

مما لا يقبل الشك أن أميرنا صاحب السمو الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح حفظه الله من المهتمين بالغ الاهتمام باستمرار عجلة الديموقراطية في البلاد، ومن الحريصين على تطبيق الدستور تطبيقًا كاملًا غير منقوص، وهو يرى - رعاه الله - أن كل ذلك لا يأتي إلا بحسن الأداء في المؤسسة البرلمانية، ولا يأتي حسن الأداء إلا مع التعامل الطيب الرفيع بين الأعضاء، كما لا يأتي إلا إذا سادت المودة وَعَمّ التآخي بين مجلس الأمة والحكومة، ولذلك فسموُّه يحث دائمًا على وحدة الصف، وعلى التعامل وفق الأصول المرعية في المجتمعات الراقية، وخطبه التي يلقيها في المناسبات المتعددة تكشف لنا عن هذه الروح الطيبة التي يتمتع بها أميرنا، والتي يجدر بنا أن نجعلها ونجعل كل ما يلقيه علينا معبرًا فيه عنها قدوة لنا، ودروسًا لا ننساها طيلة حياتنا.

من ذلك ما ورد في كلمة ألقاها في اليوم الثلاثين من شهر يناير لسنة ٢٠٠٦م على المواطنين، حاثًا فيها على الوحدة وعلى أن تسود المحبة بين الجميع، مبينًا أن أهل الكويت الذين حافظوا على وطنهم طوال السنين وعاشوا معًا أخوة متآزرين، ينبغي أن يسيروا دومًا على هذا المنوال الذي سار عليه الآباء والأجداد، وأن الكويت التي احتضنت أبناءها بكل العناية والمحبة لجديرة بأن يضحي أبناؤها بكل غالٍ ورخيص في سبيلها.

ومما جاء في هذه الكلمة ما قاله سموه في ختامها من توجيه وتنبيه إذ وجه إلى ما يلي:

«هذه هي الكويت التي أطلب منكم اليوم أن نكون جميعًا لها جنودًا، ودرعًا حصينًا نحميها ونصونها كما حماها وصانها آباؤنا وأجدادنا. فنحن نبدأ عصرًا جديدًا نتطلع فيه بلهفة وشوق إلى تحقيق كل طموحاتنا وآمالنا في خلق دولة عصرية حديثة مزودة بالعلم والمعرفة، يسودها التعاون والإخاء وتسود المحبة بين سكانها، يتمتعون جميعهم بالمساواة في الحقوق والواجبات، والمحافظة على الديموقراطية وحرية الرأي والتعبير لا فرق بين رجال ونساء فهم جميعًا سواسية أمام القانون، وعلى كاهلهم تقع مسؤولية خدمة الوطن والنهوض به».

وفي اليوم الخامس والعشرين من شهر فبراير لسنة ٢٠٠٦م وجه سموه رسالة إلى المواطنين بمناسبة العيد الوطني وذكرى التحرير قال في ختامها: «ليس العيد الوطني وعيد التحرير أيها الأخوة والأخوات يومًا لمظاهر الاحتفال والأضواء والبهجة فقط، بل هو قبل ذلك وبعده يوم للوقفة مع النفس، ولقياس درجة الالتزام، ومدى ما قدم كل منا لأهله ووطنه وأمته، وما يتحتم عليه أن يقدمه في مستقبله من عطاء يفتخر هو به، ومن ثم يزدهر به وطنه».

وعندما حان وقت افتتاح دور الانعقاد الأول من الفصل التشريعي الحادي عشر لمجلس الأمة في اليوم الثاني عشر من شهر يوليو لسنة ٢٠٠٦م. حضر صاحب السمو الأمير إلى المجلس وألقى النطق السامي إيذانًا بافتتاح هذا الدور. ولقد قال في وقفته تلك كلامًا يدل على ما في نفسه الكريمة من حب للكويت ولأهلها، ومن إحساس بمسؤوليته بصفته والدًا للجميع تجاه الأمة وذلك بتقديم النصح والإرشاد للأعضاء وللناخبين على حد سواء، فيعبر هذا التعبير الصادق النابع من القلب حين يقول:

«إن الكويت هي الأم، وهي المهد، وهي اللحد، هي الأرض التي نعيش عليها، ونعمل من أجلها، وندفن في ثراها، ليس لنا وجود إلا بوجودها، ولا عز إلا بعزها، هي الإرث الذي انحدر إلينا من الآباء والأجداد، والذي علينا أن نحافظ عليه، ونضحي من أجله بأرواحنا».

وأوصيكم بأن تتذكروا دومًا بأن الكويت إرادة شعب آمن بربه، وقاسى شظف الحياة على رمال الصحراء وبين أمواج البحر، شعب شريف النفس كريم الخلق نظيف اليد عف اللسان.

واذكروا أن الكويت بسمة على شفاه الآباء، وأمل في صدور الشباب، ودعاء خالص تلهج به قلوب الآباء والأمهات فاحفظوا البسمة والأمل بالحكمة والعمل الجاد والتعاون الصادق من أجل مصلحة الكويت، لتستمر المسيرة لشعب أحب الخير وعاش به».

هذه هي مشاعر أميرنا تجاهنا وتجاه وطننا، وليس لنا بعد الاستماع إلى هذا القول الصادق من رجل صادق أمين سوى الانصياع إلى ما يريد منا أن نسير عليه، فإن إحساسه بالمسؤولية تجاه الوطن، وخبرته السياسية الطويلة تجعله أهلًا لتقديم النصح، وتوجب علينا أن نكون مستمعين له عاملين بما يوجهنا إليه.

وفي يوم آخر هو الذي وافق الثلاثين من شهر أكتوبر لسنة ٢٠٠٦م، وعند بدء عمل برلماني جديد بافتتاح دور الانعقاد الثاني من الفصل التشريعي الحادي عشر لمجلس الأمة، وقف صاحب السمو الأمير الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح لكي يلقي النطق السامي بهذه المناسبة، فتحدث عن الكويت، وعن مهمتنا تجاهها، وواجباتنا الاجتماعية بصفة عامة بما في ذلك نبذ التفرقة وضرورة جمع الصفوف. يقول سموه:

«إن الكويت هي وطننا الخالد، ومهمة الحفاظ على أمنها واستقرارها ورخائها مهمة تاريخية، قام بها الأجداد، ونحن اليوم نتحمل المسؤولية عنها، فهي الوجود الثابت لنا، نضع مصلحتها فوق أي مصلحة، نجسد من خلالها وحدتنا الوطنية التي جمعت أهل الكويت في أحلك الظروف في صف واحد كأنهم بنيان مرصوص، فالكويت ليست لفئة دون أخرى، ولا لطائفة دون غيرها، أنها للجميع، عزتنا من عزتها، وبقاؤنا من بقائها، مرفوعة رؤوسنا بالانتماء إليها أبناء مخلصين لها بعمل يبني وجهد يثري ودم يفدي، ندرك جميعًا عظم المسؤولية وأهمية حمايتها من خلال الإيمان بالنظام الديموقراطي، ونبذ الممارسات التي تقود إلى التفرقة والتفكك، والترفع عن التحزب والتعصب، والتزام الحكمة وتغليب المصلحة العامة، فذلك كله سياج حصين لأمن واستقرار هذا الوطن».

ثم يضيف إلى ذلك دعوته لكل فرد من أبناء الكويت مهيبًا بهم أن يترجموا فهمهم لمدلول «المواطنة» إلى سلوك يومي نعرف من خلاله حبهم الحقيقي لدينهم ووطنهم، ومدى التزامهم بقوانين البلاد، مع محافظتهم على بيئتها ومرافقها العامة.

وأكدّ في هذه الكلمة أنه لا أحد فوق القانون، وأن جميع المواطنين سواسية، وعندما يكون كل مواطن مدركًا لهذا كله، حريصًا على الاستماع إلى النصح وتطبيق ما جاء فيه، فإنه سوف يقدم صورة مشرفة لشعب لعب دورًا بارزًا في صنع مستقبله.

ولقد استمعنا أخيرًا إلى حديثه في دور انعقاد مجلس الأمة الأخير. وكان حديثًا يدل على محبة صادقة للوطن وللمواطنين وحرص على المصالح العامة ورغبة في أن تسير الأمور في البلاد على أحسن وجه بعيدًا عن الشحناء والتباغض الأمران اللذان سادا في الفترة الأخيرة من حياتنا ويعرف القاصي والداني أسبابها ومن هم القائمون عليها دون النظر إلى الوفاء بالأمانة والتطلع إلى مصلحة الكويت.

وجه سمو الأمير حديثه حاثًا على الاطمئنان، والثقة بالنفس وبالوطن فقال:

«أريدكم أن تطمئنوا ولا تقلقوا فلن نسمح بالمساس بكويتنا الغالية وإن غدًا بإذن الله سيكون أفضل من يومنا فالكويت ولله الحمد بخير ونعمة وستظل بعون الله في أمن وأمان تحرسها عناية المولى الكريم وسواعد أبنائها ووحدة اهلها وتساندها قوى الخير والحق والعدل في العالم وخيراتها التي تنفع الناس في مشارق الأرض ومغاربها».

ثم انطلق في توجيهه السامي فقال:

«إن حديثي ليس مقصورًا على السلطتين التشريعية والتنفيذية فقط بل إنني أخاطب الجميع من هذا المنبر مؤسسات وأفرادًا. انظروا وتأملوا وأمعنوا النظر فيما يدور حولكم واقرأوا بعين العقل والوعي والحكمة تجارب الغير واعتبروا صونوا أمّكم الكويت فلن تجدوا لها مثيلًا أو بديلًا وحافظوا عليها وأحفظوا نعمها تحفظكم».

ثم استنتج من تاريخ مجلس الأمة، وتاريخ الشيخ عبدالله السالم الصباح ما يعضد كلامه فقال:

«وفي هذا المقام تحضرني مقولة خالدة لسمو أميرنا الراحل الشيخ عبدالله السالم الصباح طيب الله ثراه استشهد بها في نصح أبنائه ممثلي الشعب في بدايات تجربتنا البرلمانية بعد صدور دستور البلاد إذ قال رحمه الله:

تهدى الأمور بأهل الرأي ما صلحت

فإن تولت فبالأشرار تنقاد.

مقولة حكيمة من قلب قائد حكيم وهي جديرة بأن نتبصر معانيها العميقة وأن تكون دائمًا نابضة في ضمائرنا حاضرة في عقولنا لكي نحسن أداء مسؤولية الأمانة العظيمة التي نحملها مسؤولية الوطن والشعب ونصل في بلدنا إلى بر الأمان.

سيروا على بركة الله وهديه قلبًا واحدًا ويدًا واحدة متعاضدين يجمعنا الوطن الواحد والهدف والمصير الواحد بكل ما في وجداننا من حب عميق لهذا الوطن لنثبت للجميع بأن أهل الكويت على عهدهم بالوفاء لكويتنا الغالية».

هذه الأقوال التي يجملها الإيمان بالواجب تجاه المهمة الخطيرة التي يضطلع بها سمو الأمير جديرة بأن تنال اهتمام الأمة التي وثقت بأميرها وأحبته فتكون مثالًا للمستمع الجيد له وتوحد صفوفها بناءً على ما جاء في أقواله الكريمة، فإنه لم يقلها إلا حبًا لهم ولوطنهم الذي هو وطنه كذلك.

****

من تاريخ شارع كويتي: شارع الأمير (١)[1]

الكويت دولة يهتم أهلها بالتجارة بصفتها عملًا أساسيًا يستغل الإمكانات المتيسرة لها من وجود ميناء جيد صالح لرسو السفن وإقلاعها، ونظام للغوص والسفر يكفل استمرار العمل فيهما دون متاعب أو مشكلات، وبهما تتغذى التجارة وتنشط، فعن طريق السفن الشراعية الكبرى يتم استيراد البضائع المختلفة من مناطق متعددة في الهند والباكستان وسيلان، حيث تعرض في الكويت ويباع قسم كبير منها لخارج البلاد عن طريق الأسلوب المعروف باسم: إعادة التصدير. أما السفن الخاصة بالغوص، ومنها سفن الطواشين فهي من أعمال التجارة المهمة، ولقد كان اللؤلؤ المستخرج من البحر بواسطة الغواصين الكويتيين موردًا من موارد العيش في قديم الزمان.

وكان الطواشون بمثابة تجار متنقلين يبيعون ويشترون - وهم في عرض البحر - ما يصادفونه من إنتاج الغواصين وبالتالي فإن مردوده يأتي نافعًا للبلاد بصورة عامة.

وينبغي ألا يغيب عن البال أن هناك عددًا من المهن لها ارتباط كبير بالأعمال البحرية، وبالتالي فإن لها صلة كبيرة بعالم التجارة، ومن ذلك مهنة القلاليف الذين هم صناع السفن، والحدادين الذين ينتجون ما تحتاج إليه السفن من أدوات لابد منها لاستكمال بناء السفينة، من أنواع الحديد وبخاصة المسامير، ومنها المسامير الكبيرة التي يطلقها القلاف إلى الأماكن ذات العمق في قاع السفينة الأسفل من جذعها الممتد الذي يطلق عليه اسم (البيض)، وغير ذلك.

---

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١١/١٢/١٤م.

ومما يرتبط بذلك من أعمال التجارة ما تقدمه العماير المنتشرة أمام ساحل جون الكويت، وهي مراكز يتم فيها بيع الأدوات المتعلقة بصناعة السفن، وكل ما يتصل بالسفن العاملة من معدات تحتاج إليها السفينة في الإصلاح والترميم، ومتابعة الصيانة.

أوجه العمل التجاري في الكويت القديمة متعددة المناحي يقوم بها رجال ذوو نشاط، وهمة عالية تمتد اتصالاتهم إلى مسافات بعيدة خارج الحدود، إضافة إلى أنهم يمتازون بالأمانة والصدق والوفاء بالالتزامات.

وللدلالة على عمق العمل التجاري، والنشاط السكاني نقدم هنا نبذة كتبها القبطان الإنجليزي (هِنِل) في تقرير له أرسله إلى رؤسائه في سنة ١٨٤١م، يقول:

«وتعطينا هذه البلدة نموذجًا عن الرخاء التجاري، وبها كل المميزات الأولى ولديها ميناء رائع، وتعداد سكانها كبير، حيث يمكنها أن توفر ٦ آلاف رجل قادرين على حمل السلاح، وسكانها عددهم في المتوسط ٢٥ ألف نسمة، ويمتلكون ٣١ بغلة وبتّيلا، تستطيع أن تحمل من ١٥٠ إلى ٣٠٠ طن من البضائع، وتتاجر باستمرار مع الهند، ويوجد لديها ٥٠ سفينة صغيرة للاتجار مع دول الخليج، وحوالي ٣٥٠ قاربًا يعملون بصيد الأسماك واللؤلؤ، والسكان شجعان ولديهم طاقة كبرى ومتحدون تمامًا ومتكاتفون، وليست بينهم عداوات ولا شقاقات».

وذلك مما نشط حركة البيع على الطريقة المسماة: الترانزيت وسهل حصول أعداد كبيرة من المجاورين على احتياجاتهم من هذه السلع من أقرب طريق.

كانت مجالات العمل التجاري في الكويت متعددة، وأماكن البيع والشراء كثيرة منتشرة في كل مكان من العاصمة، ولكن السوق المهم الذي يختص إلى حد كبير بتجارة الجملة هو ذلك الممتد من جنوبي قصر السيف عبر تل بهيته متجهًا طوليًا

إلى أن يصل إلى نهايته عند سوق الصراريف القديم. وهذا الطريق التجاري الطويل يتكون من جزأين أحدهما ينتهي في امتداده الجنوبي عند الشارع المعروف حاليًا باسم شارع علي السالم، وهو شارع يمثل موقعه سور الكويت الأول الذي بني في عهد الشيخ عبدالله بن صباح بن جابر الذي تولى حكم البلاد في سنة ١٧٧٦م، ويمتد السور بامتداد طريق طويل يأخذ شكلًا هلاليًا يبدأ من الشرق من عند ديوانية النصف الواقعة أمام الساحل إلى البحر غربًا عند فريج سعود ومن المعروف أن هذا الطريق مقسوم إلى قسمين أولهما الشرقي وهو شارع عبدالله الأحمد، والثاني الغربي وهو شارع علي السالم الذي ذكرناه، ويفصل بينهما الآن الشارع الذي اطلق عليه اسم شارع مبارك الكبير، بعد أن كان يسمى شارع الكهرباء لوجود دائرة الكهرباء والماء فيه، ويلتقيان حاليًا عند الإشارة التي يقع بجوارها المسجد الكبير، وسوق الأوراق المالية ثم نرى مسجد الحداد إلى داخل شارع علي السالم قليلًا وهو من أقدم المساجد القائمة حاليًا إذ تم بناؤه في سنة ١٧٧٦م.

يعرف القسم الأول من الطريق الممتد من الشمال إلى الجنوب باسم السوق الداخلي، والثاني الذي يبدأ من عند مسجد السوق إلى قرب ساحة الصرافين يسمى سوق التجار وهو الذي أطلق عليه - فيما بعد - اسم شارع الأمير.

وقد سمي السوق الداخلي باسمه هذا لأنه يأتي في الداخل بالنسبة لمن يدخل شارع الأمير ويجتازه متجهًا إلى الشمال.

واسم شارع الأمير هو أقدم تسمية رسمية لشارع في الكويت، وقد اطلقت دائرة البلدية هذا الاسم منذ بدايات عملها التي صارت تتوالى في البلاد منذ أوائل الثلاثينيات من القرن الماضي، أبلغني بهذا أخي الأستاذ محمد صقر المعوشرجي الذي كان من أقدم موظفي دائرة بلدية الكويت وتدرج في عمله بها إلى أن صار

مديرًا لها في سنة ١٩٧٢م، ثم صار نائبًا لرئيس المجلس البلدي في سنة ١٩٨٠م، وبذا يكون هذا الرجل الثقة هو أصدق من نجد عنده المعلومات عن أساس التسمية التي أطلقت على الشارع الذي نتحدث عنه.

شارع الأمير واسمه القديم سوق التجار - كما قلنا - شارع تجاري بحسب ما يجتمع فيه من محلات التجارة ورجالها، هناك إشارات تجارية كبرى تدل على هذا الشارع وهي الساحة التي يطلق عليها اسم ساحة الصرافين أو سوق الصراريف تطل عليها عدة دكاكين تمتد من الغرب عند كشك الشيخ مبارك الصباح إلى الشرق حيث مدخل ساحة أخرى تؤدي إلى سوق بن دعيج وخلف هذه الدكاكين مجموعة أخرى تبيع منوعات من البضائع بالقطاعي وهي تكوّن مجموعتين متقابلتين يمتد الطريق الذي يضمهما على الهيئة التي تمتد عليها محلات الصرافين، وعند الطرف الشرقي على جانبي آخر محلين متلاصقين تضع على حائطيهما الشرقيين بلدية الكويت إعلاناتها التي تصدر بها تعليماتها وتحذيراتها وتنشر بها الأجهزة الأخرى في الدولة ما تريد أن تبلغه إلى الناس من أمور حتى لقد قرأت يومًا من هذه الإعلانات واحدًا مما نشرته دائرة الصحة العامة وفيه تنبيه إلى بعض مسائل الوقاية من الأمراض.

بعد هذا تأتي الساحة التي فيها ماء السبيل المسمى سبيل بن دعيج، وهو مجموعة من الأواني الفخارية التي تطلق عليها اسم الحب وجمعها حبوب وهذه لفظة عربية فصيحة وقد خصص المحسن الذي تبرع بها أشخاصًا للقيام بمهمة تزويدها بالمياه حتى يشرب منها عابرو السبيل ويكون ماؤها نظيفًا باردًا باستمرار.

حول جوانب هذه الساحة محلات كثيرة فإلى الشمال منها معارض منوعة للحلويات والأواني وأدوات الزينة من النوع القديم، وإلى الجنوب عدة محلات تبيع

الأعشاب الطبية المتنوعة، وفي الغرب محلات أخرى متخصصة بالحلويات وكلها حلويات تصنع في الكويت، منها نوع مشهور في ذلك الوقت يُسمّى (حامض حلو)، وأصحاب هذه المحلات ينادون على بضاعتهم بصوت عالٍ، حرصًا منهم على جلب المشترين إلى محلاتهم، وأمام هذه المحلات إلى الشرق محلات مشابهة ولكنها تبيع ما يصنعه أصحابها من المعجنات التي كانت سائدة - آنذاك - وقد عادت إليها الروح في هذه الأيام منها (الدرابيل والبخصم والبسكوت كبير الحجم محلي الصنع).

وفي الزاوية الشمالية الغربية من هذه الساحة نرى مخرجًا يؤدي إلى شارع الأمير، ولكن هذا الشارع يمتد أولًا من إطلالة له على سوق الصراريف وعلى مقر الإعلانات وقد أشرنا إليهما قبل قليل. فإذا وضع المرء ظهره إلى لوحة الإعلانات كان مدخل شارع الأمير على يساره. وهو يبدأ حالًا بعدد من المحلات التي يأخذ بعضها صفة المكتب التجاري أذكر في أوّلها محلًا يخص أسرة الطخيم أجد كبيرهم جالسًا فيه كلما مررت في ذلك الاتجاه، وأنا أعرف عددًا من أبناء هذه الأسرة الكريمة وبخاصة من كان منهم آنذاك في مثل سني، ذلك لأنهم من سكان فريج الزنطة المجاور لفريجنا: فريج الشاوي. كان ذلك الجالس في المكتب هو المرحوم فهد الطخيم.

ثم نمر ببضعة محلات يبيع أصحابها الأقمشة بالجملة تأتي بعدها أول صيدلية نظامية نشأت في الكويت وكان مقرّها قبل ذلك في مكان آخر ولكنها انتقلت إلى هنا بعد أن اتسعت أعمالها، ولقد كتبت عنها بعض المعلومات أوجزها فيما يلي:

أنشأ هذه الصيدلية المرحوم عبداللطيف بن إبراهيم الدهيِّم وسماها: الصيدلية الإسلامية الوطنية. وقد حرص عبداللطيف على عمله أشد الحرص،

وأعَدّ له مكانًا ملائمًا، واهتم بالنظافة وحسن الترتيب، وجلب الأدوية لصيدليته من عدة بلدان ولا سيما الهند، وكانت نشأة هذا العمل الإنساني النبيل في سنة ١٩٢٧م، ولكن المقرّ الذي تحدثنا عنه قد تم افتتاحه في سنة ١٩٣٨، ومما يقال أن هذه الصيدلية كانت في بداية عملها في السنة التي ذكرناها أولًا في المدخل الشرقي لسوق الخضرة المعروف حتى اليوم، ورغبة في الاتساع في النشاط، قرر صاحبها الانتقال إلى المكان الواقع في بداية شارع الأمير في سنة ١٩٣٨م كما مرّ بنا.

وقد يقول قائل: إن المرحوم عبدالإله بن عبدالله بن محمد القناعي قد أنشأ مقرًا علاجيًا سماه «دواخانة» وقد صار يستورد له الأدوية منذ سنة ١٩١٩م ويعمل بصفته طبيبًا وممرضًا وصيدلانيًا معًا.

وبذلك يكون أقدم في النشأة من الصيدلية الإسلامية، ونحن نرى أن هذه الصيدلية هي الأولى في الكويت، أما ما أنشأه عبدالاله فهو مؤسسة طبية متكاملة شاملة وليست صيدلية مفردة. وله الفضل في عمله هذا فقد سد فراغًا كبيرًا في البلاد آنذاك.

تأتي بعد الصيدلية مجموعة من المحلات التجارية متنوعة الأغراض والأحجام ثم يأتي بعدها طريق يخترق شارع الأمير من الغرب إلى الشرق. ففي الغرب طريق يؤدي إلى مجمع تجاري فيه محلات لبيع الأقمشة هو المسمى «قيصرية المعجل» أو سوق المعجل. أما جهة الشرق ففيها أولًا مسجد الفارس ثم المكتبة العامة، وبينهما ما كان يطلق عليه اسم سوق الساعات وهو سوق به عدد من الذين يتولون إصلاح الساعات. وسوف نتحدث عن المسجد والمكتبة وقبل ذلك فإنه لابد من أن نذكر أن السائر على يمين الشارع قبل التفافه إلى الجهة الشرقية من الطريق المعترض سوف يجد محلًا صغيرًا يديره المرحوم زيد السرحان والد السيد أحمد زيد السرحان، وكان المرحوم عبدالحميد الصانع كثير الجلوس عنده فتراهما يتحادثان طوال الوقت، ويبدو أن صداقة قديمة تجمعهما.

نحن الآن قد اتجهنا إلى اليمين فدخلنا إلى الشارع المعترض من جهته الشرقية: وكان هذا الجزء قديمًا مختلفًا عن الصورة التي ذكرتها إذ لم تكن المكتبة قد أنشئت، فكان يطلق على الطريق بمجمله سكة الساعات واضمحلت هذه الأماكن التي يتم فيها العمل على إصلاح الساعات بحكم التطور.

إذن فعلينا أن نتحدث عن المسجد والمكتبة العامة.

أولًا: مسجد الفارس

وهذا المسجد قديم فإنشاؤه يسبق سنة ١٨٤٤م، وقد اطلق عليه اسم مسجد الفارس عندما قام المرحوم عبدالعزيز بن محمد العبدالله الفارس بإعادة بنائه من جديد بعد أن أصبح ضيقًا وقديمًا. ولم يكتف هذا الرجل الكريم بذلك فأوقف بعضًا من الأوقاف عليه منها عدد من الدكاكين.

وقد جرى عليه تجديدان بعد ذلك، أحدهما في سنة ١٩٤٧م قام به بعض محسني الكويت والثاني في سنة ١٩٨٢م وقامت به وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

وكان هذا المسجد جديرًا بأن يحمل اسم «الفارس» فقد قام بالإمامة فيه أربعة من رجال هذه الأسرة الكريمة وهي أسرة علماء أفاضل لهم مكانتهم في البلاد. وكان رابع هؤلاء الأئمة هو شيخي عبدالوهاب عبدالرحمن الفارس وقد تلقيت عنه دروسًا في الفقه عندما كان مدرسًا في معهد الكويت الديني.

ثانيًا: المكتبة العامة

للمكتبة العامة تاريخ قديم في الكويت، فقد افتتحت أول واحدة من نوعها بجهود شخصية قام بها عدد من أبناء الكويت الذين كانوا حريصين على نشر الثقافة بين الناس، وبخاصة وأنهم وقت التأسيس قد لاحظوا صعوبة الحصول

على الكتب والصحف وكافة المطبوعات لأسباب متعددة منها ضعف المواصلات وعدم وجود المتخصصين في استيراد هذه المواد الثقافية والعلمية المهمة. ولقد كانت المكتبة التي سعى أولئك الرجال إلى تأسيسها تحت اسم «المكتبة الأهلية» وتم افتتاحها في سنة ١٩٢٤م.

أما المبنى الذي نتحدث عنه، فقد قامت دائرة معارف الكويت بإنشائه في وقت متأخر جدًا عن ذلك الوقت الذي نشأت فيه المكتبة الأهلية التي تقرّر أن تنضوي تحت جناح الدائرة المذكورة وقد قامت هنا ببناء مبنى خاص للمكتبة العامة وهو مبنى يليق بها في ذلك الوقت فيه قاعات لحفظ الكتب وأخرى للقراءة وقاعات للبحث. وفيها إلى جانب ذلك أجهزة لقراءة الكتب المصورة. وقد قرأت بواسطة واحد منها مخطوط كتاب «لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبدالوهاب» بعد أن أحضرته مصورًا من مكتبة المتحف البريطاني، وكان ذلك في سنة ١٩٦٣م.

نعود إلى شارع الأمير خارجين من سكة الساعات متجهين شمالاً وعند هذه النقطة نجد إلى يميننا مكتبة أنيقة هي مكتبة التلميذ التي كانت تقوم ببيع القرطاسية والصحف التي تأتي من الخارج بجميع أنواعها، ويضم هذا الشارع ثلاث مكتبات أولاهما هذه، وبعدها مكتبة الرويح التي كانت نشأتها أقدم من مكتبة التلميذ ثم مكتبة الطلبة، وذلك على التوالي.

ولم يبدأ بيع الكتب في الكويت بصورة متكاملة إلا بعد قيام المكتبة الوطنية التي أسسها المرحوم محمد بن أحمد الرويح في سنة ١٩٢٧م، وكانت تحتوي على عدد من الكتب النافعة، وعلى أهم الصحف من مختلف البلاد العربية ولاسيما القاهرة ودمشق وبيروت. وكانت تحتوي على كل ما يحتاج إليه القارئ أو الباحث، وسدت فراغًا كبيرًا في هذا المجال الحيوي، وكان صاحبها كثير التردد على المكتبات

المصرية واللبنانية والسورية من أجل تزويد مكتبته بكل جديد، فسد بذلك حاجة القراء وطلاب العلم الذين لولاه لم يتمكنوا من الحصول على ما يريدون من الكتب والقرطاسية.

وبعد هذه المكتبة جاءت «مكتبة التلميذ» وهي مكتبة افتتحت في وقت مناسب حيث بدأ التعليم النظامي يأخذ طريقه في الكويت، وبدأ الطلاب يشعرون بحاجتهم إلى مزيد من الكتب والقرطاسية، فجاء السيد حمود بن عبدالعزيز المقهوي ليفتتح هذه المكتبة مزودًا إياها بكل جديد، وكانت هذه المكتبة تعتمد على بيع الصحف والقرطاسية ولاسيما الدفاتر المدرسية ودفاتر المدارس وغيرها، وكانت الدفاتر التي تباع في هذه المكتبة ذات طبعة خاصة بها وهي متميزة عن غيرها.

وبعدها بقليل افتتح السيد عبدالرحمن الخرجي مكتبته المسماة «مكتبة الطلبة» التي كان جُلُّ اعتمادها على بيع الكتب، وقد كانت فيها أعداد كبيرة من الكتب في موضوعات متعددة، وكان يجلب أغلب كتب هذه المكتبة من بيروت، ومن هذه المكتبة اطلع شباب الكويت على الأدب الحديث، وقرأوا التيارات الأدبية المعاصرة، وقد كان لصاحب هذه المكتبة الفضل في اطلاع القراء على كثير من الموضوعات التي لم يطلعوا عليها من قبل، وذلك في تنوع جميل، واختيارات للكتب رائعة. وقد افتتح عبدالرحمن الخرجي إلى جانب مكتبته مطبعة سماها «مطبعة الطلبة»، وكان ينوي تخصيصها لإصدار الكتب ونشرها، وطبع بالفعل كتاب الرحالة الأمريكي أ. لوثر المسمى «الكويت ١٨٦٨م»، ولكنه لم يوفق في هذا المجال بسبب طبيعة السوق التي كانت ضيقة للغاية في ذلك الوقت.

هذا والموقع القديم لمكتبة الطلبة كان مقرًا لمكتبة الحاتم وكان صاحبها الأستاذ عبدالله خالد الحاتم وقد باعها على الأستاذ عبدالرحمن الخرجي الذي انتقل بها فيما بعد إلى وسط الشارع كما ذكرنا.

في هذا الجزء من الشارع عدة محلات تعتبر كبيرة بمقياس ذلك الزمان منها محل عبدالعزيز الراشد على اليمن ومحل الجليبي على اليسار فإذا سرت قليلًا بعد ذلك وجدت على يمينك طريقًا ضيقًا يؤدي يسارًا إلى المدرسة المباركية وكان في زاويته على شارع الأمير الموقع الأول لمكتبة الطلبة التي تحدثنا عنها.

وعلى يمين الشارع هنا اتساع قليل فيه محل كبير يملكه راشد العبدالغفور وهو مخصص لبيع الأقمشة الفاخرة وله عدد من المترددين عليه من أجل الشراء منهم بعض المدرسين والأطباء، ومنهم الراغبون في اقتناء الجيد من الملابس من الكويتيين.

بعد هذا المحل نجد إلى اليمين ساحة صغيرة فيها عدد من المحلات أذكر منها محلًا تجاريًا للمرحوم الأستاذ صالح شهاب ومحلًا تجاريًا آخر للمرحوم عبدالعزيز المزيني وأخيه علي.

فإذا مررت بهذه الساحة لم تمضِ إلا وقتًا قصيرًا حتى تصل إلى نهاية شارع الأمير عند مسجد السوق تمامًا. وسوف تجد أمام المسجد من جهة الشرق محلًا تجاريًا كبيرًا يزاول مهنة استيراد وبيع الأقمشة الثمينة بالجملة والمفرد، ويملك هذا المحل المرحوم الحاج عبدالله العوضي والد أخي الدكتور عبدالرحمن العوضي.

في الخلف من هذا المحل الأخير عدة طرق ضيقة متداخلة هي أقرب إلى أن تسميها بالممرات وذلك لضيقها وتشعبها وتداخلها، ومع هذا الضيق فإن فيها عدة محلات صغيرة لا مجال هنا للحديث عنها لأنها في خارج شارع الأمير.

بقي علينا أن نعود مرة أخرى من حيث بدأنا لنقول أن قسمًا كبيرًا من بداية الشارع قد تم اقتطاعه، وحلت محل الأماكن المقتطعة أماكن أخرى وأسواق أخرى، فقد صار الشارع حاليًا يبدأ عند سكة الساعات التي وصفناها وبذلك فقد زالت هذه السكة وزال كل ما حولها وما قبلها، وأزيلت المكتبة وخرج المسجد إلى خارج الشارع فصار على شارع عام مستحدث ولكن الأرض التي بني عليها لم تتغير.

ونشأت على القسم المستقطع عدة مبان منها مبنى مواقف السيارات متعددة الأدوار، ومنها مبنى البنك الأهلي الذي انتقل منه إلى منطقة المسيل وبناية يملكها أخونا عبدالله الحافظ، ولا يزال يبيع فيها البخور وما شابهه من أدوات التعطير، وصار سوق بن دعيج خلف المسجد.

هذا الذي قدمته في هذا المقال هو نتيجة المشاهدة والمعاصرة، لم اعتمد فيه على مرجع آخر غير ذاكرتي إلا ما ندر، فإن جاء مطابقًا فهذا حسن، وإن جاء بخلاف ذلك فالعيب عيب الذاكرة. مع استعدادي للتصحيح والإضافة، وعلى كل فإن هذا الشارع على الرغم من الانتقاص منه كما بينّا، فإنه قد حظي بتجديد شامل أعاد إليه الحياة بعد أن كاد يزول من الوجود ومن ذاكرة الناس.

****

من تاريخ شارع كويتي: شارع الأمير (٢)[1]

هذه وقفة نتساءل فيها عما إذا كان بقي لنا شيء نقوله عن شارع الأمير بعد مقالنا السابق المرقم (١). وللرد على هذا التساؤل نقول: نعم فقد بقي الكثير مما يجب أن يُقال، فهذا الشارع قديم له تاريخ عريق، مرت عليه أجيال من تجار الكويت ومن المتعاملين معهم، محلاته متنوعة الأغراض. يمتلئ خلال فترة عمل محلاته بالناس بصورة تلفت النظر فقد كان هذا هو الشارع الذي فيه المكتبات وفيه تزدهر تجارة الجملة، وإلى جواره وما يتفرع عنه من طرق ما يسُدُّ حاجة الناس إلى عدد من الاحتياجات كالملابس الجاهزة والأقمشة، والأجهزة الإلكترونية إلى غير ذلك مما يشاهده ويرغب به المتسَوِّقون.

واستكمالًا لما مضى في مقالنا المنشور في عدد يوم الأربعاء الماضي فإننا نسجل هنا ما يلي:

١ - كان اسم هذا الطريق هو: سوق التجار. إلى أن قرّر المجلس البلدي في الكويت إطلاق اسم الأمير عليه، وذلك تكريمًا للشيخ أحمد الجابر الصباح الذي تولى حكم البلاد منذ سنة ١٩٢١م حتى سنة ١٩٥٠م، وفي عهده نشأت بلدية الكويت، وكان يتولاها برعايته، ويهتم بشؤونها ويحضر عددًا من اجتماعات مجلس إدارتها.

ذكر لي ذلك الأخ الكريم محمد صقر المعوشرجي عافاه الله.

---

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١١/١٢/٢١م.

٢ - كان سقف هذا الشارع الذي يغطي المسار الذي يسير فيه الناس من متسوقين وأصحاب أعمال وغيرهم مغطّى بالسعف، ومنسوجًا بالخوص المنتزع منه، وذلك من أجل حجب حرارة الشمس عن المارة، وكذلك حجب الأمطار عند هطولها في موسمها، وقد استمر هذا الغطاء البسيط مدة من الزمن، استُبدل بعدها بنوع أجدى من حيث أداء وظيفة الحماية المطلوبة، وأقوى من السعف بحيث يغالب تقلبات الجو، ومرور الزمن، فكان أن قامت بلدية الكويت بنزع السقف القديم، ثم وضعت في مكانه سقفًا آخر يتكون من الأعمدة والعوارض الحديدية، وألواح الزنك الذي نسميه (جينكو). وبعض الأسقف المشابهة لذلك السقف الذي اعتبر جديدًا وقتذاك لايزال ماثلًا في أسقف أسواق أخرى لاتزال بانتظار التغيير.

٣ - وفي الشارع مكتبتان أخريان لم نذكرهما سابقًا وهما مما ينبغي أن يذكر وإن كان لهما وضع خاص، يتمثل في نوعية ما يعرض في أحدهما من كتب، كما يتمثل في قصر مدة عمل المكتبة الأخرى. وهاتان المكتبتان هما:

أ - مكتبة الخليج التي أسسها الأستاذ يوسف البدر في سنة ١٩٤٨م، وأعلن عنها في العدد الخامس من مجلة «كاظمة» التي كان يصدرها ويرأس تحريرها الأستاذ الشاعر أحمد السقاف. وفي العدد الصادر في شهر نوفمبر لسنة ١٩٤٨م، نُشر الإعلان المذكور وهذا نصُّه:

«أيها الأديب، أيها المعلم، أيها الطالب، لقد فُتحت مكتبة الخليج لتؤدي رسالة الثقافة، والتنوير، قبل أن تسعى إلى الربح وجمع المال، وكانت السبّاقة نحو هذا الهدف السامي، فازدانت جوانبها بكلِّ نفيس وثمين، فالكتب العلمية والأدبية والاجتماعية والاقتصادية ودواوين الشعر، وكتب القصص كلها من محتويات هذه المكتبة القومية، مع كل ما يحتاجه الطالب والتاجر. فعاملها تجد منها التساهل وحسن المعاملة».

وهذا الإعلان الطويل الذي ليس فيه تنويع ولا رسوم إيضاحية، هو الصيغة المعتادة في إعلانات تلك الأيام، وقد تدرجت إعلانات المحلات فيما بعد إلى أن رأينا إعلانات اليوم الجميلة التي تشُدُّ الأنظار.

ب - والمكتبة الأخرى هي مكتبة «الكتاب المقدس» وهي مكتبة تبشيرية يشرف عليها يعقوب شماس، وكانت من أكثر المكتبات توزيعًا للكتب والمنشورات الأخرى، وقد لاحظ المسؤول فيها ذلك، ورأى أن طبيعة بعض زبائنه لا تدل على أنهم من محبي القراءة وبعضهم ليس متعلمًا أصلًا، لذا فلم يكن يعقوب شماس يتصور أنهم يستفيدون من بضاعته، ولما كان يقدم كلّ ما لديه إلى هؤلاء بالمجان فقد وجد أنه من الضروري استكشاف الأمر، ومعرفة مآل ما يقدمه لهم بلا مقابل، فتتبع أحدهم إلى أن وصل إلى سوق الخضرة القريب منه، وعندما توقف المتبوع شاهد مدير المكتبة ما هاله فقد رآى بأم عينيه مصير كتبه ومطبوعاته الأخرى. حين قام الرجل بتسليم ما لديه لرجل آخر يجلس على الأرض ويبيع السويكة، وكان يلف هذه البضاعة بأوراق يقتطعها من هذه الكتب.

والسويكة مادة سوداء شبه مخدرة توضع بين الشفاه والأسنان، وهي مكونة أساسًا من التبغ المطحون ومواد أخرى خاصة بها، وليس لها متعاطون كثيرون من أبناء الكويت، إذ من يتعاطاها منهم إنما هو النزر اليسير.

ولم يكن يعقوب شماس مبتئسًا بسبب ما تمر عليه من حالات مشابهة، بل كان يأخذها بصدر رحب ويضحك كثيرًا لبعضها، وكان يروي لجلسائه في المكتبة ما يصادفه من ذلك فيضحك الجميع وهو معهم، ولا مجال هنا لذكر بعض ما أعرفه من تلك الحكايات وذلك لضيق المجال.

وهكذا نجد في هذا الشارع خمس مكتبات بعضها مختص ببيع الكتب وبعضها مختص ببيع القرطاسية والأدوات المدرسية والمكتبية، والبعض الآخر يستورد

المجلات والجرائد من عدد من الدول العربية ولا سيما مصر ولبنان ويتولى بيعها، كما يتولى توزيعها على بعض المكتبات القائمة في مناطق أخرى من العاصمة.

٥ - يتردد بيننا اسم «الصنقر»، ولكن القليلين هم الذين يعرفون شيئًا عنه. وإن كان ما وصلنا عنهم لا يشفي غليلنا إلى المعرفة به. إن الموقع الذي كان فيه الصنقر قريب جدًا من شارع الأمير. وهو مبنى بسيط قائم بحسب الوصف الذي سمعته بين موقع الإعلانات الذي تحدثت عنه في هذا المقال، والساحة التي فيها المحلات الصغيرة والماء (السبيل) الذي وضعه للناس المرحوم بن دعيج.

وقد ذكر الشيخ يوسف بن عيسى في كتابه: «صفحات من تاريخ الكويت» حديثًا عن السور الثاني الذي بني في عهد الشيخ عبدالله بن صباح المتوفي خلال سنة ١٢٢٩هـ - ١٨١٤م، فقال إن الصنقر كان في موضع بوابة من بوابات هذا السور وكانت تسمى بوابة الشيخ، وذكر أن الصنقر محل في هذا الموضع يطلق عليه أحيانًا محل دهيمان وهو اسم الشخص الذي كان حارسًا له.

وتحدث الأستاذ أحمد البشر عرضًا عن (الصنقر) ضمن أوراقه الخاصة التي صدر بها كتابنا: «أحمد البشر الرومي ... قراءة في أوراقه الخاصة»، وقد كان يتحدث في ص١٨٢ من الكتاب عن الجمرك البري في عهد الشيخ عبدالله الصباح، وكان وصفه لذلك دالًا على بساطة تلك الأيام، وسهولة التعامل الحكومي الذي لم يكن قد أخذ وضعه الكامل والطبيعي آنذاك، ولا نقصد بذلك وجود الدولة فقد كانت موجودة بأهلها وقيادتها منذ سنة ١٦١٣م كما نوهنا في أكثر من مكان ولكن الإدارة هي التي كانت تنمو ببطء لأن ظروف الحياة الشاقة لم تكن ملائمة للسير الحثيث في هذا المجال إلى أن نشأت الإدارات الحكومية التي رأينا أن أولها هي دائرة بلدية الكويت كان في حولي سنة ١٩٣٠م.

يقول أبو عبدالله: «كان الجمرك البري في عهد الشيخ عبدالله الصباح المتوفي حوالي ١٨٩٢م موكولًا إلى صالح فضالة وكان يأخذ على البضائع التي تصدر إلى نجد رسمًا جمركيًا غير معين بالضبط بل هو بحسب ما يتراءى له، ولم يكن يدفع ما يستوفيه إلى عبدالله الصباح بل يأخذه له بمقابل تموينه لبيت عبدالله الصباح بحطب الوقود (الحمض) وعلف الماشية (القفاف)(١) وحمل (ذبيحة) لكل ضيف، وما زاد على ذلك يدخل في جيبه. وبعد وفاته تولى محمد الصباح الحكم بمساعدة أخيه جراح فرأى جراح أن ينظم الجمرك فبنى دارًا داخل دروازة الشيوخ تحت الإيوان (دروازة الشيوخ هو المكان المدعو اليوم الصنقر وهو نهاية السوق الداخلي الجنوبي) ووضع ضريبة على كيس الرز والتمر والأقمشة المصدرة إلى نجد وطالب بها التاجر الذي يخصمها بدوره من المشتري ويزوده بورقة يسلمها إلى صاحب الدار في الصنقر وعين في هذه الدار ابن عسكر وبقي إلى ما بعد حكم أحمد الجابر وقد شاهدته جالسًا يتسلم الأوراق من البدو ويذهب إلى التجار ويستوفي بموجبها الرسم الذي يسلمه بدوره إلى محاسب الشيوخ».

ومن هذا نستطيع أن نُلمّ بما يلي:

١ - بدايات وضع الجمارك في الكويت، وكذلك بداية استعمال مبنى الصنقر لهذا الغرض.

٢ - أسلوب تحصيل الجمارك في وقت الشيخ عبدالله الصباح الذي حكم ما بين سنتي ١٨٦٦م و١٨٩٢م.

٣ - تطور الجمارك في عهد الشيخ محمد الصباح، والنظام الذي اتبع في هذا الوقت.

---

(١) القفاف: أطراف شجيرات العرفج العليا تقص ثم تنقل إلى البيوت لعلف الماشية.

٤ - موضع الصنقر، وهو كما قال أحمد البشر الرومي في الطرف الجنوبي من السوق الداخلي وهو ما وصفناه، وقد اختار صاحبنا هذا الاسم للسوق، ويبدو أنه كان يطلق على السوق كله بجزأيه لا كما صار فيما بعد مقسومًا إلى قسمين وفق الوصف الذي ذكرناه فيما سبق.

٥ - إن أحمد البشر الرومي - شخصيًا - قد شاهد «الصنقر» ولهذا فهو خير من يحدثنا عنه.

٦ - إن الصنقر بنظامه ذاك كان قائمًا إلى أن تم تنظيم الجمارك رسميًا، وذلك في عهد الشيخ أحمد الجابر الصباح.

بقي علينا أن نعرف ما تدل عليه كلمة «الصنقر» وهذا هو الأمر الصعب في الموضوع، فإنني على الرغم من بحثي وسؤالي لم أجد من يدلّني على ذلك، ما عدا أنني عرفت ممن سألتهم أن هذا الاسم موجود في عدد من البلدان المحيطة بنا، وأنه اسم دارج، وقد تكون له علاقة عندنا ببيع التمر وتخزينه كما هو في البلاد الأخرى، ولكن صفته هذه قد زالت مع الزمن.

٧ - ونعود هنا إلى استكمال ما بدأناه فنقول:

إن الداخل إلى شارع الأمير من طرفه الجنوبي سوف يجد نفسه بعد مسيرٍ قليل في مفترق طرق فعلى اليمين طريق يؤدي إلى سوق الساعات أو سكة الساعات كما يطلق على هذا الطريق أحيانًا، وقد تكلمنا عن هذه السكة فيما سبق، كما تكلمنا عن مكتبة المعارف التي تم إنشاؤها فيها، أمّا على اليسار فإنه يرى طريقًا ممتدًا من الشرق إلى الغرب، وهو يؤدي إلى قيصرية المعجل الواقعة خلف مكتبة التلميذ تمامًا، وهذه تقع كما أشرنا على شارع الأمير مباشرة. وإذا دخل المرء هذا الطريق الغربي فإنه سوف يجد القيصرية المذكورة على يمينه، فإذا التفت إلى يساره وجد سوقًا متكاملًا يتخصص بتجارة وبيع الأقمشة بشكل مشابه لما هو قائم في قيصرية المعجل.

أصل هذه القيصرية موضع فيه بعض المساكن القديمة وقد أحالها المرحوم عبدالرحمن عبدالكريم المعجل إلى قيصرية تجارية تحيط بساحتها الدكاكين التي تخصص أصحابها ببيع الأقمشة. وذلك كما ألمحنا قبل قليل. وقد تم بناؤها في أعقاب الحرب العالمية الثانية، وذلك بعد أن استقرت الأمور وعادت الحياة التجارية في الكويت إلى وتيرتها السابقة، فجاءت سنة ١٩٥٠م وقيصرية المعجل عاملة ملأى بالباعة وبالمشترين. وقد أزيل هذا السوق (القيصرية) في سنة ١٩٦٢م. ومما يذكر أن الشيخ أحمد الجابر الصباح أمير البلاد الأسبق ورئيس بلدية الكويت عند انتهاء مبنى القيصرية قد حضر مساءً هو وأعضاء المجلس البلدي حفل افتتاح المبنى، وذلك لأن هذا العمل الجليل كان من أهم ما يساعد على النمو التجاري في البلاد، كما إن الأمير كان يُقدِّرُ في مؤسس القيصرية همته واهتمامه بهذا العمل إضافة إلى ما يتحلى به من خلق حسن وسمعة طيبة، أفادني بهذه المعلومات الأخ الكريم فهد المعجل حفظه الله.

والسوق المقابل لقيصرية المعجل هو سوق البنات، وسبب تسميته أن أغلب ما يباع فيه: الأقمشة النسائية، ولذلك فإنهن يكثرن الشراء من محلاته، فسُمّيَ بذلك، وأذكر من أصحاب المحلات في سوق البنات الحاج علي بن حسين الذي اشتهر ببرنامج تلفزيوني له يُشاهده عدد كبير من المشاهدين، وهو برنامج وفر واقتصد وقد ترك محله هذا وعمل في وزارة الصحة، ثم وزارة الإرشاد والأنباء، وقد سعدت بصحبته عندما كنت أعمل في جهاز التلفزيون التابع لتلك الوزارة، وذلك في سنة ١٩٩٣م، وكان هذا هو مقر عمله من الوزارة المذكورة.

٨ - نستطيع أن نضيف إلى المحلات التجارية التي مر بنا ذكرها مما هو في شارع الأمير بعض الأسماء وذلك استدراكًا منا لما سبق:

أ - محل حمد خليفة الحميدة، وهو متخصص في استيراد وبيع الأجهزة الكهربائية والإلكترونية، وكان يعلن عن محله كثيرًا في مجلة البعثة، وهي التي دلتنا على هذه المعلومة، لأن هذا المحل انتقل فيما بعد إلى موقع آخر هو شارع عبدالله السالم (الشارع الجديد) وقد تحدثنا عن ذلك فيما سبق نقلًا عن الأخ الكريم عبدالله حمد الحميدة الذي كان ملازمًا لأعمال والده.

ب - وفي شارع الأمير - أيضًا - محل كانت له أهميته في الأيام الماضية هو محل عبدالرسول فرج، وهو وكيل عدة مصانع تنتج الأدوات الإلكترونية التي يقبل عليها الناس حيث إن صاحب هذا المحل مشهور بإنتقائه لأجود الأجهزة من مختلف دول العالم المنتجة لهذه الأصناف.

ج - وفي الشارع - أيضًا - محل معروف يمر عليه الناس دائمًا لأنه شبيه بالمعرض، صاحبه المصور بدران اتخذ هذا المحل لتصوير الناس الذين يرغبون في أن يصورهم، ولتحميض الأفلام وطبعها، ولبيع الصور التذكارية، وكانت واجهة محله ملأى بالصور التي تبين كثيرًا من ملامح الكويت في ذلك الوقت، هذا وكان المصور بدران يعمل موظفًا في دائرة معارف الكويت يتابع أنشطتها ويصور كل عمل تقوم به.

د- وأخيرًا فإن هذا محل آخر متخصص ببيع الأقمشة الراقية من النوع الصالح لخياطة أصناف الملابس من دشاديش أو بدلات أفرنجية، صاحبه عبدالرزاق الكاظمي، وهو ذو شهرة كبيرة في مجاله هذا، وله عدد كبير ممن يتعاملون معه لرغبتهم في الأصناف التي يعرضها، وفي التفصيل الذي يقوم به رجال أعدّهم لهذا الغرض.

هـ - ومن المحلات التي ذكرها لي الأخ الكريم عبدالعزيز المطوع (أبو صافي) محل يوسف مقدس وهو متخصص في بيع المطارات التي كان الناس يقبلون عليها من أجل تعبئتها بالثلج للحاجة لحفظه في تلك الأيام، ومحل العدواني للساعات

ولم أحصل على تفصيل أكثر من ذلك، وذكر أبو صافي مكتبًا تجاريًا هو مكتب حمد الحميضي. ومحلًا لبيع الصناديق يملكه الحاج علي الراشد، وهو جد النائب والوزير علي الراشد[1].

وهنا أشكر أبا صافي على ما قدم.

٩ - هذا موضع يحتاج إلى حديث خاص، فإن مما ينبغي أن يذكر من الأماكن المنتظمة في شارع الأمير المحل الخاص بالأستاذ محمد ملا حسين، وهو محل تجاري متوسط الحجم يشبه في ذلك ما حوله من محلات هذا الشارع، وهو وإن كان محلًا يزاول فيه صاحبه البيع والشراء إلا أنه مقرٌّ لندوة يومية تنتظم بدون ترتيب مسبق، ولكنها شبه دائمة يرعاها محمد ملا حسين، ويحضرها عدد من الأدباء يتبادلون فيها الأفكار والأشعار، ويشاركهم في حديثهم وفي ما يُطلقونه من شعر صاحب المحل، ولا عجب في ذلك فهو أديب قبل كلِّ شيء، ولقد أسعدني الحظ فحضرت بعض هذه المجالس، وقد كان من الرواد عبدالرزاق البصير وشقيقه صالح ، والمرحوم إبراهيم المهنا، والمرحوم الشاعر أحمد عنبر.

والأستاذ محمد ملا حسين شقيق للأستاذ عبدالعزيز حسين وهو أشهر من أن يُعرَف. ولد محمد في سنة ١٩١٦م في مدينة الكويت، ونشأ نشأة علمية، فقد كان لوالده - في بيته - مكتبة عامرة بأمهات الكتب يزوره عدد من الأدباء والعلماء ويجلسون إليه، يتحدثون في شؤون العلم والأدب، ويقرؤون مما في المكتبة، وهذا هو ما استفاد منه صاحبنا، وكان قد درس في المدرسة المباركية، وعندما أنهى دراسته فيها عاد إلى المنهل، الأول فصار يقرأ الكتب، ويجالس أصدقاء والده، ويتدارس معهم شتى المعارف التي استقاها من تلك المكتبة.

خالط عددًا من شعراء وأدباء وعلماء الكويت في بداية حياته وحتى بعد أن كبر في السن، وانفتح على أحوال الدنيا المختلفة، ولقد اعتُبر في عداد أولئك الرجال لأنه كان جيدًا ومتمكنًا في كتاباته: نثرًا وشعرًا.

(١) صار رئيسًا لمجلس الأمة فيما بعد.

وقد شارك في كثير من الأعمال الحكومية فصار عضوًا في مجلس معارف الكويت، ومختارًا لحيّ (المطبّة)، وعضوًا في لجنة تحقيق الجنسية، ولجنة التثمين، وتم اختياره عضوًا في المجلس البلدي منذ سنة ١٩١٤م حتى سنة ١٩٦٦م. وبعدها توقف عن مثل هذه الأعمال.

له شعر جميل. وكان يحب أن يرد على أصحابه من الشعراء معارضًا لقصائدهم. ونشر عددًا كبيرًا من المقالات في مجلة البعثة، وكانت تلك المقالات تحتوي على نقد اجتماعي يتناول فيه الكاتب بعض القضايا التي تهم القراء، ولم يكن يعلن اسمه (كاتبًا) مع كل مقال، بل كان يُذَيِّلُ كل ما ينشره باسم مستعار هو: «شرقاوي».

بدأنا الحديث عن شارع الأمير من الناحية الجنوبية حيث لوحة الإعلانات والمدخل إلى الساحة التي فيها (ماء السبيل) ثم الصنقر. وآن لنا أن ننتهي من هذا الجزء من مقالنا عند النهاية الشمالية للشارع حيث مسجد السوق، وقد تأسس هذا المسجد في سنة ١٧٩٤م، وهو بذلك من الأدلة على تاريخ نشأة الكويت بحكم وقت بنائه، وحكم موقعه البعيد نسبيًا عن ساحل البحر الذي كان محطة السكن الأولى، ومنها بدأ الاتساع في البنيان. وهو من مساجد الكويت المشهورة، كما أنه لايزال قائمًا تحت هذا المسمّى وإن كان البعض يطلق عليه اسم مسجد السوق الكبير لأنه كان من أكبر مساجد الكويت عندما أطلقت عليه هذه التسمية، ويقع هذا المسجد في منطقة السوق في النهاية الشمالية لشارع الأمير، وهو مبنيٌّ بناءً متينًا، ومزين بنقوش لافتة للنظر.

ولما كان من أكبر المساجد، وكان قائمًا في وسط البلد فقد صار هو المسجد الذي يصلي فيه أمراء الكويت صلاة العيد فقد شهدها فيه كل من الشيخ عبدالله

السالم الصباح، والشيخ صباح السالم الصباح، وسمو الأمير الشيخ جابر الأحمد الصباح، وكان أصل البناء بهمة المرحوم يوسف بن عبدالله الصقر الذي كان ناويًا بناءه تقربًا إلى الله تعالى، ولكن إحدى النساء الفاضلات أبت إلا أن تشاركه في طلب الثواب، كما أن صديقًا له هنديًا قدم له جميع الأخشاب المطلوبة للبناء بلا مقابل للمشاركة في هذا العمل الجليل.

وقد تم تجديد مسجد السوق في سنة ١٨٣٩م، جددته السيدة الفاضلة شاهة بنت حمد اليوسف الصقر، حفيدة المؤسس، ثم جددته دائرة الأوقاف العامة في سنة ١٩٥٣م.

يحتار المرء في وصف مسجد السوق الكبير، فمنذ مدخله يُلاحظ المشاهد الفخامة في الباب الكبير المليء بالنقوش الخشبية، كما يلاحظ التكسية الجميلة لموقع الباب المرتكز على إسطوانتين من الرخام الجميل، حتى إذا أفضى المرء إلى داخل المسجد، وجد الصحن، ثم لفتت أنظاره النقوش الجميلة التي تحلي الإيوان، وأما في الداخل فيجد أمامه المحراب والمنبر وقد أحاطت بهما النقوش التزيينية التي استعمل فيها الجص، وحلّيت ببعض الألوان الجذابة.

وأما من الخارج فإن مما يلفت النظر المنارة الحالية التي تحيط بها أشكال من الزينة التي تعجب الناظرين، وهي اليوم نموذج يحتفظ بجمال المنارات التي عمت المساجد وخاصة في فترة الخمسينيات حتى صار شكل منارة المسجد دليلًا على تلك الفترة.

وقد أمّ الناس في مسجد السوق عدد من علماء الكويت منهم الشيخ عبدالعزيز العدساني، والشيخ عبدالله بن خالد العدساني، والشيخ إبراهيم بن عبدالله بن خالد العدساني، وشيخي عبدالعزيز حمادة، وغيرهم.

وهذا المسجد نموذج للتعاون في بناء بيوت الله، ودليل على المساهمة في ذلك.

(راجع كتاب: تاريخ دائرة الأوقاف العامة، وهو من إصدار هذه الدائرة).

وبعد فهذه جملة ما أمكن استذكاره من معلومات عن شارع الأمير، ولا شك عندي في أن هناك الكثير مما فاتني ذكره، ولكن الاستطراد الذي استمر على مدى مقالين في أسبوعين يعطيني العذر في التوقف على أمل جمع معلومات أخرى أذكرها في مناسبة قادمة.

****

قالت الأستاذة: سعاد السيد رجب الرفاعي(1)

كان يومًا سعيدًا ذلك اليوم الذي تسلمت فيه نسخة من كتاب الفاضلة سعاد الرفاعي المتضمن سيرتها الذاتية، فرحت به وانكببت عليه أقرأ واستذكر الأيام الخوالي الخاصة بتلك التي جمعنا العمل في وزارة التربية خلالها، وكانت أيامًا تجعلني في موقف الشاهد الأمين على كل ما كانت تقوم به هذه السيدة المربية من عمل في مجال تخصصها وفي التزامها بالمهنة حتى صارت لا تقبل أي تنازل في أمر من الأمور إذا كان هذا الأمر يمس بالمستوى الراقي الذي تحب هي أن يكون عليه العمل التربوي الذي اضطلعت به، قلت إن الكتاب يتناول سيرتها الذاتية؛ وهذا صحيح، ولكنه يتناول السيرة الذاتية لأسرتها الكريمة لم تنس الكبار ولم تتجاوز الصغار، ويتناول كتابها - أيضًا - السيرة الذاتية للبلاد خلال الفترة التي عاشتها أم هذيل وهي فترة أتمنى لها أن تطول إلى ما لا نهاية، فهي وإن كانت قد تخلت عن مسؤولياتها الحكومية السابقة بسبب التقاعد عن العمل فلن يغيب عن البال أنها تقاعدت بعد أن أنجزت مهمتها التربوية الشريفة وإن كنا ننتظر منها المزيد، وتنتظر البلاد منها إنجازًا أكثر مما أنجزت، ولكن من يطلع على كتابها يعرف كم كان إنتاجها غزيرًا وكم كانت مخلصة في عملها مُحبّة له. وكم كانت علاقاتها بالعاملين معها على كافة المستويات علاقات تشوبها الروح الإنسانية الطيبة التي كانت تكفل أفضل ما يحتاج إليه العمل في وزارة كبيرة عليها مسؤوليات ضخمة تهم البلاد حاضرًا ومستقبلًا؛ هي: وزارة التربية.

(1) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٨/١٢/٢٠١١م.

أعود الآن إلى الكتاب وهو بعنوان: «مذكراتي.. سعاد الرفاعي» يحتوي على عشرين وأربعمائة صفحة تشمل تفصيلات كثيرة ومهمة، وتضم صورًا عدة، فيها فائدة كبرى لكل قارئ إذ تُقَرّبُ إليه ما ورد في الكتاب من حديث عن جوانب شتى، فيستذكر بمشاهدتها أكثر ما مر به في حياته إذ إن الكثيرين منا قد عاشوا الحياة التي عاشتها أم هذيل ومروا بما يشبه ما مرت به، ولكن خبراتها كانت أكثر تشعبًا وخدماتها أكثر تعميمًا.

وإذا أردنا أن نعرف أسلوبها في كتابة سيرتها الذاتية هذه التي هي موضوع الكتاب أصلًا وجدنا السيدة سعاد الرفاعي تقول: «إنها مشاعر تلامس أوراقي دون استدعاء... محاولة جمع مقاطعها لتكون هي الجمل التي يقصدها قلمي بالتعبير.

إن لذكرياتي أرففًا كثيرة، وعندما تقفز واحدة منها لا أتجاهلها، وإن كانت في غير موقعها فهي السابقة، وإن حاولت إدراجها ضمن جدول فئتها الأولوية».

هكذا إذن! كانت الكتابة إحساسًا مرهفًا، ومشاعر تلامس الورق دون معاناة من الكاتبة، وهي تعترف أن دورها كان يتمثل في محاولة جمع مقاطع العبارات التي تحتويها تلك الإحساسات، وتقديمها بالصورة التي تراها ملائمة.

بعد هذا فإننا نرى الكتاب وقد امتزجت فيه المشاعر، كما امتزجت فيه الأحداث، وتعددت الأماكن كما تعددت الأيام والشهور.

مضت سعاد الرفاعي في طريقها تتحدث بطريقة عفوية هي التي شرحتها فيما قدمناه قبل قليل وعرفنا منذ البداية أنها كانت تكتب سيرتها الذاتية على حلقات تطول أو تقصر، وأنها تكتبها في أوقات متفرقة ونلاحظ أنها بدأت بفقرات تتعلق بعملها في وزارة التربية وتجربتها الإدارية بها، وموقف بعض العاملين منها وكذلك موقفها منهم ولم تترك هذه الموضوعات إلا في الصفحة الحادية والخمسين

حين بدأت تتحدث عن طفولتها، ولكنها قبل أن تلج هذا الباب الواسع تحدثت بحياء عن بداية خطبتها للطبيب البارع الدكتور نائل النقيب رحمه الله، وسوف تكون لها وقفات حول هذا الموضوع المهم في حياتهما، ولكنها استأنفت حديث الطفولة والدراسة، إلى أن وصلت إلى الصفحة الثامنة والستين حين بدأت الحديث عن دراستها في كلية البنات بجامعة عين شمس (تخصص فلسفة) بالقاهرة.

ثم استأنفت حديث الذكريات في الكويت وفي خارجها ومنها تفوق الزوج في دراسته العليا للطب وفرحها بذلك. ومر بعد ذلك حديث الذكريات المدرسية وهو حديث متداخل من حيث تاريخ كتابته، ولكن من الملاحظ أن فقراته كتبت في لندن، وكان بعضها مؤرخًا في سنة ٢٠٠٧م. لقد كانت تستحضر في ذهنها تلك الذكريات ثم تكتبها في أي مكان كانت من الدنيا، وفي موضوع: «المدرسة القبلية حية في ذاكرتي، تقدم لنا أم هذيل صورة واضحة تبين لنا ما كان عليه التعليم في ذلك الزمان فتقول: «الاتصال المباشر بيننا، كطالبات من ناحية ومعلماتنا من ناحية أخرى، إلى جانب الدور الفعال للإدارة المدرسية متابعة وتنظيمًا، كانا كفيلين بجعل تلقي العلم مرغوبًا مما ساعد على اكتساب الكثير.. بالإضافة إلى ابتكار الأساليب الكفيلة بتحقيق الأهداف التربوية.. لقد أجادت معلماتنا شرح المناهج والمقررات، كما استطعن ضبط الفصول وحل أي مشكلة طارئة خلال المسيرة التعليمية كمشاغبة بعض الطالبات، وعدم الالتزام بالنظام والتهاون في تأدية الواجبات».

وفي فصل آخر من الكتاب كانت تتحدث في البداية عن دراستها في مصر، وعن معيشتها وأنشطتها هناك، وبخاصة عندما كان والدها مع والدتها هناك لقضاء فترة الصيف في ذلك البلد العربي العريق، وقد استمتعت بوجودهما معها خلال تلك الفترة وروت كل ما حدث لها، هناك وهي في معيّتهما.

ثم تتوقف هنا قليلًا لتقول لنا: «أجدني أمام خاطرة سريعة أريدها مقدمة لسيل من خواطر إذا تدفقت فهي عون لي على أن أصل إلى راحة أبحث عنها..

وليقرأها أحبائي وأفراد أسرتي وأحفادي، إنها سطور قليلة من مخزون متراكم كتبته.. وسوف استكمل ما اصطاده منها.

ففي مسيرتي مراحل أرهقتني فيها مسؤوليات متجددة.. لم أهرب من تحملها ولم أتجاهلها.

عودت نفسي على مواجهة السهل والصعب منها، والبحث عن حلول أو مخارج لها، فعودت ابنتي رهام ولميس على ذلك.. فلا ينبغي الاستسلام أو الهروب عندما تضيق بك الأحداث.. وإذا تعذر، فعليك أن تجتازها برضا.. وإذا راودك الألم أو الحزن فلا بد من الاستسلام.

وكأنها أرادت بهذه الكلمات أن تفتتح حديثًا آخر من أحاديث الذكريات، وهو يتعلق مرة أخرى بأحوالها في وطنها الكويت الذي غادرته ثم عادت إليه حاملة شهادتها الدراسية وهي في البداية تذكر فريج القبلة، وترى أنه لوحة زاهية الألوان، استمتعت بطفولتها فيه بين أحضان أسرتها الكريمة وانتقلت منه إلى الدراسة الجامعية في القاهرة وها هي عائدة لاستئناف حياتها، وكان أول ما تفكر فيه هو خدمة وطنها، وقد أدت حق الوطن كما أدت حق الأسرة وفق ما جاء في إحدى فقرات الكتاب، وما أن بدأت العمل وبدا للمسؤولين حسن أدائها، ومقدرتها على الإنتاج الجيد حتى توالت عليها الترقيات التي أسعدتها، وجعلتها تستمر في بذل جهدها الذي أوصلها إلى ذلك، وإن كانت تحس - في ذلك الوقت - بأن فراقها لمهنة التعليم قد آلمها - فيما بعد - فقد أحست بلذة العمل في هذا المجال، وسعدت بالارتباط الذي جمع بينها وبين تلميذاتها، وقبل ذلك بينها وبين زميلاتها.

وفي صفحة جديدة تتحدث عن حياتها في بداية عملها في التدريس، ولكنها في الوقت نفسه تتحدث عن وطنها، وعن حبها له، وتردد في فقرة عنوانها «علاقات كأوراق الشجر» الأناشيد الوطنية التي كانت تسمعها في تلك الفترة وتصف حياتها في بيت أهلها بكل دقة وبكل التفصيلات، كما تتحدث عن سعادتها باستلام أول

مرتب تتقاضاه من عملها وكان مائة وعشرين دينارًا، وعندما تم زواجها عاشت هي وزوجها رحمه الله في بيت الأسرة الكبير إلى أن رتبت حياته المستقلة في سكن خاص، ولا تزال وهي تكتب هذا الفصل المعبر عن نقاط مهمة مرت في حياتها تردد الخواطر وتستذكر ما كانت تسمعه أو تقرأه.

وعادت – بعد ذلك – في عدة فصول لكي تعبر عن شعورها تجاه عملها في التدريس فقد كانت تجد فيه متعة كبيرة، وكانت ترى أنها تؤدي حين تقوم به رسالة مهمة نحو وطنها ونحو طالباتها، وتجد الاستمرار في هذا السبيل استمرارًا في حمل الرسالة التربوية المهمة.

وفي الصفحة الرابعة والتسعين بعد المائة من كتابها وضعت سعاد الرفاعي عنوانًا مهمًا يبين مفصلًا من مفاصل الحياة التي مرت بها وهو: «التوجيه الفني يكسب، وتخصص الجراحة يكتمل». وفيه بيان النجاح المبهر للمرحوم الدكتور نائل النقيب زوج المربية سعاد السيد رجب الرفاعي فقد اختزل المدة التي منحت له للدراسة في الخارج إلى أقل مدى ممكن»، وتفوق على الرغم من الضغط الشديد الذي قام به لكي ينهي دراسته سريعًا من أجل العودة إلى البلاد، وكان نبوغه الواضح هو السبب في هذا الإنجاز. أما سعاد فقد تحدثت عن عودتها هي إلى ميدان العمل، وذكرت كيف اختارت مجال الخدمة التربوية في ديوان الوزارة، وكان ذلك الحديث في فصل لاحق لما ذكرناه وأفضل أن يعود القارئ بنفسه إلى قراءته في الكتاب. وعلى مدى ستين صفحة تالية تتحدث عن طبيعتها في العمل وحرصها على عدم الانفراد بالرأي فيه، وتبين طبيعة علاقتها بالمسؤولين خلال العمل، ثم ما تلبث أن تعود إلى حديث الذكريات الأولى وهكذا تتقلت في أحاديثها ضمن هذا الكتاب بين الماضي والحاضر والخاص والعام، وكانت تعبر دائمًا عن كل ما تكتب بأنه خواطر وأنها تكتب هذه الخواطر من آن إلى آخر دون تحديد زمن، ومن مكان

إلى آخر دون تحديد مكان، ولكنها في آخر الأمر استطاعت أن تجمع كل ما كانت ترغب في الكتابة عنه من شؤون حياتها العامة والخاصة، واستطاعت أن تمدنا بمعلومات قيمة وجديدة عن المربية الكريمة التي عرفناها ولم نعرف عنها كل شيء. ولكنها في الوقت نفسه تذكرنا بماضٍ جميلٍ وأحيت في النفس ما كان مر من مشاغل العمل التربوي الذي هو رسالة مهمة قبل كل شيء. وهو أيضًا الرسالة التي حملتها أم هذيل طوال فترة عملها.

هذا الذي أكتبه هنا لا يغني عن قراءة الكتاب، فما تم لي استعراضه في هذا المقال لا يتجاوز نصفه مع كثير من السرعة في تقديم ما أراه مهمًا للقارئ من وجهة نظري ولكن مجمل ما جاء في هذه المذكرات الشاملة جدير بأن يقرأ ثم تعاد قراءته لما يُضَم بين دفتي الكتاب من معلومات وخواطر وتعليقات لها أهميتها الكبرى التي لا تدل فقط على حياة الكاتبة منذ بداية نشأتها إلى أن تقاعدت فإنها على أهمية ذلك تعطينا ضوءًا كاشفًا عن أحوال التعليم، وأخبار رجاله طيلة الفترة التي تمت الكتابة عنها إضافة إلى الخواطر المهمة التي كانت تجول في ذهن السيدة سعاد الرفاعي ثم عبرت عنها في كتابها أصدق تعبير، فوصفت ما كانت تحس به بأصدق وصف وأقربه إلى الفهم الإنساني.

ولم تكن هذه المذكرات متسلسلة، وكان ذلك عن قصد من الكاتبة، ولكنني أحسست دون أن أتوصل إلى معرفة قصدها أن طريقتها هذه كانت وسوف تكون سببًا في استمرار أي قارئ في القراءة دون توقف إذ إن كل خاطرة وكل فقرة تثير في نفسه الرغبة في المزيد من الاستكشاف وهذا هو ما حصل معي فقد تعلمت الكثير واستمتعت بالقراءة وسعدت أكثر بوجود إحدى سيدات الكويت وهي تتفرغ لكتابة سيرتها الذاتية الأمر الذي كنت أتمناه وأرجو أن يقوم به كل قادر.

كانت الأخت العزيزة سعاد السيد رجب الرفاعي قد تكرمت وأبلغتني أنها قد أنجزت كتابة مذكراتها، وأضافت أنها تريد مني المشاركة في تقديم ما كتبت وقد رحبت بذلك وقمت بكتابة مقدمة وضعتها في بداية كتابها حين صدر وقد أستأذنتها في نشر المقدمة ضمن هذا المقال خشية ألا يكون قد تنبّه إليها أحد، فأذنت مشكورة، وهذا هو النص المقصود أضعه في هذا المكان:

● هل أستطيع أن أقف هذا الموقف؟

- هذا سؤال رددته في نفسي بعد أن استمعت إلى هاتف الأخت العزيزة أم هذيل تخبرني أنها قد كتبت قسمًا من ذكرياتها، وأنها تريد مني أن اكتب مقدمة لما ورد في تلك الذكريات، ولم أتردد في الإجابة بالموافقة على هذا الطلب لسببين، أولهما مكانة الأخت سعاد السيد رجب الرفاعي عندي، والثاني أنني كنت وما أزال أدعو أصحاب التجارب الحياتية إلى كتابة مذكراتهم، لأن ما مر من أعمارهم جدير بأن تتعرفه الأجيال اللاحقة، وهو إضافة إلى ذلك جزء مهم من تاريخ الكويت فهم أبناء هذا الوطن، وبناة حضارته وتقدمه.

إذن فقد كان ما سمعته مسعدًا لي ومدخلًا للسرور إلى نفسي من عدة جوانب. بقيت الإجابة عن السؤال الذي افتتحت به هذه المقدمة. وكان قصدي واضحًا فأنا سعيد بالحدث وحائر في الوقت نفسه، وسبب حيرتي المكانة التي تحتلها أم هذيل وأسرتها كافة في نفسي منذ عرفت كلا منهم، وهذا الأمر يجعلني أخشى التقصير في حق أناس سعدت بمعرفتهم. ذلك لأن من المجموعات البشرية التي يلاقيها المرء في حياته أناس تبقى صورهم مرسومة في ذهنه، لا تزول، ولا تمحوها الأيام، ولأن ما يتذكره من صفاتهم الكريمة وعاداتهم الطيبة ووفائهم يبقى محفورًا في ذهنه، يتذكره صاحبهم في كل حين.

ومن أولئك الذين أرى أن ذكرهم يستعصي على النسيان أفراد أسرة فاضلة غمرني الحظ السعيد منذ عرفت أول واحد منهم في سنة ١٩٦٢م. تلك هي أسرة

السيد رجب عبدالله الرفاعي، وهو علم من أعلام الكويت تذكرنا له واجب علينا، والإشادة به وبأعماله خلال حياته المباركة ينبغي أن يستمر. فما قام به من خدمة لوطنه وأبناء وطنه ليس بالقليل، وبخاصة إذا نظرنا إلى طول مدة عمله وتنوع هذه الأعمال.

ولد السيد رجب الرفاعي في سنة ١٨٩٧م، ودرس في مدارس الكويت المتاحة في زمنه. ثم بدأ العمل فصار في شبابه مشرفًا على المكتبة الأهلية التي أسسها المواطنون في سنة ١٩٢٠م، وفي سنة ١٩٢٤م صار سكرتيرًا للنادي الأدبي الذي جرى تأسيسه في تلك السنة، وإلى جانب هذين العملين التطوعيين كان مديرًا لشركة النقل بالسيارات التي كانت تصل الكويت بجاراتها برًا، وقد سدت فراغًا كبيرًا وأعانت على تبادل المنافع والزيارات طيلة قيامها بمهامها.

في سنة ١٩٦٢م كانت الكويت قد بدأت في افتتاح سفاراتها في الخارج، فتم اختياره سفيرًا لوطنه في الجمهورية التونسية، وفي هذا التاريخ عرفته معرفة مباشرة عندما كنت في زيارة لذلك البلد. وكم كنت سعيدًا بهذه المعرفة التي استمرت آثارها المتمثلة في علاقتي بهذا الرجل حتى بعد أن عاد إلى الوطن من تلك المهمة، وإلى أن انتقل إلى رحمة الله في سنة ١٩٨٢م.

لا أنسى أن أذكر هذا أن السيد رحمه الله كان من أبرز العاملين في دائرة معارف الكويت، وكانت له آثاره التي ظل معاصروه والعاملون معه يذكرونها له بالتقدير، وبها تبوأ مكانة عالية في نفوسهم.

ومن هذه الأسرة التي أشرت إليها المرحوم الدكتور نائل النقيب زوج الأخت سعاد الرفاعي. وهو من أبرز أطباء الكويت في حياته، ولا يزال مرضاه يذكرونه بالخير إذ إنه كان متصفًا بأفضل الصفات التي يمكن أن يتصف بها طبيب، وكان مؤمنًا بالرسالة التي يحملها للناس يحرصُ على متابعة المرضى، والإعداد

الدقيق لكل ما يكفل الشفاء لهم من تدريب للأطباء وتجهيز للمستشفيات بالمعدات اللازمة، وكانت فترة عمله وكيلًا لوزارة الصحة من أزهى الفترات التي مرت بها هذه الوزارة.

ولو تتبعنا مسيرة هذا الرجل العلمية والعملية لوجدنا أنه لم يركن إلى الراحة في يوم من الأيام، وكان يجمع بين وظيفته الرسمية بصفته وكيلًا للوزارة ووظيفته الإنسانية بصفته طبيبًا، وكان يستقبل أي مريض في أي وقت بحيث لم يكن يتردد في ذلك حتى أيام الجمع والعطلات.

كان تخصصه من أهم التخصصات، وكانت الأعمال التي قام بها في سبيل تدعيم الاهتمام بهذا التخصص مبهرة بكل ما تعنيه هذه الكلمة، لقد وضع الأسس العلمية لخدمة مرضى السرطان في الكويت، وأوجد في سنة ١٩٧٤م أول سجل لمرضى السرطان هنا، وكان جراحًا على مستوى عال جدًا من المقدرة الفنية والعلمية حتى أطلق عليه لقب: الأب الروحي للجراحين في الكويت، وبقي طيلة حياته مضرب الأمثال في الإيثار والوفاء والمصداقية. وكان أسفنا جميعًا كبيرًا عليه حين انتقل إلى رحمة الله في مساء آخر يوم من شهر يناير لسنة ٢٠٠٤م.

كان أبو هذيل رجلًا محبوبًا لا ينساه أحد ممن عرفه.

أما الأخت العزيزة سعاد السيد رجب الرفاعي وهي من تلك الشجرة الكريمة فسوف نجد عنها ما نريد أن نعرفه ضمن كتابها هذا، ولكن الإشارة إلى بعض محطات عملها في عجالة أمر لابد منها فهي:

- **من أبرز العاملين في المجال التربوي.**
- **تخرجت في كلية الآداب بجامعة عين شمس المصرية بتخصص علم النفس والاجتماع سنة ١٩٦١م.**

- **وكانت أول موجهة كويتية لمادة الاجتماعيات في وزارة التربية التي انخرطت في سلك العمل بها منذ أن تخرجت.**
- **صارت مديرة لإدارة التعليم الثانوي بالوزارة المذكورة.**
- **صارت بعد ذلك وكيل وزارة مساعدًا لشؤون التعليم العام. وبقيت في عملها هذا إلى أن استقالت في سنة ١٩٩١م.**

أعود الآن إلى الكتاب الذي هو بين يدي القارئ، وهو الذي أقدمُ له بهذه المقدمة التي ينبغي – في رأيي – ألا تطغى على ما فيه من معلومات وفوائد بحيث تقفز إليها قبل أن يقرأها أحد. وأبادر فأقول إنني استمتعت جدًا بما قرأت فقد أحيا أسلوب الكاتبة كثيرًا من الأمور التي مرت بنا ثم مضت حتى كدنا ننساها. وقد رتبت أم هذيل كتابها بطريقة تغري باستمرار القراءة إلى النهاية، وبدأت صغيرة ثم تدرجت مع كتابها إلى أن صارت أمًا وجدة، ثم إلى أن بدأت دراستها متحدثة عن أيام التحصيل حديثًا يعطي صورة لامعة لأساليب التعليم في وقت انكبابها على الدراسة دون أن تنسى علاقاتها الجميلة بزميلاتها ومدرساتها. ثم تدرجت معنا في العمل فوصفت أساليبها المفضلة في إدارة كل ما وكِّل إليها من أعمال، وقد كانت أعمالها واضحة فيها أداء لأمانة المسؤولية، وفيها اهتمام بالنواحي العلمية التي أهلتها للقيام بهذه الأعمال كلها.

إن النواحي التي تطرقت إليها أم هذيل كثيرة ومتشبعة، وكل ناحية من هذه النواحي في حاجة إلى مزيد من الحديث لولا أنها اكتفت بما قدمت على أمل أن تقدم جزءًا آخر من هذا الكتاب تتحدث فيه عن تجاربها التربوية الثرية. ونحن في انتظار هذا الإنتاج الذي سوف تكون له أهميَّةٌ في مجاله.

ارتأت أم هذيل أن يتخذ كتابها هذا صورة أخرى غير الصور التي وجدنا عليها كتب السِّيَر الذاتية، أو تلك الكتب الأخرى التي تتحدث عن شيء مما تحدثت

عنه أختنا فلم تلجأ إلى التبويب الذي يحدد معالم الموضوعات ولكنها وضعت الورق أمامها والقلم في يدها ثم بدأت في الكتابة على سجيتها دون أن تقيد نَفْسَهَا بأية قيود، ولذلك فإننا نراها قد اختارت أسلوبًا فريدًا في متابعة سرد ذكرياتها يعتمد على الفصول القصيرة المليئة بالمعاني بحيث وجدت لكل فكرة تريد أن تثبتها مكانها الذي تستحق أن تقع فيه وعندما اكتملت هذه الفصول الصغيرة وجدت نفسها قد أكملت حديثها إلينا، ووجدنا أنفسنا - بعد القراءة - وقد حصلنا على زاد كاف، وغذاء شهي مفيد لا أظن أن أحدًا يقدر على تقديمه كما فعلت أختنا الكريمة، وسوف يتبين للقارئ مصداق حديثي بعد انتهائه من قراءته كما فعلت أنا.

ختامًا أشكر الأخت أم هذيل شكرًا جزيلًا لثقتها بي وهي ثقة أعتز بها جدًا. وأشكرها على عملها هذا، وأنا وقراؤها في انتظار العمل المقبل إن شاء الله.

****

ملحاق خير

هذا نموذج مما كتبته السيدة سعاد السيد رجب الرفاعي في كتابها، أحببت أن أضيفه هنا كما ورد في الكتاب من أجل أن يُلِمّ القارئ بطريقة الكاتبة في عرض أفكارها ويدرك طبيعة أسلوبها تقول تحت عنوان: «تجارب أثّرت في سلوكي من أسرتي ومدرستي»:

«حين يلاحقك صاحب مشكلة وأنت لا دخل لك بها ويبثها معتبرًا نفسه بريئًا مما حصل وينتظر أن تؤيده، وأنت ترفض مساندته، يزيد في غيه وخطئه، متحديًا كل ما يحيط به، ماحيًا أي ثغرة لصواب تعيده إلى واقع قد يحميه، إذا حصل هذا فكيف تتصرف؟ إنه يرفض النصح كما يرفض مراجعة نفسه، وإذا طلبت منه أن يقيس موقفه هل يتساوى مع الحدث الآني، قد يجيب بـ «نعم» ويقول: المفروض أن أكون أكثر قسوة وعنفًا، «وما قمت به قليل من كثير».

تعلمت.. وتعلمي مزيج من تجارب التقطتها من أسرتي، ومن مدرستي بمدرساتها.. خلال فترة التلمذة وأنا صغيرة، وعندما تخطيت الطفولة إلى مرحلة أعلى بمراهقتها التي لم نكن ندرك خصائصها، كنا تحت مجهر لم يغفل عن متابعتنا، لم أتجاهل النصائح، وكم تألمت من ملاحظات كادت تلامس بقوتها حدود العنف، ولكن عندما دخلت مرحلة الجامعة لم يغب عن فكري يومًا وأنا بعيدة عن والدي، أن لي رصيدًا حولته المراقبة والشدة التي تلقيتها بالمراحل السابقة إلى رصيد أعطاني القدرة على المواجهة، ونثر بداخلي إحساسًا بالحذر والحيطة،

وهيأني لمرحلة أصعب للرد عليها عندما لا تخلو من الكذب والجرأة الممجوجة التي تمتزج بشيء من الحقد، من جبهات مختلفة.

وفي المقابل نلت مكاسب أحاطتني بقدرة على التفوق، فاتسعت زمالتي لإخوة وأخوات أفادوني بحصيلة هي ركيزة لخبراتي، وكم تحولت بعض تلك الزمالة إلى صداقات أعتز بها، تراكمات بإيجابياتها وسلبياتها.. أعطتني صدق المثل «من جد وجد ومن زرع حصد».

****

المحتوى

****